كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

المُخَلِّصون..

الأنبياء فئة نادرة من الناس، نذرت لخدمة البشرية خارج حدود الزمان والمكان. هي نفوس متفانية في المحبة المنزّهة... منيرة للبصائر المسدلة عليها حجب التعصب... مرشدةٌ للعقول الموصدة عن صوت الحقيقة والمكبّلة بأغلال الجهل... مُنقذةٌ للأرواح من الضياع في أتون التعسّف والكراهية...

لكن الأنبياء ليسوا وحدهم رسل الخير والمحبة والتنوّر في عالم الجهل والحقد والتهافت والتناحر والتقاتل. كثُرهم من لم يقفوا على جبل، ولم يلهموا رؤى، ولم يُخَاطَبوا بصوت من عل، ولم تنزّل عليهم الكتب ولا أوحيَ إليهم. لكنهم، كما قال الشاعر السومري تغنياً ببلاده: (غُمِروا بنور ثابت راسخ ينشر في الأرض النواميس الإلهية من مطلع الشمس إلى مغربها. بعلمهم وفكرهم وإيمانهم وسعيهم تفوقوا على سواهم من البشر حتى كادوا أن يكونوا رسلاً مخلّصين...).

في تاريخ البشرية أعلام امتازوا بنبذهم للتعصب ونفورهم من التقوقع وتعاملهم مع الإنسان كقيمة مطلقة، ومع العقل البشري كمحرك للحياة، ومع العلم كمنقذ

للكون. تميزوا بنزعتهم الإنسانية ومقاربتهم الشمولية وعمق تأثيرهم على مجمل الفكر الإنساني. نذروا أنفسهم لتطهير النفوس وخدمة العدالة وإحقاق الحق بين الناس، ناصروا الضعفاء وجاهدوا لتحرير العقل من سلطان الاستبداد وظلام الجهل.

ولا ينتمي هؤلاء لعرق من دون سواه من الأعراق، ولا هم حكرٌ على جنسية بعينها، ولا يقتصر انتماؤهم على دين ولا على طائفة محددة. إنهم ينتمون للإنسانية فحسب... للكرة الأرضية الجامعة... للكون الحاضن.

هؤلاء كثر لا سبيل إلى إحصائهم، بعضهم معروف وكثر مجهولون؛ قلة منهم حاضرة في الذاكرة وكثرة غائبة عنها. لكنهم خالدون، محفورة أسماؤهم في الذاكرة الأبدية، يُرَون بسعيهم ويُستدعَون بجليل أعمالهم ويُستحضرون بعظيم أفكارهم، كلما ضاقت على المرء الدنيا بما رحبت واستحكمت حلقاتها!

وكما الرسل والأنبياء، لم يكن فكر هؤلاء يوماً ترفاً، بل انبلج من غياهب العتمة، ليسطع ويبدد الظلمات. من هؤلاء زعماء قادة سياسة أو قادة فكر، ومنهم علماء فتحوا للعقول آفاق المعرفة الرحبة استكشافاً للحقيقة الصرفة المنزهة وسعياً وراء سعادة البشرية. اختلفت مشاربهم وتنوعت أوجه نشاطاتهم لكنهم استحقوا بما قدّموه شرف الخلود.

من هؤلاء قادة عظام أنبتتهم الأرض السورية الطيبة فانبعث منها عبقهم لينشر في الأرض شعاعاً من نور الحكمة والعدل. ذاك هو حال أوركاجينا السومري الذي كان أباً للفقراء والأرامل والمستضعفين. هو أول مؤسس حقيقي للدولة العلمانية، إذ سبق الثورة الفرنسية بما يزيد عن أربعة قرون في فصل الدين عن الدولة ومنع رجال الدين من التحكم في شؤون الناس. ومن بعده أتى الملك السعيد العادل شاروكين أو سرجون الأكادي الذي وضع حداً للابتزاز الذي يمارسه رجال السلطة وكهّان المعبد على الشعب. تلاه الملك البابلي العظيم، بطل الأبطال حمورابي، الإله الأب في اللغة العمورية، فكان قائداً بطلاً وفيلسوفاً مفكراً ومشرّعاً فذّاً ومصلحاً اجتماعياً، حفر

شريعته على المسلات ووضعها في الساحات العامة كي يطّلع عليها القاصي والداني ويلتزم باتباعها، لينتشر نور العدالة في الأرض فلا يَظلمُ القويُّ الضعيف وليسود في الأرض نظام العدالة و الصلاح.

وبما أن الشرق اختص بالحكمة، فمن غير المستغرب أن نجد في الطرف الآخر من العالم إلى أقصى الشرق من بلاد سومر شخصيات فذّة طبعت حاضر ومستقبل شعوب بأسرها بفلسفة ومنهج حياة قلب الموازين، فبث الحياة وأعطى الأمل وقاد شعوباً بأسرها إلى الصمود وتجاوز الألم، كل وفق نهج اختطّه وفلسفة ابتدعها. كذا فعل كونفوشيوس في الصين، وغاندي في الهند، ومن قبله بوذا الحكيم المستنير.

والبوذية في الأصل فلسفة تقود إلى التعالي على الآلام عبر تفهّم أسبابها. أسّسها ساكياموني وهو في الأصل أمير من أبناء الطبقة النبيلة في إمارة كبيلافاستو الواقعة على التخوم بين الهند والنيبال. ولد عام ٦٢٤ق.م في مدينة لومبيني الواقعة آنذاك شمال الهند والتي غدت اليوم جزءاً من النيبال. حرص أبوه الملك شودودانا وأمه الملكة ماياديفي على تنشئته تنشئة عسكرية صارمة ليغدو محارباً عظيماً. وعندما بلغ الثلاثين من عمره وأدرك ما تعانيه البشرية من مآسٍ وآلام، اختار المنفى وعاش سبع سنوات يهيم في الأرض صائماً زاهداً عازفاً عن أطايب الحياة وملذاتها. إلى أن امتلك الحكمة فأدرك المعرفة المطلقة، وأصبح يلقّب ببوذا، وهي كلمة سنسكريتية الأصل، معناها «اليقظ الملهم». لقّب كذلك بسيدارتا» أي «من نال مبتغاه وحقق هدفه». كان هذا لقب أطلقه عليه والده الملك عندما وقع عليه نظره وهو طفل وليد، فاختار له هذا الاسم لأنه شعر أنه نال بمولده كلّ مبتغاه. ثم ما لبث اللقب أن أصبح مناسباً لبوذا الذي حقق بدوره ما يصبو إليه أي «النيرفانا» وهي السعادة الأبدية الناجمة عن انتفاء الجهل والرغبة والألم، والسمو عن المحسوس، وصولاً إلى السكون والصفاء المطلق بانصهار الذات الفردية بالذات الجماعية. والفلسفة البوذية تعتبر أن النفس البشرية قادرة على الوصول إلى السعادة الأبدية لأنّها تمتلك الحكمة في جوهر كينونتها. توفي بوذا عام ٥٤٤ق.م، فقيراً معدماً، وهو القائل «عملي هو كل ما أملك... إنه إرثي الوحيد».

وفي شبه الجزيرة الكورية، ظهرت في القرن الماضي شخصية غير اعتيادية ملكت القلوب المنكسرة بالاستبداد، وأنارت العقول الغارقة في الجهل، وحررت الإرادة المقهورة. إنَّه كيم إيل سونغ، هذا الزعيم الذي خرج من بيئة معدمة في بلد مسحوق تحت نير الظلم والاستعمار، لينشر فكرة غدت لشعب بأسره نهج حياة ومبعث أمل. إنَّها فكرة «زوتشه». والزوتشية نظرة عامة إلى العالم مرتكزة على الإنسان، رسمت معالم الطريق إلى التحرر والتقدم لشعب عانى الكثير ففجّرت لديه القدرات الكامنة وأبدعت في سنوات قليلة معجزات عمرانية وصناعية بدأت من الصفر، بعد قرون من القهر والتخلّف. باعتناقها نهض البناء من كومة رماد خلّفتها الحرب التي دمّرت كل شيء إلا إرادة الحياة.

تتلخص فكرة زوتشه في اعتبار الشعب كالسماء، يحيط بكل شيء ويمتلك كل شيء وقادر على كل شيء. المواطنون هم أسياد الدولة، والدولة وجدت لتخدمهم وتنهض بواقعهم وتعينهم على بناء مستقبل الاستقلال والوحدة والقوة والسعادة. مصلحة الشعب تأتي في المقام الأوّل، وكل الخطط والسياسات والنشاطات هدفها الأوّل حماية حقوق الشعب ومصالحه. لكن على الشعب بالمقابل أن يبادل الدولة حباً بحب ووفاءً بوفاء وعطاءً بعطاء لا حدود له. وهكذا فإن العلاقات السائدة في مجتمع الزوتشية هي علاقات سامية متبادلة من المحبة الخالصة والثقة المطلقة والفضيلة الراسخة والبذل اللامتناهي. هذه المبادئ والالتزام المطلق بها فجّر قدرات لا محدودة في البذل والتضحية والعمل المنزّه عن أية مصلحة فردية، وزرع في النفوس شعوراً بانتماء لا حدود له بمشروع وطني شامل جامع. فكرة زوتشه وحّدت المجتمع في جسد واحد ينبض بقلب واحد، ويدين لوطن يرعى حياته، وهو مهد سعادته الحقيقية.

قد يختلف التاريخ في الحكم على من ذكرناهم ممن يصنّف من بين عظمائه، لكنه لن يختلف بالتأكيد في أنّهم كانوا من المُخَلّصين الذين تركوا بصمتهم، وبفضلهم خطت البشرية خطوات إلى الأمام...

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

مجد الكلمة إذ هي ثقافة

تعرّفت إلى الأستاذة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية، في أوائل سبعينيات القرن الماضي، عندما كانت مديرة للتأليف والترجمة في وزارة الثقافة، وكانت تشرف على اختيار كتب الوزارة المتنوعة والغنية، والرائدة في مجالات متعددة، وكنت أتابع مقالاتها الفكرية والسياسية والأدبية التي تنشرها في صحيفة «الثورة» وغيرها، وعندما أصبحت وزيرة للثقافة في صيف عام ١٩٧٦م، اقتربت منها أكثر بحكم كتاباتي الصحفيّة، وإدارتي لمتحف الطب والعلوم عند العرب بدمشق، فكانت تشرفني بصحبتها في جولاتها الكثيرة التي كانت تقوم بها لمواقع الآثار والمتاحف، والندوات التي أقيمت برعايتها في كثير من المدن السورية، وتوّجت هذه العلاقة عندما صدر مرسوم تعييني (معاون وزير الثقافة) في ٢/١٠/١٩٩١م.

لن أتحدث عن إدارتها وقوة شخصيتها، وقدرتها الفائقة والنادرة في التعامل مع المثقفين والأدباء والباحثين، فقد كانت، ومازالت، تحترمهم وتجل الريادي والفعّال في مسيرة تطور البلد، وكانت تعرف كيف تستقبلهم وتستمع إلى أفكارهم وآرائهم و طروحاتهم، كما كانت تستعين بهم في الاجتماعات والندوات والمؤتمرات والأسابيع الثقافية والمهرجانات التي

أقيمت في عهدها الذي تمّ فيه تكريم مجموعة كبيرة منهم بأوسمة الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة من قبل الرئيس الخالد حافظ الأسد..

حديثي سوف يقتصر على عظمة أدبها وفكرها ورؤاها الذي استشرفت به آفاق المستقبل في بناء ثقافة الإنسان في سورية الحبيبة.. لقد شعرت منذ الأيام الأولى لاستلامها وزارة الثقافة بأننا بحاجة إلى شيء جديد وكبير تدخله في حياتنا، واسمه «الثقافة» فكانت هناك خطط واعدة، أصبحت واقعاً ملموساً في بناء المتاحف، وترميم المواقع والأوابد الأثرية، وإقامة المعارض الأثرية المحلّية والعالمية، وإنشاء المراكز الثقافية في شتى الأرجاء والمناطق وحتى في القرى السورية، والتطور في صناعة الكتاب، وإصدار مجلّات ثقافية وفنية جديدة أصبحت رائدة في الوطن العربي، وتطوير صناعة السينما، ووضع البرامج الطموحة للنهوض بالمسرح السوري، والعمل على محو الأميّة ونشر وتحقيق التراث العربي، وتطوير فرق الموسيقا العربية والعالمية، وإنشاء المعهد العالي للموسيقا، والمعهد العالي للمسرح، والمعهد المتوسط للفنون التطبيقية والمعهد المتوسط للآثار والمتاحف، وإنجازات كثيرة يصعب حصرها وتعدادها..

لقد كانت تدرك جيداً أنّ دور الثقافة لا حدود له في الحفاظ على الاستقرار والتوازن الاجتماعي لضمان مجتمع النمو والتقدم والازدهار، وهذا ما أعطى الثقافة في عهدها حالة من التطور والترقّب الدائمين، والحضور المستمر في حياة الناس.. لقد علّمتنا، أو جعلتنا نتعلّم أنّ التركيز هو الذي يختصر المسافة، ولبّ القول هو الذي ينفي قشرته..

أستطيع القول بثقة كبيرة، من معرفتي الشخصية بهذه الأديبة الكبيرة، وقربي منها وعملي معها، أنّها كانت صاحبة قرار حاسم، تدهش مستمعيها بفكرها النيّر، وبيانها الآسر، وحضورها الجميل، وشخصيّتها القويّة الواثقة، الهادئة، التي زادتها الممارسة والخبرة الطويلة معرفة ودراية وأصالة وبعد نظر، وقرباً من المثقفين، وحبّاً من عامة الناس..

❁ ❁ ❁

لقد عملت جاهدة على خلق الجو الذي يسهّل الاستجابة الناجحة للتحديات التي مرّت بها سورية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، مما دفع الكثير من المثقفين

والأدبـاء للعمـل من خارج الوزارة لتشكيل قوة ضـاربة أسـهمت إسـهاماً فعّـالاً وحيوياً في تجديـد الحيـاة الثقافيـة والفكرية والفنيّة ورفدهـا بكثير من المواهـب والطاقات المبدعة الخلاّقـة التـي أثبتـت حضـورها الفاعل علـى امتداد الوطـن العربي، وفي عهدها أصبح للمثقف «سـلطة» وهذه السـلطة ليست في حاجة أن يستمدها من «الوزارة» بل من مشروعه أو رؤيته القادرة على الفعل والتطور والإبداع والخلق والخروج إلى حيّز الوجود.

لقـد آمنـت الدكتورة نجاح العطار خلال عملهـا في وزارة الثقافة، بأن الثقافة هي مرآة تعكـس بدرجـة كبيرة، الوضـعية العامة لسـورية في الخريطـة العالمية المعاصـرة، فتحوّلت الثقافـة في عهدها إلى ثقافة عربية تدافع عن الهوية ضد ما يسمّى بالغزو الثقافي، وقامت بالدفـاع عـن التراث العربي العريق ضـد هجمة الحاضر، وعن الذات العربية ضـد هيمنة الآخـر، وقـوى الاسـتلاب والتغريب و «الفرنجـة».. وكانت في كل هذا وذاك تـدرك جيداً أنّ الثقافة المطلوبة في مرحلتنا الراهنة، يجب أن تبتعد عن الركود والانعزال.. غايتها إعداد الإنسان المدرك لحقيقة وجوده الواثق بقدرته على التغيير نحو الأفضـل، فالثقافة تمثّل خيارات في سلم قيم لها أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والإعلامية.. وهذا يتطلب توسـيع السياسـات الثقافية، لتتجاوز حدود المجالات التي تناط مسؤوليتها بـوزارة الثقافـة، كـي يتحقق التطور الشـمولي الذي تسـتطيع من خلالـه الثقافة القيام بما يخدم الإنسـان العربي وقضـاياه المستقبلية، وتصبـح الثقافة، ثقافة تنمية مستدامة، متواصلة مع مسيرة التطور والنمو والارتقاء..

لقد كان إيمان الدكتورة نجاح العطار، ومازال، بأنّ الثقافة تشكّل فكرنا، وتحكم سلوكنا، فالثقافة هي الطاقة والروح والتمكين والمعرفة والاعتراف بالتنوع والتعددية.. الثقافة هي الحياة، فالبدء كان كلمة، أي فعل، وفي هذا الفعل تميّز الإنسان باجتماعيته..

عن ذلك تقول:

«إذن مجـد دنيانـا، ومـا أكبر، هـو مجد الكلمـة، إذ هي ثقافـة، ومجد ثقافـة إذ هي، في تراكمهـا على مدى التاريخ حضـارة، والحضـارة نتاج علـم وعمل، أي نتاج سلسـلة طويلة مـن عطاءات العقول والأيـدي، فمنذ كانت الكلمة البكر، كان الفعل البكر، لأن الكلمة، في

صياغتها لوجدان الإنسان، فعل معرفة، تتحول في التطبيق، إلى عمل معرفي، لذلك كانت اللحمة الأبدية، وستبقى ما بقيت الدنيا، بين الكلمة والفعل، ولا انفصام بينهما».

لقد علمتنا الدكتورة العطار، أنّ المعرفة، في دلالتها، هي ثقافة، وتعريفها: «هي جماع النشاط الذهني والسلوكي لشعب من الشعوب، وأمة من الأمم، وتعني في مجموع عناصرها بناءً فكرياً كريماً، ينهض على أسس من النتاج العقلي، في تعبيره الأدبي والفني، وفي استمداده من الواقع، وانصبابه في الواقع، في حركة تأثر و تأثير، وفي تفاعل مستمر، يغني الحياة ويغتني بها، ويؤسس لمستقبل أفضل، ما دام جهد الثقافة مستقبليّاً، رغم فترات المحن التي تمرّ بها، وتعرف كيف تتجاوزها، فتشرق شمساً منيرة من وراء غيم كثيف».

لقد جاهدت وناضلت من أجل بناء ثقافة تنطلق من مفهوم بناء المواطن فكرياً، وبناء الوطن اقتصادياً واجتماعياً، ونشر المعرفة والوعي، والتذوّق الفني، وروح التفاهم والتبادل الثقافي بين الأمم، واحترام سيادة الغير، وبناء العلاقات المتكافئة بين الدول، على أساس الاحترام المتبادل، والعمل للوحدة الثقافية العربية، باعتبارها عاملاً ممهداً ومرسخاً للوحدة السياسية.. وكانت تقول دائماً:

إن ثقافتنا، في أصالتها وجدّيتها وارتباطها الوثيق بالتراث العربي.. ثقافتنا شموليّة، فهي أبعد ما تكون عن أحادية الجانب، والثقافة العربية في قسمها الأكبر، ثقافة موضوعية، تنطبق عليها المقولة الشهيرة: «لدى الناس دائماً مادة للانتقاد، ولكن ليس لديهم، ويجب ألا يكون لديهم مادة للاحتجاج».

لقد جعلتنا نقف ثقافياً في موقع جيّد، ونقف أدبياً وفنياً في موقع متقدم، قياساً إلى ثقافة وآداب وفنون البلدان المتطورة، وأكدت في نتاجنا الثقافي الجديد، على أن يكون معطى عصرياً، ينطلق من الواقع الحي في حركته ومستقبله، في فرادته وشموليته، وفي تفاعله الخلّاق مع الثقافات الأخرى، وبذلك نغتني ونغني ثقافياً وفكرياً..

❁ ❁ ❁

ما أصعب الكلمات، وأندرها حين نريد أن نعبّر عن شيء كبير.. كبير في القلب والمكانة، وهكذا هو الحال عندما نكتب عن إنسانة كبيرة، لها مكانتها وأهميتها وريادتها في مجالات

الفكر والأدب والثقافة والسياسة.. هي التي فتحت أبواب المستقبل بالكلمات.. وزرعت في حياتنا الثقافية، غرسة عملاقة، فكانت منها شجرة وارفة، تفيأنا ظلالها، ولم تزل، وستبقى لتغدو غرستها دوحة باسقة، نطاول فيها سدرة المنتهى..

ما أعظم الثقافة حين تكون تعبيراً عن ذات الإنسان، ذهنيّاً وسلوكيّاً، وحين تعيد إلى هذا الإنسان، الذي استمدت منه عناصرها، أفضل ما في شجرتها الذهبية من ثمر، وهو الوعي والمعرفة..

لقد كان في عملها معنا، أدباً وفناً، الكثير من الجوانب الصعبة، ولكن كان لدينا، في المقابل، المتعة.. متعة أن نقرأ، وأن نشاهد، وأن نسمع، وأن نعيش أغلى هنيهات العمر في تذوق ذلك الرحيق الإبداعي الذي توفره لنا الثقافة، في عطاءاتها المتعددة، المتنوعة الغنية..

المثقف في فكر الدكتورة نجاح العطار، ثائر بحكم دوره التاريخي، يعي أنّ الثورة هي صنع مستقبل، ومن دون مشاركته لن تكون هناك ثورة، وأن عليه أن يمارس دوره من أجل واقع أفضل، وأن يناصر الفكر العقلاني، ويعادي الفكر الخرافي، ويلتزم بالفكر المعاصر، ويرفض الفكر المحافظ، وينتج معرفة ذات مضمون وطني وقومي مرتبط بالحياة.. بالجماهير.. بصبوات الشعب، ولأنه كذلك، فهو منارة في مدلهمّ الليل، وهو هداية في وجه الضلالة، وهو فجر من دون بزوغه تسود ظلمة دامسة و لا رجاء لخيط نور معها..

الثقافة في مفهومها هي أسلوب حياة، لكونها نتاج ذهن وسلوك.. في الثقافة تتعانق الكلمة والموقف، ويغدو الفكر سلوكاً، والعلم في أساسه ثقافة، وللثقافة في هذا الزمن سعة المحيطات، لأن الأخذ من كل شيء بطرف صار حكاية قديمة جداً، فالمثقف جامعة معرفة للعلوم الإنسانية والرياضية والأدبية، وهذه المعرفة شرط للتعامل مع الآلة، وتقنيات العصر ومتغيراته.. وعلى ضوء هذا يمكن أن نفهم دور الثقافة التي ننشدها، ويمكن أن نعرّفها بأنها ثقافة مقاتلة، صانعة، خلاّقة، وهي ثقافة وطنية، قومية، تقدمية، إنسانية، تقف ضد كل ما يخالف هذه القيم في الثقافات الأخرى.

في أحاديثها عن الحركة الثقافية في سورية، كانت الدكتورة العطار تشير دائماً إلى مفهوم ثقافي جديد يتأسس على العلاقة بالتنمية، ولهذا فإن الثقافة ثروة قومية، من

وجهة نظر تنموية، وهي الثروة القومية الوحيدة التي إلى ازدياد، بينما بقية الثروات إلى نقصان، والثقافة كثروة قوميّة، هي البناء الأقوى والأشد رسوخاً وشموخاً، ومن هنا فإنها ثروة قومية، إلى نماء دائم، وإلى عطاء دائم، منذ وعى الإنسان وجوده، وإلى آخر الدهر..

المجد للثقافة إذ هي كلمة، وتباركت الكلمة إذ هي فعل.. الثقافة تخلع عظمتها على أصحابها، تعطيهم تيجاناً ودفقة من نور عندما يكتبون، كما تفعل الدكتورة نجاح العطار حيث قال عنها الشاعر الكبير سليمان العيسى عندما تكتب:

تصارعينَ عصيَّ الحرفِ..
تجعلهُ
يداك من عبقٍ صافٍ
ومن ألقٍ
يا روعةَ المتنبيِّ.. في شوارده
ودفقةَ النورِ
في داجٍ من الغسَقِ

جزء من عظمة الأديب يكمن في أدائه، وجزء آخر، أهم، يكمن في رؤيته، حين تكون تلك الرؤية مستقبلية، وحين يواكب الأديب النور الذي يلوح في قلب الظلمة، في ظرف عصيب من ظروف النضال المتصاعد.. كذلك كان حال أديبتنا الكبيرة في أدبها وفي فكرها وفلسفتها وفي رؤيتها الثقافية الواسعة المدى والرؤى.. لقد كان عملها كبيراً مثلها، والكبير في العمل نادر، ولذلك كانت نادرة، وكانت لنا..

لقد علّمتنا كيف يتعانق الحلم والمدى، والثقة والأمل، وكيف نكسر الزمن ونتجاوزه، وكيف نعيد للتاريخ سيرته، ونصل تاريخنا بتاريخ حضارتنا كلاهما في الزمن، إبحار نحو زرقة ماء، وزرقة سماء..

بعد أن بلغت التسعين شتاءً..

حنّا مينة ❁



لم يبق في السراج زيت، سوى ذبالة تنطفئ على مهل. وأرقب هذه الذبالة بكثير من الارتياح، وكثير من الألم والحسرة. اللّهم اشهد أنّني عشت، عشت حياتي طولاً وعرضاً وطوّفت في البرتقالة الزرقاء التي هي أرضنا، مع المغامرة، ولأجلها من دون أن يخطر في بالي يوماً، أنّني سأكتب عن كل هذا الزمن الذي عشته، عيش مغامر، لوجه المغامرة وحدها. فالمرأة التي أحببتها، عمري كله، هي المغامرة، فحيث تكون أكون،

أنا المجنون العاقل، الذي ولد

❁ أديب وروائي وكاتب سوري كبير، أمدَّ الله بعمره. وقد سمح لنا الأستاذ مينة بالتصرف بمحتوياتها لضرورة النشر.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

عليلاً، ناحلاً، أصفر الوجه، بارز العظام في كل أطراف جسده، شكّ الجميع في أنّه سيكون رجلاً، وأنه سيبني عائلة، ويقوم قيامة أليعازر من بين الأموات، -وأنه سيقول يوماً، للآلاف الذين تجمعوا ليسمعوا هذا الذي كانت تهتز الأرض تحت قدميه، فصار يهتز وهو يمشي على الأرض، (إنّ الحجر الذي رفضه البنّاؤون صار رأس الزاوية).

جئت إلى هذه الدنيا بعد ثلاث بنات، فقد خرجت أمي حاسرة الرأس، تحت سماء شديدة البرد وقالت: (يارب ارزقني صبيّاً كيفما كان يكون)، فجئت أنا إلى هذه الدنيا على قدر طلب أمي، وشكّ الجميع في أنني سأعيش، وسأصبح إنساناً إذا داس الأرض اهتزت تحت قدميه، وإذا وقف أمام الناس محاضراً عنهم ولهم، طارحاً بشجاعة أهم قضاياهم، غير خائف من سلطان الموت، على أرجوحة مشنقة، أو سلطان الحكم في قاع قبو من سجن، أو في زنزانة مع الأفاعي أيام الاستعمار الفرنسي، ولعلمه المسبق، من سجون سابقة، أن الأفاعي وإن لانت ملامسها، في أنيابها العطب، وهذه الأفاعي الثخينة المخيفة قد قلعت أنيابها، فلا عطب في الناب، ولاسمّ في الملائم، وإنّها رفيقة طيعة في الزنزانة الموحشة.

إنني أكتب عن حياتي، في الأيام الأخيرة من عمري، وقد قلت للناس قولاً طيباً عن حياتهم، وقولاً جريئاً عن سوء هذه الحياة، وكل ما فعلته من أجل أحبائي من البشر، يختصر في كلمات معدودات هي: (نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض). وكلّ ما فعلته لأجل وطني هو: الواجب، والحب، والكفاح ضد الظلم، ومن أجل ذلك كنت أيام الاستعمار الفرنسي، وأيام الإقطاع، وأيام خبث الحكّام الذين وصفهم الشاعر عمر أبو ريشة بقوله:

«لا يلام الذئب في عدوانه
إن يكُ الراعي عدوّ الغنم!»

الآن، وأنا في الأيام الأخيرة من عمري، كما أرجو صادقاً مبتهلاً، أن تمرّ سفينة الموت فأنزل فيها مرتحلاً إلى حيث سبقني بعض أهلي والكثير من أصحابي وأحبابي مردداً:

«إذا تَرَحَلْتَ عن قَوْمٍ وَقَد قَدَرُوا
أنْ لا تُفارِقَهُمْ فالرّاحِلونَ هُمُ»

إنّني، في الأيام الأخيرة من عمري بعد أن بلغت التسعين شتاء قد خرجت قليلاً عن أشياء كنت أرغب في قولها، لأسجل أن اسم «الثورة» الذي بدأ في مصر، (أم الدنيا)، تمرغ في «وحل الثورة» فانقلب ما كان أبيض، كزهرة الثلج، إلى أسود، في هذا الزمن الرديء الذي صارت الأشياء فيه، رديئة، وتخثر الدم الأرجواني فغدا دماً بعيداً عن كل أرجوانية، لأنه في الاستباحة والقتل والسفك تحول

إلى دم أسود لا صلة له بالحرية التي تمجد اسمها، ولا بالديمقراطية غاية الشرفاء لا قطاع الطرق، هنا وهناك من البلاد العربية.

• • •

إنَّ جوهر قانون الجزاء هو: البادئ أظلم، والذين بدؤوا هم الأظلم، وشعار الحرية والديمقراطية، كان يمكن أن يعالج في أجواء بعيدة عن العنف، والعنف لابد أن يقابل بالعنف، وفي هذه المقابلة وقعت أخطاء كان يمكن تجنبها، لو أخذت الأمور مجرى التفاهم المتبادل، فالمطالب مهما كانت عادلة، والإصلاحات مهما تكن ضرورية، لا تتم في يوم وليلة، وكان الأجدى، بدل الرصاص والقنابل وأدوات القتل المتعمد في طول البلاد وعرضها، أن يكون التفاهم والتآني هما الوسيلة التي تحقق الغاية المنشودة، وهذه الغاية هي قيد التحقق الذي يحتاج إلى بعض الوقت، وبغير هذا فإنَّ الإصلاح الملوث بالدم، لا يحقق غايته، ومن يخرج على القانون بالقانون يؤخذ!

لقد قلت في مقابلة متلفزة: «الحرية، ثم الحرية، ثم الحرية، لأنَّها الأساس الذي يبنى عليه».

في ضرام الثورة الجزائرية، قال جان بول سارتر هذه العبارة: (عارنا في الجزائر) فجاء الجنرالات الفرنسيون إلى شارل ديغول طالبين اعتقال جان بول سارتر، فأجابهم: «وهل أعتقل فرنسا كلها!؟».

إنَّ قانون النسبية الذي أبدعه آينشتاين، يسري على الدنيا، وإذا كان جان بول سارتر في فرنسا، فإن أديباً مثل حنَّا مينة في سورية يحتل (بالنسبية) المكانة نفسها، وقد بدأ حياته بالسياسة، ممارسة وتطبيقاً، منذ السادسة عشرة من عمره، ضد الاستعمار الفرنسي أولاً، ثم ضد الإقطاع، ثانياً، وضد الثعلبية التي كانت سياسة «مردم» وأمثاله ثالثاً. وبذلك تفوقت على الكتّاب أمثالي.

وكان من واجبي الوطني أن أصارح الحكّام السوريين فكتبت مقالة نشرت في حينها، قلت فيها إنَّ أيَّ عنصر مباحث في وسعه أن يأخذ المرء إلى السجن، ولكن كي يخرج منه يجب أن تتذكره الملائكة، وقامت الدنيا عليّ ولم تقعد، وجاءني أحد محرري جريدة «تشرين» التي أكتب فيها -وأعتز بهذه الكتابة- لأن مقالتي كانت تنشر من دون حذف أي كلمة منها. وقال لي المحرر المذكور بأدب: يا أستاذ لا تكتب في الشأن السياسي بعد اليوم. ففهمت وأمسكت عن الكتابة في السياسة وغيرها، إلى أن نشرت وصيتي قبل وفاتي، هذه الوصية التي أبكت الكثيرين، وفي أربع جهات الأرض تعالت الأصوات: «اسحب هذه الوصية كرمى لنا (نحن قراؤك) فلم أسحبها، لأنَّها كتبت

بــدم قلبي، وقــد نشرها الصديــق الأستاذ عصام داري، وكان يشغــل رئاسة التحرير، مع مقدمة جميلة ونبيلة ودعاني إلى معاودة الكتابة في تشرين فاستجبت لطلبه..

وتلبية للدعــوة إلى معــاودة الكتابة في جريدة تشرين، وجدت مــن اللياقة والذوق والمــودة أن أبدأها بنشــر الوصية، لأنّي كما قلت للقرّاء مراراً: «أنا قاسي كالفولاذ وناعم كالحرير» وفي نشر وصيتي ما يفوق الحرير ملمساً وحناناً فيما كتبــه الأستاذ الصديق عصام داري نبوةً عن الذوق السليم، وجنفاً عــن ردِّ الجميــل بمثله، ولــمّا كنت ممن لا يشربــون مــن البئــر ويرمون فيــه حجراً، أستجيــب شاكراً للمعــروف، هكذا رجعت إلى جريدتي المفضلة «تشرين» ليطلع القرّاء الكرام على الوصية التــي تعالت الأصوات مــن قرّائي في جهات الأرض الأربع، قائلة مع التأثر، وحتى البــكاء أحياناً داعية إيّاي لسحب هــذه الوصية بل وتمزيقها لشدة ما تركت من تأثر ومن إشفاق وتحنان حتى بكاء بعض القرّاء خاصة السيدات اللواتي وجدن فيها بداية إدبار عــن الماضي الذي عرفت فيــه الشقاء ألوانــاً وأشكالاً تصــل أحياناً إلى رغبتهــم في الموت السريــع، ويأسي من أمتي العربيــة التي تمزقت وأصبحت جزراً متباعدة، متنافــرة متعادية في هذا الزمان الــذي قلت عنه قبل شهــور: (لقد أصبحنا في قلب الزمن الــرديء)، وإنَّ الناس الذين أنجبهم هذا الزمان هم أردياء، إلّا من عصم ربك من الانزلاق إلى حافة اليأس، نتيجة ما تشرذمت وتقطعت أوصالها.

• • •

إننــي لا أكتــب كي أمــزق ولا أكتب كي أتسلى، أو أسلي القرّاء، هذه الأمور يقترفها الذيــن يتراجعــون عمّــا كتبوه إمّــا لأنهم، يمزقون في الصباح ما كتبوه في الليل خشية أن ينشر بكل مافيه من لهب الحماسة، عملاً بالمثل الدارج: (كلام الليل يمحوه النهار) أو احتساباً لما قد سيثيرونه من لغط أو ارتداد عن الذي كتبوه في الظلمة؛ أن يتسبب بأذية لهم إذا رأى النور.

لقد قال شاعرنــا الكبير المرحوم بدوي الجبل:

(إذا أنت لم تملك وثوباً على الأذى فداؤك الصبرُ أو القبر)

إذا أنت لم تستطــع، أولا تقدر على دفع الشر النــازل بك فليس أمامك إلا الصبر أو القبر. وكي نكون من المنصفين، إننا في هذا الزمــن الرديء لا نستطيــع، أو معظمنا، لا يستطيع دفع الشقاء الذي يحيط به، إحاطة الخاتم بالإصبع فإنــه في وضع صعب غاية الصعوبــة، رديء في الزمــن الرديء، هكذا لا يستطيعــون، وليس لهم القــدرة على رد الشقاء، فــإن مصيرهم الحتمي أن يواجهوا

هذا الشقاء بالصبر أو القبر، ونحن (والحمد لله الذي لا يشكر على مكروه سواه) في مواجهة مصيرين تعيسين أحلاهما مرّ. فالصبر مرّ كالقبر لذلك عندما نشيّع عزيزاً رحل، أو عزيزة رحلت نقول في سرائرنا: هنيئاً للميت ذكراً كان أو أنثى، (لقد استراح أو استراحت) وهذا القول المرّ هو دلالة على أن الناس، أو أغلب الناس يحسدون الموتى، وقد قال المعلم «بطرس البستاني» في القرن التاسع عشر هذا البيت من الشعر:

«يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري
فدرهم الصبر يسوى ألف دينار»

وقد جاء في القرآن الكريم آية تقول: «وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ»، وها أنا الذي بلغت من العمر عتياً، وعشت الحياة طولاً وعرضاً مناضلاً مكافحاً ملاحقاً من قبل الفرنسيين الذين كانوا يستعمرون بلادنا، ها أنا أعيش على مشارف التسعين من عمري أضطرُ إلى بيع ما أملك من متاع الدنيا كي أعيش، وكي أدفع لمن يحسنون صنعاً بمساعدتي على قيامي بما هو ضروري، ككل إنسان يعيش على الأرض، بعد أن وقعت مصادفة فانخلع وركي الأيسر، فتعضّل لحم رجلي اليمنى وأصبحت عاجزاً عن القيام ببعض الحاجات الضرورية للإنسان.

لقد ذكرت آنفاً أنني أقترب من التسعين شتاءً، وأنني أستطيع بغيري ومن أبرز الذين ساعدوني وما يزالون الصديق أحمد يونس نعامة (أبو أديب) المشرف على شؤون منزلي بعد أن توفيت زوجتي منذ سنوات وتركتني وحيداً عليلاً أحتاج إلى من يساعدني على قضاء ما تبقى من أيام العمر، وبها خوف من ألا أموت كما ذكرت كثيراً في كتبي ورواياتي وتصريحاتي المنشورة في الصحف المحلية والعربية والعالمية.

إنّ قولي المكرر والمعروف عن خوفي أن لا أموت قد لا زمني طويلاً؛ وأخاف أن يلازمني طويلاً أيضاً ويمتد بي العمر إلى العجز التام، في القيام والجلوس إلى أن أبلغ المئة عام، وهذا ما أخافه حقاً وصدقاً لأنّ فكرة الموت انتحاراً هرباً من الحياة مرفوضة رفضاً تاماً وغير واردة بأي شكل، لمن قضى عمره في النضال ضد المستعمرين والفاسدين والحاسدين الذين تغيظهم الشهرة التي طاولت الآفاق، كسياسي ناجح تمرساً وعملاً ويرغبون أن أعتزل الكتابة أو أمضي في عربة الموت التي ذهب فيها قبلي الكثير من أحبائي وأصدقائي وقرّائي الكرام.

في اليابان التي زرتها تناولت الغذاء مع مدير شركة (تويوتا) الشهيرة قبل سنوات طوال، أقول: في اليابان عادة مألوفة وهي أخذ من لا يموت حتى مع العجز إلى قمة

جبل ويتركونه هناك مع قليل من الطعام حتى يموت على مهل وحيداً مقهوراً غريباً عن البشر الذي كان مكافحاً بينهم ولأجلهم.

بعد هذا الكلام الطويل والممل عن الحياة والموت أذكر وأذكر (فالذكرى تنفع المؤمنين) إن هذا المصير اليائس التعيس، هو بشكل أو بآخر مصير العجائز في بلاد لا تقبل حتى العجوز في دار المسنين إذا لم يكن له بيت أو مال يكفي لإدخاله، بغير طبل وزمر إلى بيوت المسنين التي أصبحت بيوتاً للاستثمار وليس للاسشفاء على من لا يملك العقارات أو الأموال الكافية.

الشاعر الكبير المرحوم «محمد مهدي الجواهري» الذي وافته المنية فمات في دمشق ودفن في مقبرة السيدة زينب، قال:

«صبراً دمشق، بالأمس تقاسمنا مراهقة، واليوم نقتسم الآلام والرهقا».

لقد كان الجواهري يحلم بأن يكون متنبيّ هذا العصر وكان على صواب في حلمه هذا الذي لم يتحقق مع الأسف، وكان، من سخرية الأقدار أن يصر على مناداتي: الدكتور حنّا، وعلى طول معاشرتي له وهو في دمشق عجزت عن إقناعه، بأنني لست دكتوراً وأنني لم أصل بدراستي إلّا إلى الشهادة الابتدائية، وإنَّ حصولي على هذه الشهادة لها قصة مضحكة مبكية رغم الشهرة الواسعة التي بلغتها الآن بسبب الاجتهاد وسهر الليالي.

وفي أيام نضالي الطويل كانت والدتي (المرحومة) تقول لمن حولها: «آه ياريتني لم أبعث به إلى المدرسة وتركته يرعى الماشية، فيرتاح وأرتاح معه» ذلك لأن والدتي (مريانا مخائيل زكّور) كانت تحسب أنها أرسلتني إلى جامعة جورج تاون في الولايات المتحدة الأمريكية.

هل أقول: إنَّ أمنية أمي تحققت ولم أذهب إلى أي مدرسة حتى لو كانت (ابتدائية)؟.

المعالجة بالموسيقا عند العرب

د. سعد الله آغا القلعة ✿



هذا البحث:

عرضٌ موجز للنظرية العامة التي وضعها الكندي وطورها الموسوعيون العرب، لمعالجة الجسم البشري المريض بالموسيقا، وذلك استناداً إلى أدوات زمانهم المعرفية، التي ساعدتهم، إضافة إلى تجاربهم الشخصية، على فهم معينٍ لآلية تأثير الألحان على الإنسان.

خُلق الإنسان في عالم متغير.. متحرك، الليل يتلوه نهار، والشتاء يتلوه ربيعٌ وصيف، والحرارة يتلوها رطوبة، والحزن يتلوه فرح، فتفاعل الإنسان مع عالمه.. أحب التغيير.. في مظهره، وأحس بالتغير في مزاجه

✿ باحث في الموسيقا وأستاذ في كلية الهندسة المدنيّة في جامعة دمشق ووزير سابق للسياحة.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

وسلوكه وعواطفه،بين يوم وآخر،وفصل وآخر، وعام وآخر.

ولكن، ما الذي يتحكم في هذا التغير؟ هل هو الكون المتحرك أبداً؟ الأرض تدور في محبة وشغف حول الشمس أساس الحياة عليها، والكواكب تدور حول الشمس أيضاً، تنازع الأرض محبتها. ينشط الإنسان صباحاً.. وينزع، إذ يحل الليل، إلى هدوء بعد حركة، وإلى حب بعد غضب.. فما هي طبيعة تأثير الموسيقا؟ التي لها هذا السحر، فتغير حياة الإنسان مثلما تغيرها حركة ذلك الكون؟ تحمِّسه حيناً، وتجعله يهدأ أحياناً بعد ثورة، ويفرح بعد ألم، ويحزن بعد أمل، وينام بعد يقظة، ويبكي بعد جبروت.

هل تأثُّر الإنسان بالموسيقا، حتى الخروج عن المتداول، له علاقة بالكون المتحرك أبداً؟ أي بالزمن، أم يتعلق فقط بانسجام الأصوات الموسيقية التي يسمعها؟ أم له علاقة بالعناصر التي تؤلف جسمه؟ وهل يختلف تأثير الموسيقا على الإنسان السوي المتوازن، عنه في حالة الإنسان المريض المختل؟

هذه الأسئلة، وأخرى كثيرة، كانت تدور في أذهان الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور، وكانت تطرح إجابات، هي في حد ذاتها أسئلة جديدة،فالإنسان البدائي استخدم الرقص والغناء لطرد الأرواح الشريرة التي كانت تسكن أجساد المرضى، واليونانيون القدماء اعتبروا الموسيقا وسيلةً فعَّالة للشفاء من الأمراض، وتبعهم في ذلك الرومان.. ومازالت تلك الأفكار سائدة إلى اليوم، بل إن منتصف القرن العشرين حقق اعتماد الموسيقا كوسيلة فعَّالة في معالجة الأمراض النفسية والعصبية والجسمانية، بحيث أصبح هذا الموضوع يُدرَّس في العديد من الجامعات في العالم، وإن كان لا يزال يعتمد على التجربة، من دون أن يكون هناك قواعد علمية واضحة، تفسر آلية تأثير الموسيقا على المستمع،السوي أو المريض، وتضع أسس استخدام ذلك التأثير في المعالجة.

١- العلوم الأربعة الأساس عند اليونان:

في عام ٥٨٠ ق.م، وُلد فيثاغورث صاحب أول نظرية تربط بين الكون وحركته وعناصره والموسيقا والإنسان. وظَّف فيثاغورث هذه النظرية في محاولة لفهم الكون البعيد، عبر فهم الإنسان والموسيقا القريبين.

قال فيثاغورث: «إنَّ الأعداد هي جوهر هذا العالم المتغير، ومعرفة نسبها المتوافقة تمكِّن من تفسير مظاهر الحياة كافة، وبما أنَّ الكون جميل، وحركته تؤثر في الإنسان، وبما أن الموسيقا جميلة وتؤثر في الإنسان، فإن نسب الأعداد التي تحكم الموسيقا لاشك تحكم حركة هذا الكون، ولاشك أنَّ كل كوكب

يدور (حول الأرض حسب اعتقاده)، يبعث موسيقاه التي تنسجم مع موسيقا الكواكب الأخرى، لأن التباعدات بين الكواكب هي التباعدات نفسها بين الأصوات الموسيقية».

و هكذا وبسبب نظرية فيثاغورث، التي افترضت أن فهم الكون (الفلك) لابد من أن يتم عبر فهم الموسيقا، باستعمال أدوات الحساب والهندسة، فقد صُنفت العلوم الأربعة الأساس اللازمة لفهم الكون على أنها: الحساب والفلك والهندسة.. والموسيقا.

٢- ماهية تأثير الموسيقا عند اليونان:

كما أسلفنا، لاحظ الإنسان القديم أن الموسيقا لها تأثيرٌ ساحر وغامض على الإنسان، وهذا واضح في نصوص الحضارات العربية القديمة، والنصوص اليونانية، فها هو أفلاطون يعتبر الناي آلة موسيقية هامة في إحداث التأثير الأعظم على الإنسان، وهاهو أرسطو يميِّز بين السلالم (المقامات) الموسيقية وتأثيرها، ولكن ذلك بقي من دون أن يتمكن أحدٌ من وضع قاعدة تفسِّر ذلك التأثير،بحيث بقيت آراء فلاسفة اليونان تشير إلى أهمية تأثير الموسيقا على الإنسان، من دون أن تضع أنموذجاً لذلك التأثير يسمح باستخدامه ضمن منهج محدد.. ولكن الفكرة الأساس بقيت عالقة في الأذهان: إنّ فَهْمَ تأثير الموسيقا على الإنسان، هو الطريق لتفسير مظاهر الحياة في هذا الكون.

٣- إشكالية اعتبار الموسيقا عند العرب كأحد العلوم الأربعة الأساس:

منذ بداية عصر الترجمة والتدوين، اطلع العرب على اعتماد اليونان للموسيقا كأحد العلوم الأربعة الأساس،وسرعان ما اعترضتهم إشكالية كبيرة، فالعلوم الوافدة على اختلاف أنواعها تتشابه دراستها، مهما اختلف الموقع الذي تتم فيه هذه الدراسة:

الحساب تبقى قواعده متماثلة، سواء أكان اليونانيون هم الباحثون فيه أم العرب، وكذلك الطب والهندسة والفلك والفلاحة وعلوم الهيئة والأرض.. إلا الموسيقا، فالآلات الموسيقية العربية مختلفة، والسلم الموسيقي مختلف، والإيقاعات مختلفة، والشعر العربي مختلف..

باختصار: اللغة الموسيقية العربية مختلفة تماماً عن لغة اليونان الموسيقية، إلا ما تأثرت به الموسيقا اليونانية أصلاً من موسيقا سومر وأكَّاد، عندما استقت منها عناصر تطورها في بدايات الحضارة اليونانية.

وهكذا كانت الإشكالية: الموسيقا علمٌ من العلوم الأربعة الأساس، ولا بد من فهم تأثيرها على الإنسان لتفسير الكون،ولكن هناك ضرورة قاطعة في الانطلاق من اللغة الموسيقية العربية السائدة لبناء العلم

الموسيقي العربي، ومن ثم استخدام القواعد الناتجة لفهم وتفسير الكون عبرها.

٤- النظرية العامة للتأثير لدى الكندي:

عاش أبو يوسف بن إسحق الكندي بين عام ٨٠٠ وعام ٨٦٦ ميلادية، أي في ذروة عصر الترجمة والتدوين. اطلع الكندي على مجمل العلوم التي طُوِّرت إبان الحضارة اليونانية،وانتبه إلى أن الموسيقا تؤثر على المستمع المريض خصوصاً، لكي تخفف من آلامه،وتهدئ مزاجه.

أراد الكندي أن يدخل أكثر في دراسة تأثير الموسيقا على الإنسان، وبعد دراسة مستفيضة اعتمد فيها على أدوات عصره المعرفية،طرح نظريته في آلية تأثير الموسيقا على الإنسان،والتي يمكن أن نسميها نظرية الحرارة، وفق ما يلي:

يستند أساس نظرية الكندي إلى تغير الحرارة في هذا الكون المتحرك.. فحركة الكون ينتج عنها فصول أربعة: الخريف والشتاء والربيع والصيف، ويتميز كل فصل بتغير درجات الحرارة فيه عبر دورة معروفة، يمكن أن نسميها الدورة السنوية، كما أنَّ هناك دورة يومية مماثلة تتقاطع معها،تتغير فيها درجات الحرارة من الظهر الحار إلى الفجر البارد.

كما أن عناصر الكون الأربعة: الماء والتراب والهواء والنار، تتدرج أيضاً في الحرارة،فالبرودة للماء والرطوبة للتراب والجفاف للهواء والحرارة للنار،ويقابل تلك العناصر أخلاط الجسم الأربعة: الدم أساسها والبلغم يجمده والصفراء تزيده والسوداء ترسبه، وينتج عن هذه الأخلاط أمزجة أربعة تسيطر على جسم الإنسان، فالمزاج الصفراوي حار، أما المزاج البلغمي فكسول..

قابل الكندي أيضاً بين هذه العناصر وتطور عمر الإنسان، فاعتبر الشبابَ العمر الأكثر حرارة، ويقابل عنصر النار، وقابل بالطريقة نفسها بين الحداثة والهواء، والكهولة والتراب، والشيخوخة والماء، ثم قام بالتوافق الأهم: الربط بين أوتار العود ونظريته الأساس،فقال بأن أوتاره الأربعة تتدرج في تأثير سماع العزف عليها من الحرارة إلى البرودة، فالوتر الأحدّ واسمه الزير يقابل النار في تأثيره،فيما افترض أن سماع الموسيقى لدى العزف على وتر البَمّ، وهو الوتر الأخفض، يولد شعوراً بارداً مائياً..

ثم انتقل الكندي إلى الإيقاعات واختلاف تأثيرها حسب سرعتها،فرتبها من الإيقاع الأسرع المؤثر تأثيراً نارياً، إلى الإيقاع الأبطأ المؤثر تأثيراً مائياً كسولاً (لاحظ مثلاً أن المزاج البلغمي الكسول مرتبط بعنصر الماء).

اعتمد الكندي في تأريخه للزمن على الدورة السنوية للأبراج، وعلى تطور الحرارة خلال الفترة الزمنية التي يقع فيها كل برج منها، وافترض في تصنيفه للأبراج، سواء

أكانت نارية أو ترابية أو هوائية أو مائية، ارتباط كل برج بحرارة الفترة الزمنية التي يقع فيها، من دون أن يجعله مرتبطاً بالتصنيف التنجيمي للأبراج الذي شاع لاحقاً، مستنداً في ذلك إلى أن كل برج يحدد موضعاً للأرض بالنسبة للشمس ولمجموعة النجوم، مع كل ما يعنيه ذلك من تحديد للحرارة في تلك الفترة من السنة، فمثلاً عندما نقول: نحن في برج الدلو، فهذا يحدد فترة محددة ضمن مسار السنة، تقع بين شهري كانون الثاني وشباط، لو وقفنا خلالها عند مغيب الشمس في منطقة ذات أفق بعيد، ونظرنا إلى السماء، في النقطة نفسها التي يحدث فيها المغيب، فإننا سنرى مجموعة النجوم التي تشكل برج الدلو، ويستمر الوضع كذلك طيلة الفترة الزمنية لهذا البرج حتى انتهائها، وبدء مرحلة البرج التالي زمنياً، وهو برج الحوت، واحتلال مجموعة النجوم الممثلة له، لأفق المغيب، وبالتالي فبرج الدلو يقع، بالنسبة للكندي، والموقع الذي كان يعيش فيه، في الشتاء، أي إنه مائي التصنيف، بينما هو في التصنيف المتداول، برج هوائي.

نلخص نظرية الكندي في الجدول التالي:

العمر	الفترة في اليوم	الأبراج	الفصل	الخلط	العنصر	الإيقاع	الوتر
الشباب	من الظهر إلى المغرب	من السرطان إلى العذراء	الصيف	الصفراء	النار	الماخوري	الزير
الحداثة	من الفجر إلى الظهر	من الحمل إلى الجوزاء	الربيع	الدم	الهواء	الثقيل الأول والثاني	المثنى
الكهولة	من المغرب إلى العشاء	من الميزان إلى القوس	الخريف	السوداء	التراب	الهزج	المثلث
الشيخوخة	من العشاء إلى الفجر	من الجدي إلى الحوت	الشتاء	البلغم	الماء	الثقيل الممتد	البَمّ

طرح الكندي، استناداً إلى هذه الارتباطات، التي اعتمدت على تغيرات الحرارة أساساً لفهم آلية تأثير الموسيقا على الإنسان، مجالين للاستفادة من ذلك التأثير: الاستجابة (الطرب)، والمعالجة.

افترض الكندي أن الاستجابة تتحقق، إذا استطاع الموسيقي أن يختار الوتر الملائم والإيقاع الملائم للمستمع، حسب اللحظة التي يتم فيها الاستماع، وحسب عمره، حيث

يدور اللحن في طبقة موسيقية يحددها الوتر الذي يتم اختياره.

أما في المعالجة، فالاختيار، حسب الكندي، يتم حسب الخلل الذي يحدده الطبيب من زيادة أو نقصان أحد العناصر المحققة لتوازن جسم الإنسان، وهنا يقوم الموسيقي بتعديل النسبة المختلة مثلما يقوم الطبيب المعالج بتعديلها عبر الدواء، حيث يتم التعديل باختيار طبقة موسيقية وإيقاع ملائم، كأن نسمع المريض المحموم عزفاً على وتر البم الأخفض، وهو الوتر المائي في العود،مع لحن مرسل، مما يحقق، حسب نظرية الكندي، تأثيراً مائياً رطباً لدى المستمع يساهم في تخفيض حرارته.

لم يستطع الكندي أن يدخل أكثر في التوافق بين عناصر اللغة الموسيقية والطب، لأنه عند حديثه عن المقامات الموسيقية، تحدث عن إمكانية أن يكون تأثيرها محزناً أو مفرحاً، من دون أن يستطيع إدخالها ضمن سياق النظرية العامة.

٥- إسهامات زرياب في تطوير النظرية العامة للكندي:

كان لابد للكندي من أن يتطرق في كتاباته إلى النفس، كمكون أساس في الجسم الإنساني، متبعاً في ذلك النظرة السائدة للكون، والتي يمكن تلخيصها وفق ما يلي:

يقسم الكون إلى قسمين رئيسين: ما تحت فلك القمر، وما فوق فلك القمر، الأول مادي والثاني سماوي؛ يشتمل العالم المادي على جميع الموجودات المادية، ومنها الإنسان الذي يتميز بالعقل الذي يجعله يرتفع إلى حدود العالم المادي، وفيما تتركب جميع موجودات هذا العالم من العناصر الأربعة التي سبق ذكرها: النار والماء والهواء والتراب؛ ويتكون العالم السماوي من الكواكب السيارة، فإن الإنسان يشكل حلقة وسطى بين العالمين لأنه جسم مادي، ولكنه يتميز أيضاً بالنفس المعبرة عن العقل والمخيلة والذاكرة.

لم يدمج الكندي مكون النفس في نظريته للمعالجة بالموسيقا، فيما استطاع زرياب تحقيق ذلك، عبر إضافته الوتر الخامس إلى العود، والذي يخطئ من يظن أنه أضافه لزيادة المساحة الصوتية للعود، لأنه جعله في منطقة متوسطة من الأوتار الأربعة، للتعبير عن موقع النفس بين المكونات الأربعة للجسم البشري.

٦- الفارابي:

لم يدل الفارابي بدلوه في هذا المجال بشكل واضح، رغم أن التاريخ حمل إلينا القصة الشهيرة حول قدرته على التأثير على الحاضرين بالموسيقا، سواء لتحريض الضحك أو النوم لديهم؛ والواقع أنه تحدث مطولاً في كتابه الموسيقي الكبير عن تأثير

الموسيقا على الإنسان، من دون أن يدخل في تفسير ماهية وآلية ذلك التأثير، معتمداً الفكر الرياضي في تشكيل المقامات والإيقاعات، وإن كان أورد في كتابات أخرى بعض النصائح في الاستخدامات الأفضل للمقامات الموسيقية حسب الأوقات.

٧- صفي الدين الأرموي:

عاش صفي الدين الأرموي البغدادي في بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي، وسار في دراساته الموسيقية على نهج الفارابي،واعتمد الأسلوب الرياضي في تركيب الإيقاعات والمقامات الموسيقية، ولم يتعرض لتفسير آلية تأثير الموسيقا، ولكن مساهماته في شرح أساليب تركيب المقامات الموسيقية ساعدت في فهم العلاقات الداخلية للخلايا اللحنية العربية.

٨- إسهامات ابن سينا وتطوير نظرية الكندي:

تمثل الإسهام الأساس لابن سينا، في دمج المقامات الموسيقية ضمن النظرية العامة للكندي، وإن كان قد استبعد المفهوم الزماني للأبراج، واعتمد التقسيم المتداول لها، وفق ارتباط كل برج بأحد العناصر الأربعة الأساسية.

لابد لفهم هذا الموضوع، من أن نعرض لشرح فكرة المقام الموسيقي:

ظهرت أولى محاولات ترتيب الأصوات الموسيقية في تسلسل ما لتحقيق تأثير مختلف، في العصر العباسي،على يد إسحق الموصلّي، بعد أن كان المغنون الذين سبقوه، يستخدمون المقامات الموسيقية دون تسميتها بشكل واضح. أسمى إسحق المقامَ الموسيقي: المجرى، وربط بين المجرى ودرجة استقراره فقال مثلاً:مطلق المثنى في مجرى الوسطى، كما جاء في كتاب الأغاني.

اعتبر إسحق المجرى تسلسلاً مختاراً لأصوات موسيقية يعتمد اختيارها على طبيعة أسلوب العزف على آلة العود، ولن ندخل هنا في تفاصيله لضيق المجال،ثم حدد أن مجموعة الأصوات المحققة لمجرى معين، تولد مقاماً جديداً إن تغيرت درجة الاستقرار، ولكنه لم يتعرض للعلاقة بين اختيار مقام ما والتأثير المتوقع على المستمع.

تطور أسلوب تعريف المقامات لاحقاً لتصبح مشكلة من عدد من الأجناس الموسيقية وفق ما يلي:

١- يتشكل الجنس الموسيقي من تتابع معين لثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات موسيقية.

٢- يتشكل المقام الموسيقي من تركيب ما من جنسين أو أكثر لتحقيق سبعة أصوات متتالية أو أكثر بتسلسل معين للأصوات.

سمي المقام الموسيقي كذلك، ضمن نظرية

التأثير الموسيقي، انطلاقاً من المعنى اللغوي للكلمة، وبالتالي، فالمقام هو الموضع الذي تحتله النفس، عندما تستمع إلى لحن بني على الاصوات الموسيقية المشكلة لهذا المقام، وبما أن تغيير درجة استقرار أي تتال للأصوات الموسيقية، يغير من تأثيرها حسب نظرية الكندي، كان لابد من تسمية المقامات المتطابقة كتسلسل صوتي، والمختلفة الاستقرار، بأسماء مختلفة.

لابد هنا من أن نذكر بأن اصطلاح المقام يجد له مرادفاً في المغرب العربي تحت اسم: الطبع، وهذا المصطلح يقترب أكثر، بمعناه اللغوي، من الارتباط بالمزاج، والتأثير المختلف لدى الانتقال من طبع إلى آخر.

تم أولاً استقراء تأثير الأجناس الموسيقية على الإنسان لدى سماعها، وصُنفت الأجناس حسب تأثيرها الحار أو البارد الهادئ.. وتمَّ تركيب مقامات موسيقية متنوعة انطلاقاً من تلك الأجناس، حتى بلغ عددها حوالى ٣٦٥ مقاماً، يتوافق كلٌ منها مع يوم من أيام السنة،ورتبت هذه المقامات حسب الأجناس المركبة لها ترتيباً زمنياً مرتبطاً بتغير درجات حرارة التأثير، وتغير فصول السنة، كما رتبت بأسلوب متقاطع مع الدورة اليومية التي سبق الحديث عنها.

تمَّ لاحقاً إعادة الارتباط بين المقامات، كما سبق تعريف أسلوب تشكيلها، والعناصر الأساسية الأربعة، والأبراج، وفق جداول وضعية، خارج إطار فكرة الحرارة التي اعتمدها الكندي، وذلك باعتماد تصنيف الأبراج، وفق تصنيفها المتداول، نسبة للعناصر الأساسية الأربعة: النار والهواء والتراب والماء، في خروج عن وحدة الفكرة التي جسدتها نظرية الكندي.

الجدول التالي يعطي فكرة عن علاقة وضعية لبعض المقامات الموسيقية مع الأبراج، وفق تقسيمها المتداول نسبة للعناصر الأساسية:

المقام	العنصر	البرج وفق التصنيف المتداول
راست	**النار**	**الحمل**
عراق	التراب	الثور
أصفهان	**الهواء**	**الجوزاء**
زيرافكند	الماء	السرطان
بزرك	**النار**	**الأسد**
زنكلاه	التراب	السنبلة (العذراء)
رهاوي	**الهواء**	**الميزان**
حسيني	الماء	العقرب
حجاز	**النار**	**القوس**
بوسليك	التراب	الجدي
نوا	**الهواء**	**الدلو**
عشاق	الماء	الحوت

كما تمّ وضع جداول أخرى لعلاقة المقامات بساعات النهار واختلافها.

يطيب لنا هنا أن نروي قصة اللقاء الأول بين الأستاذ محمد عبد الوهاب وعمر البطش الوشّاح السوري الكبير. أراد عبد الوهاب إحراجه، فسأله عن موشحات قديمة حفظتها حلب على مقام السيكاه الأصلي، وهو مقام نادر الاستعمال، ومن المتوقع أنه لا توجد عليه موشحات.

اعتذر البطش أن الساعة لا تلائم سماع هذا المقام، الذي يُفترض أن يُستمع إليه بين المغرب والعِشاء، ووعد أن يكون ذلك في الغد وفي ساعة ملائمة لسماع المقام. في اليوم التالي أسمع البطش ضيفه ثلاثة موشحات على المقام المطلوب، وأعجب عبد الوهاب بها أيما إعجاب، ولكنه لم يكن يتوقع أبداً أن البطش لحنها في الليلة ذاتها. لقد تخلص البطش تخلصاً لبقاً، وكان ذلك اعتماداً على الجداول التي تربط بين المقام والساعة الملائمة أكثر لسماعه.

ملاحظة: إذا عدنا إلى الجدولين، واعتبرنا مقام السيكاه الأصلي من فصيلة مقام العراق، الوارد ترابياً في الجدول الثاني، وبحثنا عن الوقت الملائم للمقامات الترابية في الجدول الأول، لوجدنا أنه من المغرب إلى العِشاء، وبافتراض أن اللقاء كان في ليلٍ متأخر، فقد استفاد الشيخ عمر البطش من ذلك، ليؤجل الاستماع إلى الموشحات، وليلحن الموشحات ليلتها..

لعلَّ من بواقي هذه الأفكار، أن اختيار المقام الموسيقي الذي يُعتمد لرفع الأذان في الجامع الأموي في دمشق، لا يزال يتم حتى الآن، حسب جداول ترتبط باليوم والساعة التي يتم فيها رفع الأذان.

٩-التطبيق العملي للنظرية العامة، والفرق بين تحقيق الاستجابة والتأثير، بغرض المعالجة النفسية أو الدوائية:

يتوافق تحقيق الطرب، أو الوصول إلى حالة الوجد لدى المتصوفة، من جهة، أو طرد الأرواح الشريرة، أو تحقيق التواصل مع العالم الخارجي، في المعالجة النفسية، من جهة أخرى، بضرورة تحقيق استجابة المستمع للخروج من حالته إلى حالة جديدة. ومهما اختلفت الغايات فالأسلوب واحد: العمل الموسيقي المحرِّض يستعرض المراحل كافة، فيبدأ من منطقة الأصوات المنخفضة بلحن مرسل، ثم تبدأ الإيقاعات متدرجة من البطء إلى السرعة، مع الانتقال من الأصوات المنخفضة إلى الأحدّ وصولاً إلى المنطقة الأكثر حدة، مع تدرج في استخدام المقامات من مقام مائي وصولاً إلى مقام ناري كالراست مثلاً، حتى ينتهي العمل الموسيقي

المحرِّض بخروج المستمع عن حالته الأصلية إلى حالة جديدة، تحقق الغاية، التي تختلف حسب الحالات المذكورة آنفاً.

تجدر الإشارة إلى أن العمل الموسيقي قد يتوقف عند مراحل معينة قبل الوصول إلى نهايته الموصوفة أعلاه، خاصة في معالجة الحالات النفسية، وحسب تطور المعالجة والاستجابة.

أمَّا تحقيق الاستجابة لشريحة محددة من المستمعين، أو في ساعة محددة، فلا شك في أنه يتطلب دراسة دقيقة، حسب الأسس التي تمَّ عرضها، فمثلاً يوصى بأنه إذا كان المستمع في سن الشيخوخة، من منطقة جغرافية باردة المناخ، فإن الألحان التي تناسبه هي ما عزف على طبقة صوتية منخفضة، مع إيقاع بطيء. وهنا قد نلاحظ سيطرة الإيقاع السريع اليوم لأن السوق الغنائية تعيش اليوم على مستهلك أساس هو الشباب، ناري المزاج، كما يمكن أن تفتح لنا هذه الأفكار إمكانية لدراسة العلاقة بين الموسيقا والجغرافية.

بقيت المعالجة الخاصة التي يمكن أن تكون مستقلة أو مترافقة مع دواء، وهنا يكون دور الموسيقا تعويض الخلل في توازن العناصر المكونة للجسم البشري (حسب نظرية الكندي المعروضة أعلاه)زيادة أو نقصاناً.

١٠- ملاحظات:

- لم تشر النظرية العامة للكندي إلى دور حيوية الجملة اللحنية، في إحداث تأثير مختلف، وإن كان الكندي قد أشار إلى اختلاف التأثير حسب حيوية الجملة اللحنية حزناً أو فرحاً.

- لم تشر النظرية إلى اختلاف التأثير حسب الآلة الموسيقية التي تؤدي الألحان، أو حسب الفواصل الموسيقية في اللحن بين الأصوات الموسيقية المتتالية، فيما أشار الكندي إلى اختلاف تأثيرها على المستمع من دون أن يدمجها في نظريته العامة.

- لم تشر النظرية العامة للكندي إلى اختلاف التأثير نتيجة تغيير درجة استقرار المقام، وإن كان ربط بين التأثير والطبقة الموسيقية التي يتم فيها العمل الموسيقي، فيما تمَّ استدراك ذلك لاحقاً عندما تمت تسمية المقامات ذات الأصوات المتماثلة ودرجة الاستقرار المختلفة بتسميات مختلفة، وبالتالي عُدَّ تأثيرها مختلفاً.

- لم تشر أيٌّ من الكتابات في هذا المجال إلى اختلاف تأثير الموسيقا على الإنسان كنتيجة لاختلاف محصلة قوى الجذب التي يتعرض لها، حسب موقع الأرض سواء في الدورة السنوية، أم اليومية، والتي تعتبر ظاهرة المد والجزر مثلاً، إحدى تجلياتها

المرئية، ما يفتح أمامنا مجالاً واسعاً لتطوير النظرية العامة للتأثير في المستقبل.

- من البديهي أن النظرية المعروضة للكندي، وما تلاها من تطوير، لا تجد لها من يدافع عنها ضمن المعطيات العلمية الحديثة، ولكنها وعلى كل حال كانت نظرية متكاملة، طُبقت على أرض الواقع في البيمارستانات الشامية، النوري في دمشق، والأرغوني في حلب، على عكس ما يجري الآن في العالم الحديث من فرضيات، تعتمد على التجربة، وعلى تسجيل المشاهدات، لاعتماد أسلوب التأثير وتعميمه.

نود أن نضيف أخيراً أن الكندي كان قد تحدث عن تأثيرات الألوان، وقسمها أيضاً إلى ألوان ذات تأثيرات مائية ونارية، وهذا يشابه ما اصطلح عليه الفنانون هذه الأيام من تصنيف الألوان بين حارة وباردة، وما قام به والت ديزني، وهو من أشهر الفنانين في أميركا، في فيلم «فانتازيا»، عندما أجرى توافقاً بين الموسيقا والألوان، من خلال ترجمة العزف في منطقة الأصوات الحادة، باللون الناري الأحمر وفي منطقة الأصوات المنخفضة، باللون المائي الأزرق.. والحقيقة أنه كان في ذلك.. يتبع نظرية الكندي العامة في التأثير الموسيقي.. كما أتت تماماً.

الشعرية وتحوّلاتها النظرية

د. خليل الموسى ✿

لنتفق أولاً على أنّ مصطلح (الشعرية) هو المقابل الأمثل لكلمة (Poétique)، لشيوعه على الألسنة، واشتقاقه من الأصل (شعر)، وإن اتسع مجال الشعرية في عصرنا الراهن، فتضمّن السرديات، كما هي الحال في (شعرية السرد)، والنثر، كما هي الحال في (شعرية النثر)، ومن ذلك مثلاً مصطلح (قصيدة النثر)، ومصطلح (الشعرية) أكثر دقّةً وأقرب إلى الصواب من الأسماء الأخرى التي أُطلقت عليه في اللغة العربية مؤخّراً، كـ (الإنشائية) أو (الإبداعية) أو (البويطيقا) أو (البوييتيك) أو سواها، وذلك لأنّ لهذا المصطلح تاريخاً طويلاً من جهة، ولا يجوز بحال من الأحوال تعميم فترة قصيرة على مصطلح ذي عمر مديد، ثمّ إن المعاصرين لم يتفقوا في عصر ازدهار الرواية على أنّ زمان الشعر قد ولّى من جهة ثانية، فثمة نقاد كبار مازالوا يراهنون على الشعر جنساً أعلى، ومن هؤلاء جان كوهين في كتابيه (بنية اللغة الشعرية) ١٩٦٦م و(اللغة الأعلى) ١٩٧٩م، حتى إنّ هذا الناقد يذهب إلى أبعد عمّا ذهب إليه سواه من النقاد المعاصرين، فيشترط الوزن والقافية، فضلاً عن الانزياح في أيّ شعر حقيقي، ولذلك هو ينفي من كتابه قصيدة النثر لخلوها من الوزن الخارجي، والشعر السريالي لتعميته وانقطاع الخيط الذي يصل المتلقّي بالنص حسب رأيه، ولذلك إذا كانت البويطيقا أو البوييتيك تعريباً شبه حرفي لـ (Poétique) فإنّ الإنشائية ترجمة قاصرة وغير دقيقة،

✿ أديب وناقد وأستاذ جامعي (قسم اللغة العربية- جامعة دمشق).

ويُخشى إذا استُعملت أن تُوهم القارئ بالنزعة إلى تأليف الكلام بقصد إثبات الملكة التعبيرية وتأكيد الموهبة البلاغية،[1] أو أيّ شيء آخر مما تدلّ عليه هذه المفردة، وكذا شأن الإبداعية والمصطلحات الأخرى، ولذلك اخترنا مصطلح (الشعرية).

ومصطلح (الشعرية) ذو عمر طويل، وهو مختلف في الانتماء وفي مجالات استخدامه وفي التعريف، فإذا كانت الشعرية مخصوصة بالشعر كتابةً وقواعد وقوانين، أو هي جملة القواعد التي ينبغي على الشعراء الاقتداء بها، كما يذهب إلى ذلك أرسطو وهوراس وبوالو وفاليري وسواهم، فإنّ مجالات استخدام هذا المصطلح قد تحولت واتسعت بعد مقولة (الأدبية) عند رومان ياكبسون، فدخل في مجالات الشعرية السرديات، كالرواية والقصة والخاطرة، ثم دخل في المجال نفسه في النصف الثاني من القرن العشرين النثر، ومن ذلك مثلاً قصيدة النثر، وليس ذلك فحسب، وإنّما ثمّة اختلافات واسعة حول انتماء هذا المصطلح أو مصدره، وهي جنسٌ متنازعٌ عليه، فهي عند ياكبسون ملحقة باللسانيات، أو هي فرع من فروعها،[2] وهي عند جوليان غريماس ملحقة بالسيميائيات، وهي عند جماعة مو ملحقة بالبلاغة،وهكذا، ولذلك كان أيّ تحديد للشعرية ناقصاً، فهي من المصطلحات المتبدلة بين عصر وعصر وعند شاعر وآخر أو جماعة وأخرى، والتحديد يصحّ على الجزء، ولكنّه لا يصحّ على الكلّ، ولذلك ارتأينا في تعريفنا لهذا المصطلح أن يكون تعاقبيّاً انتقائياً.

الشعرية: علم موضوعه الشعر، أو هي (كلّ نظرية متصلة بالأدب) أو هي (نظام نظري) وهي تستقي قوانينها من الأعمال الخالدة، كما فعل أرسطو في (فنّ الشعر)، ويرتكز موضوع الشعرية إلى الأعمال الإبداعية المفتوحة، وينأى عن الأعمال العادية المنغلقة.

والشعرية مصطلح نسبي متحوّل، فهو ذو عمر طويل بالقياس إلى غيره من المصطلحات، ولذلك فإنّ دلالته تتغيّر بين عصر وآخر، ومكان وآخر، وأمّة وأخرى، فما هو شعري هنا ربّما لا يكون شعرياً هناك أو في زمن آخر، فالشعرية عند أرسطو، مثلاً، محاكاة، وهي تقتصر على التراجيديا والكوميديا والملحمة، وتستبعد الشعر الغنائي.

في حين أنّ الشعرية في العصر الرومانسي غنائية خالصة، وإذا كان الشاعر عند أرسطو صانع حكايات، فإنّه عند الرومانسيين مصوّر إحساسات ومشاعر ذاتية، وإذا كان الشاعر عند الأول يخاطب العقل بمنطقية شعرية، فإنّ الشاعر عند الرومانسيين يتوجّه إلى مخاطبة

القلب والوجدان مباشرة، ولذلك يمكن القول: إنّ الظروف هي التي تفرض شعريتها، وإنّ الشعر المهيمن في فترة من الفترات هو الذي يُحدّد مصطلحاته النقدية.

ومعيار الشعرية مختلف أيضاً بين عصر وعصر، وبين مذهب أدبي وآخر، وبين أمة وأخرى، فهو عند أرسطو المحاكاة، وعند الرومانسيين التعبير، وهو التعبير عن الواقع في الواقعية، وهو الكتابة الآلية في السوريالية، وهو الانزياح -مثلاً- عند جان كوهين، والتناص عند كريستيفا وجينيت، والتماثل عند ياكبسون، والنص المفتوح عند بارت وإيكو وتودوروف وديريدا، وهكذا.(٣)

ويظلّ هذا التعريف الطويل مع ذلك ناقصاً، لأنّ العالم لا يُجمع في قارورة، ومن هنا ارتأينا أن نتوقف عند أهمّ التحوّلات النظرية التي طرأت على مصطلح الشعرية، علماً بأننا نقف هنا عند المحطّات الكبيرة. أمّا المحطات الصغيرة فإننا نتجاهلها لضيق الوقت والمساحة وتعذّر الإحاطة الشاملة.

-١-

الشعرية في الأصول (محاكاة) (MIMÉTISMe)، والمحاكاة نظرية في الشعر بدأت عند أفلاطون في الباب العاشر من (الجمهورية)، وهي ترتبط بالأخلاق والمثل، ثمّ ترسّخت في (فنّ الشعر) عند أرسطو بالفن وجمالياته، ولذلك عاشت هنا، لأنّها أعلت من سلطة الفنّ والفنّان، في حين أنّها تلاشت هناك لأنّها جعلت من الفنان تابعاً والفنّ خادماً، والأهمّ من ذلك كلّه أنّ أرسطو ذهب إلى أنّ الشعرية غايةٌ في ذاتها.

والمحاكاة نظرية في الشعر الموضوعي، وهي في التراجيديا (محاكاة فعل نبيل تامّ، لها طول معلوم، بلغة مزوّدة بألوان من التزيين تختلف وفقاً لاختلاف الأجزاء، وهذه المحاكاة تتمّ بوساطة أشخاص يفعلون، لا بوساطة الحكاية، وتُثير الرحمة والخوف فتودّي إلى التطهير من هذه الانفعالات).(٤)

وأهمّ ما في هذا التعريف أن المحاكاة هي لفعل نبيل في التراجيديا، وهي في القول (الشعر) والفعل (التمثيل)، ولذلك هي جامعة لفنين معاً: الشعر والمسرح.

يبيّن أرسطو بدقّة طبيعة شعر المحاكاة، فالشاعر في هذه النظرية كالمؤرّخ أو الباحث، وهو بعيد عن الشاعر الغنائي الذي لا يصف سوى مشاعره ومواقفه، والشاعر المجيد في المحاكاة هو القادر على أن ينحّي نفسه إلى الخلفية أو التخفّي، ولذلك يقول: (فالحق أنّ الشاعر يجب ألاّ يتكلّم بنفسه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأنّه لو فعل غير هذا لما كان محاكياً).(٥)

وفـرّق أرسطو في المحـاكاة بين الشاعر والناظم وبـين وظيفة المؤرخ ووظيفة الفنان، بـل وضـع الشاعـر في منزلة فـوق منزلة الفيلسـوف والمؤرخ، وكأنّـه يستعيد للشاعر مكانته التي حاول أفلاطون أن ينتزعها منه في (الجمهورية)، ومن هنا اشترط على الشاعر أن يكون فنانـاً حقيقياً ليكتسب فنّه الخلود، ولا يتـمّ له ذلـك إلاّ إذا كان شاعـراً خبيراً في الشعـر، وخاصة في صناعـة الحكايات: (إنّ الشاعـر يجب أن يكـون صانع حكايات وخرافـات أكثر منه صانع أشعار، لأنّه شاعر بفضل المحاكاة، وهو إنّما يحاكي أفعالاً).[٦]

وتتجلّـى الشاعريـة في المحاكاة بصدق التجربة، وهي أن يكون الشاعر ملمّاً بالصور النفسية للشخصيات التي يرسمها، وعارفاً بأحوالها ومواقفها وما يتصل بها، وبالخبرة والمهارة في تركيب الحكاية وترتيب الأفعال، وبالحبكـة المحكمـة، ولذلـك كان أرسطو معجبـاً بسوفوكليـس، وخاصـة تراجيديا (أوديب ملكاً)، لأنّ النتيجة التي انتهى إليها الملك أوديب كان ينبغي أن يصل إليها، (ومن البيّن كذلـك أنّ خواتيم الحكايات يجب أن تستنتج مـن الحكايات نفسها، لا من تدخّل إلهـي).[٧] ثم إنّ وظيفة الشاعر في أن يروي مـا يمكـن أن يقع، ولا يروي مـا وقع فعلاً كالمـؤرخ، لأن الفنان يعتني بالكليات، ويرتّب الأحداث ترتيباً فنّياً جمالياً.

لذلك كانت المحاكاة تقليداً عند أفلاطون، في حين أنّهـا إبداع عنـد أرسطو، فالفنان يقدّم الطبيعـة في فنّه أجملَ مما هي عليه في الواقـع، وعلى عملـه أن يتسم بالترتيب والتنظيم والتناسق والوحدة العضوية، (وأن تؤلـف الأجزاء بحيث إذا نُقـل أو بُتر جزء انفـرط عقد الكلّ وتزعزع، لأنّ ما يمكن أن يُضاف أو ألاّ يُضاف من دون نتيجة ملموسة لا يكوّن جزءاً من الكلّ).[٨]

المحاكاة عند أرسطو نظرية في الشعرية وعلـم الجمـال، وهي نظريـة متكاملة من جوانبهـا جميعهـا، والشعـر غايـة عنده، ومرجعياتـه في بنيته، ولذلـك يُعدّ أرسطو مؤسّساً للمحـاكاة الجمالية، ثم إنّه أول من نظر في بنية النص منفصلاً عن مرجعياته، ومنهجه قريب من مناهج البنيويين، فعدّوه أباً لهم، مع أنّهم تنكروا لأبوّة المؤلف.

وقد استحـق أرسطو هـذه المكانة لأنّه استطـاع أن يردّ على أستـاذه أفلاطون في العيوب التي وجدهـا في الشاعر، ليحوّلها إلى جوانـب أساسية في الإبـداع، كالتخييل وسواه، ولذلك كانت المحـاكاة عند أرسطو الينبوع الـذي استقى منه علمـاء الشعرية نظرياتهم على مدى العصور.

فالمحاكاة عند أرسطو إبداع، وهي ليست نقلاً حرفياً للواقع أو تقليداً لما هو معروف، وإنّما هـي في تحويل الواقع إلى صور فنية،

وعلى الشاعر أن يكون صانعاً للجمال، وأن يقول أفضل ما تقوله الشخصيات، وأن يجعل صورتها أفضل مما هي عليه في الواقع، ويكون بذلك قد حرّر الفنّ والفنّان من سلطة الأخلاق والمثل، لتكون سلطة الفنّ فوق كلّ سلطة، وهذا ما نراه فيما بعد في كثير من المذاهب الأدبية، كالبرناسية والرمزية وسواهما.

والمحاكاة فرزٌ للأعمال الخالدة من الأعمال البائرة، ولذلك كان أرسطو معجباً في التراجيديا بسوفوكليس، وخاصة في عمله (أوديب ملكاً). وبهوميروس، وخاصة في ملحمته (الإلياذة)، ثمّ إنّه فرز أيضاً الشعر الموضوعي من سواه، ونفى الشعر الغنائي من كتابه، ولذلك نجد تفرقة نقاد الشعرية المعاصرين بين النص المفتوح والنص المغلق.

وإذا كانت جماليات القبح تتجلّى عند الفلاسفة في العصر الحديث وفي الفنون المختلفة من شعر ونحت ورسم وسواها فإنّ لهذا النوع من الجماليات ذكراً في المحاكاة واللذة التي تنشأ عنها، وقد قال أرسطو: «والشاهد على هذا ما يجري في الواقع: فالكائنات التي تقتحمها العين حينما تراها في الطبيعة تلذّها مشاهدتها مصوَّرة إذا أُحكم تصويرها، مثل صور الحيوانات الخسيسة والجيف».(٩)

وعلينا ألاّ ننسى أخيراً أنّ كثيراً من النظريات الشعرية المعاصرة، كالمعادل الموضوعي والقناع والمونولوغ هي من مقولة (على الشاعر ألاّ يتكلّم بنفسه) الأرسطية.

٢.

تحوّل مصطلح (الشعرية) في الرومانسية من المحاكاة إلى التعبيرية، واستبدل الخيال بالعقل معياراً للشعرية، وإذا كان الناقد ينطلق من العقل، لأنّ ولادة أيّ نظرية نقدية مرتهنة بالفكر السليم فإنّ الشعراء يتمرّدون على ذلك، ويحاولون أن يخرجوا من القمقم الذي يُهيِّئه النقاد لهم، ولذلك هم يعصون الأوامر ويرفضون النصائح التي يوجّهها هؤلاء النقاد لهم.

والحرب بين الشعراء والنقاد قديمة، وهي حالة صحيّة أكثر مما هي حالة مرضية، وإذا كانت طبيعة الحياة قد تغيّرت بسبب الظروف الجديدة فإنّ طبيعة الشعر والشعرية لابدّ لها من أن تتغيّر هي الأخرى، وكان قد مرّ على نظرية المحاكاة ما يزيدُ على ألفي عام، وكان النقاد يردّدون ما قاله أرسطو بشكل أو بآخر، فدخل الشعر والشعرية في النمطية.

وبما أنّ الشعراء قد تحوّلوا في خطابهم من الطبقة الأرستقراطية إلى الطبقات التي قُهرت في عصر الآلة نتيجة للآلام التي نجمت عنها، وكان الشعراء عاجزين عن

التغيير الحقيقي في الواقع فانطوَوا على أنفسهم، وانتشر ما سُمّي بمرض العصر في الأدب الرومانسي، فانسحبوا إلى دواخلهم، ولذلك انتقل الشعر من المحاكاة إلى التعبيرية الذاتية، وبرز ضمير مفرد المتكلم (أنا) في بنية القصيدة، فهيمنت الغنائية الروحية الصافية هيمنة طاغية في العصر الرومانسي، وعادوا إلى أفلاطون في الحبّ والعاطفة والمثال والمطلق الكلّي (الذي يؤلّف المضمون الداخلي للفنّ الرومانسي).(١٠)

ثمّ كانت الدعوة إلى الحرية في الموضوعات والأشكال والأجناس الأدبية، وتعرّض المضمون لتقلّبات النفس ممّا جعله (ينفتح في شكل تعدّدي لا حدّ له من الأشكال)،(١١) ولذلك برز الشعر الغنائي على سواه، حتّى إنّ مدام دي ستايل ذهبت إلى (أنّ الشعر الغنائي هو وحده الشعر الحقيقي، وأنّ الأنواع الأخرى، تأخذ منه أساليبها، ولكنّها تهمل جوهره).(١٢)

وليس ذلك وحسب، وإنّما هدمت الشعرية الرومانسية التعبيرية الحدود بين الأجناس الأدبية، وغزت الأنواع الشعرية والفنية، بل أصبحت الغنائية جوهر الشعرية ومصدرها كما يقول هيغل: (والحقّ أنّ الغنائية تؤلف السمة الأساسية، والجوهرية، للفنّ الرومانسي، ونحن نتلقّاها حتّى في الملحمة والدراما، بل حتى في الأعمال التشكيلية التي تحيط بها الغنائية كما لو أنّها هالة).(١٣)

وإذا كان الشعر الموضوعي هو الذي هيمن في نظرية المحاكاة الأرسطية فإنّ الشعر الذاتي الغنائي هو الذي هيمن في الفن الرومانسي، ومع ذلك فإنّ بعض الدارسين كان ذا نظرة موضوعية، فهو لا يفاضل فيما بين الأجناس الشعرية أو سواها، وإنّما المفاضلة تكون ضمن الجنس الواحد جودةً ورداءة.

وإذا «كانت القصيدة الغنائية تختلف عن زميلتها القصصية بمقدار ما يختلف النمر عن الأسد، فبديهي أن تحكم على القصيدة الغنائية في حدود ما يستطيع الشعر الغنائي أن يؤديه، وأن تحكم على الملحمة في حدود ما يستطيع الشعر القصصي أن يبلغه.

فالقصيدة الغنائية الجيّدة هي التي تجود في صفتها الغنائية، كما أنّ خير النمور ما يمثّل طبيعة النمر على وجهها الكامل».(١٤)

أصبح الخيال معياراً لجودة القصيدة أو رداءتها، وكانت نظرية الشكل العضوي، وخاصة عند كولردج، معياراً للشعرية في الرومانسية، وتتضمن هذه النظرية.

١- التفرقة بين الخيال الأولي والخيال الثانوي، فإذا كان الأول ضرورياً للعالم والفيلسوف والشاعر، ومجاله العقل، فإنّ

الثاني من اختصاص الشعراء وحدهم. وإذا كان الخيال الأولي ينطبق على النظّامين فإنّ الخيال الثانوي سمة دالة على الشعراء العباقرة، ولذلك رفع كولردج مكانة الشاعر -كما فعل أرسطو من قبل- فوق مكانة الفيلسوف والمؤرخ والعالم والنظّام، وذلك لأنّه يمتلك هذا النوع من الخيال الذي يُفضي إلى المثال والوحدة في طريقة عمله: (إنّه يحلّل وينشر ويجزئ لكي يخلق من جديد أو، حيث تكون هذه العملية غير ممكنة يصارع مع ذلك وفي كلّ الحالات لأن يرفع إلى مستوى المثال وأن يوحّد).(١٥)

٢- التفرقة بين الخيال والتوهم، فإذا كان الخيال يوحّد وينتج الشكل العضوي فإنّ التوهم لا ينتج سوى الشكل الآلي، وهو علامة على الخبرة والممارسة، في حين أن الخيال (هو القوّة التي بوساطتها تستطيع صورة معينة أو إحساس واحد أن يهيمن على عدة صور أو أحاسيس (في القصيدة) فيحقّق الوحدة فيما بينها بطريقة أشبه بالصهر).(١٦)

ويذهب بنا هذا القول المقبوس إلى الأصل لمقولة (العنصر المهيمن) (Dominante) عند ياكبسون، وهي ذات صلة قوية بالإحساس المهيمن في العمل الفني الصادر عن المخيلة عند كولردج، فهو الذي يهيمن ويوحّد، ولذلك كان الخيال قوّة تركيبية سحرية غير محسوسة، في حين أنّ التوهّم قوة تركيبية عقلية محسوسة، وهو قوّة تجميعية، في حين أن الخيال قوّة صاهرة توحّد الثنائيات وفق قانون الشكل العضوي.

ولابدّ من التنبّه على قضية نقدية هامة نجمت عن نظرية الشكل العضوي، وهي أنّ لكل عمل شعري بذرة داخلية تشكّله وفق طبيعتها، وهذا يفضي إلى أنّه حيث يوجد الخيال تتحقّق الوحدة العضوية، ويصبح لكل عمل شكله الخاص الذي ينبع من باطنه، وهذا يعني استقلال هذا العمل عن سواه، ولذلك كان الشكل العضوي بداية التحوّل في قضية التداخلات الأجناسيّة التي انتشرت فيما بعد في البنيوية وما بعدها.

وهذا يتناسب مع مبدأ التطور الذي يترافق والتحولات الأجناسية، وهذا ما عبّر عنه كروتشه بقوله: «ولقد طالما هزئ الفنانون (بقوانين الأجناس) هذه، وإن تظاهروا بقبولها باللفظ أو بزائف الطاعة، فكلّ أثر فنّي حقّ تجاوزاً لقوانين جنس ما، سفّه آراء النقاد واضطرهم إلى توسيع ميدان هذا الجنس، إلى أن يضيق مرّة أخرى بولادة آثار فنّية جديدة، تستتبع (فضيحة) جديدة وتسفيهاً جديداً، وتوسيعات جديدة».(١٧)

وربما يكون كولردج من الذين أولوا القراءة الشعرية أهمية كبرى، فهو يؤكّد أنّ الشعر وحده قابل لتجدّد القراءة وتجدّد

المتعة بالقراءة، وهذا ما وجدناه فيما بعد في أعمال بارت وتودوروف وديريدا وإيكو، وقد كان لهذا الناقد الشاعر الفيلسوف إسهام في ذلك حين قال: «ليست القصيدة التي قرأناها هي التي لها القوة الأصلية والتي تستحق اسم الشعر في أساسه، بل تلك التي نعود إليها في أعظم قدر من المتعة».(١٨) ومن هنا كان ريتشاردز معجباً كلّ الإعجاب بنظرية الشكل العضوي.

وترابطها واكتمالها حتى أنّه قال: «لقد كان (كولردج) أوّل من عرف الخيال بهذا المعنى، وتعميقه هذا هو أكبر خدمة أسداها للنظرية النقدية، ومن الصعب أن نضيف إلى قوله شيئاً اللّهم إلاّ من باب التفسير»(١٩).

٣.

نحت الشعرية في ما بعد الرومانسية مناحي مختلفة ناجمة عن ثورة الرومانسية نفسها، فاتجهت إلى جماليات القبح من جهة، وسلطة النص من جهة ثانية، والانفتاح على الأجناس المختلفة من جهة أخرى.

فقد انتشرت جماليات القبح في الشعر إلى حدّ ملموس، وانتشرت معها مقولة نقدية هامة، وهي عدم جواز المفاضلة بين الأجناس الأدبية والفنية، فليس الشعر أرفع من الخزف، ونقيض ذلك صحيح، ولكلّ فنّ جمالياته الخاصة به والناجمة عن بنيته، حتى أنّ الشعراء أخذوا يبحثون عن القبح في الطبيعة ليحوّلوه إلى موادّ فنية جمالية.

وفي الشعر العربي القديم صور من ذلك في الهجاء والوصف، وفي الشعر الفرنسي الرومانسي صور للمومس الفاضلة والموت المحبّب والألم العبقري.

وليس ذلك وحسب، وإنّما سمح الرومانسيون ومن جاء بعدهم للألفاظ التي كانت مهملة ومحتقرة بالتسلّل إلى الحرم الشعري، ففتحوا الطريق أمام بودلير وإليوت وسواهما للنهل من معين هذه الألفاظ في قصائدهم، وكانت الشعرية في السريالية آلية نفسية تنهل من الخارق والغرائبيّ والعجائبيّ والراعب.

وتحوّلت الشعرية عند الشكلانيين الروس والبنيويين تحوّلات خطيرة، وخاصة بعد مقولة (الأدبية) (littérarité) التي حلّت محلّ الشعرية ووجهت الدراسات الأدبية وجهة جديدة، وخاصة أنّ الأجناس الأدبية أخذت تتداخل في القرن العشرين تداخلاً لافتاً للنظر، فكان مفهوم الأدبية مقابلاً لهذا التداخل، أو هو توسيع لمجالات الشعرية، فهو يتضمّنها ويتضمّن سواها.

وقد حدّد ياكبسون هذا المفهوم بقوله: «الشعر لغة في وظيفته الجمالية. إنّ علم الأدب ليس الأدب، ولكنّه الأدبيّة (littérarité) أي ما يجعل من أثر ما

أثراً أدبياً».[٢٠] فكانت الأدبية معياراً لتمييز الأدبي من سواه، أو هي معيار لتمييز ما تنتجه المخيلة مما ينتجه العقل، فتوسّعت دائرة العمل في الشعرية حتى غدت بلا حدود.

وسعت البنيوية إلى أن تجعل من الشعرية علماً خالصاً، فقدّمت ذات النص على ذات الكاتب وموضوعاته ومحيطه، وأهملت القيم والأخلاق والتاريخ والفاعل لنزوعها العلمي الشديد، وخاصة حين اتجهت إلى النص وحده، فاهتمّت بمستوياته المختلفة، ودرست خصائصه الصوتية والتركيبية والدلالية بغية إدراك العلاقات التي تنتظم البنية الكلية، واهتمّت هذه الشعريّة بما هو سكوني ومتزامن، وتحدّت العوامل التاريخية للوصول إلى عَلْمَنة الشعرية.

وتتجلّى سلطة القارئ في شعرية ما بعد البنيوية في قراءة الغائب أو ماليس مكتوباً نتيجة لتطور الكتابة من جهة، واستقلال القارئ من جهة ثانية، وتقاطع النقد والفلسفة من جهة ثالثة، وبما أن النّص أصبح رهناً بالكتابة، فقد صار مطلوباً منه أن يكون قادراً على خلخلة النظم والتصنيفات والحدود التي أقام أسوارها النقد، وصار النّص فيضاً وطوفاناً جرف الحدود والأسوار من جهة، وحرّر الدال من مدلوله من جهة أخرى، ولذلك خرج النص أيضاً على نظرية الشكل العضوي عند كولردج، فليس النص عند كولردج، صنيع بذرة محدَّدة، وإنّما هو شبيه بشبكة العنكبوت، كما هي الحال عند بارت، ولذلك كانت مقولة (النص المفتوح)، دليلاً على ثراء العمل الأدبي من جهة، ومعياراً على جودة شعريته من جهة أخرى، وخاصة إذا كان النّص ضبابيّاً، لأنَّ (موضوع الشعرية مفضَّل بالأعمال المضمرة أكثر مما هو مفضّل بالأعمال الواقعية)،[٢١] ولذلك أيضاً سمَّى بارت النّص المفتوح بنص اللذة، و(نصّ اللذة هو بابل السعيدة).[٢٢]

وتشير مقولتا التناص والنص المفتوح إلى أن النص مزدوج الشيفرة، وفيه بنيتان: سطحية وعميقة، أو هو طبقات فوق طبقات، كتراكم أو امتداد موضوعي الحنين والطلل والشكل والعبارات في عمق التاريخ النّصيّ، مما جعل الشعرية تقترب من الأركيولوجيا.

فالتناص ينفتح على النص المفتوح، ونقيض ذلك صحيح أيضاً، وهما يتلاقيان في تعدّد الأصوات أفقيّاً وعمودياً، لأنّهما لا يقولان شيئاً واحداً، أوهما كمجتمع متعدّد متفاعل البنى العرقية والاجتماعية والثقافية، ولذلك ذهب جيرار جينيت إلى أنَّ موضوع الشاعرية ليس النّص في حالته الانفرادية (...)، لكنَّ موضوعها في النّص الجامع (ARCHITEXTE).[٢٣] ثم ارتقت الشعرية عند ديريدا إلى مفهوم

الاختلاف الذي يتضمن في داخله التأجيل، وهو: (مفهوم مقتصد يحدّد عملية المغايرة والتأجيل أو الإرجاء في آنٍ واحدٍ معاً).(٢٤) ولذلك كانت القراءة التفكيكية هي البحث عن معنى من المتعذّر الوصول إليه، أو هو معنىً ضائع.

كانت شعرية مابعد البنيوية -وإن اتفقت في الظواهر الأساسية والملامح العامة- مختلفة اختلافاً جذرياً بين ناقد وآخر، فقد تمسّك إيكو وكوهين مثلاً بالوظيفة التواصلية، في حين ضرب أصحاب نظريات التناص وموت المؤلف والتفكيكية بهذه الوظيفة عرض الحائط، ونسفوا الجسور الممتدّة بين الدال والمدلول، وحرّروا الأول من سلطة الثاني، فصار من الصعوبة الإمساك بمدلول الدال ومرجعياته المتغيّرة باستمرار.

ففقد النص سلطته التي كان يتمتع بها في عصر البنيوية، لتتحوّل هذه السلطة إلى الطرف الآخر (القارئ)، وصارت الحقيقة متعدّدة من جهة، وغائبة من جهة أخرى.

واقتربت الشعرية عند نقّاد مابعد الحداثة من الشاعرية (الإبداع)، وخاصة عند بارت وتودوروف وديريدا، وكانت الحدود التي تفصل بين الشعرية والإبداع شاسعة في المحاكاة، ولكنّها اقتربت شيئاً فشيئاً في الرومانسية، ثمّ أخذت تتطابق وتتماهى فيما بعد البنيوية، فبدلاً من أن يكون النقد حديثاً عن النص تحوّل إلى حديث عن الذات في سلطة القارئ ومتعته.

وتحوّل النقد من وظيفة الإجابة إلى التساؤل، ومن قراءة الأثر ونقده إلى كتابة الناقد وإبداعه، وتحوّل النقد من أن يكون علماً خالصاً إلى أن يصبح جنساً أدبياً.

٤.

إنّ تعريف الشعرية من خلال هذه التحوّلات النظرية أمر متعذّر، بل هو أقرب إلى العبث واللاجدوى، ولكنّ تعريفها في فترة محدّدة، أو عند شاعر معيّن، أو مدرسة أقرب إلى المعقول، ويكون حينذاك قريباً من الدقة.

ففي مصطلح الشعرية كثير من الثوابت والأصول التي تتردّد وتتنقل من زمن إلى آخر، ولا غنى لأيّ شعرية عنها، فهي الأساس الذي إذا اهتزّ اهتزّ الشعر نفسه، وفيه أيضاً كثير من المتغيرات التي لا بدّ منها بسبب الظروف الطارئة.

من الثوابت في مصطلح (الشعرية) التي مرت معنا:

١-التفرقة بين الشعر والنظم من جهة والتفرقة بين الشعر والنثر من جهة أخرى،

وهـذا ينسحب علـى التفرقة بـين الشعر الخالد والشعر البائد، وبين الشكل العضوي والشكل الآلي، وبين النص المفتوح والنص المغلق.. إلخ.

٢-البحث الدائم عـن صفة تجعل من الـكلام شعرياً، وقد تتردّد هـذه الصفة أو العنصـر أو ما شابه ذلك بـين عصر وآخر بأشكال مختلفة.

فالـوزن والقافية عنصران ضروريان في الشعريـة العربية، وهما معيـاران للتمييز بـين الشعر والنثر، ولذلك وصـف قدامة ابـن جعفر الشعر بأنّه (قـول موزون مقفّى يدلّ على معنـى).[٢٥] وهو كذلك في نظرية الشـكل العضوي في الرومانسية، فقد ذهب كولردج إلى أنّ الوزن من أهم ملامح الوعي الشعري في الشـكل العضوي، وهو ضروري كالخميرة، فقال: «إننـي أستخلص الغرض من كلّ الأسباب المذكورة في غير هذا المكان الـذي يجعل الـوزن هو الشـكل الصحيح للشعر، ويجعل الشعر ناقصاً ومعيباً من دون الوزن».[٣٦]

وتكـون الصفة أو العنصـر واحداً عند هذا الناقـد وذاك، ولكنّها تختلف اختلافاً طفيفاً، فثمة بذرة في الشكل العضوي تنمو مـن الداخل، لتنتشـر في العناصر والأجزاء وتحوّلها إلى بنية حيّة موحدة عند كولردج، ولا تختلف المهيمنـة (La dominante) عن هذه البـذرة التي تحـدّد أدبية العمل، ويصفهـا ياكبسـون بقولـه: «يمكن تحديد المهيمنـة بوصفها المكوّن المحوري (Focal) في أيّ عمـل فنّـي: هـي تتحكـم وتحوّل العناصر الأخرى، وهي التي تتكفّل بالتحام البنية».[٣٧]

وهـذا الوصف قريب جـدّاً من وصف كولردج للخيال: «هـو القوة التي بوساطتها تستطيع صورة معينـة أو إحساس واحد أن يهيمـن على عـدة صـور أو أحاسيس (في القصيدة) فيحقّق فيما بينها بطريقة أشبه بالصهر».[٣٨]

ومن المتغيرات في مصطلح الشعرية التي مرت معنا:

١-المعايير، وهي تختلف بين عصر وآخر ومدرسـة وأخرى تبعاً لاختـلاف الأجناس الشعرية أو الرؤية النقدية أو ما يشبه ذلك، فالمحاكاة كانت معياراً لجودة الشعر التمثيلي والشعر السردي عند أرسطو في (فنّ الشعر)، وغدا العقل معياراً عند بوالو، في حين تراجع هذا المعيار أمام الخيـال حين تقدّم الشعر الغنائي على سواه في الرومانسية، وتعددت

المعايير الشعرية في القرن العشرين، فالتناص معيار الجودة عند كريستيفا وجينيت، والنّص المفتوح عند بارت وإيكو ودريدا، والانزياح عند كوهين، ولا شعر عنده من دون انزياح، بل هو ما يميز الشعري من سواه في قوله: «نستطيع أن نقدّم البرهان –النقيض، فنثبت أنّه يكفي أن نحذف الانزياح أو نضعفه في أيّ صيغة شعرية لينتفي الشعر».(٢٩)

٢–المجالات، وهي تختلف أيضاً بين عصر وآخر وبين ناقد وآخر، فقد اقتصرت الشعرية في المحاكاة على الشعر الموضوعي في التمثيل (التراجيديا –الكوميديا)، والسرد (الملحمة)، في حين اقتصرت الشعرية الرومانسية على الشعر الغنائي، ولكنّ التداخلات الأجناسية التي بدأت في الرومانسية أفضت إلى توسيع مجالاتها، ثم جاءت مقولة (الأدبية) عند الشكلانيين الروس، لتوسّع مجالات الشعرية إلى حدود لم تصلها من قبل.

فتحدّث ميخائيل باختين عن (شعرية دوستويفسكي) ١٩٦٩م في السرد، وتابعه تودوروف، فتحدّث عن (شعرية النثر) ١٩٧١م، وسارت الشعرية في البنيوية وما بعدها على هذا المنحى في دراسات بارت وجينيت وإيكو ودريدا وسواهم، وحجتهم في ذلك مقولة (الأدبية) من جهة، وحضور مشاهد شعرية في السرد والنثر الأدبيين، أو ولادة أجناس أدبية خلاسية، كـ(الشعر المنثور) و(قصيدة النثر).

ولذلك صارت ترجمة هذا المصطلح إلى العربية تمثّل أقصى درجات الإشكال والاختلاف حسب الأمزجة والأهواء، فمن ذاهب إلى أنّها شعرية، ومن ذاهب إلى أنّها إنشائية أو إبداعية أو بويطيقا أو بويتيك أو سوى ذلك، وإن كان عدد من النقاد يحصرون الشعرية في علم الشعر وحده، ويذهبون إلى أن الشعر كلام سام لا يرتقي إليه أيّ كلام، وفي مقدمة هؤلاء جان كوهين الذي ذهب إلى أن للشعر طبيعة سلطانية، فإمّا أن يظلّ سيّداً أو يتنحّى.(٣٠)

إن التطور والتعاقب في أيّ مصطلح من المصطلحات النقدية، وفي مقدمتها (الشعرية) يجعل تعدّد التعريفات صحيحاً، وذلك بالقياس إلى مكانه وزمانه ومدارسه وشعرائه، فالوزن في الشعرية العربية وسواها أساس راسخ فيها، والصورة أساس في شعرية الصوريين، والموسيقا أساس في الرمزية، والرؤيا أساس في شعر الحداثة، وهكذا فإن الشعرية تتجدّد بتجدّد المذاهب وتغتني بها وتتنوّع، ولذلك فإن مصطلح (الشعرية) متجدّد، وهو في نهاية المطاف معنيّ بدراسة بنية الشعر أوّلاً وأخيراً.

الهوامش

١-انظــر المسدّي، عبد السلام: «الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي: أنموذج الشعرية والسيميائية»، المجلة العربية للثقافة، تونس، س١٣، ع٢٤، مارس ١٩٩٣م، ص٣٧.

٢-ياكبسون، رومان: قضايا الشعرية، دار توبقال للنشر، المغرب، ص٢٤.

٣-الموسـى، د.خليل ومحمـود، د.إبراهيم كايد: من مصطلحات معجم النقد الأدبـي المعاصر، دمشق ٢٠٠٠م، ص٥٥- ٥٦.

٤-أرسطو طاليس: فنّ الشعر، تر.عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٢م، ص١٨.

٥-المصدر نفسه، ص٦٩.

٦-المصدر نفسه، ص٢٨.

٧-المصدر نفسه، ص٤٣.

٨-المصدر نفسه، ص٢٦.

٩-المصدر نفسه، ص١٢.

١٠-هيغل: الفنّ الرومانسي، تر. جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ص١٧.

١١-المصدر نفسه، ص١٧.

١٢-نقلاً عن فان تييغيم، فيليب: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، تر. فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٧٥م، ص١٨٩.

١٣-الفنّ الرومانسي، ص٢٠.

١٤-تشارلـتن، هــ.ب: فنون الأدب، تر.زكي نجيب محمـود، لجنة التأليف والترجمـة والنشر، مصر، ١٩٤٥م، ص٩١.

١٥-كولـردج: النظريـة الرومانتيكية في الشعر.سـيرة أدبية، تر.د.عبد الحكيم حسّـان، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م، ص٢٤٠.

١٦-نقلاً عن بدوي، د.محمد مصطفى: كولردج، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م، ص ١٥٨.

١٧-كروتشـه، بندتو: علم الجمـال، تر.نزيه الحكيم، المجلس الأعلى لرعاية الفنـون والآداب والعلوم، دمشق، ١٩٦٣م، ص٥٠- ٥١.

١٨-النظرية الرومانتيكية، ص١٦.

١٩-مبـادئ النقد الأدبي، تر. وتقديم د.محمـد مصطفى بدوي، المؤسّسة المصريـة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢١٢.

20-Jakebson, Roman: Huit questions de poétique, seuil, 1977, P. 16.

21-Ducrot, Oswald et Todorov, Tzvetan: dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, seuil, 1972, P. 106.

22-Barthes, Roland: le plaisir du texte, seuil, 1973, P. 10.

23-Genette, Gérard: Palimpsestes (la littérature au second degré) Seuil, 1982, P. 7.

٢٤-دريـدا، جـاك: الكتابة والاختلاف، تر.كاظـم جهاد، دار توبقـال للنشر، الدار البيضـاء، ط١، ١٩٨٨م، ص١٢٦.

٢٥-نقد الشعر، تح.كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٩٧٨م، ص١٥، وانظر: الحاتمي: الرسالة الموضحة، تح. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٥، وابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تح.د.مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣م، ص٢٧٣..إلخ.

٢٦-كولـردج: النظريـة الرومانتيكية في الشعر- سـيرة أدبية، تر.د.عبد الحكيم حسـان، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م، ص٣٠٢.

27-Jakebson: Huit questions, P. 77.

٢٨-نقلاً عن بدوي، د.محمد مصطفى، كولردج، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م، ص ١٥٨.

29-Cohen, jean: structure du langage poétique, flommarion, 1966, P. 127.

30-ibid, P. 170.

الإعلام متهمٌ في زمن الأزمات

✪
د. خير الدين عبد الرحمن

كلّما اضطررت إلى متابعة أي من معظم الوسائل الإعلامية العربية والعالم ثالثية، وخاصة منها الرسمية، أتذكر قول الإمام علي بن أبي طالب: «أغبى الناس من استغبى الناس»، لشدّة ما تفضح كل من تلك الوسائل نفسها بنفسها، مظهرة عقلية متخلفة متحجرة تخاطب ذاتها متوهمة أنها تخاطب الناس، ولا تقتنع هي بما تقوله! أعرض هنا مثالاً تجسده واقعة شاهدتها بأم عيني في دولة غير عربية أشرت إليها في مقالة نشرتها

قبل عشرين سنة. كنت قد بدأت عملي قبل أسابيع قليلة سفيراً في تلك الدولة عندما تناهت إلي أصوات ضجيج متصل ومتصاعد قادمة من الشارع، بينما كنت في مكتبي - كعادتي، قبل بدء الدوام الرسمي بنصف ساعة- مستغرقاً في مراجعة مجموعة أوراق ورسائل.

استفسرت من (سكرتيري) لدى وصوله بعد نحو خمس عشرة دقيقة عن مصدر هذا الضجيج المتصل، فقال لاهثاً إن اضطرابات إثنية قد اندلعت في العاصمة، وإن مئات المباني يجري إحراقها، وروى أنه شاهد بنفسه إحراق سيارة عمداً بمن فيها من ركاب على بعد مئتي متر من مكتبي، فجاء راكضاً خوفاً من أن يؤذيه بعض من يروحون ويجيئون في مجموعات صغيرة، يضربون ويحرقون بلا تمييز، ويطلق بعضهم الرصاص!.

أمّا عن تلك الأصوات المتصاعدة في الشارع الذي نقيم فيه فقال قد تمّ إيقاف قرابة عشرين شاباً وإرغامهم على الجثو

✪ أديب وكاتب وسفير سابق.

صفاً على امتداد سور الفندق السياحي الفخم المقابل لمقرّنا، ثم انهال عليهم جنود ورجال شرطة ورجال أمن بلباس مدني وعابرون في الشارع ضرباً ولكماً وركلاً.

تناهى إلى مسمعي في تلك اللحظة صوت عاملة محلية من شرفة منزلي المجاور تتحدث إلى ابنتي التي كانت في مطلع عامها السادس آنذاك، فأسرعت لأجدها بالفعل تشرح لأطفالي بفرح ممزوج بحقد شديد كيف أنهم سوف يحرقون ويقتلون خصومهم، بينما كانت عاملة ثانية من الأقلية التي تحدثت العاملة الأولى عن حرق أفرادها وقتلهم تجلس مرتعدة على أرض الشرفة!

أنّبت العاملة الأولى وطلبت منها بحزم الدخول وإبعاد أطفالي عن هذا المشهد، كما طلبت من العاملة الثانية أن تهدأ وتدخل بدورها ولا تستجيب لاستفزاز العاملة الأولى. تذكرت بعد ذلك ما قيل لي أنه يجري عند سور الفندق المقابل فنظرت إليه لأجد أكثر الموقوفين ممددين على الرصيف، مضرجين بالدماء. أدهشني أن بعض من كانوا يضربونهم قد استطاعوا اقتلاع عدة أحجار كبيرة من تلك التي تحدّد الرصيف، ثم صعد اثنان منهم السور ورفع كل منهما الحجر الضخم الذي كان يحمله إلى أقصى ما استطاع ذراعاه، ثم رماه بقوة على الموقوفين الذين كان بعضهم جاثياً وأكثرهم ممدّداً بلا حراك.

كرر الاثنان ارتقاء السور وإلقاء الحجرين فحطما أطرافاً وهشّما عدة جماجم بشرية! ارتقى آخرون السور بعد ذلك، مكتفين بالقفز على رؤوس بعض الجاثين والممددين وصدورهم وظهورهم، بينما اكتفى عدد من الجنود بالركل والضرب بأخمص البندقية في البداية، ثم الطعن بحراب البنادق، في حين طغى صوت ضابط على صراخ الجرحى صائحاً بلغته المحلية التي لا أعرفها. فهمت مضمون ما قاله بعد لحظات عندما رأيت الذين كانوا أحياء من الجرحى الممددين يحاولون الجثو مجدداً للتحرك بما يسميه العسكريون (مشية البطة)، وهو نوع من عقاب قاس للأصحاء، فما بالك بالجرحى وذوي العظام المهشمة. كان المشهد مريعاً، فهرعت وأنا أرتعد غضباً نحو الشارع لأوقف تلك المجزرة، لكن (سكرتيري) وعاملة الهاتف والسائق توسلوا إليّ كي لا أخرج، فالهياج كان كفيلاً بأن يطلق بعضهم النار نحوي من دون وجل أو تردد فيما لو تدخلت.

وفيما كنت أجادلهم رأيت شخصاً يصب سائلاً أبيض اللون من دلو على رؤوس من تبقى حيّاً من المساكين الجرحى. عندئذ دخلت غرفة مكتبي مقترباً من حالة إغماء، وفجأة سمعت صوت إطلاق رصاصات. دخل (سكرتيري) قائلاً إن الأمر قد انتهى بإطلاق

الرصاص على من بقي حياً من الموقوفين، بعد صب مادة كاوية على وجوههم.

أثار بيان رسمي تلاه وزير إعلام تلك الدولة والناطق الرسمي باسم حكومتها مساء ذلك اليوم حنقي وغضبي، بمثل ما أثارته تلك المجزرة التي شهدتها بأمّ عيني في الصباح، فقد زعم ذلك الوزير الكذّاب في بيانه أن «البلاد لم تشهد لحسن الحظ سقوط أي ضحايا بشرية في الاضطرابات العابرة التي حدثت صباحاً، وفقاً لآخر تقارير وصلت إلى وزارتيّ الداخلية والدفاع من أنحاء البلاد كافة»!

كرر الوزير الكذّاب نفيه هذا مرتين في مؤتمر صحفي، رداً على صحفيين أجانب جادلوه بأن معلومات مخالفة قد بلغتهم، أو أنهم شاهدوا ضحايا بأم العين! عندما كتبت مقالاتي التي تضمنت شهادتي عن تلك المجزرة، كررت التعهد بأنني على استعداد للإدلاء بشهادتي تحت القسم أمام أي محكمة دولية بشأن تلك الواقعة التي تأكدت لاحقاً أن مئات الجرائم الأخرى التي تماثلها أو تدانيها أو تفوقها وحشية وإجراماً قد وقعت في ذلك اليوم والأيام التي تلته.

علماً بأنني قد أطلقت ذلك التعهد في لقاءات دبلوماسية حتى خلال عملي في تلك الدولة، مؤكداً أنني على استعداد للشهادة بما رأيت ولو اضطررت إلى الاستقالة من عملي تجنباً لإحراج من أمثل.

بعد مرور نحو ثلاثين سنة على تلك المجزرة، وبعدما كررت إعلان استعدادي للشهادة بشأنها أمام أي محكمة، لم تتصل بي أية جهة، وبالتالي لم تكترث بالأمر أي من تلك الجهات التي تقيم الدنيا ولا تقعدها فيما لو أصيب أصبع مغتصب صهيوني في فلسطين أو جندي أمريكي محتل في العراق أو في أفغانستان بخدش! بالمناسبة، استمرت الاضطرابات التي وصفها وزير الإعلام الكذّاب ذاك بالعابرة لثلاثين سنة دامية بعد بيانه المشار إليه!

• • •

بحث زبيغنو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي في إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في مسألة الحملة الإعلامية الهائلة التي أطلقتها إدارة الرئيس الدموي السابق جورج بوش الابن لتعبئة الشعب الأمريكي أولاً، وشعوب العالم بأسره ثانياً، للانخراط في ما أسمته تلك الإدارة حرباً على الإرهاب، بينما هي عملياً حرب استباحة للعالم بأسره.

لقد كتب بريجنسكي يقول: «لقد خلقت الحرب على الإرهاب ثقافة خوف في أميركا بسبب التدمير الذي أحدثته هذه العبارة ذات الكلمات الثلاث في قدرة أميركا على التعامل بفاعلية مع تهديدات من جانب عدد من المتعصبين. لقد تجاوز الضرر الذي أحدثته هذه العبارة الثلاثية

ما كان يضمره المتعصبون الذين خططوا لأحداث ١١/٩»[1].

مضى بريجنسكي يقول في مقالته التي جعل عنوانها (المرعوبون من الحرب على الإرهاب) إن الإرهاب تكنيك وليس عدواً، والهدف من مبالغة الإدارة الأمريكية المفرطة في تصوير هذه الحرب وتضخيمها هو «نشر ثقافة الخوف بين الأمريكيين وفي العالم كله، ليسهل على المحافظين الجدد تنفيذ برنامجهم الإمبراطوري».

نتمعن هنا في قول جون ماركس، الموظف السابق في مركز دراسات الأمن القومي الأمريكي، حرفياً: «لقد استخدمت حكوماتنا الإرهاب بانتظام أداة في سياستها الخارجية على مدى ٣٥عاماً». نتمعن كذلك في قول هنري كيسنجر، أشهر وأخطر وزراء الخارجية الأمريكيين، في جلسة خاصة لمجلس الشيوخ يوم ١٩٧٥/١/٢٨م وفق المحاضر الرسمية للمجلس: «إن الإرهاب هو سلاحنا الحقيقي للحفاظ على مصالحنا، وإن القتل مبرر في عرفنا، والتخريب مبرر لدينا، والمؤامرات مشروعة عندنا، وإذن فما هي المشكلة ما دام كل شيء مبرراً؟»..

أكثر من هذا، بعدما أفاضت الولايات المتحدة بالزعم أن غزوها العراق جاء في سياق حربها على الإرهاب الذي اعترف جون ماركس وهنري كيسنجر بأنه سياسة رسمية مارستها الولايات المتحدة طويلاً، قال جاك سترو عندما كان وزيراً لخارجية بريطانيا الشريكة الكبرى في غزو العراق «لو أن صدام حسين قد قبل بمراعاة مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا في المنطقة لما كان احتلالنا للعراق، ولظل صدام حسين يحكم العراق»..

لقد خططت الولايات المتحدة ونفذت أربعين انقلاباً عسكرياً في أفريقيا[2] من دون أن يهتز رمش عين لمن غمروا الدنيا ضجيجاً زائفاً عن حربهم على الإرهاب!

تستخدم الحملة الإعلامية والسياسية الأمريكية الهائلة الزاعمة أنها ضد الإرهاب المعايير المزدوجة سافرة. فلم تكترث الإدارات الأمريكية التي تعمدت نشر ثقافة الخوف في مجتمعها لابتزازه، وعممت هذه الثقافة على العالم بأسره لإرهابه وإخضاعه، بما أصاب معظم شعوب العالم، وخاصة منهم العرب والمسلمين، نتيجة سياساتها المبنية على تطويع العالم بالابتزاز وبقوة الغزو الطاغية، من خلال تجديد افتعال حالة خوف. لقد اعتبر معظم الخبراء والمفكرين أن زرع الخوف هو من أشدّ الأسلحة فتكاً بالمجتمعات، إذ إنه يعطل عمل العقول ويستنفر غرائز السعي إلى البقاء بأي ثمن لدى معظم الناس، حتى لو اضطروا إلى اتباع سلوك الجبناء والضعفاء والسفهاء، أو لجؤوا إلى النقيض من خلال الردّ بتصرف اليائسين.

وفي كل الأحوال، يجعل الخوف من الناس هدفاً سهلاً للطغاة وأجهزة القمع وعصابات النهب والفساد، وهذا أكثر ما يريح الغزاة والمحتلين، لأنه يعطّل مقاومة الشعوب لهم، إلى حين.

لهذا يحرص الطغاة المستترون والمكشوفون على إدامة شعور ضحاياهم بالخوف لتشديد القبضة عليهم وتدمير مناعتهم. ولئن كان لجوء الغزاة والمحتلين إلى هذا الأسلوب مفهوماً، باعتبارهم أعداء لضحاياهم، فإن لجوء المستبدين المحليين إلى الأسلوب نفسه أشد قسوة وإيلاماً.

تصاعدت حرب التخويف التي شنتها الولايات المتحدة على أمتنا ابتداء من تبنيها اغتصاب الغزاة الصهاينة لفلسطين ودعمهم وتغطية جرائمهم وإرهابهم، مروراً بتنصيبها طغاة يأتمرون بأمرها ويخدمون نهبها لثروات أمتنا، ويحمون الاغتصاب الصهيوني العنصري لفلسطين بدلاً من مقاومته وتحرير وطننا العربي منه، وصولاً إلى غزوها العسكري واحتلالها المباشر للعراق ونشر قواعدها العسكرية وشبكاتها الاستخبارية على امتداد الوطن العربي، وشنها حرباً على ما زعمته إرهاباً جاعلة منه تهمة مفتوحة تلصقها بكل من لا يرضى عنه تحالف طواغيت الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية وتابعيهم.

• • •

خرجت دراسات ميدانية منشورة قبل أكثر من ربع قرن بنتائج تثير الرعب مما وصل إليه مدى تحكم التبعية الإعلامية والثقافية في الوطن العربي في تنشئة الأجيال واحتلال العقول وقولبة السلوك. ولئن كانت العناصر الرئيسة المؤثرة في الوظيفة الإعلامية تتضمن مدى سيطرة السلطة الحاكمة على المؤسسات الإعلامية وبالتالي مدى الحرية المتاحة لهذه المؤسسات، وسيطرة رأس المال أو مدى تأثيره عليها، ومدى ثقة المتلقين بالرسائل الإعلامية ومصادرها، ومدى التحكم بدفق المعلومات ووسائل إيصالها سريعاً وحسن توزيعها، الأمر الذي يرتبط بمستوى التطور التقني وتوافر التجهيزات الحديثة الملائمة.

فمن الواضح أن هيمنة شبكات إعلامية عابرة للقارات والدول قد جعل من مراعاة القيم والمصالح والمفاهيم والأهداف الوطنية على مستوى دولة ما أو مجتمع بعينه أمراً بالغ الصعوبة. وهنا نلاحظ أنه على الرغم من تطوير أداء بعض المواقع الإعلامية العربية للتماهي مع إفرازات تقنيات العصر وتوجهاته، اكتفى التطور السلحفائي غالباً بقشور وترقيع لا يمس الجوهر[٢]. رأى بعضنا مأزق الخطاب الإعلامي العربي مستحكماً لأنه متخلف في إمكاناته ووسائله، سلطوي في جوهره، ذرائعي في معالجاته المنطلقة من إدراك للنقائص وسعي لتغطيتها

ومن تعاجز يدفع للبحث عن أسهل الحلول والاختيارات من دون اكتراث بسلامتها، ناهيك عن إدمان الكذب والمبالغة والادعاء وتأرجح ما بين تهويل وتهوين وفق حاجة اللحظة الراهنة، وإيغال في خداع الذات والآخر لإرضاء أصحاب السلطان وتسويغ ارتكاباتهم ورغباتهم، فبات هذا الخطاب ممارسة فجة لاستغباء الناس.

وظلت قصائد المديح والهجاء الجاهلية تطل من خلف أقنعة حداثة لا تفلح في إخفاء قبح أو ستر تخلف.

ولعل أشد عناصر المأزق استحكاماً وبؤساً إمعان العقلية المتخلفة المتسلطة في توهم احتكار الحقيقة والوطنية، وبالتالي ادعاء حق التحكم المباشر بتفكير الناس ورؤاهم ومعارفهم، وفرض رقابة قمعية أو آليات تلفيق لفرض توجه ما أو خدمة مصالح السلطة الحاكمة أو رأس المال أو جهة خارجية، وممارسة وصاية أمنية على التفكير الفردي والجمعي.

هذا ما وصفناه يوماً بعملية «تطويع تمارسه أكثر النظم الحاكمة، وتمارس معه إعادة تنميط للشعب على نحو يجعلها تفكر وتقرر بالنيابة عنه، فتحوله إلى ما هو أقرب إلى قطعان معلّبة تتحرك عند الطلب بموجب تعليمات مركزية تكاد تحدد لها حتى مستوى الفرح والحزن والحماس المطلوب منها إظهاره. طبيعي أن عالم العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين لم يعد يحتمل مثل هذه العلاقة بين سلطات حاكمة وجموع محكومين»[٤].

تغفل مثل هذه العقلية حقيقة انتقال عالمنا منذ عقدين إلى فضاء الإنترنت الذي لا تجدي معه رقابة ولا قمع ولا قسر ولا تحكم خارجي، فالرقابة الفردية الذاتية وحدها باتت اليوم تخوض الصراع مع شهوات الفضول والتقليد والجوع إلى المعرفة. تعايش إعلام استبداد وفقر وجوع وتزييف وفساد ورشوة واقتصاد منهار واستسلام وخنوع وقمع وتبعية. إعلام أدمن ممارسة سلطة أبوية أوتوقراطية، في مقابل طموح إلى إعلام نمو ونهضة وتقدم ورفاه ووفرة ومقاومة وواقعية واستقلال وحداثة وحرية.. إن صناعة خطاب إعلامي عربي معاصر فاعل محكومة بمدى استعداد أصحاب هذا الخطاب لفهم طبيعة العصر وأدواته أولاً، ولاعتماد الصدق مع الذات ومع الآخر على حد سواء، والابتعاد عن الشعاراتية والادعاءات، والكف عن تطويع الأقوال والأرقام والوقائع وقولبتها على نحو مخالف للحقيقة، وعن تصوير الهزائم انتصارات والفشل إنجازات، وعن المبالغات الجوفاء التي تجعل من الأفعال العادية خوارق ومعجزات في سياق تأليه سلاطين، وتحاشي التستر على القصور والسلبيات.

كما أنها محكومة بمدى قدرتها على التصدي لهجمات شرسة مباشرة وغير مباشرة، تنطلق من اتجاهات شتى وعلى مستويات متعددة، لتفريغ أمتنا من فاعلية رابط الانتماء والهوية والعقيدة، تكريساً لفردية توجهها الشهوات والشعوذة والسطحية ونهم الاستهلاك والتحلل من العائلة ومن قيم المجتمع، وتسويغاً لعبادة المال والخيانة والكذب والتعري جسدياً وأخلاقياً والاستلاب والانبهار بمركز الهيمنة الكونية الراهن. واشتدت حملات كونية لصياغة رأي عام مستلب يخدم مصالح النظام الرأسمالي ويدعم أهدافه بلا تردد أو تفكير.

في ظل هذا الوضع تتداخل الشروط المطلوبة وتتعقد فيما بين خطابي الداخل الموجه إلى الذات والخارج الموجه إلى الآخر. يزيد المشكلة تعقيداً فراغ نشأ تحت وطأة تكرار الهزائم وسقوط المثال وتعرّي أوهام أمجاد مدّعاة، وخوارق مزعومة لحكام متألهين. راحت التبعية الثقافية والإعلامية تملأ الفراغ بعدما «أصبحت قادرة على تكييف وعي الإنسان العربي وتفكيره، وتوجيه ردود أفعاله، بشكل يخدم استراتيجيا بعيدة المدى تستهدف تدمير هذا الإنسان والحيلولة من دون استرداد وعيه وتقرير مصيره بنفسه»(٥).

رأى د.المهدي منجرة، رئيس الاتحاد العالمي للمستقبليات، أن «الرأي العام ليس حملات إعلامية وإنما هو احترام كرامة العرب.. في اليوم الذي نحترم فيه كرامتنا سيحترمنا الرأي العام الدولي»، وفي ظل عولمة تشكل أحسن الطرق للرشوة والفساد وجعلت الخطر الكبير الداهم هو انتشار القيم الأمريكية فإن «أزمتنا أزمة وجودية داخلية ذاتية نابعة من غياب الديمقراطية وهيمنة منطق الإقطاع وغياب احترام حقوق الإنسان»(٦).

لقد ذهبت الأشكال التقليدية من التخريب الأيديولوجي وعمليات الاختراق الفكري والحرب النفسية مع صفحات أخرى كثيرة طوتها الثورة التقنية والمعلوماتية، وحلت محلها وسائل حديثة بمستوى تأثير سريع واسع غير مسبوق.

وقد تشكلت شبكات وبنى إعلامية عابرة للدول، تستخدم لشن حروب شديدة الفعالية ومتعددة الأسلحة هدفها احتلال العقول وفرض المواقف، بحيث تشابه نتائجها وتأثيراتها ما تحدثه أسلحة التدمير الشامل، ردعاً وعملاً.

لقد تعقدت مشكلة الأمن الإعلامي بعدما استشرت تبعية مجتمعات الدول المتخلفة والصغيرة والفقيرة، في ظل فيضان الصخب الإعلامي العولمي واتساع الهوة التقنية والمادية بين القلة المهيمنة وسائر مجتمعات العالم.

إن طغيان تأثير المعلوماتية على سائر مجالات الحياة في عصرنا يفرض على خطابنا الإعلامي الإسهام الجاد في مواكبة المجتمع بأسره لتقنيات العصر من دون سقوط في فخ الانبهار بالآخر والتبعية والتقليد الأعمى له، أو السقوط في محنة صدمة حضارية تقود إلى احتقار الذات وامتهانها وفقدان الثقة بها.

إن حساسية الخطاب الإعلامي وسرعة انتشار تأثيراته وتفاعلاتها المتوالدة تفرض واجباً مضاعفاً في التفريق الواعي ما بين إنجازات علمية وفكرية وحضارية نتعلم منها ونستفيد مما نحتاجه منها من ناحية، وقيم وتوجهات ونمط حياة ودفق تلوّثه نفايات سلوكية وافدة تتصادم مع جوهر ومقومات ذاتنا الحضارية من ناحية ثانية.

إن الإعلام السياسي بالذات مدعو للوفاء بدوره كوسيلة هامة من وسائل تحقيق التحول الفكري والاجتماعي من خلال زيادة الوعي المجتمعي وخدمة مشاركة المواطنين الفعّالة والجادة في صنع القرار السياسي ومراقبة التقيد به أثناء مراحل التنفيذ والمحاسبة الدائمة على أساس مدى التقيد السليم بتحقيق أهداف يقررها الإجماع الوطني أو الأغلبية المجتمعية بحرية ووعي.

إن لأدوات الإعلام السياسي مسؤوليتها الخطيرة في خلق -أو في خنق- الشخصية الإيجابية-الفاعلة المشاركة غير الساكنة في المجتمع، بديلاً للشخصية المغيبة أو المقموعة أو المسخ التي لا تملك سوى التلقي والخنوع لدور المفعول به، والتي تصبح - عندما يجتاحها غزو خارجي- أسيرة هذا الدور الذي فرضه القسر السلطوي الداخلي عليها.

في المقابل، صدرت مئات الكتب التي فضحت أكاذيب الإعلام المعولم وحملاته المفبركة التي تهيمن موادها وتعليقاتها المنتقاة والمبرمجة بعناية على معظم وسائط الإعلام المحلية والإقليمية.

من تلك الكتب كتاب (اكذب علي) Tell Me Lies: Propaganda and Media Distortion in the Attack on Iraq الذي ألفه عدد من الباحثين والأكاديميين البريطانيين والأمريكيين(٧)، وكذلك كتاب ديفيد ميللر (إنهم يكذبون) الصادر عن دار بلوتو في نهاية العام ٢٠٠٣م والذي نقف من بين وقائع وحقائق أوردها عند اعتراف بالغ الأهمية للناطق الإعلامي بلسان قوات الاحتلال الأمريكية للعراق، الجنرال كينيث ألارد، إذ قال إن: «الغزو الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣م سيتذكره الآخرون باعتباره نزاعاً استخدم الإعلام والمعلومات فيه بشكل كامل سلاحاً في الحرب ضد العراق، وتحققت فيه قدرات عملياتية متداخلة مختلفة من أحدث الأسلحة الإعلامية. حمل هذا الاستخدام الأمثل نتائج كبيرة حققتها

عملية اندماج الدعاية الإعلامية الحكومية المبرمجة (البروباغندا) مع معظم المؤسسات الإعلامية الأمريكية.

إن تجربة الحرب ضد العراق في العام٢٠٠٣م تدل على عملية الاندماج المبرمج والمخطط لوسائل الإعلام مع أدوات القتال الحربي ووسائله.

كما تدل أيضاً على دور القطاع الخاص المتزايد في الهيمنة الإعلامية. ولّد هذا الدور تغيرات أكثر اتساعاً في الهيئات والخدمات العسكرية الأمريكية والبريطانية».

وإذ بتنا نعيش طغيان تأثير وسائل الإعلام والاتصال المحكومة بمصالح شبكات خفية أو شبه خفية، والتي كثيراً ما تستخدم الكذب المتقن والتزوير والتزييف والافتعال وليّ عنق الحقيقة وتطويعها بمعونة تقنيات عالية وأبحاث علمية متخصصة في فبركة الرأي العام، من المفيد تذكر ما قاله جورج كينان، أحد أبرز مؤسسي السياسة الخارجية الأمريكية في القرن العشرين: «إذا كانت السياسة الأمريكية، وتدخّل قواتنا العسكرية في الخارج تحددهما الصناعات التلفزيونية، والتلفزيون التجاري على وجه التحديد، ويستلهمهما من الشحنات العاطفية للناس، فلا تأمل في وجود حكومة مسؤولة»..

رأى بعضنا مأزق الخطاب الإعلامي العربي الرسمي والمعارض معاً مستحكماً، فهو متخلف في عقليته وإمكاناته ووسائله، سلطوي في جوهره، ذرائعي في معالجات تنطلق من إخفاء للنقائص وترويج للتعاجز وبحث عن أسهل الاختيارات والحلول دون اكتراث بسلامتها، يستسهل الكذب والمبالغة والادعاء ويتأرجح ما بين تهويل وتهوين وفق ما يظنه حاجة للحظة الراهنة، يوغل في خداع الذات والآخر لإرضاء أصحاب الشأن وتسويغ ما يرتكبونه أو يرغبون به، فبات هذا الخطاب استغباء فجاً للناس، لا تزال روائح تأثيرات قصائد المديح والهجاء الجاهلية تفوح عبر أقنعة حداثة لا يحسن هذا الإعلام ارتداءها، ولا تفلح هي في إخفاء قباحته.

من أشد عناصر المأزق استحكاماً وبؤساً استمرار عقلية متخلفة تتوهم احتكار الحقيقة، أو احتكار الوطنية، وتتخيل امتلاك سلطة التحكم المباشر بأفكار الناس ورؤاهم ومعارفهم عبر فرض رقابة أمنية أو وصاية أبوية متخلفة على الفكر الفردي والجمعي. بات خارج العصر والتاريخ ما وصفه د. أحمد برقاوي إعلام استبداد يواجه نقيضه[8]: إعلام إخفاء، تزييف، تخريف، اقتصاد منهار يواجه إعلام نمو، إعلام تعليم متدن يواجه إعلام نهضة وتقدم، إعلام فساد ورشوة يواجه إعلام نظافة ومسؤولية، إعلام فقر وجوع يواجه إعلام رفاه ووفرة، إعلام استسلام وخنوع يواجه إعلام مقاومة وواقعية، إعلام سياسة تابعة يواجه إعلام

استقـلال، إعلام سلطة أبويـة أوتوقراطية بامتيـاز يواجه إعلام حداثـة، إعلام قمع وسجون يواجه إعلام حرية.. أنهى الإنترنت سلطـة الرقابـة والتحكـم والوصاية على النشر والعروض والأفـكار والمواقف. ولا يقود التمسـك بأساليب متخلفة بائدة سوى إلى تنفير الأجيال الجديدة أكثر من الإعلام الرسمي وشبـه الرسمي المتحجـر، وتزيد الانتقال إلى فضاء الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي المفتوحة المتعددة التي لا تحدها حدود، ولا تحتكرها سلطة، وإن تحكمت بها من خلف ستار قوى خفية وغير خفية توجه دفق المعلومات وترسم مساره.

الهوامش

1- Out Look, U.S.A. 25.3.2007.

٢- د.محمد يونس، حملة مكافحة الإرهاب، صحيفة الاتحاد، أبو ظبي، ٢٢/٨/٢٠٠٢م، ص٢٩.

٣- د.خـير الدين عبد الرحمن، ملاحظات حول مهام الخطاب الإعلامي العربي، محاضرة في الندوة السنوية لجمعية الدراسات باتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م.

٤- د.خير الدين عبد الرحمن، محاضرة بعنوان: الحراك الشعبي العربي الراهن في مديرية الثقافة، الرقة، ٣٠ نيسان ٢٠٠١م.

٥- محمد عباس نور الدين، الخلفية الأيديولوجية للإعلام الغربي، المستقبل العربي، بيروت، العدد ١٩٩، أيلول ١٩٩٥م، ص٧٩.

٦- المهدي منجرة، مقابلة، المستقلة، لندن، ١٩/١٢/٢٠٠٠م، ص٣.

٧- صدر في مطلع العام ٢٠٠٤م عن دار Verso.

٨- عـن أحمد الخليـل، عارضاً كتاب ممدوح عـدوان (حيونة الإنسـان)، السفير، بـيروت، ١٦/٤/٢٠٠٤م، ص١٠.

العقــل.. في ميزان أهل العقــل

عبد الباقي يوسف ✪

يرتقــي الإنســان في درجــات الرقــي الإنســاني على قدر مــا يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشــكل إيجابي، وذاك يُقال عنه بأنه إنسان عاقل. إن هذا الإنسان يتميز بأنــه يتمكن من توظيــف إمكاناته وقدراته العقليــة بشــكل يتسم بالحكمــة والتوازن، وبالتــالي يغدو مثلاً في رجاحة عقله وسداد رأيه.

يتميز الإنسان على قدر ما يتمتع بعقل، ويتميز أكثر على قدر ما يستخدم هذا العقل في سائر وقائع حياته اليومية، فالعقل نعمة، وكذلك يمكن أن يودي بصاحبه إلى المهالك إذا استخدمــه في سبــل منحرفة تحتاج إلى شيء من الذكاء ورجاحة العقل.

من هنــا لم يكــن الحكم علــى الإنسان العاقل، بل كان الحكم علــى الإنسان الذي استخدم هذا العقــل في سبيل تقديم النفع للناس.

جواهر العقل

عندما يقــدّم الإنســان تعريفات واعية وناضجــة عن العقــل، فإنَّ ذلــك يشير إلى رجاحــة عقلــه خاصــة وأنــه يتحدث عن إمكانات العقل، وإمكانــات ومزايا الإنسان الذي يستخدم عقله بشكل إيجابي.

في تعريفــه للعقل يقول ابن خلدون: «إنَّ العلــوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً على صنفين: صنف طبيعي للإنســان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلــي يأخذه عمــن وضعه. والأول هو العلوم الحكميــة والفلسفية، وهي التي

✪ أديب وناقد وقاص.

يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشريـة إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحـاء براهينها ووجوه تعليمها، حتـى يقف نظره وبحثه علـى الصواب من الخطـأ فيها من حيث هـو إنسان ذو فكر، والثـاني هو العلوم النقليـة الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقـل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول».

يعرّف الكندي العقل بأنه «جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها». ويعرّف ابن سينا هذا الجوهر بأنه: «ليس مركباً من قوة قابلة للفســاد». ويرى الجرجاني بأنه: «مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله».

يتحـدث الفارابي عـن تعريفه لجوهر العقــل فيقــول: «إن القــوة العاقلة جوهر بسيط مقارن للمادة يبقى بعد موت البدن، وهـو جوهري أحـدي، وهـو الإنسان على الحقيقة».

وفي تعريف لأرسطو يقول فيه: «إن العقل الفاعـل هو العقـل الذي يجـرد المعاني أو الصور الكلية من لواحقها الحسية الجزئية، علـى حين أنّ العقل المنفعل هو الذي تنطبع فيه هذه الصور».

يقول ليبنتز: «يتميز الإنسان عن الحيوان بإدراك الحقائـق الضرورية والأبدية، فهي التي تولد فيه».

يرى ديـكارت أن العقل يتجلى في: «قوة الإصابة في الحكم».

في كتابه: «الأضواء البهجـة في إبـراز دقائق المنفرجة» يذكر زكريا الأنصاري بعض تعريفـات للعقـل ومما يورده عـن تعريف الإمام الغزالي للعقل: العقل اصطلاحا يقال بالاشتراك لأربعة معان:

أحدهــا: غريزة يتهيأ بهــا لدرك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء.

ثانيها: بعض العلوم الضرورية.

ثالثهــا: علـوم تستفـاد مــن التجارب بمجاري الأحوال.

رابعهــا: انتهاء قوة تلـك الغريزة إلى أن تعرف عواقب الأمور وتقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة وتقهرها.

ويشتبــه أن يكون الاســم لغة واستعمالاً لتلـك الغريزة وإنَّما أُطلق على العلوم مجازاً مــن حيث إنهــا ثمرتها كما يعــرف الشيء بثمرته فيقال: العلم هو الخشية

أمَّا الــرازي فيقــول في مفهومه للعقل بأنه:

غريــزة يتبعهــا العلــم بالنظريات عند سلامة الآلات.

ويرى الإمــام (أبو إسحاق الشيرازي) أن العقل صفة يميز بها بين الحسن والقبيح

ويقــول الإمــام الشافعي: العقــل آلة التمييز

وقـد أورد بعض التعريفـات لحكماء، منها:

- العقل جوهر مجرد غير متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

- العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله وهو النفس الناطقة التي يشير إليها كل واحد بقوله: أنا

- العقــل جوهر لطيف في البدن ينبعث شعاعه فيه كالسراج في البيت

أمَّا عن موقع العقل كما يورد:

محــل العقل الدماغ عنـد أكثر الحكماء وبعضــ الفقهــاء، ومحله القلـب عند أكثر الفقهاء وبعض الحكماء وذكر عن الشافعي استشهـاده بقول الله (ولكـن تعمى القلوب التي في الصدور) وأمَّا فساده لفساد الدماغ فلا يدل على أنه محله لجواز أن يكون سلامة الدماغ شرطاً في اتصاف القلب به عادة.

العقل من وجهة نظر أهل الفلسفة

عندمـا يتناول الفكـر الفلسفي العقل، فإنَّه يضعه تحت مجهر التأويل، وبذلك فإنه يقدم تعريفات متقدمة غاية في الأهمية عن عقل الإنسان، ومسؤوليته الفائقة تجاه هذا العقل الذي يتمتع ويمتاز به على الأرض.

وردت تعريفـات ومفاهيـم عديـدة في المعجم الفلسفـي عن العقل، وهي تعريفات هامـة ومكملـة لبعضهـا وكذلـك تغتني ببعضها.

العقل كما تـورده موسوعة لالاند: عقل (ملكـة، سبب، نشـاط، علـة) Reason، مــن المرجع أن أقدم معنـى للكلمة يتعلق بـ ratus من reor بمعنى ظن واعتقد وفكر، ويبدو أنه كان دالاً، قبل العصر المأثور، على حساب وعلاقة بنحو خاص. وأدخله لوكريس وشيشرون في اللسان الفلسفي.

أ- بوصفـه ملكة: هو ملكـة الاستدلال نظريـاً بالعقـل، ملكـة تركيـب المفاهيم والقضايـا والعبارات والمقترحـات، وبهذا المعنى يـكاد يكون خاصـاً بالإنسان. وعند بعضهم يتعارض العقـل ratio مع العاقلة intellectus علـى الرغم مــن تجذرهما المشترك في طبيعة النفس. وكان «بوسويه» يستعمله بهـذا المعنى ويمزجـه بالمعنى بـ (عقــل معياري) وهذا المعنى باق عند بعض الحديثين إذ يقــال عقل عاقل، معقِلن، كما نجـده في تعبير كائن عقلــي، كينونة وهمية مخلوقة من قبــل الفكر لحاجات الخطاب. وطبق «كورنو» هذا التعبيـر على (كينونات قوامهــا طبيعة الأشياء وعلتهــا) في مقابل (كينونــات صنعيــة ليست ســوى العلامات المنطقية).

ب- ملكــة (الحكم السليــم)، أي ملكة تمييز الخير والشـر، الصحيح والفاسد (أو

حتى الجميل والبشع) بشعور داخلي فطري وتلقائي.

(ما دام الإدراك العقلي يبدع ويخترق فإنه يدعى روحاً، وإذ يوجه إلى الحق والخير فإنه يدعى عقلاً وحكماً.. وما دام يجنبنا شر الإنسان وداءه الحقيقي، وهو الخطيئة، فإنه يدعى الوعي)؛ وبهذا المعنى يتعارض العقل إما مع الجنون وإما مع الانفعال، إذ لا يحسن المنفعل الحكم.

ج- معرفة طبيعية تتعارض مع المعرفة المنزلة التي هي موضوع الإيمان. (موضوع الإيمان هو الحقيقة التي نزلها الله بكيفية استثنائية) أمَّا العقل فهو تسلسل الحقائق، لكن بنحو خاص. عندما يقارن بالإيمان هو تسلسل الحقائق التي يمكن أن يبلغها الفكر البشري بلوغاً طبيعياً من دون عون من أنوار الإيمان.

د- منظومة مبادئ قبلية، لا تتوقف حقيقتها على التجربة، يمكن صوغها منطقياً ونحن نعرفها معرفة عقلية، فإنَّ معرفة الحقائق الضرورية والأزلية هي ما تميزنا من البهائم العادية وتجعلنا نملك العقل والعلوم وذلك يرفعنا إلى معرفة أنفسنا ومعرفة الله.

(ليس للعقل المحض والعاري والمتميز من التجربة سوى التعاطي مع حقائق مستقلة عن الحواس). هذا المعنى الذي تؤيده الكانطية كان متداولاً منذ نحو قرن في التعليم الكلاسيكي. (المذهب التجريبي يرفض وجود العقل وأطروحته العامة أن العاقلة البشرية تتحدر برمتها من التجربة).

هـ- بنحو خاص، ملكة معرفة الواقع والمطلق بنظرة مطلقة، في مقابل ما هو ظاهري أو عرضي وأحياناً (بعد التماهي بين الفكر وموضوعه) هذا المطلق عينه. (نتلقى بلا انقطاع وفي كل آن عقلاً أرفع منا مثلما نتنفس الهواء باستمرار، وهو جسم غريب عنا).. هذا المعنى الذي استبعده كانط، المؤمن باستحالة معرفة كهذه، جرى استرجاعه مع بعض التعديلات لاسيما من قبل «شلنغ».

٢ - بوصفه موضوع معرفة:

و- علاقة (عقل أوسط وأقصى. عقل متوالية)- يعتبر العقل كيف يكون عدد مضمناً في آخر، أو كيف يحتويه.. يمكن تمثله بكسر سيكون عدد ما صورته وعدد آخر مخرجه. (كونديلك، لغة الحساب)

ز - مبدأ تفسيري، بالمعنى النظري؛ موجب: ما يحيط بنتيجة. (لنفترض زوجاً ما من أية معطيات؛ إما أن يترابطا فعلياً، فيكون هناك عقل حتى يكون هناك، وسيط يفسر، لكي يبرهن ويستلزم ترابطهما) (تيين). (وهو أيضاً) (من الملكات التي يتخطى الإنسان بها الحيوان، ملكة تصور

عقل الأشياء) (كورنـو) بهذا المعنى يعارض العقــل إمّــا مع السببيــة الفعالــة وإمّا مع البرهان المنطقي الذي يلــزم بالموافقة لكن من دون تنوير الفكر.

وفي المعجم الفلسفي ترد تعريفات غنية للعقل ومنها:

العقلي Rational، Intellectual

هــو المنسوب إلى العقــل، نقول: المبادئ العقليــة والعلوم العقلية، قــال هيغل كل ما هو موجود فهو عقلي وكل ما هو عقلي فهو موجود. والعقلي أيضاً هو المنطقي Logice والنظــري Theoric. والحيــاة العقلية في علــم النفس مقابلــة للحيــاة الانفعالية أو الوجدانيــة والحياة الفاعلة. والقيم العقلية مقابلة للقيم الأخلاقية والفنية.

العقلانية Reasonalisme

هــي القــول بأولية العقــل وتطلق على معان عدة: الأول هو القول إن كل موجود له علة في وجوده بحيث لا يحدث في العالم شيء إلا وله مرجع معقول. والثاني هو القول: إنَّ المعرفــة تنشأ عن المبــادئ العقلية والقبلية والضرورية، لا عن التجــارب الحسية، لأن هذه التجارب لا تفيد علماً كلياً.

والمذهــب العقلــي بهذا المعنــى مقابل المذهــب التجريبي الذي يزعم أن كل ما في العقل متولد من الحس والتجربة.

والثالــث هــو القول: إنَّ وجــود العقلي شــرط في إمكان التجربة فلا تكون التجربة ممكنة إلا إذا كان هنالك مبادئ عقلية تنظم معطيــات الحس. مثال ذلــك أن المثل عند «أفلاطون» والمعاني النظرية عند «ديكارت» متقدمة على التجربة.

فإذا عُدَّت هذه المثل وتلك المعاني والصور شرطاً ضرورياً وكافياً لحصول المعرفة كانت العقلانية مطلقة، وإذا عُدَت شرطاً ضرورياً فقط كانت العقلانية نسبية.

والرابــع هــو الإيمان بالعقــل وبقدرته علــى إدراك الحقيقة وسبــب ذلك في نظر العقلانيين أن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجيــة وأنَّ كل موجود معقول، فإذا قالوا:

إنَّ العقــل قــادر علــى الإحاطــة بكل شــيء دونما عون خارجــي يأتيه من القلب أو الغريــزة أو الديــن كان مذهبهم مضاداً لمذهــب الإيمانيين الذين يعتقدون أن العقل لا يكشف عن الحقيقــة وإنَّما يكشف عنها الوحي والإلهام.

والعقلانيــة عند بعض علماء الدين هي القول: إن العقائد الإيمانية مطابقة لأحكام العقل. ولهــذه العقلانية ثلاثة أوجه: الأول هــو القول: إن العقل شــرط ضروري وكاف لمعرفة الحقائق الدينية.

والثاني هو الإعراض عن جميع العقائد التي لا يمكن إثباتها بالمبادئ العقلية.

والثالث هو الدفاع عن المبادئ الإيمانية بعـد فرضها صحيحة مــن الشرع من حيث يمكــن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية (ابن خلدون، المقدمة).

المذهب العقلي Intellectualism

هــو القول: إنَّ كل ما هــو موجود فهو مــردود إلى مبـادئ عقليـة وهــو مذهب «ديكارت» و«اسبينـوزا» و«ليبنتز» و«فولف» و«هيغل»، ويطلق بوجه خاص على النظرية التي ترجع الحكم إلى الذهن لا إلى الإرادة، فلا تفسح في المجال للظواهر الوجدانية ولا الإرادية في الأعمال الذهنية (مج) وهو بهذا المعنى مقابـل للمذهب الإرادي الذي يجعل تأثير الإرادة في الحيــاة النفسية أعظم من تأثير العقل.

زهور العقل

لا أقــول إن العقل يختلف من إنسان إلى آخــر، بمقدار مــا أرى أن استخــدام مزايا العقل يختلف ويتقدم مــن إنسان إلى آخر، فقد نــرى إنساناً بالغ العقــل والذكاء، بيد أنــه لايقدم شيئــاً مجديــاً في حياته، وقد نرى شخصاً متوسط العقــل والذكاء يقدّم خدمات جليلة للناس، ويغدو قدوة في الكثير من المواقف والأفعال.

من هنا يمكن مقارنة العقل ببذرة الزهرة التي تينع وتتفتح وتنشر شذاها في الأفق في تربـة ومناخ صالحَين ، وتلبث في أرضها من دون أن تتفتح في تربة ومناخ غير صالحين.

قيل لبعـض الحكمـاء: بِمَ يُعرف عقل الرجل؟

قــال: بقلة سقطــه في الــكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائباً؟

فقال: بإحدى ثــلاث: إما برسوله، وإما بكتابه، وإمــا بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفســه، وكتابه يصف نطــق لسانه، وهديته عنوان همته.

أنت قوي بعقلك /العاقل لاتبطره المنزلة السنية، كالجبل لايتزعزع وإن اشتدّت عليه الريح،والجاهل تبطره أدنى منزلة،كالحشيش يحركه أدنى ريح/.

في حديث للأصمعي عن مظهر الإنسان ومضمونــه يقول: رأيت بالبصــرة شيخاً له منظر حسن، وعليه ثياب فاخــرة وحوله حاشية وهرج، وعنده دَخْلٌ وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت له: ماكنية سيدنا؟

فقال: أبو عبد الرحمــن الرحيم مالك يوم الدين.

قال الأصمعي: فضحكــت منه وعلمت قلة عقله، وكثرة جهله.

وفي ذلــك يقــول «مبشّــر بــن الهديل الفزاري» شعراً:

ولا خير في حُسن الجسوم وطولها
إذا لم تُزِنْ حُسن الجسوم عقول

وفي وصف شعري «لابن شرف القيرواني» يقول:

احذر محاسن أوجه فقدت
محاسن أنفس ولو أنها أقمار
سُرجٌ إذا نظرتَ فإنها
نورٌ يضيءُ وإن مسستَ فنارُ

وكان الوزير «ابن المغزي» الذي تولى الوزارة في عهد البويهيين في بغداد ويحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر العربي القديم يقول:

رأيت الحُسنَ في أدبٍ وعقلٍ
وفي الجهلِ الدمامةُ والهوان

ويقول «شبيب بن شبيبة»:

وكم من ماجد أضحى عديماً
له حسنٌ وليس له بيانُ
وما حسن الرجالِ لهم بزين
إذا لم يُسعد الحُسنَ اللسَانُ

ويرى حكيم الشعر «المتنبي»:

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً
إذا لم يكن في فعله والخلائق.

يُروى أنَّ رجلا أراد أن يختبر ذكاء زوجته فقال لها وهي صاعدة السلم: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت.

فشردت المرأة قليلاً ثم رمت نفسها على الأرض.

دُهش زوجها وقال: فداك أبي وأمي، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم.

ويحكى عن «أبي عبد الله النميري» أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء الفرات، فإذا هو بجارية عربية، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها ماء، وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها، فصاحت برفيع صوتها:

يا أبت أدرك فاها، قد غلبني فوها، لاطاقة لي بفيها.

قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: ياجارية من أي العرب أنت؟

قالت: أنا من بني كلاب

قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب

قالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام، غير لئام، يقرون الضيف، ويضربون السيف.

ثم قالت: يافتى من أي الناس أنت

فقال: أو عندك علم بالأنساب؟

قالت: نعم

قال لها: أنا من مضر الحمراء

قالت : من أي مضر

قال: من أكرمها نسبا، وأعظمها حسبا، وخيرها أما وأبا، ممن تهابه مضر كلها.

قالت: أظنك من كنانة

قال: أنا من كنانة

قالت: فمن أي كنانة

قـــال: أكرمها مولـــداً، و أشرفها محتداً، وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخافه.

فقالت: إذن، أنت من قريش

قال : أنا من قريش

قالت: من أي قريش

قال : من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه.

قالت: أنت والله من بني هاشم

قال : أنا من بني هاشم

قالت: من أي هاشم

قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه.

قال فعند ذلك قبّلت الأرض

وقالت: الســلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين.

قال فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً

وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية، لأنها من أكبر الغنائم.

ووقــف حتــى تلاقتــه العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها، وأخذها وعاد مسروراً. وهي والدة ولده العباس.

من أقوال أهل العقل عن العقل

نظراً لمنزلة العقل المتقدمة، فقد تحدث كثير من أهل الفكـــر والنبوغ والعبقرية عن سمــات الإنسان العاقــل، فقدموا تعريفات غنية عن العقل، ومن ذلك:

إن أعجب لشـــيء، فعجبي لرجال تنمو أجسامهم، وتصغر عقولهم

«الأحنف بن قيس»

عقـــل الكاتب في قلمه، والكلام الحسن مصايد القلوب.

«القاسم بن عبد الله»

دعامة العقل الحلم.

«محمد عبد الله العلايلي»

الصدق دعامة العقل.

«أبو سهل النيلي النيسابوري»

خـــير العاقل مرجوّ علـــى كل حال، وشر الجاهل مَخُوف على كل حال.

«أبو سهل الجرجاني»

- الحلـــم غطـــاء ساتر، والعقـــل حسام قاطـــع، فاستر خلل خلقـــك بحلمك ،وقاتل هواك بعقلك

- العقل حفظ التجارب

- كفـــاك من عقلك مـــا أوضح لك سبل غيِّك من رشدك

- أعقل الناس أعذرهم للناس

– العاقل إذا سكت فكر، وإذا نطق ذكر، وإذا نظر اعتبر

– دليل عقـل المرء فعلـه، ودليل علمه قوله. «علي بن أبي طالب».

من نظر بعين العقل ورأى عواقب الأمور قبل بوادرها لم يجزع بحلولها. «أرسطو».

كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل تجارب. «عبد الملك بن مروان».

العقل مكيال ثلثه فطنـه، وثلثاه تغافل. «معاوية بن أبي سفيان».

إنَّ فيك عقلاً وإنَّ فيك جهلاً فَدَاوِ بعض مافيك ببعض. «محمد بن كعب».

عليـك بالتماس رضا الأخيـار وذوي العقول. «عبد الله بن المقفع».

كمـا أن الحقل يجب أن يُحْـرَث ويُزْرَع قبـل أن نأخذ منه محصـولاً فكذلك يجب أن يُعَد العقل ويجهز للنجاح. «توماس جاي هدسون».

العقـل إنَّه الشيء الوحيـد الذي يقضّ مضجع المجانين. «أندريه جيد».

يدرك العقل بالتأمل ويضيع العقل بقلة التأمل ومن عرف هذا الطريق المزدوج للربح والخسـارة يستطيـع أن يضـع نفسه حيث يترعرع العقل. «من حكم البوذية».

العاقل من عقل لسانه والجاهل من جهل قدر. «ابن المعتز».

آفة معظم النـاس أنهم يفكرون بآمالهم أو مخاوفهم أو أهوائهم لا بعقولهم. «وولتر دورانت».

جَالِس العقلاء أعـداء كانوا أم أصدقاء فالعقل يقع على العقل. «أعرابي».

إن كل شيء مُعَدّ إذا كانت عقولنا كذلك. «شكسبير».

عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم وظاهرة في حسن اختيارهم. «أفلاطون».

قـال «أيوب بـن القريـة»: الناس ثلاثة عاقل وأحمق وفاجر فالعاقل: الدين شريعته والحلم طبيعته والـرأي الحسن سجيته إن سئـل أجاب وإن نطق أصاب وإن سمع العلم وعى وإن حدث روى.

أمَّـا الأحمق: فإن تكلم خجل وإن حدث وهل وإن استنزل عن رأيه نزل.

وأمَّـا الفاجر: فإنَّ ائتمنتـه خانك وإن حدّثتـه شانك وإن وقفت بـه لم يرعك وإن استكتـم سـرًّا لم يكتم وإن علـم لم يعلم وإن حدث لم يفهم وإن فُقِّه لم يفقه.

العقول: دينية وفلسفية وعلمية ورياضية وفنية.

الدينية: تعـرف الإيمان بما لا تعلم ثقة بما تعلم.

الفلسفية: تنتقل من المشاهد إلى المجرد ومن الأفراد إلى الأنواع.

العلميـــة: تعرف التجربة والفرض الذي تبنى عليه التجربة.

الرياضية: كالعلمية تتبنى حقائق الذهن التي لا تجربة فيها.

الفنية: ترمز للحقيقة بالخيال وللخيال بالحقيقة وتجمع بـين مشاهد الواقع وقيم الجمال.«عباس محمود العقاد».

– يجـب أن تكون فاضـلاً قبل أن تكون عاقلاً فالتعقـل فضل له رهبة ورغبة وبابه مغلق مفتاحه الخطوب.

– ليـس للعقل حرية محدودة فهو إمَّا أن يكون عبداً رقيقاً أو ملكاً طليقاً

– الحيـاة مفعَمة بأباطيـل لها عواقب حسنـة وحقائق لها نتائـج سيئة فلا ينبغي أن نعزي إلى العقل سجلاً طافحاً بالأعمال الإنسانية فإنَّه غير وسيط إلا قليلاً في مهام الحياة ولا يشغل إلا جزءاً صغيراً في حكومة العالم.

– لا اعتبار للقياس بين الحوادث والناس فمـن الأصاغر من قاموا بأعبـاء العظائم وكثير مـن العقول الكبيرة لم يوفق إلى قياس حق لأهليتهـا واستحقاقها وضاعت حياتها في الصغائر.

– لا يستطيع القلب اتفاقاً مع العقل إلى في قلة وعلى بساطة.

– لا يكفي لكمال الدين أن تكون النفس متدينـة بل ينبغـي أن يكـون العقل كذلك متديناً. «إتيان راي».

الغضب ريـح تهب فتطفئ سراج العقل. «روبرت أنجرسول».

من الخير أن يروض الفكر الشرود الذي يهيم حيث يشـاء فالعقل المهيمن عليه يأتي بالسعادة. «من حكم البوذية».

تهديهـا البصيرة مصيرهـا دائماً نهاية مفجعة وخاتمة مؤسفة، غامبانا.

لا يَقـدر العقل ولا اليـد أن يفعلا كثيراً إذا تُركا وحدهمـا ولا يتم عمل إلا بأدوات ومعونات يحتاج إليها العقل كما تحتاج إليها اليد، «فرنسيس بيكون».

من أنـدر العقـول أناس يستخدمون عقولهم أو يقدرون عقول الآخرين ويفيدون منها. «لابروبير».

أحسـن مقياس لعقليـة الإنسان أهمية الموضوعـات التـي يتجـادل فيهـا. «جان لافونتين».

ما تمَّ دينُ رجل حتى يتم عقله. «الحسن ابن علي».

مـن لم يتحرر من عقلـه بعقله هلك من قِبَل عقله. «عبد الله بن السماك».

العقـل الباطن يستطيـع أن يفكر أحكم تفكـير فيما يهمنا مـن الشـؤون وأن يحل أعقـد مشكلاتنا وهو يستعـين حين يعالج شؤوننـا بقدر من الحكمـة والتجربة يفوق كثيراً ما يتاح منهما للعقل الواعي. «روبرت أوبجراف».

- العقـل وحده هو الذي ميز بين لذائذ الحياة وقدّرها قدرها مـن القيمة وأنزلها منازلها من الاعتبار وهو الذي صور صورها المرغبـة فيها أو عنها وحـدد قيود وأسباب توافر السعـادة وكل ما قدره يكون حظه في القرب من الحقيقة أو البعد عنها على قدر حـظ العقل نفسه من القوة والتمييز والعلم والتربية.

- كل ما تقع عليه العين يكون من أسباب السعـادة أو الشقاء بحسـب تقدير العقل. «جان فينوت».

كلام العاقل كلّه أمثال وكلام الجاهل كله مَلال. «نيسابور بن أزد شير».

غضب العاقل في قوله وغضب الجاهل في فعله. «مثل عربي».

الجاهـل يؤكد والعـالم يشـك والعاقل يتروى. «أرسطو».

دعامـة العقـل: الحلم وجمـاع الأمر: الصبر. «أكثم بن صيفي».

وجّه ناظريـك إلى داخلك وستجد ألف منطقـة في عقلك لم تُكتَشف بعد وكن خبيراً في علـم تركيب الكـون الداخلـي. «هنري دافيد ثورو».

إنَّ الحيـاة القريبة مـن العظام العقلاء هي أحلى حياة وسيدفع ذلك عنك أن تصبح تافهاً. «هنري دافيد ثورو».

عندمـا يكون الفم مملـوءاً كلاماً يكون الرأس فارغاً من العقل. «مثل ياباني».

- إذا كان لـك عقل فلك فضل وإن كان لـك تُقى فلـك دين وإن كان لـك مال فلك حَسَب.

- العقـول مواهـب والعلـوم مكاسب. «سقراط».

الفـرق بين عقـول البشـر يتوقف على اختـلاف قوة الانتباه فيهم أكثر مما يتوقف على اختلاف بقية قوى العقل. «أدجورث».

الرجل العاقل يكيف نفسه حسب ظروف الحياة ويحاول غـير العاقل أن يكيف العالم وفق إرادته ولذا كان العالم مديناً لغير العاقل بتقدمه. «جون تانر».

قلوب العقـلاء حصون الأسـرار. «ابن المعتز».

إذا قوي العقل كثر يقينه وإذا ضعف كثر شكه. «ابن المعتز».

عدوك ذو العقل أبقى عليك وأرعى من الوامق الأحمق. «الزهري».

حـق علـى العاقـل أن يتخـذ مرآتين: إحداهمـا في مساوئ نفسـه فتتصاغر بها وينظر في الأخرى في محاسن الناس فيجلبهم بها ويأخذ ما استطـاع منها. «عبد الله بن المقفع».

- مثل: (من قـدر على الكثير قدر على القليـل) ليـس صحيحاً دائماً فـذو العقل الكبـير ينجح في العظائم أكثر مما ينجح في الصغائر.

- إنَّما ظهر شأن للعقل في كوكبنا الأرضي متأخـراً فكم عاشت الكائنـات وتقلبت من دونه.

- كل شيء يطأطئ لقوة العقل البشرى. «جوستاف لوبون».

العقـل هـو ممارسة وسلـوك ومواقف عاقلة حكيمة تعود بالنفع على ذات الإنسان العاقل، وكذلك على الآخرين.

عندما يتمتـع الإنسان بعقل سليم، فإنه يستطيـع أن يعيشـ حياة سليمـة، وعندما لايتمتـع بعقل سليم، فإنَّه يعجـز أن يعيش حياة سليمة.

الإنسان هو عقله، وإنسان من دون عقل، يفقد الكثير من مزايا إنسانيته، ولذلك فلا يُنظر إليـه أيضاً على أنـه إنسان متكامل، سواء في المجتمـع، أو في التشريع السماوي، أو القانون الوضعي.

إنَّ العقـل هـو مسؤوليـة جسيمة تقع على عاتـق الإنسان، ولذلك فـإن الإنسان المجنـون يلقى العفو عن سائـر ما يقوم به مـن تصرفات وسلوكيات غير عاقلة ذلك أن مسؤولية العقل محجوبة عنه، وبالتالي فإنَّه بالمقابل لايتمتع بمنزلـة مَن يتمتع ويتحمل مسؤولية العقل.

مراجع البحث

١- مـن المستطرف في كل فـن مستظرف - شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي منشورات وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٤م.

٢- ديوان المتنبي.

٣- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

٤- الشعر والشعراء لابن قتيبة، حققه د مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٨١م.

٥- تاريخ الأدب العربي- د شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر.

٦- نفـح الطيـب من غصن الأندلس الرطيب- المقـري والتلمساني- تحقيق إحسـان عباس- منشورات دار صادر- بيروت ١٩٨٦م.

٧- البيان والتبيين، الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون١/٧ ط٥، ١٩٨٥م، مطبعة المدني.

٨- كليلة ودمنة، ابن المقفع، مؤسسة الكتب الثقافية ط١، ٢٠٠٢م.

٩- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي - تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية ١٩٥٣م.

المعاملة الوالدية وأثرها في رسوم الأطفال

د. سلوى مرتضى ✽



تعدُّ الأسرة المسؤولة الأولى لرعاية الطفل وتربيته فهي تحيطه بالحب والاهتمام، وتلقنه أوّل دروس الحياة ويتعلم منها السلوك الاجتماعي، فهي تعدُّ المؤسسة الاجتماعية الأولى التي تقوم بتنشئة الطفل وتربيته والمكون الأساسي لشخصيته من الجوانب كافة، وتقوم بتشكيل شخصية الطفل وسلوكه من خلال ما تعلمه إيّاه وما تلقنه له من مبادئ وقيم وما تورثه له من إمكانيات تعده لحمل المسؤولية وكذلك بما تتيحه من مؤثرات ينطبع بها سلوكه.

وتؤثر العلاقة التي تنشأ بين الوالدين والطفل تأثيراً بالغ الأهمية

✽ باحثة وأستاذة التربية في جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنانة منى القداد.

على ما تصبح عليه شخصية الطفل في المستقبل، فللوالدين الأثر الأساسي والأوّل في التنشئة الاجتماعية لأولادهما وما يتبعان من أساليب في تربية أطفالهم وتنشئتهم وتوجيههم.

وفي دراسة قارن فيها واطسون بين السمات الشخصية لدى (٤٤) طفلاً تتراوح أعمارهم بين ٦ سنوات و١١سنة ممن ينتمون إلى أسر تتسم بسيادة الحب المصاحب لنظام دقيق في العلاقة بين الوالدين والأبناء وبين (٢٤) طفلاً من العمر نفسه ممن أسرهم تتسم بدرجة عالية من التسامح، استنتج واطسون على أساس اختبارات إسقاطيه وتقديرات المدرسين أنّ الأطفال الذين ينتمون إلى أسر متسامحة لديهم درجات أكبر من التلقائية والأصالة والإبداع مصحوبة بقدر أكبر من المبادأة والاستقلال وحسن التنشئة الاجتماعية وقلة العدوان

وفي دراسة أخرى قام بها (ولاس ماو، واثيل ماو) (Maw، W.HandMaw) تناولا فيها اتجاهات الآباء نحو معاملة الأبناء وعلاقتها بحب الاستطلاع لديهم تبين من هذه الدراسة أن آباء الأولاد الأكثر حباً للاستطلاع يتسمون بأنهم أقل تشجيعاً للاعتماد على الغير واستخداماً للعقاب القاسي كما كانوا أكثر ميلاً للمساواة.

ويفترض موريس شاتين (Stein،M) أن زيادة الخضوع للآباء، تجعل من الصعب على الفرد أن يغامر فيظل يتعامل مع ما ثبتت صلاحيته ويتجنب ما هو جديد.

ويعدُّ الرسم من النشاطات التي يرغب الأطفال في ممارستها فهم يحبون اللعب بالألوان والرسم على الورق أو على سطح ما يرونه يعبرون عمّا بأنفسهم من مشاعر وانفعالات فالرسم لغة يمكن تحليلها مثل اللغة اللفظية المنطوقة.

وتؤكدويلبوولون(Whilip،Powallon) في كتابها كيف نفهم رسوم الأطفال؟

إن الرسم أحد أهم أدوات التواصل مع الطفل فهو يسبق النطق والكلام في بعض الأحيان ومع تطور العلوم النفسية ظهرت دراسات نفسية تسلط على رسوم الأطفال وتحاول قراءة وفك رموز الرسائل التي يحاول الطفل إيصالها.

وهكذا لم تعد رسوم الأطفال مجرد خربشات طفولية لا فائدة منها بل أصبحت وسيلة للاقتراب من عالم الطفولة.

مشكلة البحث:

ويمكن صياغة مشكلة البحث بالسؤال التالي:

ما أثر المعاملة الوالدية في رسوم الأطفال؟

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من:

- أهمية دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية للفرد وانعكاسات ذلك على الطفل والراشد لاحقاً.

- أهمية مرحلة الطفولة إذ تعد الفترة الأساس في النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي.

- أهمية الرسم في تكوين شخصية الطفل وحالته النفسية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- محاولة تعرف أثر المعاملة الوالدية الديمقراطية في رسوم الأطفال.

- محاولة تعرف أثر المعاملة الوالدية التسلطية في رسوم الأطفال.

متغيرات البحث:

اعتمدت الباحثة أسلوب المعاملة الوالدية (المتسلطة –الديمقراطية) متغير مستقل ورسوم الأطفال كمتغير تابع.

أسئلة البحث:

- ما أثر المعاملة الوالدية الديمقراطية في رسوم الأطفال؟

- ما أثر المعاملة الوالدية التسلطية في رسوم الأطفال؟

عينة البحث:

قامت الباحثة بأخذ عينة البحث من بين الأطفال الذكور والإناث من الفئة العمرية(٥-٦) بطريقة عشوائية بسيطة، وبلغ عدد أفراد العينة النهائي (٢٤) أباً وأمّاً و(٢٤) طفلاً وطفلة.

أداة البحث:

١- استبانه صممتها الباحثة مؤلفة من عدد من الأسئلة، هناك عدد من الأسئلة يخص أسلوب المعاملة التسلطي وأسئلة تخص أسلوب المعاملة الديمقراطي.

٢- تحليل محتوى رسوم الأطفال وفقاً لمجموعة من المعايير المعتمدة في ذلك.

حدود البحث:

- يقتصر البحث الحالي على نوعين فقط من أساليب المعاملة الوالدية (التسلطي – الديمقراطي).

الدراسة النظرية للبحث

أولاً: مفهوم أساليب المعاملة الوالدية:

حظي مفهوم الأساليب الوالدية في معاملة الطفل وتنشئته باهتمام كبير من قبل علماء النفس والتربية والباحثين المهتمين بالتربية منذ القدم وحتى الوقت الحاضر باعتبارها أهم العوامل التي تؤثر في نمو الطفل وسلوكه وتوجه شخصيته وتشكلها

وما نعنيه بأساليب المعاملة الوالدية: هي استمرارية أسلوب معيَّن أو مجموعة من الأساليب المتبعة في تربية الطفل وتنشئته ويكون لها أكبر الأثر في تشكيل شخصيته وعليه فإنَّ أساليب المعامله الوالدية تمثل جملة الإجراءات والخطوات العملية التي

يتبعها الوالدان في تطبيع وتنشئة أطفالهما اجتماعياً أي تحويلهم من مجرد كائنات بيولوجية إلى كائنات اجتماعية.

ويرى فريق آخر أن أساليب المعاملة الوالدية هي ما يراه الآباء ويتمسكون به من أساليب في معاملة الأطفال في مواقف حياتهم المختلفة.

كما عرفت أساليب المعاملة الوالدية على أنها كل سلوك يصدر عن أحد الوالدين أو كليهما ويؤثر في الطفل وفي نمو شخصيته سواء قصد بذلك السلوك التوجيهي أم التربية.

وعلى الرغم من تعدد الآراء حول أساليب المعاملة الوالدية للأبناء ولكنها تتفق جميعاً في أنها الأنماط السلوكية التي يستخدمها الآباء في معاملة أبنائهم والتي تتمثل في الرعاية والعطف والإهمال والرفض وعدم التقبل والتساهل والحماية الزائدة والتدليل إلى غير ذلك من الأنماط باختلاف الثقافة والطبقة الاجتماعية وتعليم الوالدين والمهنة تؤثر على ما سوف يكتسبه الفرد من خصائص مرتبطة بالأسلوب التربوي المتبع.

ثانياً: أسلوب المعاملة الديمقراطي وأثره في حياة الطفل:

ويتمثل الأسلوب الديمقراطي في المعاملة الوالدية في:

- البعد عن فرض النظام الصارم على الأطفال أو كبح إرادتهم من قبل الوالدين.
- الحوار والتشاور المستمر مع الأطفال فيما يتعلق بأمورهم الخاصة وأيضاً مشاركتهم فيما يتعلق بأمور الأسرة.
- احترام آراء الأبناء وتقديرها وعدم الوقوف منها بموقف التسلط والرفض.
- اتباع الأسلوب الإقناعي والمناقشة الجماعية التي تؤدي إلى جو من الاطمئنان والثقة.
- إعطاء الأطفال فرصة التعبير عن آرائهم وأفكارهم.
- السماح للأطفال ممارسة الهوايات التي يختارونها.
- تقدير مشاعر الأطفال وتطلعاتهم.
- تشجيع الأطفال على إبراز رأيهم باستمرار.

فاستخدام الأسلوب الديمقراطي في المعاملة يؤدي إلى شعور متزايد بالمسؤولية لدى الأطفال وقوة شعورهم وولائهم للأسرة واحترام القواعد الأسرية.

فالممارسة الديمقراطية التي يتبعها الآباء والأمهات لتحقيق المودة بين أبنائهم والتأكيد على التعاون فيما بينهم.

ويرى (بالدوين) من خلال دراسة أجراها بهذا الخصوص أنَّ الأطفال الذين ينتمون إلى أسر ديمقراطية يمتازون بالنشاط، وهم منطلقون اجتماعياً ويشاركون بإيجابية

ونشاط في الأنشطة المدرسية ويمتازون بالمنافسة والانطلاق والقيادة.

وعليه يعدُّ الأسلوب الديمقراطي في المعاملة الوالدية للأبناء أفضل نموذج في التنشئة الاجتماعية لما يترتب على ممارسته من شخصية متزنة ومستقرة وسعيدة متمتعة بخصائص الصحة النفسية وقادرة على تحقيق توافقها الشخصي والاجتماعي داخل الأسرة وخارجها.

ثالثاً: أسلوب المعاملة التسلطي وأثره في حياة الطفل:

ويعني المنع والرفض الدائم لرغبات الطفل والوقوف حائلاً أمام قيامه بسلوك معين لتحقيق رغباته التي يريدها حتى لو كانت صائبة ومشروعة، وهذا الأسلوب يأخذ أشكالاً متعددة تتراوح ما بين الخشونة والنعومة وتتمثل في الأوامر والنواهي، والتهديد باستخدام العنف والتوبيخ والشتم والإذلال، وتوليد الشعور بالذنب والقلق، ولكن النتيجة هي فرض الرأي سواء تمّ ذلك باستخدام العنف أو اللين وهذه الأشكال جميعها من أساليب القمع النفسي.

ويعتمد الأسلوب التسلطي مبدأ الاستبداد واتخاذ القرارات عن طريق الإكراه حيث يفرض الأب أو الأم أو كلاهما رأيه على الطفل أو فرض أمر ينصرف إلى تنفيذه بالقوة من دون مناقشة.

ويكمن وراء استخدام الوالدين لهذا الأسلوب في المعاملة أسباب كثيرة منها:

- نوعية التربية التي يتلقاها الآباء في صغرهم أو ما تعرضوا له من خبرات في طفولتهم- صرامة الآباء وتزمتهم في تطبيق المعايير المختلفة على أولادهم من دون تحريف فيجدون أنفسهم مرغمين على تطبيقها على أطفالهم.

إن أمثلة تسلط الوالدين على الأبناء متعددة نذكر منها:

- منع الأطفال من ممارسة نشاطهم داخل المنزل وخارجه.
- التدخل في كيفية قضاء الأطفال أوقات فراغهم.
- رفض آراء الأطفال حتى لو كانت صحيحة.
- رفض مناقشة الأطفال لقرارات الوالدين.

فالأسرة التي تتبع أسلوب التسلط في معاملتها لأطفالها غالباً ما تنمي لديهم التعصب والخوف من السلطة أو الطاعة العمياء أو تجعل منهم أفراداً لديهم مشاعر الذنب والقلق وفقدان الثقة بالنفس بشكل واضح. وهذا الأسلوب في المعاملة من شأنه أن يغرس أنماطاً تسلطية ونزعات عدوانية في سلوك الأبناء، ولهذا يقول /كولي Gooley / يمكن أن يؤدي هذا الأسلوب

في المعاملة إلى شعور الطفل بعدم الكفاءة والدونية والخجل والحيرة إلى جانب الخوف من معاملة الآخرين ومن التقرب منهم.

رابعاً: الإفصاح عن الذات في رسوم الطفل:

من أنا؟ وأين أنا؟ وماذا أفعل؟ وماذا أريد؟

وجدنا الردّ عليها في رسوم الطفل حيث استطاع على سطح ورقة أن يفصح عمّا يجول في نفسه، يحاورنا من خلاله محاولاً طرح وجهة نظره فيما يصعب التعبير عنه قولاً وفعلاً في عالم من الكبار الذين يعتقدون أنه مازال صغيراً،متناسين حاجة الطفل لمعرفة ما يدور حوله.

إنَّ القهر الذي يمارسه الكبار عليه قد يدفعه إلى الغضب منهم بل وقد يصل إلى الاعتداء أحياناً،فهو يرغب في التحرر والاستقلال، ويتمنى أن يسهم في الحياة الاجتماعية بلا عقد.

وقد ظهرت الأنا وتمجيد الذات في رسوم بعض الأطفال عبروا فيها عن طريق اللغة الشكلية بل واللغة اللفظية التي يمكن أن تكون في صورة حرف من حروف الأبجدية الإنجليزية، مبرزاً توقيعه كاملاً أو الحروف الأولى من اسمه، كذلك صمم بعض الأطفال على تسجيل صورتهم، صورة مقربة للوجه، أو صورة نصفية، أو صورة لكامل الجسم، متقمصاً الشخصية المحورية مركز إشعاع الصورة، الذي ظهر وحده أحياناً ومع آخرين في غالبية اللوحات.

ولقد باحت الرسوم بأنَّ الطفل يحب المرح ينعكس ذلك في الشخصيات الكرتونية التي سجلها الطفل في رسومه، كذلك يحب الطفل الطبيعة والأماكن المفتوحة، ويحب المغامرة واكتشاف ما في قاع البحر ويتشوق للوصول إلى الكواكب الأخرى، ويعكس ذلك رغبة الطفل في التحرر والاستقلال ورفضه الانتساب للطفولة.

كذلك يهتم الطفل بالمناسبات الاجتماعية.

وقد أفصحت الرسوم عن ظهور الغريزة الجنسية والتي تنعكس في تشوقات الطفل نحو الجنس الآخر وبحثه عنه.

خامساً: دور البيئة في رسوم الأطفال

حين يكون رسم الأطفال ذا شكل مهتز وغير متناسق ومحدد الخطوط فإنه يكشف عن مظاهر تجربة الطفل نتيجة الاحتكاك بالعالم.

تؤدي الأسرة والمدرسة دوراً أساسياً في هذا المضمار، ففي الأسرة والمدرسة يعيش الأطفال مع الكبار الذين يقدمون لهم دفقاً مستمراً من الاكتشافات والمحرضات.

وكقطع الإسفنج، يمتص الأطفال كل شيء: الكلمات، الأتراح، الأفراح. وتكمن إمكانية الامتصاص هذه لدى الطفل منذ ولادته، وسرعان ما يتحول الوسط الذي يعيش فيه الآباء إلى وسط الطفل الذي يقلد كل ما يراه في هذا الوسط، فهو يسجل كل مواقف الكبار الجديدة ويتبناها بحيث يغير من سلوكه ليتكيف معها.

إنَّ الطفل يستوعب كل ما يجري ضمن العائلة، أو المدرسة ثم يظهره في تعبيراته، وبما أنَّ الأسرة والمدرسة في مجتمعنا تشكلان تجمعات اجتماعية تأخذ على عاتقها العادات وعقلية المجتمع وعقلية الفترة التاريخية، تأتي رسوم الأطفال مليئة بالرسائل، وأحياناً تكون ذات مضامين كبيرة بالنسبة لما يحذفونه، وثمة مثال أنموذجي عمّا يحذفه الطفل هو مثال الأب الغائب، فمن الملاحظ بكثرة في رسوم الأطفال التي تمثل العائلة، أن الآباء الذين لا يظهرون على الورقة مع الأم والأخوة والأخوات، يظلون فترة طويلة بعيدين عن منازلهم.

أمَّا بالنسبة لأولاد آخرين فهذا يعني أن آباءهم يتأخرون في العودة إلى منازلهم مساءً أي عندما يأوي الأطفال إلى فراشهم. أمَّا بالنسبة للبعض الآخر فلأن الآباء يعودون إلى منازلهم متعبين عصبيين بحيث لا يجدون رغبة في التحدث إلى الأطفال.

وهكذا! فإنَّ النتاج البريء للطفل يضع ظاهرة القلق الملازمة لمجتمعنا الإنتاجي في طليعة المخطط وبشكل مباشر: فالأب يعمل ليعيل الأسرة إذاً فهو في النهاية لا يعتبر عضواً في العائلة.

إنَّ الأشياء والحيوانات والنباتات بالنسبة للطفل تشكل مناهل مستمرة للتحريض فخيال الطفل لا ينمو إذا ما نقصه الحد الأدنى من التجربة التي تغذيه، لهذا السبب نلاحظ أنَّ الأطفال الذين يعيشون في المدارس الداخلية ومدارس اليتامى تعوزهم هذه التجربة وبالتالي فإنَّ رسومهم تجيء رمادية اللون تشوبها مسحة من الحزن تعبر عن عالمهم، كذلك فإنَّ قدرتهم على الخلق ليست بأقل مما هي لدى أكثرية الأطفال الذين يعيشون ضمن التجمعات السكنية الشعبية.

إنَّنا نعتقد وبشكل مطلق أن كل طفل يختلف عن غيره من الأطفال،لأنَّ ما يحمله بالوراثة وبتجربته الشخصية، يجعل منه شخصاً وحيداً لا يقبل التكرار، ولما كان الطفل ينتمي إلى نوع معين من الثقافة وإلى وسط اجتماعي - اقتصادي محدد، فإنه يتبنى سلوكيات وطرائق تفكير يشاركه فيها من هو في مثل سنه، ومن هنا نراه يشبه الكثير من الناس.

سادساً: التعبير والعرض في رسوم الأطفال:

يجد الطفل في الرسم، وبشكل مبكر نسبياً، وسيلة للتعبير مناسبة لتفكيره حيث يطلق خياله بحرية، إضافة إلى اللذة التي يجنيها من تأمل منجزاته، فإنه يعرض نفسه أي أنه يكشف عن ذاته وفي الوقت نفسه يظهر ما يحمله من عواطف وثقافة اكتسبها نتيجة لسلوكه ولوسطه.

فالطفل الذي يرسم يوضح صراعاته النفسية وقلقه وبهذا ينزع عنها الصفة المأساوية.

وتأخذ هذه المشاكل العاطفية في الواقع مظهراً جديداً ملموساً كان أو مفككاً بمجرد نقلها على الورقة، وتصبح أقل إقلاقاً وإلحاحاً.

فحين يعبر الطفل بالصورة، فإنه يكشف عن العديد من سمات شخصيته، لكنه لا يكشف عن نفسه من أجل إرضائنا ومساعدتنا في التعرف على حالته النفسية التي شد ما يتمسك بها حين يرسم، بل لكي يعبر بالرسم عمًّا يبطن من أحداث عاشها.

إنَّ عالم الفن يساعد الطفل في تعميق معرفته للواقع وذلك بالعودة إلى ذكرياته وتجاربه وتثبيتها.

ففي الموضوع الذي يعيد الطفل للعيش فيه، والمواقف الماضية، بنوع من التمثيل النفسي، ينخرط الطفل في أدوار ليست له لكنه شاهد غيره يقوم بها، كدور الأب أو الأستاذ أو رائد الفضاء.

وكل شيء يحدث بالنسبة له وكأنه موجود في مركز العالم: وتبدو له طريقته في الحياة هي الطريقة الوحيدة الممكنة، فالأشياء وجدت لكي يستعملها، والناس وجدوا لكي يساعدوه، والشمس تسطع في السماء لا لشيء إلا لتعطي بشرته اللون الأسمر وهو على شاطئ البحر، وأخوه الصغير إنَّما أتى إلى العالم ليلعب معه، وهكذا.

كما أنه لا يدرك علاقته بالأشياء إلا حين يكبر ويتطور وتتسع دائرة معارفه وينجح في فهم علاقة السبب بالنتيجة. وهذا النمو البطيء الذي يتحقق في كل مجالات الحياة يظهر في الرسم بوضوح حيث تترك المضامين الانفعالية تدريجياً المجال للبحث عن العقلانية.

سابعاً: موضوع الرسوم والشخصية:

يرسم الطفل بكل ما أعطته شخصيته من ذكاء وعاطفة. ويعبر عن شخصيته بالخط واستعمال المكان وحذف بعض أجزاء من الرسم.

أمَّا إذا رسم الطفل والفنان، فإنهما لا يصوران الأشياء كما هي في الواقع بل كما يعيشانها ويترجمانها ذاتياً، وبذلك يكشفان عن خفايا عالمهما الفيزيائي الداخلي،

وقد تكون المشاركة في العمل قوية لدرجة أنَّ الرسام حين يرسم وجهاً، فإنَّه يدخل لاشعورياً شيئاً من وجهه هو.

والطفل شأنه شأن الفنان، يظهر شيئاً من ذاته وهذه الميزة تعطي رسومه الحيوية.

إذن، عرفنا كيف نقرأ رسوم الأطفال ألفيناها تكشف عن شيء من شخصيتهم عبر أشكال وتكوينات، وينبغي أن نضيف أن المواضيع التي درست أكثر من غيرها هي بشكل عام مواضيع تتكرر لدى الأطفال. ونظراً لوقعها الانفعالي الكبير، فإنَّها تجذب الطفل بشدة وتظهر بالتالي بعض خطوط شخصيته أكثر من سواها. ويأخذ الطفل بهذه المواضيع بكل طيبة خاطر إمَّا عفوياً أو بدعوة من الراشد.

ومن الضروري جداً أن يتوصل الأهل أو المربون إلى تفسير ما يعبر عنه الطفل في رسومه وهذا ليس بدافع الفضول العقيم، بل من أجل تفهّم أفضل لعلاقة الراشد بالطفل، ولتنمية هذه العلاقة بما يتناسب والطفل.

ويمكن للراشد الطلب إلى الطفل أن يرسم شجرة أو حيواناً أو منزلاً أو شخصاً أو أن يرسم نفسه أو أسرة معينة أو أي شيء يعجبه أو أن يرسم شيئاً يخفيه كالحلم وسواه، من دون أن يفرض عليه ذلك، عن طريق إقامة علاقة مسبقة بينه وبين الطفل تقوم على الاتصال والتعاطف.

١- الوجه البشري:

إنَّ الصورة التي يرسمها الطفل تكون صورته هو أو ما يدركه من جسمه أو رغباته الخاصة، وهناك ترابط بين قسمات الشخص والصفات النفسية الخاصة بالطفل. فإذا كان رسم شخص متناسقاً فإن الرسام جيد التلاؤم مع بيئته أمَّا إذا رسم الشخص ذا أبعاد مصغرة جداً وتشغل حيزاً في القسم السفلي أو في زاوية منها، فإنَّ الطفل يستصغر نفسه ويشعر بالنقص حيال الآخرين، وإذا ما ظهر الاستصغار في عدد من الرسوم، فإنه يدل على الكبت الشديد والخجل.

وتتمثل ظاهرة استصغار الذات وعدم الأمان بغياب الأذرع والأيدي، أمَّا الطفل المعتد بنفسه أكثر من اللازم، يرسم شخصاً بنسب ضخمة. وتلك صفات خاصة بالمصابين بالهذيان وصفات النزقين والمعتقدين دوماً أنَّهم مضطهدون.

وتدل الحركة في الرسم على الأمان والتكيف الجيد. فالأطفال الصغار والأطفال الانطوائيون وغالباً العدوانيون يرسمون وجوهاً متصلبة. ويدل غياب الحركة إضافة إلى الاحترام الشديد للتناسق بين أجزاء الصورة، على اهتمام الطفل بجسده، وهذه صفة نموذجية للأطفال المصابين بالوسواس وضعيفي الأجسام كما يدل التوزيع الحيوي

لعناصر الصورة على خيال خصب وعلى صفاء علاقة الطفل بجسده.

في حال رسم الشخص بحالة الحركة، غالباً ما يركز الرسام على الجزء المتحرك، بينما يصغر بقية الأجزاء.

ومن مجاهيل رسم الصورة البشرية: الرسم الذاتي للوجه. إنَّ للرسم الذاتي للوجه المعنى نفسه الذي تعكسه الصورة البشرية بشكل عام.

٢- البيت:

إنَّ أكثر المواضيع تمثيلاً هو البيت، إذ نرى الطفل يرسم عادة بيوتاً بسيطة إلا أنها تتحسن مع مرور الزمن: يكون البيت في البداية على شكل مربع يعلوه مثلث، ثم تأتي الجدران الجانبية فتأخذ شيئاً فشيئاً مظهراً واقعياً.

أمَّا البيت لدى الطفل فيرمز إلى الملجأ والحياة العائلية ونواة الأسرة، المحبوبة والمكروهة على السواء، وقد يكون البيت مضيافاً وتظهر أمامه طريق مزهرة، وبوابات كبيرة نحو الخارج، وستائر ملونة على النوافذ، ومدخنة يخرج منها الدخان، فيدل على أنَّ المنزل مسكون ومفعم بالحياة والصفاء.

غير أن البيت قد يكون منفراً، من دون ألوان، وذا نوافذ صغيرة تحت سطح خال من مدخنة، ومدخل ومنفذ ضيق، وقد يكون هذا النوع من البيوت غير المضيافة أحياناً محاطاً بسياج، أو بجدار عال يعزله عن العالم الخارجي، ويحميه.

والبيوت المنفردة، لها معانٍ تختلف حسب العمر. إذ تدل بين سن الخامسة والثامنة على الخجل والتعلق بالوالدة. وتدل بعد سن الثامنة على الشعور بالنقص والعزلة وتدل في فترة المراهقة على رصانة العواطف والحساسية.

وحين تتفرق العائلة، ينقسم المنزل إلى قسمين وغالباً ما يكون له مدخلان متميزان يدل قسم منه على الحياة العائلية المفروضة على الطفل ويدل القسم الآخر على الأسرة الحقيقية.

يؤثر المحيط الاجتماعي في رسم المنزل كما يؤثر في الرسوم كافة، فلدى صغار الغجر، غالباً ما يكون المنزل على شكل عربة، وإن هم رسموا منزلاً تقليدياً، فإنه يدل على أن الغجر في طريقهم إلى الاندماج، مثلاً من يذهب منهم إلى المدرسة ويتصل بأطفال يعيشون في منازل.

وكلما كبروا وواجهوا تجارب جديدة كلما التزموا أكثر وأكثر بالشكل التقليدي للمنزل مع الحفاظ على بعض ملامح المنزل- العربة كالسقف المسطح والسلم الخارجي، غير أن هذه المنازل والعربات التي يرسمها الأطفال

الفجر، لا تمثل ضمن مشهد طبيعي، وليس ثمة طريق يؤدي إليها، ولا تتضمن الكثير من الفتحات، إذ إنَّ الحياة تجري في الهواء الطلق بين أشخاص يحيطون بهذه المنازل أو العربات فبالنسبة لهؤلاء تسير الحياة في الخارج، أمَّا في الداخل فلتمضية الليل فحسب. وبالتالي فإنَّ المنزل لا يشكل بالنسبة إليهم وسطاً عاطفياً كما هو الحال بالنسبة للأطفال الذين يقضون معظم نهارهم فيه ويساهمون ضمن جدرانه في أهم أحداث حياتهم الفكرية والعاطفية.

ثامناً: تفسير رسوم الأطفال:

يهتم العلماء في تحليل رسوم الأطفال على رسوم الشكل الإنساني وما يتعلق به من مظاهر محددة كالحجم والتفاصيل وخطوط الرسم وتعبيرات الوجه وكون الشكل مرسوماً من الجانب أو الأمام وأيضاً وضع الشكل في حيز ورقة الرسم، كذلك الأسلوب مثل التأكيد -المبالغة والحذف- والإهمال والتظليل أو المحو-الضغط على الخطوط والتلقائية.

نماذج من المظاهر:

الحجم: يعطي الحجم في الأشكال المرسومة أهمية خاصة في إلقاء الضوء على شخصية الطفل من حيث واقعيته في تقدير ذاته.

الرسوم الكبيرة التي تشغل الصفحة كلها تميّز الأطفال العدوانيين وأيضاً تمييز ذوي النشاط الزائد، وقد تعُبر عن شعور الطفل بالعجز عن الحركة والإحباط، وقد تبرز رغبة الطفل في التعويض وإحساسه بعدم الثقة بالنفس فيرسم ما يتمنى تحقيقه.

أمَّا الرسوم الصغيرة فقد تعُبر عن نقص الكفاءة أو الخوف والانطواء أو القلق.

التفاصيل: تعدُّ التفاصيل مقياساً لإدراك الطفل واهتمامه بالبيئة وقد تكون التفاصيل للملابس أو أجزاء الجسم مثل

الرأس: الرسم للرأس الكبير يدل على تعظيم الذات أو التماساً للقوة العقلية أو الفكرية وربما يكون تكبير الرأس في بعض الحالات تعبيراً عن مشاعر النقص والعجز الجسمي. والرسم للرأس الصغيرة قد يكون تعبيراً عن الخجل أو إنكاراً لمصدر انبعاث أفكار مؤلمة.

العينان:

متسقة ذات أهداب تعبر عن الجاذبية، مغلقة أو خلف نظارة سوداء للتعبير عن تجنب مناظر أو رؤية مؤلمة.

الأذرع والأيدي:

تعدُّ الأذرع والأيدي محملة بالمعاني السيكولوجية مثل الطموح والثقة والكفاءة والعدوان. الأذرع الطويلة القوية تُعبر عن الطموح والرغبة في التحكم والسيطرة وأحياناً عن العدوان.

الأذرع الطويلة الضعيفة تعبر عن الحاجة إلى المساعدة والعون والأذرع القصيرة تعبر عن انعدام الكفاح والشعور بنقص الكفاءة.

حذف الأذرع من الشكل يوحي بأن الطفل يشعر بعدم الكفاءة وانعدام القوة.

وأيضاً عدم الشعور بالأمان وصعوبة التعامل مع البيئة.

التعبير عن القلق يتميز في الأذرع المرفوعة والفم المقلوب أو الأذرع المتجهة نحو الداخل.

الفم:

التأكيد الزائد على رسم الفم يعني اضطرابات في اللغة والكلام أو اتكال على الغير.

الفم مع رسم الأسنان يُعبر عن العدوانية.

التظليل:

إذا استعمل تظليل الجسم كله فهذا دلالة على القلق.

إذا استعمل تظليل جزء معين يكون القلق مرتبطاً بهذا الجزء.

الضغط بالقلم (بأكثر ممّا هو مطلوب).

تعبير عن توتر عضلي زائد وتشيع هذه الظاهرة في رسوم الذكور أكثر من الإناث.

خطوط باهتة:

تدل على انخفاض الطاقة الجسمية والنفسية وترتبط بالخجل والانقباض الشديد.

عاشراً: التلوين وأنواعه:

إنَّ العالم من حولنا يتدفق بالجمال ولولا تنوع الألوان في الطبيعة لغدا العالم مملاً كئيباً والألوان رغم تعددها تقسم إلى مجموعتين: مجموعة الألوان الدافئة ومجموعة الألوان الباردة.

وقد أُطلقت صفة البرودة على مجموعة الألوان الخضراء والزرقاء والبنفسجية لأنَّ من خصائصها تهدئة النفس وإراحة الأعصاب فهي تتسلل إلى النفس فتشيع فيها الهدوء والسكينة وتشرح الصدر، أمَّا مجموعة الألوان التي أُطلق عليها صفة الدفء فهي الحمراء، البرتقالية والصفراء، فهذه الألوان تبعث في النفس الشعور بالدفء والرغبة في الحركة والنشاط.

ومن الأهمية بمكان معرفة المعاني التي تُعبر عنها الألوان لأنَّ ذلك يُساعدنا في الكشف عن سيكولوجية رسوم الأطفال:

يُعبر **اللون الأخضر** عن الحماس والحيوية والحرية والإقدام.

يُعبر **اللون الأحمر** عن العدوان والقلق والميل إلى البطولة.

يُعبر **اللون الأزرق** عن الصفاء والهدوء والسلام لكن زيادة هذا العنصر في رسوم الطفل تدل على نوع من الركود.

يُعبر اللون البرتقالي عن الطاقة والسعادة.

يُعبر اللون الوردي عن الطاقة المتزنة المعبرة عن الحرية.

يُعبر اللون البنفسجي عن الخوف والحزن والملل.

يُعبر اللون الأسود عن الحزن والسلبية والموت.

الدراسة العملية:

نتائج البحث:

وقد تبين من تحليل رسوم الأطفال وجود علاقة بين أسلوب المعاملة الديمقراطي ورسوم الأطفال ذلك من خلال تنوع الأشكال والنزوع إلى الخيال والإبداع وتنوع الألوان المستخدمة في رسومهم كاللون الأزرق والأخضر والأحمر.

وقد تبين من تحليل رسوم الأطفال وجود علاقة بين أسلوب المعاملة التسلطي ورسوم الأطفال ذلك من خلال التكرار الآلي للأشكال ورسوم تفتقر إلى التنوع والإبداع والخيال.

مقترحات البحث:

- توفير المناخ الأسري المناسب لنمو الأطفال على نحو سوي وتجنب الأساليب الخاطئة في تربيتهم ورعايتهم وتحقيق علاقات أسرية سوية.

- على الوالدين تشجيع نمو الرسم عند طفلهما وتوفير الأقلام والأصباغ والمكان الملائم والقماش وعليهم أيضاً الامتناع عن سؤال الطفل رسم ما يريدون رسمه هم والإلحاح على سؤاله ماذا رسم.

- الاهتمام بمؤسسات رعاية الأسرة والطفولة للاستفادة من إمكاناتها في مساعدة الأسرة على القيام بمسؤولياتها تجاه أطفالها.

- توجيه الاهتمام نحو رسوم الأطفال وذلك لما لها من أهمية في فهم شخصية الطفل.

خاتمة:

فنوع العلاقة التي تنشأ بين الوالدين والطفل وطريقة معاملة الوالدين لطفلهما تعد من بين العوامل التي تؤدي دوراً هاماً في رسم معالم شخصية الطفل ونموه وتوجيه سلوكه وتوافقه، فهناك فرق بين شخصية فرد ينشأ في جو من التدليل والعطف الزائد والحنان المفرط وشخصية فرد آخر نشأ في جو من الصرامة والنظام الدقيق الذي يتصف بشيء من القسوة.

«إننا نرتكب خطأ جسيماً حين نعول في تعليم الطفل على طريقة الإلزام فنفرض عليه منذ حداثة سنه القيام بعملية النسخ والنقل طبق الأصل عن صور معينة وبالتالي فإننا نحرم الطفل من إمكانية التطور

وإدراك العالم الخارجي من خلال تمثله الخاص لهذا العالم.

وبهذه الطريقة يُضيع الأهل إمكانية بداية محادثة الطفل لأنّهم يُضطرون إلى القيام بتمارين لا يبدي الحاجة إليها، كما أن تشجيع المبادرة الحرة لدى الأطفال وإشراكهم في مجموعة عمل لتقديم مشاريع أو مواضيع مشتركة كل ذلك يُشجع الأطفال على تكوين شخصيتهم ونضج ذكائهم».

وبذلك نتوجه للآباء بضرورة اتبّاع الأسلوب الديمقراطي في التعامل مع أطفالهم لنطلق العنان لخيالهم ولننمي الإبداع عندهم ولنتعرف عمّا يجول بخاطرهم ولنعالج مشكلاتهم النمائية قبل أن تصل إلى مرحلة يصبح من الصعب معالجتها.

المراجع

١- البسيوني، محمود (١٩٨٥م)، السمات البيئية في رسوم الأطفال القطريين، جامعة قطر - الدوحة.

٢- البسيوني، محمود، (١٩٨٧م)، تحليل رسوم الأطفال، دار المعارف للنشر والتوزيع، مصر- القاهرة.

٣- بدور، سماح (٢٠١٠م)، أثر المعاملة الوالدية في تنمية حاجة الاستقلالية لدى طفل الروضة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية - جامعة دمشق.

٤- السيد، عبد الحليم (١٩٨٠م)، الأسرة وإبداع الأبناء، دار المعارف للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة.

٥- الشال، انشراح (١٩٩٤م)، رسوم الأطفال من منظور إعلامي، دار الفكر العربي - القاهرة.

٦- العناني، حنان عبد الحميد (٢٠٠٧م)، الفن التشكيلي وسيكولوجية رسوم الأطفال، دار الفكر، عمان، الأردن.

٧- فيراريس، آنا (١٩٨٦م) ترجمة مياسة قصار، رسوم الأطفال ومعانيها، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

٨- محرز، نجاح، (٢٠٠٥م)، أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بتوافق الطفل الاجتماعي في رياض الأطفال، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية- جامعة دمشق.

٩- مساد، عمر حسن (٢٠٠٥م)، سيكولوجية الإبداع، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان -الأردن.

١٠- ملحم، سامي محمد (٢٠٠٠م) مناهج البحث في التربية وعلم النفس، دار المسيرة، عمان، الأردن.

الحوار بدل الصراع من خلال القرآن الكريم

أ. صاري رشيدة ✿

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن فكرة صراع وصدام الحضارات بعد أن قام صموئيل هانتنغتون بنشر مقالته (صراع الحضارات) التي ادّعى فيها أنّ أهم الخلافات السياسية ستكون بين الأمم والمجموعات ذات الحضارات المختلفة ودعا فيها الغرب إلى التصدي للإسلام على وجه الخصوص لوجود اختلافات ثقافية وتراثية تتمثل في القيم والمبادئ وأنماط التفكير.

لذلك أثارت المقالة ردود أفعال مختلفة كالأيديولوجيات والمذاهب والأحزاب السياسية التي تدعو وتقترح فكرة التسامح والحوار ونبذ العنف بدل الصراع. واجتهد العديد من المفكرين العرب والمسلمين المعاصرين في تقديم اقتراحات حول لمواجهة الهوة بين الإسلام والغرب والتخفيف من حدّة الصراع بالدعوة إلى التفاعل المبدع مع الماضي والحاضر «أو بفك الارتباط بين مفهومي الإسلام والغرب وتسمية الأشياء بمسمياتها لتكون المفاهيم أكثر وضوحاً، وفي ذلك إمكانية لإقامة الحوار تمهيداً لتاريخ جديد تاريخ يؤمن بالاختلاف والتنوع».(1)

ويقترح بعض المفكرين فكرة حوار الحضارات فهي من الخصائص المميزة في القرن العشرين. وكأن العالم أدرك أن البشرية لا تستطيع أن تتحمل حروباً عالمية جديدة لما خلفت من سلبيات ومشاكل: الجوع، الفقر، الجهل.. لأنّ مقولة صدام الحضارات ذات طابع عدواني ترجع إلى فكرة «توماس هوبز» الإنسان ذئب لأخيه الإنسان لأنّها تؤكد على

✿ أستاذة في جامعة وهران - الجزائر.

أنانية وكراهية البشر لبعضهم البعض لعدم وجود ثقة بينهم.

لذا يفرض الغرب ثقافته وهيمنته على الآخر بالقوة ويوجه «هانتنغتون» هجومه تجاه الإسلام؛ لأن المجتمع والثقافة الإسلامية ترفض الأفكار الغربية. وفي رأيه الإسلام دين سيف وتجاهل دور الإسلام في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة. إنّها فكرة استعمارية تقضي على حرية البشر ولا تعترف بالآخر المغاير.

ويدعو «روجيه غارودي» في كتابه من أجل حوار بين الحضارات الذي صدر في طبعته الفرنسية ١٩٧٧م وفي طبعته العربية في ١٩٧٨م الغرب إلى الحوار وأن يعيدوا النظر إلى ذاتهم وإلى الآخر الحضاري. والانفتاح عليه حيث يطالب الغرب بأن يتعلم من الحضارات الأخرى ويعتبر أنّ (من الواجب أن نتعلم من الحضارات الأخرى بصورة أساسية المعنى الحقيقي لعلاقة المشاركة الإنسانية التي تجد كل فاعلية ذاتها وهي تنهض بعبء من أعباء المجتمع المسؤول)..

إنّ الحضارات اللاغربية تعلمنا بادئ ذي بدء أنّ الفرد ليس مركز كل شيء، وأن فضلها الأعظم يرجع إلى أنها تجعلنا نكتشف الآخر..

كما حاول أيضا أن يدفع الغرب إلى رؤية مختلفة للمستقبل وعبر عن ذلك أن من شأن ابتكار مستقبل حقيقي أنّه يقتضي العثور مجدداً على جميع أبعاد الإنسان التي نمت في الحضارات والثقافات اللاغربية.

وبهذا الحوار بين الحضارات وحده يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع».(٢)

من هنا إنّ الحوار أساس للتواصل والتعارف لا الصراع، لأنّ الحوار يعبر عن عمق الأزمة التي يعيشها الفكر العربي، وتتجلى في حالة تبعية المفكر العربي للغرب. من هنا هل اهتم القرآن الكريم بالحوار ووضع له أسساً؟ وهل وصلت البيئة العالمية إلى مرحلة من النضج تتقبل فيه الحوار بالاستعداد الحيوي والتفاهم المشترك؟.

يرى البعض أن الأديان السماوية تدعو الناس إلى الإيمان من دون مناقشة أو جدال. فليس للفكر أي دور فيها يراد من الإنسان أن يؤمن به أو يرفضه فلا سبيل للحوار في قضايا التفكير الديني.

ويقدم الدين للناس مجموعة من الأمور المسلمة التي لا تقبل الأخذ والرد ولا يسمح بالجدل باعتبارها فكراً مقدساً نهائياً وبهذا جاءت فكرة الإيمان الأعمى لتطبع الفكر الديني، ويعلل بعضهم ذلك «بأنّ الدين كان نتيجة حيرة الإنسان أمام ظواهر الكون والحياة في مرحلة متخلفة من مراحل نموه

الفكري والنفسي فقد كان غارقا في ضباب المجهول، خاضعاً لظواهر الطبيعية يشعر بالضعف لا يعرف شيئاً مما حوله، ولا يريد أن يتحرك من أجل تحصيل أسباب المعرفة الذاتية»[٣].

إنّ الدين في هذه المرحلة كان يمثل النافذة التي أعطت للإنسان تفسيراً لما حوله من مظاهر فتقبل ذلك برضا من دون أن يتعمق في الفهم أو يعترض على الأمر.

تلك هي بعض الملامح التي يطرحها الكثيرون عن الدين فهل هذه الصورة حقيقية وتنطبق على الدين الإسلامي رافضة كل أساليب الحوار؟.

يكشف لنا التاريخ الإسلامي أنه كان يدعو إلى الحرية الفكرية التي تحترم آراء الآخرين، وتناقشها ونقل لنا التاريخ الإسلامي الكثير من المجالس التي كانت تدعو إلى الحوار بين علماء المسلمين وعلماء الأديان الأخرى المضادة للإسلام.

هذا كله يدل على وجود جو الحوار والحرية الفكرية، والقرآن الكريم هو كتاب الله وهو الكلمة الفصل في كل ما يريده الله، وما لا يريده، فهو المصدر الإسلامي لفكر الإسلام وشريعته.

قد كان القرآن الكريم في حياة الإسلام والمسلمين يمثل المدرسة التي انطلق منها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في الأساليب المتنوعة للحوار والإطار العام للخط الإسلامي في ذلك، والدروس العملية التي تجسّد وصول الحوار إلى هدفه الطبيعي في حركة الحياة والإيمان.

ووردت كلمة حوار في القرآن الكريم في ثلاثة آيات نجدها في سورة الكهف مرتين في معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين وحواره مع صاحبه الذي لا يملك الكثير من المال وغيره، حيث يقول تعالى:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾.[٤]

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾.[٥]

أما الآية الثالثة التي وردت فيها هذه الكلمة، فقد جاءت في سورة المجادلة في قصة المرأة التي أتت إلى النبي شاكية زوجها إلى الله:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.[٦]

ورغم أن الكلمة لم ترد إلا قليلاً في القرآن الكريم إلا أن استعمالها ومدلولها واسع لأنَّ منذ أن بدأ الإنسان يواجه الحياة الاجتماعية وهو يستعين بها لاختلاف آراء بني البشر وتنوع أفكارهم، ولأنها وسيلة للتفاهم بينهم وعلى هذا الأساس وقف الإسلام في وجه كل

التحديات ليرد التحدي بمثله من موقع الرغبة في الوصول إلى الحق وإفساح المجال للأفكار بأن تلتقي بمفاهيمه، لا من موقع الرغبة في الغلبة من أجل حب الغلبة، ولهذا لجأ الإسلام إلى الحوار المباشر.

ونستعمل في الحوار طريقة (السؤال والجواب) الأمر الذي يجعله مفيداً لحديثنا بشكل أقوى وأشمل (لأننا هنا من أجل أن نتلمس الحوار الذي ينطلق من طرح الفكر كما نتلمس الحوار الذي يتجسد في موقع الدفاع عن الفكرة ضد تحديات أعدائها وخصومها في مجالات الصراع لأننا نهدف في هذا الحديث إلى اكتشاف طبيعة الأسلوب الذي طرحته الدعوة الإسلامية في الساحة في إطار الحوار، في كل مجال من مجالاته)[٧] حتى نستفيد منه.

والهدف الأساسي للإسلام هو وصول الناس إلى الحق، بالطريقة التي تعمق الإيمان في النفوس وتشرح الصدور، ولذا فإن وسائله العملية تتجه إلى هذا الهدف.

ويتميز الإنسان عن باقي الكائنات بالعقل الذي يعتبره الإسلام قوة صالحة للحكم على الأشياء وميزاناً يزن به صحة القضايا وفسادها، ولهذا كان لابد للدين الذي يحترم العقل أن يفسح المجال لذلك فيما يقدم من عقائد وفيما يطرح من مفاهيم.

ولهذا بدأ الإسلام حركته من موقع الحوار في اتجاهين: «يرتبط أحدهما بحركة الدعوة في الحياة من حيث إفساحها المجال للطريقة العقلية في التفكير لتأخذ طريقها إلى الجانب الفكري في الحياة في مرحلة تاريخية لم يكن فيها مجال للمنهج العقلي في التفكير.

وكان من أوليات هذا المنهج، أن يطلب الإسلام من الناس الإيمان به على أساس القناعة الذاتية، من خلال ما يقدمه لهم من أدلة وبراهين على الحق في دعوته معتبراً أن ذلك هو السبيل الصحيح للعقيدة الحقه رافضاً التقليد في العقيدة سواء في عقيدته أو عقيدة الآخرين لأن التقليد يبعدنا عن الخط السليم للتفكير ويُبقي الخطأ والضلال مجالاً منحرفاً من غير أمل في تصحيح الانحراف هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن العقيدة أيا كانت لا تقوى باتباع المقلدين لأن قوة التقليد تبقى بمقدار قداسة الماضي في نفوس الناس فإذا ضعفت أو انعدمت انهار البناء».[٨]

وهكذا يعتبر الحوار عنصراً أساسياً من عناصر حركة العقيدة في اتجاه الكمال مؤكدا على دور الحجة والبرهان في الإيمان وفي المسؤولية ففي بعض الآيات يتحدث الله عن إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ليبشروا وينذروا فيقيموا على الناس حجة من الله لأن الله لا يريد أن يجعل عليه حجة للناس المنحرفين وذلك في قوله تعالى:

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.(٩)

من خلال الآية يتضح أن المنهج الإسلامي يرتكز على الحجة والبرهان فلا إيمان من دون حجة ولا مسؤولية إلا بعد إقامة الحجة كل هذا يدفع الإنسان إلى التفكير والحوار حتى يصل إلى الإيمان وحتى في يوم القيامة رغم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء إلا أنه يترك المجال للإنسان ليدخل في حوار وجدال يدافع به عن نفسه.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يحصل على القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان في إطار الحوار سواء في ذلك قضايا العقيدة، أو قضايا الحساب والمسؤولية، فلكل سؤال جواب ولكل علامة استفهام تواجه الإنسان علامات تشير إلى سواء السبيل. هذا هو الأساس الإسلامي للحوار الذي من خلاله يصل الناس إلى الإيمان ويتحملون مسؤوليته.

ويتحدث القرآن الكريم في مسألة الحوار عن تعارف بين الشعوب والقبائل، لأن الله خلق الإنسان لكنه فرق بينه وبين الآخر (ليتعارفوا) وجاء قوله تعالى في سورة الحجرات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.(١٠)

جاءت الآية كي تبرز مفهوم التعارف وتؤكد عليه في مجال العلاقات، لكن في مسألة الحوار يتحدث القرآن الكريم عن تعارف بين الشعوب والقبائل وليس بين الحضارات أي بين الكيانات البشرية المختلفة وهذا يدفعنا إلى طرح سؤالين:

-أولاً: ما هو حد التعارف وما هي شروطه وسماته؟

-ثانياً: هل التعارف بين الشعوب والقبائل يجري على مفهوم الحضارات فيقال تعارف الحضارات؟

نجد في القرآن الكريم مفهوماً عن الحضارات، فإذا تأملنا النصوص القرآنية التي تناولت قصص الأقوام الماضية التي كانت تمثل نسبة من التحضر وصفاً لهذه الامم مثل القوة فالحضارات هي صناعة القوة، والمتحضرون هم أمم قوية أما الحضارة فهي كيان قوي أو حضور راسخ في العمران.

وعادة ما يستعمل القرآن عبارة «(القرن، القرون، القرية والقرى) في حديثه عن هذه الكيانات الحاضرة التي أوتيت كل أسباب التمكن والقوة.

فالقرى تشير إلى المكان في حين القرون تشير إلى الزمان وكأن الحضارة هي رسوخ في مكان وفي زمان».(١١)

كل هذه العبارات تعبر عن الحضارة لكن القرآن الكريم لم يتحدث عن التعارف بين

القرون أو القرى، وإنما تحدث عن تعارف شعوب وقبائل بما يوحي به نمط الاجتماع العربي في ذلك العصر فإن هو تعارف بين كيانات اجتماعية داخل حقل سوسيو- ثقافي واحد.

ذلك لأن التعارف بمعنييه، المعرفة والمعروف مقدمة لإزالة أسباب التغالب والتصارع بين هذه الكيانات ويتجسد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[١٢] (فالمعروف والمعرفة تنزع أسباب الأذى والعنف بين الكيانات).[١٣]

وبما أن معنى الحضارة يتلخص في أنها قوة الصناعة وصناعة القوة فهي لا تحتاج إلى تعارف وتحاور ولا هي بطبعها ميالة للمعروف لأنها محل جذب وإغواء للجميع لكنها تحاور من دخل دورتها وأجاد لغتها وملك تمكنها ورسوخها في الأرض فالحوار مقدمة لكل تعارف أو معروف وهذا لا يتم بين الحضارات ومحيطها بل هو تعارف بين الثقافات.

وهكذا إن الموقف المطلوب إزاء الثقافات هو التحاور معها من خلال إيجاد صيغة تواصلية معها لكن الموقف من الحضارة لا يقدم لنا خيارات أخرى سوى الاندماج أو الانسحاب (خاصة أن هناك حضارة واحدة هي الحضارة التي يستولي عليها الغرب ويوجهها لخدمة أهدافه)، وعليه نحن مطالبون بالبحث عن الشكل أو الكيفية الملائمة للاندماج ويبدو أن موقف الشراكة هو الأنسب إذا أردنا أن نغير شيئا من واقعنا.

وحدد القرآن الكريم مضامين مهمة في تشكيل مفهوم التعارف والحوار بين الأمم والحضارات، هذا ما تحتويه الآية [١٣] من سورة الحجرات.

وجاءت هذه الآية بصيغة النداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا النداء موجه إلى الناس كافة، والناس هو المصطلح الذي استخدمه القرآن الكريم في التعبير عن اسم الجنس البشري.

وهو مصطلح في غاية الدقة حيث لا يقبل التجزئة والثنائية والتقابل، كحال المصطلحات والمفاهيم المتداولة في الفكر السياسي والنظم الاجتماعية من قبيل (الأمة، والشعب، والمجتمع والجماهير وغيرها..)، فالأمة هي (مجموعة من الأشخاص يجمعهم انتماء واحد)[١٤]. (والأمة مصطلح يطلق على جماعة من الناس ويقبل الجمع فيقال أمة ويقال أمم، وكذلك الشعب مصطلح يطلق على جماعة من الناس وجمعه شعوب، وهكذا مصطلح المجتمع، أما الجماهير فمصطلح يقابله مصطلح نخبة لكن عندما يقال الناس فإنه لا يطلق إلا على الناس كافة ولا يقبل التجزئة إلا إذا أدخلنا عليه الإضافة كأن نقول جماعة من الناس).[١٥]

من هذا القرآن الكريم خطاب إلهي إلى الناس كافة في كل زمان ومكان لأنه الكتاب

الذي فيه هدى ورحمة للعالمين. ثم يقول ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ويقصد من ذلك أننا خلقناكم من أب واحد وأم واحدة فكل إنسان خلقه الله من ذكر وأنثى وكل الناس يتساوون في هذه الجهة أي أننا كلنا خلقنا من آدم وحواء من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي. ثم جعلناكم شعوباً وقبائل، والهدف من هذا الجعل الإلهي هو التعارف لكي يتم الاجتماع.

(لتعارفوا) إن الشعوب والقبائل مهما تعددت وتشعبت على امتداد مساحة الأرض المترامية الأطراف إلا أنها مطالبة بالتعارف كمبدأ في العلاقات المحلية والدولية، الداخلية والخارجية، كما أنَّ هذا المبدأ يفيد في نفي النزاع والصراع والسيطرة والهيمنة بين الشعوب والقبائل[١٦] ولكن القرآن الكريم لا ينفي مبدأ التفاضل بين الناس وبين الشعوب والقبائل لكنه يشترط أن يتم التفاضل بالتقوى.

فالتفاضل يعبر عن واقع موضوعي لا يتعارض مع مبدأ العدل والمساواة. لذا حاول القرآن تغيير مقاييس التفاضل من تفاخر الأنساب.. إلى مقاييس سامية تربط الأمم والحضارات بالقيم التي أهمها الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

نستخلص من (آية الحجرات) أن القرآن الكريم قدَّم مجموعة من المرتكزات للتعارف والحوار، فهو خطاب إلى الناس كافة من غير تحيز إلى أمة معينة ولا يفضل أمة على أمة أخرى وهذا الخطاب لم يأت للناس في زمان من دون زمان آخر ولا في مكان من دون مكان آخر بل هو صالح لكل زمان ومكان.

ويتضح من الآية أن الإنسانية ترجع إلى أصل واحد هو آدم وحواء ورغم تنوعاتها العرقية والقومية، اللغوية واللسانية، الدينية والمذهبية لذا يريد القرآن الكريم للناس أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم أسرة إنسانية واحدة على هذه الأرض مهما اختلفوا في اللون واللسان ومهما تباعدوا في الأوطان مع كل ما بينهم من فوارق واختلافات إلا أنَّهم ينبغي أن يتعاملوا فيما بينهم بمنطق الأسرة الواحدة، (وإذا تعامل العالم على خلفية الأسرة الإنسانية المشتركة أو الواحدة فهذا يعني إزالة كل الأحقاد والعصبيات والعنصريات والكراهية بين الناس.

الظواهر التي تقف وراء كل ما يصيب العالم من نزاعات وصراعات وحروب مدمرة كما أن هذه الخلفية تمثل أعمق المكونات الروحية والأخلاقية في الروابط بين الأمم والشعوب والحضارات).[١٧]

ورغم أن التنوع والتعدد الإنساني حقيقة يؤكدها القرآن الكريم، لكنه ربط بين وحدة الأصل الإنساني وبين التنوع الإنساني الربط الذي يفهم منه أن (وحدة الأصل الإنساني لا

تعني إلغاء التنوع بين الناس في أن يعيشوا شعوبا وقبائل، وأن التنوع والانقسام في العيش إلى شعوب وقبائل لا يعني إلغاء وحدة الأصل الإنساني).[١٨]

ونستخلص أيضا من الآية أن القرآن الكريم يؤسس مبدأ التعارف بين الأمم والشعوب (ليتعارفوا) (فالتنوع بين الناس إلى شعوب وقبائل وامتدادهم وتكاثرهم على ربوع الأرض لا يعني أن يتفرقوا وتتقطع أواصرهم ويعيش كل شعب في عزلة عن الشعوب الأخرى، كما لا يعني هذا التنوع أن يتصادموا ويتنازعوا من أجل الثروة والقوة والسيادة وإنما ليتعارفوا).[١٩]

إنَّ الناس يدركون أنَّهم من أصل واحد لكنهم بحاجة للتعارف، لا على مستوى الأسرة فقط بل لابد أن يصل هذا التعارف إلى المجتمع ومنه إلى العالم حيث يعيش فيه كل الناس كما لو أنهم أسرة واحدة ذات أصل إنساني واحد.

وتتجلى أهمية التعارف في أنه هو الذي يحدد مستويات الحوار والتعاون ويثريهما ويثمرهما، كما أنَّ للتعارف دوراً وقائياً في منع النزاع والصدام على مستوى الأمم والحضارات وكل هذا سيؤدي إلى مفاهيم تدل على العلاقات التي لابد أن تكون بين الشعوب والقبائل والأمم مثل الانفتاح، التواصل، السلام وعدم الانغلاق والقطيعة والكراهية وتبنى هذه المفاهيم على الحوار لأنها شروط التعارف وهنا تبرز مفاهيم التعاون والترابط والتبادل. وكل هذا يؤكد على حيوية هذا المفهوم وفاعليته.

يتضح من ذلك أنَّ للحوار بعداً أساسياً يتمثل في معرفة كل أمة وكل حضارة على إمكانيات وقدرات وثروات الأمم والحضارات الأخرى إضافة إلى معرفة الظروف والمشاكل والتحديات.

ويضع القرآن الكريم العنصر الإنساني هو وحدة الميزان في تقييم الإنسان ويتمثل هذا العنصر في أخلاقيته لأن بهذه الميزة يتميز الإنسان عن باقي المخلوقات وتجعله كريما عند الله، وجاء قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢٠]، فالتقوى هي ممارسة أخلاقية العبودية تجاه الله، ولذا لا يجب أن تبنى العلاقات والروابط بين الأمم والحضارات على المصالح والمنافع وليست محكومة بالسياسة والاقتصاد بل يؤكد الإسلام على القيم والآداب والأخلاق التي تتمثل في (التقوى).

«إن العالم لا يستطيع أن يعالج أزماته ومشاكله بالسياسة فحسب أو بالاقتصاد والعلم فقط، فالسياسة تحولت إلى أداة لجلب المصالح، والاقتصاد محكوم بالمنافع وبقاعدة الربح والخسارة، والعلم انفصل عن القيم، والذي يضيفه الإسلام في هذا المجال، مجال

العلاقات الدولية هو إدخال منظومة القيم والأخلاق (التقوى)»[٢١] فالعالم يحتاج إلى القيم والأخلاق لانعدام العامل الروحي والوجداني في العلاقات الدولية بين الأمم والحضارات.

لذا علينا العودة إلى القيم والأخلاق لأن بالتقوى نزيل العصبيات بكل أشكالها لأنها هي التي تتسبب في انقسام الأمم والشعوب والتصادم لكنها من جهة أخرى تعطي دفعة قوية للتعارف.

نستخلص من كل هذا أنَّ الحوار ضروري للتعارف بين الأمم والحضارات ولكن كي يكون الحوار صحيحاً لابدَّ من توافر الشروط فأول متطلبات الحوار هي «الاعتراف بالآخر كحقيقة مستقلة، وإذا اعترفنا بالآخر من هذه الزاوية فينبغي قراءته قراءة موضوعية وفق ما هو عليه في الواقع، ووفقاً لما هو متمثل في تصرفات أهله هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد من الخروج من العبثية التي يحددها البعض كفاية معرفية».[٢٢]

إنَّ الحوار يدور بين اثنين ولذا الشرط الأساسي حتى يصل لهدفه هو أن يمتلك الطرفان (المحاور، الطرف الآخر للحوار) حرية فكرية أي ثقة بنفسه أي ثقته بفكره وبقابليته لأن يكون طرفاً للحوار أي حرية اختيار المشروع الذي يتبناه، وإشاعة نوع من الحرية في اختيار المؤسسات التي تمتلك في هذا الحوار لأن الهدف أو النتيجة المرجوة من هذا الحوار هو التضامن والاجتماع للصالح العام الإنساني لأن الحوار يتطلب ضرورة فهم الآخر فهماً جيداً وضرورة الصبر على ما يقوله. أمَّا الطرف الآخر فلابدَّ له أن يعد جوه الداخلي للاقتناع بالنتائج التي يقود إليها الحوار وإلا انقلب الموقف إلى جدل عقيم.

ومن هذا نستنتج أنَّ الحوار ضرورة إنسانية في أي لحظة من لحظات الصراع أو الوفاق أو التضامن أو التوافق.

وهو مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب لأن الصراع يولد الدمار وربما يقضي على الإنسانية أمَّا الحوار فهو طريق التعارف بين الشعوب من أجل التعايش والسلام وسبيل للخروج من التخلف ومواكبة النهضة.

وفكرة الحوار تقضي على وَهْم الحضارة العالمية التي يقول بها الغرب لأن الركيزة الأساسية التي يستند عليها الحوار هي ((الاعتراف بالآخر إلى جانب الأنا)) هذا ما عبر عنه «روجيه غارودي» عندما وضع شروطاً حتى يكون الحوار ناجحا.

وتتمثل هذه الشروط فيما يلي:

«التخلص من الأفكار السابقة التي ترى أفضلية الحضارة الغربية على غيرها من الحضارات واعتبار أن الغرب هو الذي يقرر والآخر عليه التنفيذ»[٢٣]. فمكانة الحضارات متساوية في الأهمية فلا وجود لغالب ولا

مغلوب لأن التحرر من الهيمنة هو شرط الحوار.

«الاعتراف بأن كل حضارة لها هويتها الخاصة بها، وكل حضارة تتمسك بثقافتها الخاصة وهويتها الخاصة»(٢٤).

هذه الفكرة تؤكد على القيم الموجودة في كل حضارة وتؤكد على ضرورة الاعتراف بثقافة وهوية الآخر قبل بدء الحوار لأن الهدف من الحوار هو الاقتناع أننا نتعلم شيئاً من الآخر. إنّه حوار من أجل معرفة متبادلة وفهم مشترك، لأنَّ لكل حضارة تاريخاً وديناً وثقافة خاصة بها.

الهوامش

١-فارح مسرحي: الحداثة في فكر محمد أركون منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص١٧٠.

٢-زكي الميلاد: المسألة الحضارية كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩١م، ص٦٨.

٣-محمد حسن فضل الله: الحوار في القرآن الجزء الأول قواعده، أساليبه، معطياته، دار المنصوري للنشر من دون طبعة وسنة نشر. ص٥-٦.

٤-القرآن الكريم، سورة الكهف الآية٣٤.

٥-القرآن الكريم، سورة الكهف الآية٣٧.

٦-القرآن الكريم، سورة المجادلة الآية١.

٧-محمد حسن فضل الله: الحوار في القرآن، ص١٨-٢٣.

٨-المرجع نفسه، ص٢٩-٣٠

٩-القرآن الكريم، سورة النساء الآية ١٦٥.

١٠-القرآن الكريم، سورة الحجرات الآية ١٣.

١١-إدريس هاني: حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ص٩٥.

١٢-القرآن الكريم، سورة الأحزاب الآية ٥٩.

١٣-إدريس هاني: حوار الحضارات، ص٩٩.

١٤-صدر الدين القبانجي: علم السياسة تجديد من وجهة نظر إسلامية، الشركة العالمية للكتاب، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص١٣٧.

١٥-زكي الميلاد: المسألة الحضارية كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص٧٠-٧١.

١٦-المرجع نفسه، ص٧٣.
١٧-المرجع نفسه، ص٧٥.
١٨-المرجع نفسه، ص٧٥.
١٩-المرجع نفسه، ص٧٦.
٢٠-القرآن الكريم، سورة الحجرات الآية ١٣.
٢١-زكي الميلاد: مسألة حضارية، ص٧٨.
٢٢-إدريس هاني: حوار الحضارات، ص١٣١-١٣٢.
٢٣-روجيه غارودي: في سبيل حوار الحضارات، ترجمة عادل العوان، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى١٩٧٨م، ص٢٣٩.
٢٤-المرجع نفسه، ص٢٣٩-١٢٦.

الإبداع والإلهام في التحليل النفسي

د. محمد ياسر شرف ❁



تؤكد الكتابات المتوافرة في موضوعات الإبداع، والكشف عن ما عُرف بظاهرة الإلهام في كتابات السابقين، والتقارير التي وضعت خلاصة لتجارب ومناقشات أجريت في النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده خاصة، أنّ هناك اربعة مجالات رئيسة واضحة يمكن اعتبار كل منها محورَ دراسة تثير متطلبات الموضوع كلها، هي: عملية الإبداع، الخصائص السايكولوجية للمبدعين، معايير الإبداع، المناخ الإبداعي.

وقد ذكر (سوبر) أنّ الدراسة الوحيدة التي تمّ فيها تحليل القدرة التي يتصف بها المبدع، هي ما قامت

❁ مفكر وباحث أكاديمي.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

به (مايير) التي انتهت إلى تحديد عدد من العوامل تدخل في تكوين القدرة الفنّية لدى الأشخاص، وتتناول المهارة اليدوية، والقدرة على بذل النشاط، والذكاء الجمالي، والخيال الابتكاري، والحكم الجمالي الذي يُعدُّ طبيعة باطنية لدى المبدع.(١)

وأشهر مقاييس التفكير الإبداعي التي تُعنى بالإلهام هو ما وضعه (جيلفورد) في (نظرية بناء العقل) التي تضمّنت تخطيطاً يضمّ قرابة خمسين عاملاً -قابلة للزيادة- تُصنّف في خمسة أنواع من العمليات العقلية، هي: العوامل المعرفية، عوامل التفكير الموجّه، عوامل التفكير المتشعّب، عوامل التقويم والحكم، عوامل الذاكرة.

كما ظهرت مجموعة من الاختبارات أسهمت في كشف بين الإبداع والقدرات الفردية الأخرى، مثل (اختبار تداعي الكلمات) أو الطلاقة الفكرية، الذي يقيس سرعة استدعاء الأفكار بغضّ النظر عن أنواعها، بحيث يمكن قياس الإبداع باعتباره ظهوراً فجائياً للتكوينات الجديدة. وهناك (اختبار استعمالات الأشياء) الذي يكشف عن الاستعمالات النادرة غير المعروفة، من ما يعبّر عن الأصالة.(٢)

وقد استطاع (كوكس) بدراسته عن (العباقرة) أن يؤكد بشكل عملي أنّ العبقري إنسان ذكي، متميّز الذكاء، ولكنه ليس متميّزاً بالذكاء على الآخرين من الناس الأسوياء.(٣)

ورغم أن (بليخانوف) عمد إلى إعطاء تفسير مادي لظهور (التصوّرات الجمالية في المجتمع البدائي) من وجهة نظر المادية التاريخية، فقد ركز اهتمامه الأكبر على الناحية (الذاتية) في الموضوع، تاركاً المصادر المعرفية الموضوعية للشعور بالجمال، والدافع إلى الإبداع.(٤)

ورأى (ستولوفيتش) في كتابه (الجمالي في الواقع والفن) أنّ النشاط العملي للإنسان هو الأساس الذي يقوم عليه توكيده الروحي لذاته في الواقع، أي فهمه لإمكاناته وقواه الإنسانية ولقدرته على الإبداع.

وذهب عدد كبير من السايكولوجيين الآخرين إلى تبنّي فكرة (وجود مراحل أو عمليات) للتفكير الإبداعي، بحيث يُعدُّ الإبداع واحداً منها. وأبرز الأمثلة في ذلك تحليل (دالاس) للتفكير الإبداعي في مراحل أربع، هي: الاستعداد والحضانة والإلهام والتحقق.

وأجرى مفكرون كثيرون بحوثاً تناولت العلماء والفنانين والأدباء على هدي هذه الفكرة، التي رأت أن الإشراق أو انبثاق حلّ المشكلة بعد تعذّره هو نتيجة ترك المشكلة جانباً وإعطاء التفكير فرصة للاستراحة، بعد التشبّع بالموضوع تشبّعاً كاملاً؛ فيتخلّص

العقل من مجرى التفكير الخاطئ أو اتجاهه غير المناسب، بينما يستمر نشاط تحت الشعور في الوقت نفسه.

وقد أوضحت دراسة (سبيرجون وآرمسترونغ) للصور الخيالية في (مسرحيات شكسبير) أنّ العمل الأدبي أو القصيدة الشعرية، لا يبزغ فجاءة، بل يكتمل بالتدرّج، مع اختمارات كثيرة وإشراقات عديدة.

وهذا ما دلّت عليه التقارير الاستبطانية التي جمعها (روسمان) من المخترعين الذين أجرى دراسته الاستجوابية عليهم.

وفضّل (فيناك) أن يقول إنّ الإلهام ومكوّنات الإبداع الأخرى لا تتسلسل في مراحل محدّدة، بل هي عامة متتابعة، قد تختلف من وقت لآخر. كما نظر (فرتهايمر) إلى الإبداع نظرة كلّية، إلى النموذج الشامل الذي يكوّن الإنتاج النهائي(٥).

رؤية رائد التحليل النفسي

إذا توقفنا مع مدرسة التحليل النفسي على سبيل التخصيص في موضوعنا، نجد أنّ (سيغموند فرويد) لم يحدّد الإلهام بصورة مفصّلة في أثناء نظريته، وبشكل واضح ومميّز، بل درسه باعتباره (نتاجاً لاشعورياً) يُعالج من خلال تفسير الإبداع. وقد رأى أنّ النشاط الفنّي موزّع بين قوى ثلاث، هي: الهو والأنا والأنا الأعلى.

فالـ(هو) جزءٌ لاشعوري من النفس، ويحوي غريزتين متحاربتين، هما (غريزة الحياة أو الحب. إيروس) و(غريزة التدمير أو الموت. ثناتوس). ونظراً لسيطرة (مبدأ اللذة) على (الهو) ينقصه التنظيم الذي يمكّنه من تحديد طُرق تفريغ اندفاعاته.

هذه الطرق التي تُعدّ من وظائف (الأنا) الذي ينمو من الهو ويستقلّ عنه في جزئه المنظّم. وإذ يحاول الأنا أن يحافظ على حياة المرء الشعورية منظّمة، ينمو منه (الأنا الأعلى) ويقوم بمهمّة الرئيس(٦).

ذكر فرويد أنّه بقدر ما ينفصل الأنا الأعلى عن الأنا، أو يعارضه، تتكوّن (قوة ثالثة) ينبغي على الأنا أن يعمل لها حسابها(٧).

وهذه القوى الثلاث دائمة الصراع في ما بينها، وتتجلّى محصّلة الصراع في سلوك الشخص في أي موقف. ولهذا الصراع وسائل يصل بها إلى تكوين المحصّلة، سمّاها فرويد (الآليات) مثل: الكبت والتحويل والإسقاط والكظم والتقمّص والتسامي والنكوص وغيرها(٨).

واعتبر فرويد مسألة الإبداع عملية (تسامٍ أو إعلاء) لوجود رابط لدى الإنسان بين (الدافع للبحث) و(الدافع الجنسي) الذي يكبت بسبب النظم الاجتماعية، ويُغمَر جزء كبير منه في اللاشعور، بما يؤدي إلى ظهور المخترعات الجنسية أو

الشبقية في اللاشعور (متسامية)، أي أنها تسعى نحو غايات مقبولة اجتماعية وغير جنسية المظهر. ويتمّ ذلك عن طريق الطاقة النفسية (ليبيدو) التي تحرّض اللاشعور على إبراز مخترعاته على شكل ترابطات جديدة ومقبولة اجتماعياً.

يمكننا أن نفترض هنا، وهذا ما لم يفعله فرويد، أنّ وصول التكوينات على شكل دفقات لاشعورية إلى ساحة الشعور، قد يكون ناتجاً عن ارتباط دافعي (البحث) و(الشهوة) فيكون هذا هو ما ندعوه باسم (الإلهام).

ونظراً لأنّ فرويد لم يوضح شيئاً من هذا في حديثه عن طبيعة تكوين الإبداع أو الإلهام ولم يذهب إلى تأويلي هذا، فقد بقي الإلهام -على سبيل التخصيص عنده- في مجال التساؤل الغامض في كتاباته المختلفة.

كما لا يخفى أننا لا نملك أي تأكيد تجريبي على (المقولة) الفرويدية بوجود (رابط) بين دافع البحث والدافع الجنسي من جهة ثانية.

ورأي فرويد في هذا الشأن يرتكز على المصادرة القائلة بأنّ «الحياة النفسية لا تتسم -خلافاً لما هو شائع- بذلك القدر من الحرية والنزوة، بل لعلها لا تتمتع بقلامة ظفر منهما. فما نسمّيه في العالم الخارجي بالمصادفة يتحوّل في نهاية الأمر -كما كان علماء النفس يقولون- إلى قوانين، وما نسمّيه في الحياة النفسية بالنزوة يرتكز -بدوره- إلى قوانين وإن كنّا لا نحدس بها إلاّ على نحو غامض».(٩)

لقد حاول رائد التحليل النفسي في دراسته عن (ليونارد دافنشي) أن يحدّد الأسباب اللاشعورية التي تفضي إلى السلوك عند الفنان بصورة خاصّة، فرأى أنّ معظمها مؤلّف من رغبات جنسية وصراعات ترتبط بعُقد -مثل عقدة أوديب أو المحارم- تظهر لدى الأشخاص في مرحلة الطفولة، ولا تسمح لها النظُم الاجتماعية بتحقيق الإشباع، فيؤدي ذلك إلى (كبتها) في اللاشعور، في الوقت الذي يُخيّل فيه أنها انتفت أو نسيت تماماً. لكن الحقيقة-كما رأى فرويد- أنّ تلك الرغبات الجنسية بقيت تعمل، بطريقة غير مشعور بها، على توجيه سلوك الفرد خلال مراحل حياته المختلفة.

يقول فرويد إنّ التفكير اللاشعوري يميل إلى استخدام مادة مجرّدة ونظرية ومنطقية مأخوذة من حياة اليقظة، ويحوّلها إلى صور مادية، وكثيراً ما يجهل أو يشوّه المعنى العقلي بأن يضع مكانه صلةً حسية بحتة، مثل الصلة بين ألفاظ متشابهة الأصوات، وهي صلة تبدو سخيفة وبعيدة عن الاحتمال على مستوى العقل الواعي، بما يجعل التفكير اللاشعوري عتيقاً.(١٠)

وتبعاً للتفسير الذي قدّمه فرويد يبدو الفن هو العالم الرمزي الذي يقتادنا من الحلم أو الخيال إلى الواقع أو الحقيقة، مادام في استطاعة الفنان أو المبدع، عن طريق آليات الإبداع الفني، أن ينتج شيئاً يكون فيه ما يشبه إشباع رغباته الجنسية، أي المتعلقة بلذة كونه هذا أو ذاك من الذكور والإناث، وهي مسألة تختلف عن القضية الفيزيولوجية التناسلية. ويشير إلى أنه يتوافر لدى المبدع نوع خاص من قدرة (سحرية) هائلة على تشكيل المواد الجزئية والفردية الموجودة لديه، بحيث تجيء معبّرة عن أحلام يقظته وأفكاره الخيالية تعبيراً أميناً صادقاً.

ونظراً لما يقترن بهذا الانعكاس الفني لحياة الفنان أو المبدع الخيالية من فيض جارف من المتع أو اللذات، فإنّ مظاهر الكبت الكامنة فيها تكاد تتعادل أو تختفي، بالقياس إلى ما يجيء معها أو تحققه من إشباع. وهكذا يجني الفنان، عن طريق التعبير الفني عن أحلام يقظته، ما لم يكن قادراً على تحقيقه من قبل إلاّ في الخيال، ويعني بذلك: الشرف والقوة ومحبة النساء وأضرابها[11].

إلا أنّ فرويد، الذي رأى الفنان شبيه الشخص العصابي، وأنّ النرجسية طابع أساسي في إنتاجه الجمالي والفني، لم يقدّم أيّ سبب مقنع بمعنى الكلمة لاتجاه (الدافع الجنسي) نحو (التسامي) بعد الكبت في حالة ما، من دون سائر الحالات التي تشبه ما درسه أو لم يدرسه، كحالة دوستويفسكي أو دافنشي أو جنسن، وهي كثيرة جداً وفي مجالات متعدّدة ضمن الفن التشكيلي والأدب وغيرهما.

كما أنّه لم يقدّم المسوّغ الذي يجعل نتيجة الكبت إبداعاً، وليس حالة عُصابية.[12]

كما أنه أقرّ أنّ منهجه غير قادر على تعيين أسباب الاستعداد للتسامي بصورة دقيقة، ورأى إمكان أن يعود ذلك إلى ما سمّاه (خصائص عضوية)[13] بقيت من دون إيضاح وبلا تحديد كافيين.

وهذه الأمور الأساسية المهمة والخطيرة جعلت التعليل بالتسامي في النظرية الفرويدية قريباً من التعليل اللفظي، وبقي تفسير الإلهام الإبداعي عنده بنشاط اللاشعور مفتقداً وضوح الإثبات التجريبي، رغم جميع الفوائد التي يمكن جنيها من دراساته.

التجاوز لدى المدارس المحدثة

كانت المثالب المتعدّدة التي انطوت عليها الفرويدية أهمّ الحوافز التي جعلت عدداً من الذين عارضوا النظرة الفرويدية أو أتوا بعد فرويد ومنهم من تتلمذ عليه، يبحثون عن تسويغات أخرى، يمكن أن تدعمها

بحوث علم النفس واكتشافاته بصورة عامة، والتحليل النفسي بشكل خاص.

ولذا قرر (كريس) أن يأخذ بالتفسير القائل: (يستخدم الأنا العمليات الفطرية، ولكن من دون أن يطغى عليها أو تقهره).

وذهب (كيوبي) إلى تعريف الشخص المبتكر أو المبدع بأنه الذي «في وسعه أن يستخدم بوسيلة ما -ماتزال عرَضية حتى اليوم- وظائفَ ما قبل الشعور، بطلاقة أكثر من الآخرين الذين يتساوون معه في مواهب ماتزال كامنة».[١٤]

ومدرسة التحليل النفسي الحديثة تنكر معنى اللاشعور في العمل الإبداعي، وتردّه إلى ما قبل الشعور، أي تنقل الاهتمام من الهو إلى الأنا، بما يساعد في الوصول إلى نتائج أكثر اتصافاً بالدقة والصحة، وأقرب تناولاً إلى التأكيد الواقعي.

وقد أشار كيوبي إلى أنّ (افتراض اللاشعور هو منبع دوافع الإبداع ومصدر الإلهام العظيم في حياة البشرية، قد أدّى إلى استنباط كثير من الكليشات الخاطئة).[١٥]

ولو انتقلنا إلى (كارل غوستاف يونغ) أحد المنشقين عن فرويد، الذي أسس مدرسة علم النفس التحليلي، وجدنا أنه يعدّ الإبداع عملية نفسية يحوّل بها صاحبها «المشاهد الغريبة التي تطلع عليه من أعماقه اللاشعورية إلى موضوعات خارجية قابلة لتأمّل الآخرين».

ويرى أنّ حياته لا يمكن إلاّ أن تكون مليئة بألوان (الصراع) لقوتين داخليتين فيه، أولاهما هي: (الميل البشري إلى السعادة والرضى والاطمئنان في الحياة)، أما الثانية فهي: (شوق جارف للإبداع قد يذهب بعيداً، وإلى حدّ يتغلّب على كل رغبة شخصية).[١٦]

وقد ردّ يونغ مصدر الإبداع إلى اللاشعور أيضاً، لكنّ اللاشعور عنده يتألف من قسمين: أحدهما (شخصي) والآخر (جمعي) انتقل بالوراثة إلى الشخص، حاملاً معه آثار خبرات الأسلاف من البشر، وهي ما يسمّيه (النماذج البدائية).

وهذا اللاشعور الجمعي، كما يراه يونغ، هو مصدر الأعمال الفنّية العظيمة.

أمّا سبب العامل الحاسم في الإبداع عنده، فهو (انسحاب الليبيدو) في الحالة الحاضرة من رموزه الاجتماعية التي كان متعلّقاً بها في الخارج، لأنّ هذه الرموز لم تعد صالحة لأداء مهمّتها بسبب ما يحدثه تطوّر المجتمع من أوضاع.

وينجم عن هذا الانسحاب أن يتجه الليبيدو إلى داخل الشخصية، وقد «يثير أعمق مناطقها، فتبرز كوامن اللاشعور الجمعي، التي يشهدها الأشخاص العاديون

في أحلام النوم، ويشهدها العباقرة أو الفنانون في اليقظة».[١٧]

هذا هو ميكانيزم الإلهام عند يونغ، الذي قال إنّ الليبيدو (يتعلّق) بذلك البعض الذي برز من كوامن اللاشعور الجمعي، ويزيده بروزاً بأن (يمليه) على الفنان لكي (يخرجه) في أعماله الفنية (رمزاً يبدو أمامنا في وضوح الشعور) فلا نلبث أن (نتعلّق به بدلاً من الرمز المنهار). وهكذا، تبدو حالة الإلهام الموصوفة عند يونغ بمثابة ميزة للمبدع الأصيل، لأنه يطّلع فيها على مضمون اللاشعور الجمعي، الذي يشمل آثار أحداث الطبيعة في النفس البشرية، بوساطة (الحدس) ويعمد إلى (إسقاط) ذلك المضمون في رموز جديدة.

ويكون الرمز الجديد حيّاً ومحمّلاً بالمعاني، وهو يصدر عن أسمى مرتبة عقلية: الحدس، في الوقت الذي يصدر فيه عن أكثر حركات النفس بدائية: الإسقاط، لكي يكون في مقدوره أن يمسّ في الإنسانية وتراً مشتركاً. إذ بالحدس يصل المبدع إلى الوتر المشترك، وبالإسقاط يحدّد مشهده ويخرجه من نفسه في هيئة شيء خارجي هو الرمز.

وإذ ينتقل يونغ إلى الربط بين الجانب الإبداعي للشخصية وجوانبها الأخرى، يقول: «إنّ تمتع الفرد بموهبة خاصة إنّما يعني إنفاقه للطاقة الحيوية بشكل زائد في اتجاه معيّن، واضطراراً -بالتالي- إلى الإخفاق في جوانب أخرى من حياته، حيث لا يكون لها نصيب مقبول وكاف من طاقته الحيوية التي أنفقها من أجل تفوّقه وموهبته».[١٨]

ولقد جعل هذا بعض الباحثين يقرّر أنّ الفنان يملك -من ناحية أولى- نزوعاً بشرياً عادياً نحو السعادة والرضاء والطمأنينة في الحياة، ويملك -من ناحية أخرى- هوى عنيفاً عارماً للإبداع قد يستبدّ به أحياناً إلى الحدّ الذي يقهر معه شتى رغباته الشخصية.

ولعلّ هذا هو السبب في أنّ حياة معظم المبدعين قلما تخلو من سخط وتعاسة ومآس، حتى لقد وقع في ظنّ بعض الدارسين أنّ الحظّ السيّئ لا بدّ أن يلازم الفنان العبقري.

والحقّ أنّ السرّ في شقاء الفنانين ليس حظّهم السيّئ أو مصيرهم البائس، بل هو نقص الجانب الشخصي في حياتهم البشرية العادية.

إذ لمّا كانت القدرة الإبداعية التي تسيطر على الفنان لا بدّ أن تؤدي إلى تركيز طاقته الحيوية في اتجاه معيّن، بما يرتّب عليه حدوث فراغ في جانب آخر من جوانب حياته، فإنّ بواعثه وحوافزه البشرية العادية

سرعان ما تصبح ضعيفة هزيلة سيّئة.[19]

وقد لاحظ يونغ وأنصاره من الباحثين أنّ دور الواقع الاجتماعي، عندما يحدث فيه أي تغيّر، ينجم عنه تخلخل الصلة بينه وبين رموزه التي كانت معلّقة عليه من ناحية، وعلى اللاشعور الجمعي من ناحية أخرى. فتكون النتيجة أنّ اندفاع الليبيدو إلى داخل الذات يتعلّق بما برز من اللاشعور الجمعي في أعماقها، نتيجة لهذا التخلخل؛ فمادة اللاشعور -إذن- هي اللاشعور الجمعي[20].

يظهر من ذلك أن اتجاه يونغ قد رأى صاحب الفن العبقري متراجعاً عن الحاضر الذي لا يرضيه، فهو يعود إلى الماضي باحثاً في اللاشعور الجمعي عن النماذج البدائية التي هي خير ما يدرأ الاختلال الشائع في روح العصر.

ويُعدّ هذا الرأي امتداداً لاعتبار يونغ أنّ التغيّرات التاريخية لا تعني تقدّماً للإنسانية، ولا مجرّد استعداد للسير نحو التقدّم أو تحقيق الجديد؛ بل تعني تقلّب اللاشعور الجمعي، لتخرج منه بنموذج بدائي تعلّق عليه رمزاً جديداً، هو قديم في مضمونه قِدَم الآثار الموروثة عن أسلافنا السابقين.

لقد عدّ يونغ (الحدس قوة فطرية مميّزة للفنان أو المبدع) من دون سائر الناس، وجعل الإسقاط يعتمد على الهويّة العتيقة بين (الذات) و(الموضوع)، لأنّ التفرقة بين (الأنا) و(العالم) لم يعرفها البدائيون، فهم -كما تثبت الدراسات المقارنة والبقايا المادية- لم يدركوا العالم كإدراكنا إياه، بل باعتباره كائناً عظيماً تشيع فيه الحياة؛ وهذا يعني أنّ عملية إسقاط -بطريقة تلقائية أو سلبية- كانت تتمّ لديهم، حينما يسقطون ظروف حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم على مشاهد الطبيعة وظواهرها.

ولا بدّ من إشارة إلى أنّ يونغ قدّم ما قدّمه معترفاً، منذ بداية دراسته العملَ الفني، بأنه نتاجٌ صادر عن ضروب عديدة معقدة من النشاط الفني، رغم اتصافه بصبغة إرادية شعورية واضحة، أو اشتماله على بعض ما يساعدنا على فهمه.

ورأى أنّ فعل الإبداع -ككلّ- سيظلّ على الدوام يفلت من قبضة الفكر البشري، لما يمتاز به من تلقائية، وأنّ طبيعة الإبداع تتمثل في أن لا يثبت للمعرفة العلمية.

ولذا أفضت دراسات يونغ في الحدس والإسقاط، والإبداع عامة، إلى القول بوجود نوع من (المشاركة الصوفية) التي تمثل مستوى خاصاً من الخبرة، يصبح فيه (الإنسان) هو الذي يعيش وليس (الفرد)، ولا شك أنّ هذا أدخل في المسألة غير قليل من الغموض والصعوبات النظرية.

مقترح تأصيلي للظاهرة الإبداعية

بعد عرض عدد من أهمّ الدراسات

والآراء حول ظاهرة الإلهام والإبداع في الخلق الفني، سأحاول تقديم إطار نظري للمعالجة، يصف نقطة الانطلاق البحثي، ويعتمد على محاكمة تصنيفية تأخذ بالتقدير ما وصلت إليه مجموعة من الأبحاث النفسية، بصورة مختصرة ما أمكن، نظراً لأنني قد أظهرت في كتابي (مشكلات في النقد الأدبي) مجموعة من المسائل النظرية ذات الصلة بهذه المسألة، ثم عمدت في كتابي (أدب الحب المؤلم) إلى وضع مجموعة من الدراسات التطبيقية لتأكيد المنطلقات النظرية، التي أعرض موجزها في هذا البحث، وأعرض عن الإحالة المكرّرة إليها.

فنحن يمكننا القيام بملاحظة الواقع الشخصي، بغية الوصول إلى حصر نقاط الارتكاز الأساسية في الظاهرة الإبداعية، وتتبع سيرورتها منذ بدايات التأثير الفاعلة الأولى، حتى تحويلها المختزنات اللغوية والمواد الأولية للمشاعر الخام والمعطيات الفكرية المتوافرة في الجهاز النفسي، بوساطة طرق التعبير الفنيّة المتعدّدة، إلى وسائل لنقل أفكار الشخص (المبدع) أو مشاعره أو إحساساته وإدراكاته إلى (المتلقي) الشخص.

وأوّل ما نصادفه في الحياة المجتمعية الزاخرة أنّها تعرض علينا، في ما تعرض، تبعاً لظروف متغايرة يمكن تتبّعها، مثيرات من شأنها أن تضعنا بشكل أو بآخر في (موقف إحباطي) يزداد توتّره، إلى أن يسبّب في حالتنا الانفعالية هيجاناً يحرّك لدينا مجموعة من المختزنات العاطفية والفكرية المترابطة، بالتشابه أو التضاد وما بينهما. وقد يكون سبب الهيجان فكرة تعود بنا، عن طريق الترابط وأحلام اليقظة، إلى خبرات وعواطف ومواقف سابقة، فتسبّب نوعاً من الألم أو الفرح، أو النفور أو التحبيذ، أو الرضى أو الاستنكار، وغيرها.

وموقفنا الانفعالي هذا يكون غير متميّز في غالب الأحيان، وغير مركّز على شخص بعينه، أو حالة دقيقة بذاتها، بل هو عام. فحزننا حزنٌ من أيّ ألم ومؤلم، وثورتنا على أيّ ظالم وظلم، وحبّنا لأيّ جميل وجمال؛ وهكذا.

هنا يدرك الفرد موقفه الإحباطي، الذي تتزايد حدّته شيئاً فشيئاً، فتسعى العضوية إلى التخلّص من الطاقة الناجمة التي تهدّد الشخصية بفقدان التوازن.

وإعادة التوازن (الخلاص) تتمّ عن طريق آلية بدائية نفسية، تؤكد تفرّد (الشخصية) بالردّ العدواني على المنغّصات أو الإساءات، أو ما يعصف بتوازن الشخصية من الموضوعات الخارجية، بما يبرهن على حالة (التماسك) ويدعمها لدى الفرد.

فاختيار أسلوب الردّ ونوعية مداه

وكيفيته، وما يمثله ذلك من كشف لهذا الاختيار أو الانتقاء هو ما نسمّيه (الإلهام) أو (ذروة الإبداع).

ونلاحظ أنّ الردّ لا يتجلّى على شكل سلوك صريح تجاه الآخرين أو الأشياء المتعلّقة بهم -على مستوى التعبير أو التشكيل، حيث ارتضى الشخص على استخدام مادة معيّنة- وإنما يكون سلوكاً رمزياً أو خرافياً، يتمثل في استخدام (المبدع) مادة أولية (لغة صوت، صلصال، لون) لإيجاد مخلوق -فعل، كائنٍ ما، يشهد على وجود (الأنا) وفاعليتها وقدرتها، وكل ما يتصل بموضوعات الحفاظ على الكرامة والمكانة والاحترام والتفوّق والقدرة والتميّز، وغير هذه من ما يرضي (الأنا الأعلى).

والجهد المبذول في (الخلق) الذي ذكرناه، من حيث هو إيجاد تأثير لامادي في شيء مادي، كفيلٌ بتصريف (الطاقة الفائضة) في النفس الفردية وتحقيق الارتياح والتوازن لدى الشخص.

والنتاج المتحصّل- المبدَع يحقق عند صاحبه الشعورَ بالفرح والنصر، ويكسبه الاطمئنان وفيض لذة الخلاص من ما يهدّد الشخصية بالخطر؛ فيشعر بالتجدّد أو بأنّ عبئاً قد نزل عن كاهله.

هكذا يبدو الإلهام آلية دفاعية، تحدث تحت (رقابة الشعور) على المختزنات النفسية، مهما تكن المنابت التي تفدُ منها، سواء في ذلك ما يُشار إليه بمحتويات (الهو والأنا والأنا الأعلى) ومهما تكن النسب في ذلك مختلفة؛ وهو الأمر الذي يكشف عن جدّتها وابتكاريتها.

وهذا يعني أنّ التفسير الذي أقدّمه للإلهام لا ينطلق -أيضاً- من تقسيم (الجهاز النفسي) إلى مناطق، أو تفصيل مساحاته طوبوغرافياً -كما فعل فرويد- وربط ذلك بإثبات (الفيزيولوجيا) لهذا الغرض (الفلسفي) أو المسلّمة، على حدّ تعبيره في كتابه (موجز التحليل النفسي).

أمّا خصائص الإلهام وطبيعته، والحدود التي يمكن تمييزه بها، وطرق الارتكاز النفسية التي يعتمدها، فيمكن تتبّعها من خلال تعريفنا الإلهام بأنه (موقف دفاعي فجائي فعّال مريح وابتكاري) حسب التفصيل الآتي:

أ. موقف: فهو حالة نفسية تدعو إلى القيام بحركات على مستوى العضوية، وتشترك بذلك قوى عقلية عديدة (الذاكرة، التخيّل، الذكاء..) بحيث تتحصّل لدى الفرد المبدع مشاعر وعواطف معيّنة في وضع معيّن.

ب- دفاعي: لأنه يتمّ ردّاً على موقف إحباطي، فيشعر الشخصية- الذات بتماسكها، نتيجة تخلّصها من تأثير الأشخاص

والموضوعات والمواقف والضغوط الخارجية، التي تشكل إعاقات بالنسبة لها.

ج- فجائي: لأنّ تهديد الذات يظهر فيه واضحاً، بحيث يفرض الإسراع في إنقاذها.

د- فعّال: لأنّ الشخص يلجأ إلى إحداث تغييرات في العالم الخارجي، عن طريق استخدام أدوات سبق له التمكّن منها، وبمهارات متميّزة تتغيّر بحسب الظروف والأحوال والمعطيات.

هـ- مريح: إذ إنّ الجهد المبذول يساعد العضوية على التخلّص من فائض الطاقة الناشئ عن الموقف الإحباطي، ويعيدها إلى حالة التوازن والتكيّف مع الوضع الجديد، ويحقق الشعور بالراحة والهدوء.

و- ابتكاري: لأنّ الحلّ الذي يتوصل إليه بغية التكيّف، يكون مختلفاً عن ما هو مألوف، في الوقت الذي يكون شبيهاً به. ويظهر تآلف الأوليات بشكل طريف، لعدم خضوعها -تماماً- لطرائق التنظيم المعتادة المألوفة الشائعة، بما قد يظهر التأليف غريباً أو متعسفاً أو لامعقولاً في كثير من الحالات، حسب رأي الآخرين بالدرجة الأولى، كما قد يظهر مكروراً ومتشابهاً لدى الشخص الواحد في مرّات عديدة.

فالإلهام -إذن- يمكن تعريف حركته الإجرائية بحسب رؤيتنا هذه بأنها: آلية دفاعية شخصية، غرضها توكيد الذات تجاه نفسها، فهو حالة سلبية في بدايته، وحين يصل إلى ذروة الاشتداد يتحوّل إلى حالة إيجابية، تتجلّى في استخدام الأدوات والمواد لإحداث تغيير في العالم الخارجي، وهو شكل من أشكال التكيّف التي يلجأ إليها الفرد -تلقائياً- عندما يواجهه موقفٌ بإعاقة.

وأشير إلى أنّ الإلهام -وقتَ التحوّل إلى فعل- يظهر في صبغة عدوانية فوقية، لأنه يخلّف لدى المبدع -بما هو شخص فرد- شعوراً بالترفّع من الآخرين أو التعالي عليهم أو التفرّد عنهم، ويشعره باللذة نتيجة التخلّص من تأثير تلك الميكانيزمات التي دفعته إلى مثل هذا التفريغ، في هذه الحالة المحدّدة.

ولذا تختلف درجة الجودة والجدّة من نتاج إبداعي فني إلى آخر، وحسب الظروف والأحوال الزمانية والمكانية المرافقة، والمؤثرات الخارجية (طبيعية، اجتماعية) والداخلية (جسدية، نفسية، عقلية)، وليس من الضروري أن يكون شعور المبدع تجاه حصيلة إلهامه -نتاجه الفني- هو الرضى دائماً، بل يتغيّر موقفه من نتاجه بالدرجة، من حيث قبوله أو رفضه، من حال التبنّي التام والاعتزاز به أو الافتخار، إلى حال التنكّر التام والهرب منه أو الإعراض عنه، مروراً بمختلف الحالات الممكنة بين هذين

الموقفين النقيضين. إلا أنّ النتاج الفني - في جميع الحالات الممكنة- يبقى شيء صاحبه الخاص، نتاجَه الذي يميّزه ويحدّده من خلال الآخرين، باختلافه عنهم، رغم توافر ما يقبل التحديد من شروط التزمين والجغرفة، أي قبول الوصف في زمان ومكان معيّنين.

ولا يمكن أن نعدّ الإلهام وحده بمثابة دليل الإبداع ومسوّغه الفريد أو الأوحد، فهو ليس هيكل الإبداع العظمي التام ولا أساس بنيته التكوينية الكاملة، إذ إنّ هناك عدداً من العوامل والإرادات والمخططات والأفكار المشتركة، تؤهّل الشخص لجعل نتاج إلهامه نتاجاً فنّياً مبدَعاً.

كما أنّ الإلهام -بما هو آلية دفاعية- قد لا يتضح في كل حالة إبداعية على حدة، ولاسيما في الحالات التي تُقتصر فيها الجدّة على الأشكال أو المضامين التي تمنح من نتاج سابق أو تتوجّه إليه، بالمحاكاة والتقليد والغَرَضية والتوظيف وغيرها.

يضاف لهذا أن توافر الإلهام في الفاعليات الإبداعية الإنتاجية لا يفرض تماثلاً في الدرجة بالنسبة لموضوعات الإبداع، بشكل قابل للتحديد مسبقاً؛ لكون كل نتاج يشكل نسيجاً مفرداً، مشروطاً بعوامل خارجية وداخلية تقع في أطر مختلفة من قابلية التحديدين المكاني والزماني بشكل فردي.

والخصائص المشتركة التي نراها تتكرّر في أعمال المبدع الواحد ليست نتاجَ الإلهام، بقدر ما هي نتاج التقنيات والمخططات والمطالب العقلية والغايات التي يتوخّاها هذا الشخص أو ذاك، إلى جانب طموحاته وثقافته والعوامل النفسية التي تسود في حالة الإبداع المعنيّة.

كما لا بدّ من ملاحظة أنّ تيار الأفكار في الإلهام يمكن أن يتحلّل من أكثر الروابط المنطقية والعقلية المحدّدة التي تجب مراعاتها في حالات التنظيم المنطقي والتنفيذ المنهجي، بسبب طواعية موضوعه.

ولذا تصادفنا في الفنون حشود هائلة من الرموز والعلاقات اللامعقولة، وقد وجدت لنفسها -بشكل أو بآخر- تسويغات وتفسيرات تدعم وجودها أو تحافظ عليه.

وتزداد درجة اللامعقولية هذه وضوحاً واتساعاً بازدياد حجم ثقافة المبدع واطّلاعاته ومعارفه المكتسبة وخبراته وذكرياته، إلى جانب حالتيه العضوية والنفسية، بحيث تتفاعل جميعها، وتتراكب على نحو جديد، يبزغ حينما تتوافر له الظروف المناسبة أو تستدعيه؛

بمعنى أن يصبح مصدراً لصراع نفسي

يؤدي لوضع الشخص في موقف إحباطي، يتجلّى في مقاومة الذات أسرَ الاحتفاظ بإعاقاتها أو تأسينها.

ونشير -أخيراً- إلى أنه في استطاعتنا تحويل مجرى الإلهام، وإيقافه لفترة من الزمن تطول أو تقصر، وخفض اشتداده أو زيادته بالدرجة، بوسائط متعددة تحتاج إلى بحث مفرد. فيشكّل ذلك -بدوره- دفعاً أو كفّاً أو إعاقة لفاعلياتنا وحوافزنا وبواعثنا، يمكن أن تكشف عنها الدراسات التجريبية والتحليلية، وتحتاج إلى ملاحظة ورصد وعناية، إذ إنها تساعد في إغناء معرفتنا الحالية بموضوع الإبداع، وتثري معلوماتنا عن الخلق الفني، وما يتصل بذلك من قضايا تُثار بين حين وآخر، في مجالات الفنون على اختلافها، ولاسيما في نطاق الآداب.

الهوامش

١-انظر تفصيلات لدى: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص٣٦ وما بعدها.

٢-هناك تفصيلات وتطبيقات شارحة لدى: حلمي المليجي، سيكولوجية الابتكار، ص١٤١ وما بعدها.

٣-أورد (سعد جلال) أمثلة تفصيلية عن ذلك في كتابه: المرجع في علم النفس، ص٣٩٢ وما بعدها.

٤-بوسبيلوف: تطوّر نظرية الفن في روسيا، مقال، ص١٤.

٥-انظر ما ذكره عبد الحليم السيد: الإبداع والشخصية، ص١٠٠ وما بعدها.

٦-انظر العرض الذي قدمه: ملتن متنسل، ميادين علم النفس، ج٢ ص٩٨٤ وما بعدها.

٧-سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، ص١٧.

٨-انظر تطبيقات ذلك والكشف عنه في آثار عدد من الأدباء في كتابي: أدب الحب المؤلم. وهناك دراسة تفصيلية مفردة عن (الحسين بن منصور) الصوفي تتناول حياته وإنتاجه الشعري والنثري في كتابي: حلاج الأسرار.

٩-انظر تحليل فرويد لأعمال (ليونارد دافنيشي) في كتابه التحليل النفسي والفن، ص٨٠ وما بعدها.

١٠-توماس مونرو: التطوّر في الفنون، ج١ ص٥١٧.

١١-فرويد: الهذيان والأحلام في الفن، ص٧ وتاليتها، من ترجمة طرابيشي. وهناك ترجمة أخرى وضعها نبيل أبو صعب، وأضاف إليها قصة (غراديفا) التي كتبها الروائي (فلهلم جنسن)، باعتبار دراسة فرويد تطبيقاً مباشراً على هذا الأثر الإبداعي.

١٢-عالج هذه المسألة (براون) في كتابه:

Psychodynamics of Abnormal Behavior, pp.171.

١٣-فرويد: ليونارد دافنشي، ص٨٠.

١٤-بسط الرأيين (حلمي المليجي) في كتابه المذكور قبل، ص١٢٣ وتاليتها.

١٥-انظر الموضع المشار إليه نفسه.

١٦-انظر تفصيلات المعالجة التي وضعها يونغ، في كتابه:

The Integration of the Personality.

17-Modern Man in Search of a Soul, pp. 201.

١٨-المصدر نفسه، ص١٩٠.

١٩-انظر معالجة زكريا إبراهيم: مشكلة الفن، ص١٠٢ وكذا ص١٩٢.

٢٠-عالج مصطفى سويف ذلك في كتابه: الأسس النفسية للإبداع الفني، ص١٨٧.

المصادر والمراجع

١-إسماعيل، عز الدين: التفسير النفسي للأدب. دار المعارف بمصر.

٢-بوسبيلوف، غ. ن: نظرية الفن في روسيا، مقال في كتاب: الجمال في تفسيره الماركسي، ترجمه يوسف الحلاق، وزارة الثقافة، دمشق.

٣-جلال، سعد: المرجع في علم النفس. دار المعارف بمصر.

٤-سويف، مصطفى: الأسس النفسية للإبداع الفني، في الشعر خاصة. دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.

٥-شرف، محمد ياسر: أدب الحب المؤلم. مركز الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣م.

٦-شرف، محمد ياسر: مشكلات في النقد الأدبي. مركز الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٢م.

٧-السيد، عبد الحليم محمود: الإبداع والشخصية. دار المعارف بمصر.

٨-فرويد، سيغموند: التحليل النفسي والفن. ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت.

٩-فرويد، سيغموند: الموجز في التحليل النفسي. ترجمة سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، دار المعارف بمصر.

١٠-فرويد، سيغموند: الهذيان والأحلام في الفن في قصة (غراديفا) جنسن. ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت

١١-متغسل، ملتن: ميادين علم النفس. عدد من المترجمين، طبعة مصر.

١٢-المليجي، حلمي: سيكولوجية الابتكار. دار المعارف بمصر.

13-Brown (J. F.): Psychodynamics of Abnormal Behavior, New York, 1940.

14-Jung (K. G.): Modern Man in Search of a Soul. London, 1941.

15-Jung (K. G.): The Integration of the Personality. London.

مسرح مدينة درعا الأثري

د. خليل المقداد ✿

كانت مدينة درعا من أمهات المدن عبر التاريخ، وترجع في جذورها التاريخية والحضارية إلى العهد النطوفي المبكر الذي انطلق من سورية إلى بلاد النهرين شرقاً ثم حوض النيل غرباً ثم آسيا الصغرى (أناتولي) شمالاً، وهي بذلك تعتبر معاصرة إلى أترابها من الحواضر القديمة مثل مدن حماة وحلب ودمشق والتي تأسست على حواف الأنهار والوديان في أحواض بلاد الشام ومنها حوض العاصي وحوض بردى وحوض الفرات.. إلخ.

ومما تميزت به المدينة وقوعها فوق هضبة صخرية من نوع الصخور الكلسية الهشة، وهذا ما ساعد ساكنيها عبر التاريخ على استغلال باطن هذه الصخور بحفرها ونحتها الداخلي لتهيئة المساكن وخاصة على حواف وادي الزيدي والذي يعتبر من الروافد الرئيسة لنهر اليرموك، وتعود هذه المرحلة إلى تاريخ عميق عرف في بلاد الشام الجنوبية باسم العصر الغسولي نسبةً إلى التلال الغسولية في فلسطين والتي لم تبعد عن موقع مدينة درعا سوى بضع كيلو مترات.

وقد استفاد سكان درعا القدامى من هذا الموقع الجيولوجي بتهيئة مدينة في جوف الصخر توافرت فيها كامل متطلبات المدينة المحصنة في جوف الهضبة، وتمَّ تزويدها

✿ باحث ومؤرخ وآثاري سوري.

بالممرات والتفرعات حتى شملت كامل الحيز الجغرافي للهضبة وفي جميع التوجهات، وقد تطلب هذا الأمر تزويدها بالأبواب المحصنة والمنيعة والتي كانت مجهولة بالنسبة إلى الغزاة والمهاجمين للمدينة والطامعين في خيراتها، كما تمَّ تزويدها بالعديد من فتحات التهوية والإنارة.

كما تمَّ حفر العديد من الآبار لتخزين المياه الضرورية للشرب والاستعمالات المتعددة، إضافة إلى الحيوانات الأهلية، وكانت تجلب المياه إلى الآبار عن طريق حفر مسيلات صغيرة أثناء هطول الأمطار قبل جلب المياه من الينابيع التي تقع خارج المدينة. وكانت هذه الآبار عميقة لعشرات الأمتار كما كانت متسعة بحيث يتسع كل بئر إلى مئات الأمتار المكعبة. وبعد دراسة بعض هذه الآبار تبين أنَّها تأخذ شكل الإجاصة مع فوهة صغيرة في الأعلى تغلق ببلاطة حجرية لا تزيد أو تنقص كثيراً عن المتر الواحد، ولهذا تطلب نهل المياه منها بالدلو والحبل.

وبعد انتقال السكان من حياة السكن في الكهوف إلى بناء المساكن، أخذ سكان المدينة في بناء مساكنهم فوق الهضبة وبشكل كان يتوافق ويتزامن مع الحواضر القريبة بحيث كان المنهج المتبع حفر الموقع بقليل من الأمتار بحيث يكون نصف ارتفاع حجرات السكن في باطن الأرض والنصف الآخر فوق الأرض. ومن خلال دراستنا للمدينة تاريخياً وتنظيمياً وعمرانياً[1] تبين أنها مرت بحوالي ثلاث عشر مرحلةً تنظيمية، ولهذا أطلقنا عليها تسمية مدينة المدائن.

وبقيت المدينة طوال تاريخها العريق محافظة على هويتها العربية السورية، ولم يسكنها سوى أقوام عربية من قبائل عربية مختلفة محلية أو قادمة من الجزيرة العربية أو بلاد النهرين أو بلاد النيل، بحيث كان يصلها نصيبها من هذه القبائل القادمة لتقيم فيها إمّا إقامات مرحلية أو دائمة، ومن هذه الأقوام: الكنعانيون- العمونيون - الآراميون- الإيدوميون- الصفائيون- الأنباط.. إلخ. وهذا يعني أنَّها كانت تشكل كياناً سياسيّاً مستقلاً كدولة مدنيّة، أو تتبع مملكة أو إمارة عربية محلية مثل مملكة عوج أو إحدى الممالك الآرامية ثم المملكة النبطية وهكذا.

وبحكم موقع المدينة الاستراتيجي فقد تعرضت كباقي المناطق المحيطة بها إلى العديد من الغزوات والهجمات الخارجية، وهذا الأمر كان عاملاً مساعداً على حرص سكانها على تحصين المدينة من الخارج، وكذلك تحصين مبانيها العامة والخاصة. وساعد على ذلك توافر الحجر البازلتي في الضفة الشمالية والشرقية من وادي الزيدي الذي يخترق المدينة.

ولا بد من التذكير هنا أنَّ المدينة أو المنطقة لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن التطورات التاريخية والحضارية التي كانت تعيشها منطقة بلاد الشام من جهة أو منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى، ولهذا فقد فكانت من أوائل المدن التي بُني فيها مسرحٌ ثقافيٌّ، ومن المرجح أيضاً أنَّ المدينة كانت تحوي العديد من المسارح الصغيرة والكبيرة الدائرية أو نصف الدائرية، وكان يتناسب كل ذلك مع حجمها وعدد سكانها ومنهجها في التنظيم العمراني.

قدم ظهور المسرح:

لقد بات مؤكداً أنَّ منطقة بلاد الشام كانت لها الريادة في ظهور المسرح كظاهرة معمارية وكظاهرة ثقافية، ولكن مع غياب النصوص الكتابية والدلائل الأثرية التي اندثرت بسبب التطور العمراني الذي شمل المدن وخاصةً تلك المدن التي كانت سباقة في بناء المسارح غابت علينا دقة الدراسة الأثرية والتاريخية بتفاصيلها الدقيقة، وخير دليل على ذلك مدينة دمشق التي غابت مسارحها كلياً ولم يبقَ منها أي أثر يذكر.

يضاف إلى ذلك أنَّ الأبنية المسرحية كانت وما زالت من الأبنية التي لم توثق في تسلسلها التاريخي، كما أنَّ دراستها والكشف عن معظمها ما زال في بدايته رغم وجود الكم الهائل من هذه الأوابد، والسبب في ذلك أنَّ معظم هذه المعالم توجد في مدن عامرة بالسكان. ولهذا نجد أحياناً أن بناء المسرح لم يظهر منه أي معلم فوق سطح الأرض أو بين الأبنية المحدثة كما هو الحال في العديد من المدن الكبرى مثل مدن أنطاكيا ودمشق على سبيل المثال، أو أنَّها كانت مسكونة من قبل الأهالي كما هو حال مسارح مدن شهبا (فيليبوبولس) ودرعا.

ومن أجل توثيق هذه المسارح وتأريخها مع غياب الوثائق التاريخية والأثرية نعتمد

على المنهج التنظيمي للمدينة التي يوجد فيها المسرح واندماجه ضمن مخططها التنظيمي والعمراني أو أبنيتها المعاصرة له والمؤرخة بشكلٍ مؤكد ولا سيما إذا كانت المدينة معروفة بتطورها العمراني، ولذلك يمكن إدراج بناء المسرح ضمن فترة معاصرة للأبنية المحيطة به.

ويمكن إدراج مسرح مدينة درعا ضمن هذا الإطار حيث أن المدينة بكاملها تمَّ بناؤها في فترة زمنية محددة كما هو الحال في مسرح فيليبوبولس، أو إن المسرح ينطوي ضمن تطور تنظيمي داخل حي من أحياء المدينة كما هو الحال في مسرح مدينة جرش الشمالي ومسرح مدينة تدمر.

ويبقى في هذه الحال مسرح مدينة جرش الجنوبي حتى الآن هو الوحيد الذي أعطى دليلاً كتابياً عن تاريخ البناء من بين جميع مسارح المنطقة، إضافة إلى قاعة الطرب في مدينة قنوات(٢).

تاريخ البناء وهوية المسرح:

بني المسرح في مدينة تقع في منطقة تعتبر من أغنى المناطق اقتصادياً وعمرانياً وتنوعاً في هندسة الأبنية المسرحية، كما بني في مركزٍ إداري وسياسي وعسكري خاصةً بعد تشكيل مدن حلف الديكا بوليس على أثر تبعية القسم الغربي من منطقة حوران إلى الإمبراطورية الرومانية حوالى عام ٦٤ ق.م. بينما بقي القسم الشرقي يتبع إلى المملكة النبطية وعاصمتها بصرى حتى ربيع عام ١٠٦ب.م. وهو تاريخ تشكيل الولاية العربية الرومانية وعاصمتها بصرى أيضاً والتي شملت كامل الأراضي التي كانت تتبع تلك المملكة.

ومن هنا نفترض أن بناء مسرح درعا قد بوشر به في فترةٍ تلي فترة تشكيل مدن حلف الديكابولس بدءاً من مدينة عمان (فيلادلفيا) جنوباً إلى مدينة دمشق شمالاً مروراً بمدن جرش وأم قيس وإربد ودرعا، وهكذا. ومن المرجح في هذه الحالة أيضاً أنَّ بناء مسرح مدينة درعا كان معاصراً لبناء مسرح مدينة جرش الجنوبي، أي في مطلع ثمانينيات القرن الأول قبل الميلاد؛ بمعنى أنَّ بناءه كان أقدم من بناء مسرح بصرى بحوالى قرنين من الزمن.

ومن هذا المنطلق فقد توجب الأمر بناء مسرح يليق بمدينةٍ ذات كثافةٍ سكانية

وازدهار اقتصادي وبحجم يليق مع مكانتها ومركزها الجديدين أسوةً بالمدن الأخرى التي منحت شرف تبعيتها للحلف، وقد ربط المسرح في بنائه بين نموذجي المسرح اليوناني والمسرح الروماني. وفي هذا الصدد لابد من التذكير أن البنَّائين للمسرح اليوناني كانوا قد قلدوا مدن الشرق السوري وبلاد النهرين في هذا الخصوص حتى تمَّ التوصل إلى مرحلة النضوج لبناء المسرح.

وقد كان المنهج المتبع في مثل هذه المسارح ومنها مسرح درعا الاستفادة من المنحدر الطبيعي وتركيز المقاعد الحجرية فوقه مع بناء المنصة فوق أرض منبسطة، ولدينا من الأمثلة على ذلك مسارح مدن عمان- البتراء- أفاميا. أمَّا المنهج الروماني لبناء المسارح والذي جاء حسب قانون المهندس (فيتروف) فقد خالف ذلك الأمر حيث نص القانون على بناء المسرح كلياً على أرضية منبسطة بحيث يرتكز البناء على أروقة وممرات وركائز وقباب وقبوات، وخير مثال على ذلك مسرح مدينة بصرى المجاورة لمدينة درعا وكذلك مسرح مدينة جبلة على الساحل.

ومن هذا المنطلق نجد أنّ مسرح مدينة درعا قد ربط في بنائه بين النموذجين؛ فنجد أنّ القسم السفلي بني على منحدرٍ صخري والقسم العلوي بني مرتكزاً على قواعد وأروقة وقباب.

وقد نتج عن هذا المنهج الربط بين بناء المسرح والمعبد الملاصق له شرقاً، والربط بين البناء والمنحدر الطبيعي بإسناد مقاعد المتفرجين على المنحدر، وتوفير رواق محيطي يحيط بالقسم السفلي من الخارج ليكون أرضية أو قسماً من أرضية القسم العلوي للمدرج.

كما نتج عن ذلك فصل بناء المدرج عن مبنى المنصة وتوفير ساحة متسعة لتقوم بدور ساحة الأوركسترا، كما جاء البناء متوافقاً مع مخطط المدينة ومنهجها العمراني.

وهو بهذا الأسلوب جاء مخالفاً لمنهج بناء المسرح اليوناني خاصةً أنّ بناءه جاء مترابطاً مع الأبنية العامة الأخرى في المدينة والذي سوف نبينه لاحقاً. وخلاصة الأمر إنَّ بناء مسرح درعا يعتبر الأنموذج الأمثل الذي ربط بين المسرح الروماني والمسرح اليوناني في العالم القديم.

أرضية المسرح:

بني المسرح فوق أرضية من الصخر الكلسي بشكل كامل بحيث تمت تهيئة الأرضية من أجل البناء، ومن خلال دراسة هذه الأرضية تبين أنَّها عبارة عن كتلة كلسية مرتفعة تمَّ نحتها بميل تدريجي، وتقسيمها إلى منحدرات مهيأة لتركيب مقاعد حجرية فوقها نحتت من الحجر البازلتي على شكل نصف دائري تقريباً، ونحتت من الأعلى على شكل مستقيم ورصفت ببلاط من الحجر البازلتي الأملس لتكون ممراً فاصلاً بين الطبقة السفلى والطبقة العلوية من المسرح.

ومن الجهة الخلفية من الجهة الجنوبية بنيت بشكلٍ شاقولي ليلتصق بها الجدار الخارجي والحاضن للمدرج بشكلٍ مستقيم ومواز لمبنى المنصة باتجاه شرق/غرب.

أمَّا من الطرف الشمالي فقد تمت تهيئة الموقع لبناء الأروقة الجانبية التي تفصل المنصة عن المدرج أو أماكن جلوس المتفرجين (الكافيئا CAVEA) والممرات الجانبية (البارادوا PARODOI).

أمَّا مبنى المنصة فقد جاء فوق أرضية مرتفعة قليلاً عن أرضية ساحة (ORCHESTRE الأوركسترا) مما يعطي فكرة بأن أرضية هذه الساحة كانت قد حفرت وسويت بشكلٍ منبسط ومنخفض عن مبنى المنصة، ولتلافي فرق الارتفاع بني جدار واجهة منصة التمثيل السفلية والمتقدمة (PROSCAENIUM بروسكينيوم) أو (بولبيتي فرونس PULPITI FRONS) والتي كانت تسمى في المسرح اليوناني (بروسكينيون PROSKENION).

وقد زينت هذه الواجهة بالكوات نصف الدائرية أو على شكل صناديق مفتوحة لتظهر بمظهر جميل. وخلف هذا الجدار الصغير تمت الاستفادة من الفراغ الحاصل ليكون موقعاً للملقنين (هيبو سكينيوم HYPO SCAENIUM) أسفل خشبة المسرح (بولبيتيوم PULPITIUM).

ومما لاشك فيه أنَّ هذا التنفيذ يدل على براعة متناهية لدى المهندسين في ذلك الوقت. أمَّا بالنسبة إلى أرضية الكواليس وملحقات المنصة فقد هيئت على شكلٍ متوازٍ في الانبساط والارتفاع مع أرضية الرواق الخارجي الذي يربط بين المسرح والشارع الرئيس المحاذي له.

و فوق هذه الأرضية تمَّ توجيه البناء والتحكم بحجمه واتساعه حسب الاتجاهات الطبيعية بحيث جاء متناسباً مع قانون فيتروف والذي ينص على صف مقاعد المتفرجين حسب شمس الظهيرة، وبنيت المقاعد ملتصقة على المنحدر الطبيعي في الكافيئا السفلى وفوق ركائز وقباب وأروقة الطبقة العلوية.

وهذا يؤكد على الأخذ بعين الاعتبار من الناحية الاقتصادية توفير النفقات وقلة التكلفة والتقليص من الركائز ونحت الحجارة والذي يحتاج إلى مبالغ طائلة ووقتٍ طويل في العمل، وفي المحصلة جاء البناء متفقاً مع الحجم الطبيعي للمدينة وعدد سكانها.

أماكن المتفرجين (الكافيئا CAVEA):

يعتبر هذا القسم هو الأهم في بناء المسرح، ويعرف بالمدرج المخصص لجلوس المشاهدين. وقد بني المدرج في مسرح درعا من طبقتين، العليا هدمت كلياً ولم يبقَ منها أي عنصرٍ يذكر، أمَّا الطبقة السفلى فقد بقي منها عناصر هامة استطعنا من خلالها معرفة كيفية بناء المدرج والمسرح بشكلٍ كامل، وعلى ضوئها تمَّ رسم المخططات الهندسية.

ويفصل القسم السفلي من الكافيئا عن القسم العلوي ممشىً كان عبارة عن سقف للرواق الحزامي السفلي (أمبولاكر AMBULLACRE) الذي نُفذ له مدخلٌ واحد في الرّواق الجانبي الشرقي بعرض ١،٢٥م وارتفاع ٢،٥م. وتمّ تقسيم الطبقة السفلى من المدرج (IMA CAVEA إيما كافيئا) بـأدراج شعاعية لم يبقَ منها سوى الدرج الغربي حيث بلغ عدد درجاتها ٢٦ درجة بعرض ٦٠سم وارتفاع ٣٠سم.

أمَّا مقاعد المتفرجين فبلغ عدد صفوفها ١٣ صفاً ارتفاع كل واحدٍ منها ٤٥سم وعمق ٧٥سم بما فيها العمق الذي يسمح للمشاهد بإيواء قدميه بعمق ٣٠سم حيث نحتت واجهة كل صف بجبهة مزينة بمنحوتات مكرنشة متقدمة.

كما تميزت الطبقة السفلى في مسرح درعا عن مسارح المنطقة بانخفاض صفوف المتفرجين حتى مستوى أرضية ساحة الأوركسترا مع وجود فاصل نفذ على شكل صف من المقاعد الحجرية خصصت

لجلوس الشخصيات الاعتبارية ولها مسند من كتلة الحجر نفسه الذي ظهر على شكل الكنبة بارتفاع متر واحد ويتقدم عن أوّل درجة من درجات المدرج بمسافة متر واحد خصص ليكون ممشىً فاصلاً ويسمح بمرور المشاهدين يضاف لذلك أنه يفصل المدرج عن ساحة الأوركسترا وعن مقاعد الشخصيات الهامة.

ساحة الأوركسترا ORCHESTRE:

جاءت الساحة على شكل فسحة سماوية تفصل مبنى المدرج وملحقاته عن مبنى المنصة وملحقاتها، وكان دورها تسهيل حركة المشاهدين والمتواجدين داخل المسرح، إضافة لذلك يمكن استخدامها في وضع مقاعد خشبية متحركة ومنخفضة في حال ازدحام المسرح بالمتفرجين.

إلا أنّ الوضع في هذا المسرح مع وجود دهليز في أسفل المدرج وعلى امتداد الأرضية وبمستوى أرضية الساحة يعطي افتراضاً بأن تكون الساحة قد استخدمت لتكون ساحة للرقص والدهليز لإيواء فرقة الرقص، بينما ينحصر دور خشبة المسرح للعرض المسرحي.

ونفذت الساحة كما هو الحال في بقية مسارح المنطقة على شكل قسمين؛ الأوّل والدائري جاء على شكل فسحة منبسطة ومبلطة ببلاط من الحجر الكلسي الأملس بطول قطر بلغ ١٩،٣٥م وعمق ١٠م.

أمّا الثاني فجاء على شكل مستطيل يحاذي منصة التمثيل بامتداد ٢٢م شرق/ غرب وعرض ٣،٠٥م. ويعتبر هذا القسم امتداداً للرواقين الجانبيين بحيث يتجاوز في امتداده قطر ساحة الأوركسترا. ومن خلاله تتم عملية الصعود إلى المنصة عن طريق درجين جانبيين نفذا في الواجهة الأمامية السفلية للمنصة (بولبيتيوم PULPITIUM) وبشكلٍ جانبي ومخفي بوساطة جبهة تجميلية.

أمّا الصعود إلى الكافيئا فيتم عن طريق الأدراج الشعاعية وعن طريق الممشى الذي يقع خلف صف المقاعد الأرضية المتقدمة.

ويقع مركز ساحة الأوركسترا على محور الأروقة الجانبية. وبهذا يبلغ امتدادها المحوري حتى منصة التمثيل ١٣،٠٥م.

وتمّ تبليط أرضية قسمي الساحة ببلاط كلسي منحوت وأملس ركب مباشرةً فوق

الصخر الطبيعي بعد إجراء تسوية مسطحة مع مراعاة ميل بسيط لجريان مياه الأمطار وتجميعها لتصب في بئر جوفي نفذ في الزاوية الشمالية الغربية من الساحة وفي مقدمة واجهة المنصة السفلية حيث وجدت مصارف تسيل فيها المياه الناتجة عن الأمطار من جميع أقسام المسرح وتصب في البئر التخزيني ذي السعة الكبيرة أمام الرواق الجانبي الغربي.

الأروقة الجانبية (والبارادوا PARODOI):

بنيت هذه الأروقة على شكل ممرات جانبية مقببة لترتبط مع ساحة الأوركسترا ومبنى المنصة والمدرج، وتشبه في تصميمها في هذه الحالة الأروقة المنفذة في مسارح مدن بصرى وشهبا وخاصةً الرواق الشرقي الذي يفتح على المنصة وساحة الأوركسترا والقسم العلوي من المدرج من خلال مدخل يتجه جنوباً ويقود إلى الرواق الحزامي المحيطي (أمبولاكر AMBULLACRE) في الجزء الأخير الشرقي للرواق.

وتعتبر وظيفة هذه الأروقة الأكثر حيويةً ونشاطاً وحركةً؛ حيث تفتح على الخارج من خلال انعطاف الأروقة في نهاية كلٍ منها إلى جهة الشمال على شكل زاويا قائمة، ويفتح كل قسم على فسحةٍ سماوية يتم من خلالها أيضاً توزيع حركة التنقل إلى أربع جهات؛ الأولى إلى الألواج الجانبية والثانية إلى المنصة والثالثة إلى رواق الكواليس والرابعة إلى المدرج عن طريق ساحة الأوركسترا، وكل هذه التدابير تدل على الحرص في الاستفادة من المواقع.

ويجاور هذه الفسحات رواق الربط بين المسرح والشارع الرئيس الخارجي حيث حفر في هذا الموقع العديد من الآبار الجوفية التخزينية في الصخر الطبيعي بأحجام واستيعابات مختلفة.

وللربط بين نقاط انعطاف الأروقة بالاتجاهات الأخرى والتي تأخذ الزوايا القائمة تم تنفيذ قباب ربط جميلة ذات تقببات مسطحة تختلف عن النمط الذي اتبع في مسرح بصرى والتي أخذت نقاط الربط في أسقف الأروقة الشكل الهرمي المدرج والمنتهي بحجر إغلاق واحد.

كما يختلف مستوى الأرضيات في كل رواق عن الآخر بالمقارنة مع أرضية ساحة الأوركسترا وأرضية مبنى المنصة والكواليس.

أمّا الـرواق الغربي فنجـد الوضع فيه عكس ذلك؛ حيث نجـد أن أرضية الرواق تأخذ في قسم منهـا مستوى أرضية المنصة والكواليس، وفي القسـم الآخـر تقـع في مستوى أرضيـة ساحة الأوركسـترا نفسه. ولتلافي فـرق الارتفـاع تمّ تنفيذ درج على عرض الرواق. وتمّ هذا الإجراء للربط بين المستويين ولتسهيل عملية المسير والحركة.

ومن هنا نجـد أنّ ارتفـاع السقف عن أرضية الرواق الشرقي جاءت مرتفعة وتأخذ منسوبـاً واحـداً، بينما في الـرواق الغربي فالارتفـاع جـاء بمستويـين؛ الأوّل مرتفع والآخر منخفض.

أمّا المنسـوب العلوي فنفذ بشكلٍ متساوٍ أفقيـاً لكلا الرواقـين، ويتفق مـع المنصة والألواج والمدرج.

أمّـا مداخل ومخارج هـذه الأروقة فقد نفذت علـى شكل أقواس مقنطرة ومزينة بالكورنيشـات والأفاريـز فـوق إطاراتهـا الخارجية من القاعدة إلى القمة ثم الانحناء إلى القاعدة في الاتجاه الآخر المقابل، ونفذ ذلك في الجهات المطلة على المسرح والشارع الخارجي.

المنصة:

تعتبر المنصة العنصـر الثاني والهام في بناء المسرح، وتعرف في المسرح الروماني باسم (فرونس سكانيا FRONS SCAENAE) وتسمـى أيضـاً بالمسـرح اليونـاني باسم (SKENE سكينـة) بمعنـى أنّهـا البنـاء الـذي يقع في مواجهة المـدرج وجاء بناؤها في مسـرح درعا علـى شكل كتلـة معمارية تتكون من المنصة التي تقام فوقها العروض المسرحيـة وتعـرف باسـم خشبـة المسرح (بولبيتيـوم PULPITIUM) في المسارح الحديثـة وتقع فوق رواق سفلي يعرف باسم مكان الملقنـين أو (هيبو سكينيوم HYPO SCAENIUM)، ويعلوها على شكل جبهة شاقوليـة المنصة العليا والتـي تكون مزينة بالمحاريب وأعمدة الزينة مع ملحقاتها.

وخلـف هـذا التشكيل يوجـد رواق ذو طابقين، السفلي يخصص للممثلين ويعرف باسـم رواق الكواليس، وفوقـه مباشرةً بني رواق علوي للخدمات الأخرى المتعددة، وفي الجوانـب نفذت أقفاص الأدراج الجانبية وحجرات الألواج.

والمنصـة بجميـع أقسامهـا عبارة عن

مستطيل يمتد بطول ٤١،٥م شرق/غرب، وعرض١٦،٨. ويتقدم المنصة من الأسفل واجهة تزيينية مزينة بكوات مزينة ومجملة ومنفذة بطريقة بالغة في الدقة تتقدم منصة التمثيل. ونفذت على شكل جدار شاقولي بارتفاع ١،١٥م وسماكة ١،٢٥م مزين بالمحاريب المتعاقبة نفذت بالتتالي بدءاً من جبهة مستقيمة بطول ٤م ويليها قفص درج جانبي يقود إلى خشبة المسرح، ثم محراب نصف دائري يليه محراب مضلع على شكل صندوق مفتوح بانفتاح ١٢٠سم وعمق ٦٠سم لكل منهما.

ويفصل كل واحد عن الآخر جبهة صغيرة مستقيمة بعرض ١٥٠سم. ويبلغ مجموع هذه التشكيلة الهندسية خمسة محاريب نصف دائرية وأربعة محاريب مضلعة وقفصي درج متناظرين وجبهتين مستقيمتين متناظرتين أيضاً.

وهذا التنفيذ يدل على الدقة المتناهية في التوزيع وإشغال كامل الحيز المكاني بصورة جميلة، ولا بد من التذكير أن الجبهات الجانبية جاءت مسطحة نظراً لكونها تشكل امتداداً للأروقة الجانبية.

أمَّا بالنسبة إلى واجهة المنصة العليا فقد بنيت على شكل جدار ضخم ذي سماكة تبلغ ٣،٥م عند مستوى الارتكاز المبني على الصخر الطبيعي.

وجاء بناء الجدار في قسمه السفلي على شكل أربعة أقسام منفصلة بوساطة ثلاثة أبواب تعرف باسم (فالفا VALVA) وهي أبواب المنصة الرئيسة؛ المركزي منها تعرف باسم (فالفا ريجيا VALA REGIA) أو الباب الملكي بعرض ٢،١٢م، والأبواب الجانبية تعرف باسم (فالفا أوسبيتال VALA HOSPITALES) أو أبواب الشرف بعرض كل واحد ١،٧م.

وجميع هذه العناصر جاءت محضونة بوساطة مباني الأبراج، كما زينت إطارات الأبواب بتحزيزات وفرضات لولبية أو مستديرة.

ويبلغ طول جدار المنصة بما فيها الأبراج التي تحتضن في داخلها الأدراج التي تؤدي إلى الطبقة العليا من المسرح والألواج والكواليس ٥١م. أمَّا طول القسم المشرف على المسرح فيبلغ طوله ٤١م، وجميعها تأخذ خطاً مستقيماً باتجاه شرق/غرب من

دون أدنى انحراف أو انحناء. وكدليل على قوة الواجهة ارتفاعها البالغ حوالى ١٥م؛ أي بارتفاع بناء المسرح كاملاً. وتمَّ توزيع أبواب المنصة بشكلٍ متساوٍ، كما تأخذ هذه الأبواب بدورها فتحات متساوية بعرض ١،٩م. كما زينت الواجهة بالمحاريب نصف الدائرية بقطر كل واحدة ١،٥م وعمق ٨٥م بحيث بلغ عددها في القسم السفلي ستة محاريب.

وبذلك تكون الواجهة مقسمة في قسمها السفلي إلى ثلاثة أبواب وستة محاريب بنيت جميعها على شكل مداميك متساوية الارتفاعات ووزعت بشكلٍ متساوٍ بحيث يفصل كل محراب عن الآخر جبهة مستقيمة بعرض ٢،٥م.

أمَّا الأقواس التي تحتضن الأبواب فيبلغ عرض كل واحد منها ٣م. أمَّا النهايات الشرقية والغربية فتشكل كل واحدة منها زاوية ربط تجميلية متقدمة عن جدار المنصة بعرض ١،٢م وامتداد بطول ١،٤م.

أمَّا الواجهة الخلفية لها فتقع ضمن رواق الكواليس. وقد تعددت مهام واجهة المنصة العليا؛ حيث أصبحت العنصر المكمل لإغلاق واجهات المسرح من الداخل، ولها وظيفة ارتداد وتوزيع الصوت داخل المسرح، إضافةً لكونها العنصر الجمالي الذي يواجه المتفرجين.

أمَّا رواق الكواليس (بوستسكانيوم POSTSCAENIUM) الخلفي فقد بني على شكل رواق مستطيل بطول ٣٩،٥م وعرض ٣،٢م، ويتم الدخول إليه من مداخل المنصة الثلاثة إضافةً إلى مدخلين يقع كل واحد منهما في طرفي الرواق الشرقي والغربي بعرض لكل واحد منهما ١،٦م والتي تفتح على الردهات الجانبية.

وقد زودت جدران الرواق من الداخل بفتحات على شكل صناديق مقسمة بشكلٍ متساوٍ لتكون مخصصة لملابس وحاجيات فرق العروض المسرحية.

سعة المسرح:

بات من الواضح أنَّ عدد صفوف مقاعد المتفرجين في الطبقة الأولى من المدرج IMA CAVEA بلغ ١٣ صفاً بحيث يبلغ امتداد الصف الأوّل السفلي ٣٠،٣٨م. وتتم عملية حساب سعة المسرح باستخراج طول محيط الصف الأول بضرب قطر ساحة الأوركسترا البالغ ١٩،٣٥م× ٣،١٤= ٦٠،٧٥٩م طول

المحيط وبتقسيمة على اثنين نحصل على النتيجة البالغة ٣٠،٣٨م، أي نصف قطر المحيط.

ثم يضاف لكل درجة لاحقة متر واحد وهو طول درجة الانفتاح، بمعدل نصف متر من كل جهة. وهذا يعني أن طول الصف الأخير يبلغ ٤٩،٢م.

ومن خلال ذلك يكون الطول الإجمالي لجميع صفوف الطبقة الأولى ٥١٦،٨م، ولو منح كل متفرج حيزاً مكانياً يبلغ ٤٠سم فيكون الاستيعاب ١٢٩٢ شخصاً، وبالمقارنة مع مسرح بصرى الذي يبلغ عدد مقاعد القسم السفلي فيه ٢١٠٩ نجد أنّ حجم المدرج في مسرح درعا يقارب النصف تقريباً من حجم مسرح بصرى.

ولكن بالمقابل وبالمقارنة مع مسرح شهبا الذي يبلغ عدد مقاعد متفرجي القسم السفلي فيه ٥٦٢ فنجده هنا يقارب نصف حجم مسرح درعا.

ولكن تبقى لدينا عملية حساب القسم العلوي من المسرح الذي فقد كلياً مجهولة.

ولمعرفة السعة الكلية للمسرح بشكل عام يؤخذ بعين الاعتبار سعة ساحة الأوركسترا في حال تمّ استخدامها للجلوس وكذلك الرواق العلوي والماشي الفاصلة والأروقة والأدراج. وفي هذه الحالة يكون الاستيعاب التقريبي لمسرح درعا من المتفرجين حوالى خمسة آلاف نسمة.

متانة البناء والأساليب المعمارية والمواد المستعملة فيه:

تميز موقع مدينة درعا بتوافر الصخور الكلسية والبازلتية الضرورية للبناء لذلك تمّ استخدام كلا العنصرين وكل مادة حسب الحاجة. كما تمّ استخدام الرخام المستورد لتلبيس بعض الواجهات وخاصةً واجهات منصة التمثيل. وبذلك تكون قد توافرت لدى البنّائين العناصر المطلوبة في حرية الاختيار وحسب مقتضيات الحاجة. وقد لوحظ أنّ المعماريين في المسرح قد استفادوا من كامل الكتل الحجرية الصغيرة والكبيرة.

وعلى الرغم من قسوة الحجارة فقد نحتت بمظهر أملس وناعم نتيجة الدقة في النحت، لذلك جاءت بالشكل المطلوب وخاصةً في إطارات الأبواب والنوافذ والأقواس، وكما ذكرنا سابقاً فإنّ قسوة الحجارة كان لها نتائج سلبية حدث كثيراً

من المبالغة والإفراط في استخدام الزينة في الأماكن البارزة مثل الأزهار والورود وعناقيد العنب والفواكه وأوراقها ونمنمات التيجان.

وبغض النظر عن عناصر الزينة نجد أنَّ أنموذج بناء الجدران نفذ على شكل مداميك أفقية وبارتفاعات موحدة مع غياب الفراغات مهما كانت دقيقة.

ولابد من الإشارة إلى أن مقاعد المتفرجين لم تخلُ من عناصر الزينة، كما استعمل نظام التعاقب في بناء المداميك بحيث تكون جبهة الحجر الأطول هي الأفقية في معظم الأحيان وشاقولية في مرات قليلة.

وكذلك التتابع يكون بشكلٍ مستطيل أكثر منه مربعاً مع تحاشي وضع حجرين فوق بعضهما البعض بالتوازن نفسه مع غياب الفواصل المنحرفة إلا في أسقف الأروقة والقباب وعند الزوايا وذلك من أجل ضمان تماسكها بشكلٍ جيد.

وبالطبع فالغاية التي كانت لدى المعماريين تحتوي في مضمونها التفتيش عن صلابة البناء وقوته مع إبراز الناحية الجمالية.

ومن هنا نجد ظهور المهارات في العمل وخاصةً في الأروقة وزوايا المنصة وواجهاتها والتوافق في بناء المسرح بكامل عناصره مما أعطى مفهوماً جيداً عن المهارة التي تبرهن على التقليد الجيد في فن العمارة والتأقلم مع الحجارة البازلتية والتي تبرز من خلالها مفهوم العمارة السورية وخاصةً في منطقة حوران عبر التاريخ.

وكدليل على التفنن في التنفيذ تطابق المداميك في الأدراج الشعاعية مع صفوف مقاعد الجلوس بحيث يتم نحت درجتين بالحجر نفسه الذي يتمخض عنه قسم للجلوس وتطابقه وارتباطه مع ما يجاوره من أجل استمرارية التناسب في ارتفاع الأدراج والمقاعد، وهذا التنفيذ يظهر الاتزان والصرامة والحيوية والترابط المتين والمهارة في العمل.

اختيار موقع المسرح ومراحل تنفيذ البناء:

جاء موقع البناء في وسط المدينة القديمة ذات المخطط التنظيمي المتكامل والذي أخذ الشكل الشطرنجي في قسمة الجنوبي.

وقد تمَّ اختيار موقع المسرح في وسط

المدينة مجاوراً للشارع الرئيس (الدكومانوس) من الجهة الجنوبية.

ويفصل المسرح عن هذا الشارع رواق ربط كما هو الحال في مسرح مدينة تدمر. أمَّا الشارع الرئيس الآخر (الكاردو) اتجاه شمال جنوب فيفصله عن المسرح بناء المعبد وملحقاته من الجهة الشرقية، كما يجاور المسرح من الجهة الجنوبية مبنى السوق العامة (الفوروم أو الأغورة).

ويبدو لنا من خلال الدراسة المبدئية لبناء المسرح أنَّ العمل تمَّ تنفيذه على مراحل متعاقبة كان في مقدمتها اختيار الموقع بعد مراعاة العوامل الطبوغرافية والجغرافية والتنظيمية، وتلا ذلك تهيئة أرضية المنصة وملحقاتها وخفضها حتى مستوىً يتوافق مع مستوى أرضية القسم السفلي من بناء المدرج وبالوقت نفسه تناسبه مع الشارع المجاور.

وبعد ذلك تمَّ تركيب المقاعد الحجرية وربطها مع القسم السفلي من مبنى المنصة وملحقاتها.

وجاء بناء الجدار الخارجي للمسرح من الجهة الجنوبية بحيث يكون جدار استناد وسوراً خارجياً للمسرح مع تنفيذ الرواق الحاضن (أمبولاكر) والربط بين الممشى الفاصل بين قسمي المدرج السفلي والعلوي (إيما كافيئا وسوما كافيئا) وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأدراج والمداخل.

ومن هنا جاء الجدار الجنوبي مستقيماً وبشكلٍ يوازي مبنى المنصة ومغلقاً من الخارج. وفي المرحلة الأخيرة تمَّ الربط بين كامل عناصر البناء في الأقسام العليا بما فيها مبنى المنصة وملحقاتها والرواق العلوي بشكلٍ متزامن، ثم الربط بين بناء المسرح والأبنية المجاورة بما فيها المعبد والسوق العامة والشوارع الرئيسة وساحة المصلَّبة (الترابيل)..

أبعاد وخصوصيات المخطط وسمات التنفيذ:

حوى المسرح في بنائه كامل العناصر المعمارية الموجودة في بناء أي مسرح مبني كلياً أو نصفياً، أمَّا أبعاده فكانت ذات حجم متوسط إذا ما قيست بالمسارح الأخرى، إذ يبلغ القطر الكلي للمسرح ٦٢م والامتداد المحوري ٤٤م بينما في مسرح بصرى ومسرح جبلة فيبلغ طول القطر الكلي ١٠٠م، وفي مسرح شهبا فيبلغ ٤٢م.

أمّا الامتداد الكلي للمسرح فيأخذ ثلاثة أبعاد بحيث يشكل البعد الأوّل قاعدة الارتكاز للمسرح من الجهة الشرقية وتبلغ ٢٢،٢م، والبعد الثاني من الجهة الغربية ويبلغ ٢٢،٢م، أمّا البعد الثالث والأوسط والذي يبلغ طوله ١٧،٥م فهو عبارة عن قطر ساحة الأوركسترا التي شكلت المرتكز الأساسي لكامل البناء.

ويقع الخط المحوري للمسرح بخط يحاذي الأروقة الجانبية المحاذية للمنصة والمشرفة على ساحة الأوركسترا. أمّا بخصوص أدراج مرور المتفرجين في القسم السفلي من الكافيئا فغير معروفة باستثناء الدرجين المجاورين للأروقة الجانبية (البارادوا PARODOI) وتأخذ محوراً موازياً للمنصّة. أمّا أقفاص الأبراج والتي حوت بين جنباتها الأدراج التي تقود إلى القسم العلوي وتقع في أجنحة بناء المنصة من الجهتين الشرقية والغربية فقد أخذت شكلاً مغايراً لما هو عليه الحال في كلٍ من مسارح بصرى وشهبا.

الهوامش

١- خليل المقداد- درعا- مدينة المدائن- مدينة الديكابولس- دار عكرمة- دمشق- ١٩٩٨م.

٢- خليل المقداد- مسرح بصرى الأثري- سورية- دار عكرمة- دمشق- ٢٠٠١م- ص ص٢٠-٢٣.

الحكماء والأنبياء في خدمة الإنسان ودور اليهود في تشويه الأديان

عبد الكريم إبراهيم قميرة ✪

منذ أن خلق الإنسان في بداية الوجود، تلفّت فوجد نفسه في عالم غريب، فيه السماوات المرتفعة والجبال الشامخة، فأحسّ بخوف شديد وخشوع كبير حيال هذا الكون الفسيح واستنتج بشكل بدائي طفولي أنّ هناك خالقاً عظيماً مدبراً لهذا الوجود الرائع.. إن هذا الإحساس هو فطرة التدين.

هذه الفطرة كانت القوة المتحركة والمتحكمة في الحياة البدائية فشغلت قلب الإنسان وروحه وملكت عليه زمام أمره.. كما أن هذه الطبيعة المخيفة المحيطة بالكائنات جعلته يشحذ عقله ويتساءل عن الخالق القادر، والإيمان به سواء كان حيواناً أو نباتاً أم إنساناً.

ولذا فإنّ الدين مطلب إنساني رفيع يغذي جانب الروح ويستجيب لحاجات النفس، وهو ليس مطلباً جسدياً، بل هو مطلب عقل ودعوة روح كي ترتوي العواطف الإنسانية بالهدوء والراحة، ولذا لن نسخر من الأجداد القدماء إن كانت معبوداتهم متعددة ومتنوعة كالبقر والكِباش، مع مظاهر الطبيعة كالرياح والرعد والبرق والغيوم.. لقد كانت غامضة تتراءى لهم في أشكال مليئة بالألغاز والأسرار..

تساءل الإنسان وهو يبحث عن الإله.. وأين هو.. في الأرض أم في السماء في البحر أم بين الأشجار والغابات..؟!

ففي مصر القديمة الفرعونية كانت الآلهة مختلطة ومركبة من حيوان ونبات

✪ باحث وناقد سوري.

أو ظواهر طبيعية.. وكانت الشمس هي الآلهة الكبرى.. وهي الأب الذي يلقّح الأم (الأرض) بأشعتها وضوئها.. وكانت تُصور أحياناً بصورة عجل.. وكان له مقام كبير بين الآلهة، فهو صورة واضحة عن تولّد الحياة.. وكانوا يقدّسون كبش الماعز مع العجل بوصفهما رمزاً للطاقة الجنسية الخالقة.

في بابل وعند الأجداد الآخرين السومريين، كانت الآلهة هي الشمس والقمر والأرض، وكذلك في سورية فقد حظي كلٌ من الريح والمطر والنار بمكانة كبيرة إضافة إلى الشمس..

وفي الهند، حصر الناس آلهتهم في ثلاثة براهما الخالق، وفشنو الحافظ وشيفا المدمر، الذي عبدوه اتقاءً لشره.

وفي فارس ظهر زرادشت[1] بدين جديد دعا فيه إلى عبادة النور ممثلاً في أهورامزدا، لأن النور أقوى عناصر الحياة، وقد ألحّ على الناس أن يتقوا إله الظلام ونادى بضرورة التعامل الحسن مع الآخرين من أجل جعل العدو صديقاً والخبيث طيباً والجاهل عالماً..

وفي وادي النيل ظهر فرعون شاب، هو أمون حوتب الرابع ودعا إلى دين جديد فيه رب واحد خالق السموات والأرض وثار على دين «أمون» وعلى الكهنة الذين كانوا يستمتعون باسم الإله بالنساء (عرائس المعبد)، والأموال، وأطلق على هذا الإله اسم أتون، وسمّى نفسه أخناتون[2] أي عبد أو مطيع أتون، وقال إنه هو خالق الكون والشمس مع حرارتها الظاهرة الملموسة.. وكان يخاطبه أثناء صلاته قائلاً: «إنك الإله الأوحد ولا إله غيرك».

فثار عليه كهنة آمون، وقتلوه بعد تسع عشرة سنة من سلطته..

وقد ظهرت أنفاس التوحيد أيضاً على هرم في هيكل إيزيس ببلدة «صا الحجر» في مصر نقش على جدرانه مايلي:

«أنا كل شيء كان، وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون» إنها ومضات إيمان تدلّ بإيحاء غامض على وجود الإله الفرد الصمد.

هذه الإيحاءات جعلت الإنسان يتجه إلى تجريد الإله وتوحيده مع مجيء الحكماء والأنبياء...

إن الإنسانية كانت تتدرج في معارج الحياة.. ولذلك كان الأنبياء الذين سبقوا إبراهيم الخليل يدعون الناس إلى طاعة الله وتوحيده بأوامر صارمة، من دون محاولة مخاطبة العقل.. وكانوا يهدّدون الناس إن رفضوا طاعة الإله، بالمهلكات كالحجارة من سجيل، أو بريح صرصر أو طوفان يغرق البشر والحجر أو بصواعق تهلك الكائنات..

وهكذا جاء نوح بطوفانه والنبي صالح مع قومه ثمود الذين عقروا الناقة فدمدم عليهم

ربهم بذنبهم (سورة شمس/١٤) ثم النبي هود مع قومه المعربدين، ثم جاء إبراهيم ودعوته لعبادة الله.. فحاربه النمرود وألقى به في النار وبعدهم جاء موسى في مصر.. الذي تربّى في قصر الفرعون باعتبار أن أمه كانت من عرائس المعبد وألقت به في النيل فالتقطته أخت الفرعون وربته لديها. فنشأ حكيماً عالماً، ولما كبر ونضج قام بدعوة ربانية مزدوجة، إلى قومه وإلى فرعون الذي غضب عليه لتحدّيه كهنة المعبد، فطارده فغرق في البحر، الذي شقه موسى بعصاه..

لكن قومه فسدت أنفسهم وتمرّدت بعد أن أنزل عليهم المنّ والسلوى وجلب الوصايا العشر لكنهم لجوّا في الضلال والعناد فعاقبهم الله عقاباً شديداً كما تقول الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة/٥٥)، وبعد أن تاهوا في صحراء سيناء، وقتلوا موسى وعبدوا عجلاً من الذهب، لم يصلوا إلى ربوع فلسطين في بلاد كنعان.

وقبل ثلاثمئة عام من ظهور السيد المسيح (عليه السلام) بدعوته إلى المحبة والخير والسلام أطل سقراط، قارعاً الأجراس داعياً قومه إلى فعل الخير والابتعاد عن الشر والتحلّي بالأخلاق وعبادة الإله الواحد الخالق.. وكان يقول دائماً إنه يصغي إلى صوت الوحي، وأسماه الإشارة الإلهية وكان يقول أيضاً بأن الإنسان يحمل في نفسه أسرار الوجود والكون، ودعا الشباب إلى معرفة أنفسهم فتبعه قوم كثيرون وقد تأثروا بأفكاره فتضايق منه حكام أثينا ولم يجدوا تهمة تدينه فقالوا: «إنه يفسد الشباب ويدعو إلى عبادة إله غير آلهتنا، وحكموا عليه بالموت بشرب السم..

كان بإمكان سقراط أن يهرب وقد أمّن له تلاميذه فرصة الهرب عن طريق رشوة السجان، لكنه رفض ذلك بإباء وشمم وخاطب تلميذه أقريطون قائلاً: «إذا ارتكبت رذيلة الجبن كيف أستطيع أن أتحدث عن فضيلة الشجاعة» وقال إن كان جسدي سيدفن فروحي ذاهبة إلى مكان يبعث السرور بين المباركين (قصة الفلسفة الحديثة ص١٢١).

إنّ سقراط العظيم ارتدى ثياب الحكمة وشهّر بالآلهة المتربعين فوق جبال الأولمب، يعيشون كالبشر، يتعاركون ويتقاتلون ودعا إلى عبادة الله الواحد الذي يرسل له الإشارة الإلهية.. كما أنه كان فيلسوفاً وليس نبياً.. وذكرناه كتوطئة للحديث عن رسالتي المسيحية والإسلام كمبشر لهاتين الدعوتين السماويتين..

في سقراط التقى العقل بالوحي وبالحكمة التي بشرت بالدين وبالإله

الواحد.. لكنه لم يكن وحده بين الحكماء الذين دعوا إلى عبادة الله.

ونصل إلى الأخوين الحميدين اللذين جاءا إلى البشر ليلخصا دعوة الخير والمحبة والعدالة..إنهما عيسى المسيح (روح الله وكلمته) ومحمد بن عبد الله (حبيب الله ورحمته)..

جاء السيد المسيح برسالة دعا فيها إلى المحبة والابتعاد عن الشر والأذى، وإلى محاربة الأطماع وإلى الزهد، وقد تحدث القرآن الكريم عنه فقال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة ٨٧) وذكر أيضاً: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران ٤٥-٤٦) ووصفه القرآن أيضاً قائلاً:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (آل عمران ٤٨-٤٩).

إذن، أرسل الله عيسى المسيح إلى بني إسرائيل الذين أفسدوا في الأرض وأباحوا الربا والتجارة الحرام، يساعدهم في غيّهم الأحبار رجال الدين اليهودي الذين فهموا أن الحياة هي في تقديس الإنسان للمال والكسب الحرام.

ولما واجههم السيد المسيح ودعاهم إلى التحرّر من هذه المفاسد حاولوا إغراءه وشراءه بالذهب والجاه فعرضوا عليه أن يكون ملكاً عليهم.. لكنه رفض ذلك، لأنه كان يسعى إلى تطبيق أفكار الإنجيل الذي ينادي بمحبة الناس والأهل والغير حتى بمحبة الأعداء فالمحبة تتحقق بها الذات الإلهية وبها يمكن تسوية أمور البشر.. وختم نداءه قائلاً بأن مملكته ليست في هذا العالم (يوحنا ١٨/ ٣٣) وقد طالبه اليهود بأن يأتي بالمعجزات ليثبت أنه قادم من قبل الإله الأب خالق البشر.. ففعل وشفى الأكمه والأبرص وأحيا الميت، بإذن الله، لكنهم استمروا في ضلالهم واتهموه بالسحر..

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة الصف٦).

وتابع الأحبار اليهود مع جماهيرهم المعربدة، غيهم وفسادهم وتآمرهم على السيد المسيح فاتهموه بأنه يكيد للدولة الرومانية، في ذلك الحين وأنه يحاول إفساد الشباب ودعوتهم إلى الثورة.. وقد خيّروه بين الجاه والثروة أو العذاب والصلب.

وكما حدث مع العظيم سقراط قبل الميلاد بأربعة قرون تقريباً، والذي فضّل شرب السم حفاظاً على نقاء وصدق عقيدته، كذلك فعل السيد المسيح الذي آثر

طريق الجلجلة والعذاب واختار الاستشهاد كما تقول كتب التاريخ الأكاديمية.

ولولا الشهادة لما انتشرت المسيحية، ولما دُقت أجراس الكنائس في العالم الآن وفي كل حين.. ولما تحمّل آلاف المسيحيين خلال التاريخ العذابات الطويلة والموت.. إن الاضطهاد هو الذي ينشر العقيدة ويضخمها ويساعد على ترسيخ الإيمان بها..

وصلب السيد المسيح لا يتناقض مع ارتفاعه حياً إلى السماء.. فسواء مات أم بقي حياً فالله قادر على رفعه إلى العلياء بعد إعادة الحياة إليه وقيامته من بين الأموات كما رفع إدريس (عليه السلام) حياً إلى السماء إلى جوار الرب.

وقد صرح السيد المسيح مرات عدة بأنه بشر ووصف نفسه بأنه ابن الإنسان.. وأن الله الأب هو العظيم وأكبر منه وقد نقلت الأناجيل كلامه متحدثاً عن الله القوي العلي.

«نزلت من السماء لأتمّ مشيئة الله الذي أرسلني». /إنجيل يوحنا٦/٣٨-٤٠..

«لله ربك تسجد وإياه وحده تعبد» إنجيل متى ٤/٨-١٠/.

«الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للأب الذي أرسلني» /إنجيل يوحنا ٦/٣٨-٤٠/..

وعظمة السيد المسيح تزداد رفعةً وألقاً، أنه، وهو يأتي بالمعجزات لم يكن ينسبها إلى نفسه ويختال بذكرها.. بل كان يقول إن الإيمان وحده هو الذي يأتي بالشفاء، طبعاً بإذن الله ومعرفته وأمره.

أتى السيد المسيح في زمن انتشر فيه الفقر الشديد بجانب الغنى الفاحش، وانتشرت الأمراض والعاهات، ولم يكن الطب متوافراً ومتقدماً، ولذلك كثرت علل البرص والجذام والشلل.. ولذا ظهرت معجزاته في شفاء المرضى، وإحياء الميت بإذن الله.. وكان السيد المسيح يقول للمريض عندما يأتيه الشفاء فوراً: «إيمانك شفاك».

وهنا تكمن عظمته وتظهر رفعته وسمو رسالته..

لقد استشهد.. ففتح أبواب الشهادة لأتباعه.. وأصبح الصلب رمزاً وطريقاً للحياة السعيدة، كما فعل سقراط لمّا حُكم عليه بالموت، وشرب السم راضياً، عنواناً لانتقاله إلى حياة سعيدة أفضل.. وكذلك السيد المسيح صلب، فاستشهد وانتقل إلى ملكوت الله السعيدة، راسماً للبشر الطريق المستقيم لحياة أفضل وأخلاق أرقى.

وقد قال بعض تلاميذ السيد المسيح وأتباعه بجهل منهم أو بتحريض من الأحبار اليهود، بأنه عاش يهودياً ومات يهودياً، ولذلك فإن مبادئه وآراءه إنّما هي استمرار للناموس..

والمسيح كرر مرات عدّة أنَّ الناموس لا يتغير ولايتبدّل إلى أن يأتي الكل، كما جاء في إنجيل متّى: «لايزول حرف من الناموس حتى يكون الكل» (متّى٥/١٧-١٩).

ولذا وحسب شرح العلاّمة ندرة اليازجي، فإن الناموس كان ناقصاً حتى جاء المسيح وهو الكل أي الكمال المطلق،وبذلك لم تعد هناك حاجة لشريعة وناموس موسى أو داود أو غيرهما.

إنَّ المسيح صلب واستشهد وكان يعرف ذلك مسبقاً،لكنه أذعن لقضاء الله وأمره من أجل شراء الخطيئة الأولى، خطيئة آدم وحواء وفداءً للبشرية كلها، واليهود كانوا المحرضين على صلبه، ومع ذلك فقد ربط بعض التلاميذ الأوائل، ربما عن جهل رسالته باليهودية، لكن القديس بولس حذّر الناس منهم وتحدّث عن المسيحية الصافية في رسائله وأحاديثه، وقد سمّى دعاة المسيحية اليهودية: «الأخوة الكذبة».. هذا ما ذكره المفكر الباحث ندرة اليازجي في كتابيه (رد على التوراة) و(رد على اليهودية والمسيحية اليهودية) (ص٤٧-ص٣٠ نقلاً عن غلاطية٢/٤).

وبعد ظهور المسيحية بستمئة عام ونيف ولد الهدى وظهرت الرسالة الإسلامية على لسان النبي العربي محمد بن عبد الله عليه السلام..

فدعا إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام.

ودعا إلى احترام المرأة ومنع وأد البنات..

ودعا إلى تقدير الأبوين وقرنهما بعبادة الله..

وكذلك دعا إلى الأخلاق الفاضلة، من صدق وشرف وعدل، وألحّ القرآن الكريم في كثير من الآيات على إلغاء الرق والتأكيد على حرية الإنسان، وساوى الإنسان بأخيه الإنسان، وقال بأنه لافرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى، وأنه لافرق بين فقير وغني أو عبد وسيّد، إلاّ بصدق الإيمان والالتزام بمبادئ الأخلاق والعدالة.

وكما أقدم اليهود والأحبار الكبار على محاربة السيد المسيح، كذلك اصطدم النبي محمد بمقاومة شرسة من تجار قريش الوثنيين واليهود المتحالفين معهم..حاربوه واضطهدوا أتباعه وسلطوا عليهم العذاب.

وقد حاول اليهود وحلفاؤهم أن يصرفوا الناس عن الكعبة التي يلتف حولها المسلمون، فبنوا كعبة نجران وكعبة صنعاء.. وبتحريض منهم اندفع أبرهة الحبشي لكي يهدم الكعبة فارتد مهزوماً، وقد تشرد جيشه، بعد أن دمرته الطيور التي رمته بالحجارة من سجيل.. وقد ذكر ذلك القرآن الكريم، وكتب تاريخية عدّة.. وفي ذلك العام، الذي

سمّي عام الفيل ولد الرسول العربي العظيم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ويذكر التاريخ أن أعداء النبي بالتعاون مع اليهود اتهموه بأنه كان وثنياً.. يعبد الأصنام مدة أربعين عاماً.. وقد رُدّ عليهم بعنف، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو من بقايا النسل الإبراهيمي الذين كانوا يتبعون ملة إبراهيم، الجد العظيم.. وهؤلاء القوم كانوا يحرمون عبادة الأوثان ويعبدون الله، وكانوا يفتخرون بالبيت الحرام الذي بناه إبراهيم خليل الرحمن، يحج إليه الناس من كل حدب وصوب وتذكر المصادر التاريخية أن أبا طالب اعتز بذلك النسب، عندما ذهب ليخطب السيدة خديجة الكبرى لابن أخيه محمد من أهلها.. فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وجعل لنا بيتاً حراماً».

وهذا يدل بوضوح على أن النبي محمداً لم يكن وثنياً مطلقاً، ولم يعبد الأصنام بل كان على ملة ودين إبراهيم الخليل (عليه السلام)، الذي وصفه القرآن الكريم فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة النحل ١٢٠)، كما وجه الله جل جلاله تحية خاصة له فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات الآية ١٠٩)

والنبي العربي كان يفتخر دائماً بأنه حفيد خليل الرحمن بالفكر والعقيدة والنسب.

وهكذا يتبين لنا أنّ المسيحية والإسلام دعوتان تنشدان وحدانية الله ومصلحة الإنسان في الحياة العادلة والحق والخير والتسامح والمحبة.

إن السيد المسيح تلقى البشرى بالنبوة من رجل صالح قال له:

يجيء من هو أقوى مني.. وكذلك النبي العربي تلقى البشرى الحافزة من رجل صالح قال عنه: «هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى».

وتعرض كل من الرسولين إلى مكائد اليهود ومؤامراتهم الغادرة.. وقد انتهت حياة السيد المسيح صلباً وعذاباً على صورة تشبع حقد اليهود ولؤم الأحبار، فقال: «اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون» (لوقا ٢٣/٣٤).

وقال النبي العربي محمد ودماؤه تنفجر منه بتأثير الحجارة التي قذفه بها مشركو قريش في الطائف: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون»، وقد أُريد للرسول الكريم محمد أن تتعرض حياته العظيمة للخطر والعذاب على يدي امرأة يهودية متآمرة دسّت له السم في طعامه فعانى من الآلام كثيراً نتيجة حقد

اليهود وكيدهم الغادر ونفوسهم الشريرة،كما ذكر العلاّمة خالد محمد خالد في كتابه «محمد والمسيح معاً»..

إن هذا التشابه بين حياتي النبيين الأخوين المسيح ومحمد عليهما السلام، ليس مصادفة، بل هو نتاج للظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في حياة كل منهما، ففلسطين كان الرومان يحكمونها ويسيطرون على أهلها الذين لاقوا الظلم والطغيان على أيدي الولاة، وكان سكانها اليهود يتوقعون مجيء الملك المخلص ملك اليهود الذي سيأخذ بيدهم شاهراً السيف.

لقد كان الرومان يشوون أجسادهم بالسياط الكاوية بالتعاون مع أحبار اليهود ويحصّلون الضرائب من قوت الفقراء وأفواههم.. لكي تُرفع إلى مقام القيصر الجاثم في قصره المنيف في مدينة روما عاصمة الدنيا.. وسكان فلسطين اليهود كانوا قد تشتتوا مرات عدة.. وكانوا يقتلون أنبياءهم ورسلهم.. فهم خبراء في ارتكاب الجرائم.. وتقع على أعناقهم دماء كل من زكريا ويحيى وآخرين.

ولما جاء السيد المسيح بعد انتظار طويل من اليهود، ظنوا أنه الملك القائد المخلص المنتظر، لكي يساعدهم على تكديس ثرواتهم بامتصاص دماء إخوانهم بالربح الحرام والربى الفاحش.. لكن، لما تبين لهم أنه لن يكون سمساراً لتجارتهم هبّوا لمحاربته وعداوته، فسلموه للسلطة الرومانية وطالبوا بصلبه، وقالوا للحاكم بيلاطس البنطي الذي تردد في إصدار الحكم عليه: «فلتقع دماؤه علينا وعلى أبنائنا..» (إنجيل متى ٢٧-٢٥).

إن السيد المسيح والنبي العربي محمداً عليهما السلام، لم يجيئا لخدمة أورشليم أو مكة فقط، بل جاءا لخدمة البشرية وخلاصها كلها.

وجاء في الأناجيل عن المسيح أنه جاء ليخلص العالم من الخطايا (متّى ٢/١- يوحنا ١٠/١١-١٨- مرقس-١٠/٤٥).

وقال محمد: «إن الله أرسلني للناس كافة وأرسلني رحمة للعالمين» والسيد المسيح روح الله وكلمته، دعا الناس جميعاً إلى محبة الله ومحبة العالم كله، لأن «الكل أبناء الله بالمحبة».

وكذلك قال الرسول العربي: «الخلق كلهم عيال الله وأحبّ الناس إلى الله أنفعهم إلى عياله». وكما حدث مع السيد المسيح عندما حاول اليهود وأحبارهم إغراءه بالمال والجاه والسلطة ليصبح ملكاً عليهم في أعمالهم فيقودهم.. فرفض.

كذلك حاول أغنياء قريش وتجارهم عن طريق عمه أبي طالب إغراء محمد بالمال الكثير ليترك دعوته ويدعهم في مأمن من

مبادئه الداعية إلى العدل والمساواة، فقال له بمحبة وإخلاص: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ماتركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه».

وأخذ يدعو الناس إلى توحيد الله بالموعظة الحسنة والكلمة الرقيقة، وعندما اشتد الضغط عليه في مكة، هاجر إلى المدينة حيث سبقته دعوته الهادية، ثم شكل جيشاً صغيراً من المسلمين المهاجرين والأنصار واتجه به إلى مدينة مكة فهاجمها وتغلب على تجارها وفسّاقها وقضى على الكفر والإلحاد وحطّم الأصنام وكسر شوكة المشركين، وأظفره الله عليهم، لكنه، عملاً بأخلاق الإسلام وتعاليم القرآن لم يلجأ إلى الانتقام منهم، بل عفا عنهم وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم تغلب على اليهود في معركة خيبر وغيرها وشتتهم ثم عفا عنهم..

هذه هي أخلاق النبي العظيم محمد، في العفو عند المقدرة.. فضرب بذلك المثل الأعلى في التسامح والرحمة..ولذا انتشر الإسلام، وأقبل الناس إلى اعتناقه زرافات ووحداناً، ورفرف بيرق القرآن في كل مكان.

ولاشك أننا لاحظنا مدى عداوة اليهود لكل من السيد المسيح والنبي العربي محمد.. لقد بذلوا كل جهودهم لمحاربتهما والتصدي لأفكارهما ومبادئهما منذ القديم حتى الآن.

ويذكر وول ديورانت، المفكر والكاتب اليهودي في مؤلفه: «قصة الحضارة»، الانتقادات السامة والاتهامات الرخيصة التي وجّهها اليهود إلى السيد المسيح وأمه السيدة مريم العذراء البتول.

وقد رد القرآن الكريم بآياته الطاهرة على هذه التهم الباطلة في عدة سور متفرقة وأشار إلى مكانة المسيح والسيدة مريم عند الله.. وهذا يدعو إلى التساؤل.. هل هؤلاء اليهود المعروفون الآن ومنذ القديم هم ورثة وأحفاد الموسويين القدامى الذين آمنوا بالله وبالنبي موسى كليم الله.. وهم الذين لم يدعوا فرصة تمر إلاّ ونكلوا بالأنبياء وهذا يعني أنهم لايتبعون التوراة على الرغم مما فيها من حشو وزيادات بل يتبعون التلمود الذي يعلّم كل يهودي الكراهية والحقد حيال كل الأمميين أو الأمم أي من ليس يهودياً.

وإذا ما تساءلنا عن هذا العداء التاريخي واستعرضنا كتابي التوراة والقرآن،لوجدنا الأخبار والحقائق الصارخة التي تدل على أن اليهود شعب زيّف المبادئ والقيم والأخلاق الحميدة التي جاء بها موسى كليم الله وغيره من الأنبياء.

إن التوراة التي تحفل بقصص أنبياء بني إسرائيل اللاأخلاقية عن إبراهيم خليل

الرحمن، وإسحاق، وداود، وسليمان الحكيم وتصفهم بأنهم زناة وسكارى وسماسرة عن طريق الشرف والنساء، تذكر في الوقت نفسه الأخبار والعبارات التي تدل على توحيد ونبل هؤلاء الأنبياء وتعلّقهم بالمثل العليا وفنائهم في محبة الذات الإلهية وخضوعهم لأحكامها.

فالنبي داود الذي تصفه التوراة بالرجل الشهواني والقاتل من أجل الحصول على امرأة وتحقيق شهوة رخيصة، تذكر أيضاً أقواله التوحيدية مخاطباً الله بكل خشوع قائلاً: «أنت سراجي يارب تضيء ظلمتي، أنت الدرع لكل من يحتمي بك.. يارب لك العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد.. (المزامير/١٨).

أنت نوري وخلاصي.. أنت حصني.. يارب لاتذكر خطايا صباي من أجل جودك.. إلى الأبد أحمدك يارب.. جميع عظامي تقول: «يارب.. أذللت بالصوم نفسي»/ المزامير/٢٥ .

هذه العبارات التي تفيض بالإيمان والرقة وبالتصوف والفناء في حب الله.. تتلاقى مع آيات القرآن الكريم التي تتحدث عنه فتقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سورة سبأ/الآية١٠).

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص/الآية ١٧).

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (ص/٢٦).

هذه الآيات الكريمة المتلألئة بالإيمان تتشابه وتتلاءم مع إصحاحات التوراة وتدل على أن التزييف لحق بسيرة النبي داود.. وقد أشار هو إلى ذلك عندما قال في المزامير، بالإصحاح/٥٦/: «ماذا يصنعه لي البشر اليوم يحرفون كلامي» وكذلك قال النبي أرميا مخاطباً اليهود: «لقد حرّفتم كلام الإله الحي إلهنا» (أرميا/٢٣).

ولو كان اليهود يتبعون سليمان الحكيم، لما ألصقوا به أقذر الصفات، فلو قرأوا متمهلين سفر الأمثال لكانوا شديدي الإيمان رفيعي الأخلاق.. قال النبي سليمان الحكيم: في سفر الأمثال١١/٢٣-٢٥

«شهوة الأبرار هي للخير فقط. صلاة المستقيمين أفضل من ذبيحة الأشرار. اسم الرب حصن حصين.

من خالف أباه وأمه ينطفئ سراجه في حدقة الظلام.. امرأة فاضلة يفوق ثمنها اللآلئ.. ما أحسن المرأة المتقية الرب».

وفي التوراة نجد النبي أيوب ينكر البعث والنشور والقيام من القبور.. لكننا نجده في مكان آخر من التوراة يقول: «حيٌّ هو الله.. مادامت نسمة حياة، لن تتكلم شفتاي إثماً،

ولن يلفظ لساني بغشٍّ حتى أسلم الروح.. الحكمة هي مخافة الرب»

والنبي أيوب هذا، عندما ابتلاه القدر بفقد عائلته وأولاده، شكر الله وقال: «عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك، الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً» (أيوب/الإصحاح/١/٢٣).

هذه التشويشات وهذه التناقضات المتعددة جعلت الشك يتطرق إلى النفوس في صحة التوراة وسلامة أفكارها لدى كثير من الطوائف المسيحية.. فالبروتستانت حذفوا منها عدة أسفار.. وهذا يعني أننا حيال نصوص لايثق فيها أتباعها..

وقد قال أكستائن أعظم علماء المسيحية في القرن الرابع الميلادي، مايلي: «إن اليهود حرّفوا النسخة العبرانية من التوراة» (كتاب التوراة مصطفى محمود ص١٠٥)، وقال آدم كلارك في تفسيره للتوراة: «وقعت في كتب التواريخ من العهد القديم تحريفات كثيرة» (المصدر السابق).

وقال جان ملز: «اتفق أهل العلم على أن نسخ التوراة، وكذلك نسخ العهد القديم قد ضاعت بين أيدي عسكر بخت نصر، وقد ضاعت نسخها الصحيحة بوساطة عزرا» (التوراة.. مصطفى محمود ص/١٠٥و١١٠)

ولذلك أشار القرآن الكريم إلى مادخل التوراة من تحريف ومغالطات، في قوله تعالى عن اليهود: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة البقرة٧٩)

ويقول أيضاً: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران/٧٨).

ولعل هناك سؤالاً يطرح نفسه لدى قراءتنا لتعاليم أنبياء التوراة المذكورة أيضاً في القرآن الكريم وهو من أين جاء اليهود بهذه المبادئ الظالمة.. وعلى ذلك نجيب فنقول بأن اليهودية التي نعرفها، ليست ديناً موسوياً سماوياً، بل هي نسبة إلى يهوذا ابن يعقوب[٢].. وهي نظرية قومية عرقية تأسست على يدي رئيس كهنة الإسرائيليين عندما رفض تعاليم موسى، وعبد عجلاً من ذهب واعتمد التلمود.. لكننا قد نجد بين يهود اليوم من يعرف حقيقة قومه ويصرح وينادي بأن يعودوا إلى الجذور وإلى اتباع جادة الصواب، لكن كلامه يذهب هباءً لأن العقائد التلمودية الصهيونية سمّمت أفكار اليهود حتى الفقراء منهم الذين وُعدوا بحكم العالم وبالتمتع بثروات البشر وخيراتهم

بعد أن أشاروا في نفوسهم الخوف والعداء تجاه كل الناس.. وأن الشعوب كلها تتآمر عليهم وتكرههم لأنهم شعب الله المختار.

وقد تسللت اليهودية إلى المسيحية خلسة فأصبحت مسيحية يهودية قرنت التوراة بالأناجيل خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبة وسيطرت على مقدّرات الحكومات القوية عن طريق الأموال.. وتأثر بها رجالات الكنيسة حيث يبشّر أكثر من ثمانين ألف قسيس بالتوراة وليس بالإنجيل في مختلف أنحاء الدولة الأمريكية وفي أوروبة كما يقول المفكر الباحث ندرة اليازجي..

واليهود في الوقت الحاضر يوهمون المسيحيين الحاليين المتأثرين بالفكرة القائلة بأن المسيح سيرجع حتماً شرط أن يعود أشتات اليهود إلى فلسطين ويعاد بناء هيكل سليمان.. وهم في الحقيقة ينتظرون رجعة مسيّا ليحرق الأرض ويدمر المدن ويقتل الأمم ويبقي فقط على اليهود الذين امتصوا فكرة عودة السيد المسيح ووظفوها بشكل سياسي من أجل مصالحهم الخاصة كما أشار العلامة الدكتور أحمد عمران الزاوي في كتابه (التلاقي المسيحي الإسلامي).

إن اليهود عن طريق رأس المال يسيطرون على الحكومات ولذا لا تتعارض مصالحهم..

فالدولة تمثل الطبقة البورجوازية الحاكمة، واليهود يمثلون ذروة التسلط البورجوازي المالي.. ولذا لن نعجب إذا كانت دول عربية متعددة وكلها تدين بالإسلام، يسارع قادتها إلى التعاون مع إسرائيل دولة اليهود في فلسطين ولا يرتفع أي صوت من حكامها استنكاراً للفظائع والمجازر التي ترتكب يومياً ضد الفلسطينيين وضد السكان السوريين الآمنين.

وقد شرح بوضوح حقيقة الديانة اليهودية الفيلسوف كارل ماركس في القرن التاسع عشر، وهو المتحدر من أسرة يهودية، فجده كان حاخاماً وأبوه تنصّر على المذهب البروتستانتي.. فدرس اليهودية وخرج في كتابه «المسألة اليهودية» بأن دين اليهود هو التجارة والربح الحرام والربى الفاحش وأن إلههم هو المال.. (المسألة اليهودية ص/٥٩).

وهكذا، خلال هذه الصفحات رأينا أن الحكماء والأنبياء معاً يسيرون في عقيدة التوحيد على طريق الرب.. وكل نبي ظهر اتبع مسلكاً خاصاً موافقاً لنضج العقل البشري، مبتدئاً بالتهديد والوعيد منتهياً بالموعظة والدعوة إلى عبادة الإله وإلى المحبة

والتسامح سواء عند أخناتون أو سقراط أو السيد المسيح أو الرسول العربي العظيم.. فالله الواحد الأحد لاتختفي وحدانيته كما لاتختفي أشعة الشمس، والله خالق الكون والشمس وهو نور الوجود، ويتبين أيضاً أن اليهود هم أعداء الإنسانية كلها..

وقد أشار محكم التنزيل فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر الآية ٢٤).. فالله سبحانه لم يختص شعباً بالهداية والنبوة وأهمل شعباً آخر.. ولذلك قام الحكماء بدور الأنبياء.. وتحمّل كل منهم جميعاً من العذاب والاضطهاد الشيء الكثير لينشر الهداية والمعرفة والمحبة.. لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره وينتصر التوحيد في كل مكان.

وكان لكل نبي ورسول سماوي معجزات وبينات.. فموسى شق البحر بعصاه التي كانت قد التهمت أفاعي سحرة فرعون مصر.. والسيد المسيح شفى المرضى وأحيا الموتى.. هذه المعجزات حدثت منذ القديم ولم تتكرر وباتت حديثاً يروى..

أمّا معجزة النبي العربي محمد بن عبد الله، فهي القرآن الكريم.. إنه معجزة بيانية بلاغية تشريعية يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله.. وتلك معجزة دائمة دوام الإنسان والزمان عملاً بقوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(سورة الحجر الآية٩).

وهكذا فإن القرآن معجزة ربانية مستمرة الوجود..

الهوامش

١- زرادشت: (٦٦٠-٥٨٣) ق.م

مصلح الديانة القديمة في إيران ومؤسس الطائفة المجوسية.. ويعتبر نبياً موحداً، يقول في صلاته: «من رسم الشمس والكواكب طريقها،إن لم تكن أنت، فمن يكمل القمر وينقصه؟ من ثبّت الأرض في الأسفل وأمسك السماء في الأعلى من دون أن تقع؟ ومن خلق الخير وأبدع النور والظلمات أيها الإله الحكيم؟»

٢- أخناتون:

اسمه الأصلي أمون حوتب، سمّى نفسه أخناتون عاش ١٣٧٧-١٣٥٨ق.م أصلح ديانة أمون المصرية، ثم قتله الكهنة بعد أن حكم تسعة عشر عاماً. كان يصلي فيقول: بإرادتك خلقت الأرض والإنسان والحيوان وجميع الكائنات الصغيرة.. وكذلك خلقت أرض سورية وبلاد النوبة فضلاً عن مصر..

٣- إن يهوذا بن يعقوب:

هو أحد الأسباط الأحد عشر المذكورين في التوراة، وهو الذي اضطهد أخاه النبي يوسف الصّديق وألقاه في الجب ثم باعه إلى قافلة تجار، فقط لأنه اتصف بالأخلاق الفاضلة والإيمان الصادق بالله وهذا يتناقض مع أخلاق كل يهودي في العالم منذ القديم حتى الوقت الحاضر..

مصادر بحث الحكماء والأنبياء .. في خدمة الإنسان

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب المقدس.

٣- رد على التوراة، ندرة اليازجي.

٤- رد على اليهودية والمسيحية اليهودية، ندرة اليازجي.

٥- التلاقي المسيحي الإسلامي، د.أحمد عمران الزاوي.

٦- كما تحدث الرسول، خالد محمد خالد.

٧- إنسانيات محمد، خالد محمد خالد.

٨- محمد والمسيح معاً على طريق الرب، خالد محمد خالد.

٩- التوراة، د. مصطفى محمود.

١٠- فجر الإسلام، د. أحمد أمين.

١١- المسألة اليهودية، كارل ماركس.

١٢- قضية الألوهية في الفلسفة والدين ج١، عبد الكريم الخطيب.

١٣- تفصيل آيات القرآن، جول لابوم.

١٤- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم.

١٥- قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين – زكي نجيب محمود.

هل بقيَ للتاريخ معنى[1]؟؟

L'histoire a-t-elle encore un sens

فلورانس موتّو[2] Florence Mottot
ترجمة: د.ماري شهرستان ✿

هــل لا يزال للتاريخ معنى بعد أن انتهت الأيديولوجيات الكبــيرة؟ كيف يمكن لنا أن نفكر بقدر الإنسان في مجتمعاتنا الفردانية المبنية على استنفاذ القوى أكثر مما هي على بحث يظهر تطور الشخصية الإنسانية؟

(إنني أهتــم بالمستقبل لأنني اخترتُ أن أقضــي البقية الباقية من أيامي فيه). هذا التصريــح الساخر لـــ(ودي آلن Woody Allen) يحمل أفكاراً أكثر بكثير مما نعتقد حــول سياق البحث التاريخــي الراهن، بما فيه الطريقة التــي يمكننا أن نكتب الماضي بها ونصمـــم مستقبلاً قريبـــاً انطلاقاً من اهتمامـــات مفـــردة. وهو نصيـــر السخرية الذاتية وموليع بالتحليـــل النفسي، يجسد ودي آلـــن ميل مجتمعاتنا المعاصرة: الصعود السريع للقيم المرتبطة بالفردانية.

المستقبل، إذاً، موضوع جيد للتأمل يقلق بشـــكل خاص الكاتب الهـــزلي الذي يشارك الإنسان العادي أو ما يسمى بإنسان الشارع، الخشيـــة من حيـــاة الغد ومسألـــة الوجود البشـــري. إنَّ الخفـــة في ســـرد خطابه هو الأمر الذي أدّى إلى نجاحه، وهذا ما لمسناه وفهمناه.

المستقبل، هـــو موضوع تناولته منذ زمن بعيـــد فلسفة التاريخ. إنهـــا المسألة الشهيرة التي هـــي مسألة المعنى والقدر التي امتحن

✿ مترجمة وباحثة سورية.

فيها العديد من الشبان بنجاح أحياناً وبفشل أحياناً أخرى. ماذا يمكن للتاريخ أن يعلمنا؟ هل له معنى؟ فتاريخ الفكر سخي في هذه المسألة وليس فيه أدنى شح. فبالنسبة إلى أفلاطون الذي استلهم من إيزيود Hésiode، أن تاريخ الإنسان هو تاريخ الانحطاط، منتقلاً من العصر الذهبي إلى العصر البرونزي ثم إلى الحديدي. وفي الفكر اليهو- مسيحي، للتاريخ الإنساني واجب وهو إتمام إرادة الله، إرادة تقود إلى القدس السماوية.

أمَّا الفلاسفة العلمانيون في التاريخ، من جوهان هردر Johann Herder إلى كارل ماركس، فيبدو أن الموضوع بالنسبة إليهم هو وضع مبدأ عام ينصف التاريخ، مع تحديد الاتجاه الذي ينبغي عليه اتخاذه: تحقيق الفكر المطلق عند هيغل Georg Hegel، ونهاية انسلاب الطبقات المقهورة عند كارل ماركس.. المهم في كل حالة علمنة المعنى اللاهوتي للتاريخ.

يرى هيغل Hegel في الارتقاء النهائي لدولة عقلية منهجية تلاقي المصالح الخاصة والعالمية، بفضل التوازن بين حقوق المواطن وواجباته.

بالنسبة إلى ماركس، (التاريخ إلى يومنا هذا ليس سوى تاريخ صراع الطبقات). لكن ينبغي الإشارة إلى سقوط أيديولوجيات التقدم: لقد اتخذت الماركسية سمات الستالينية، وظهرت البربرية النازية وكأنها إحدى الانحرافات الممكنة لل(تقدم)، كما تقرع المسائل البيئية أجراس الحزن مهددة حلم الحداثة: أن يصبح الإنسان (سيد ومالك الطبيعة). كيف يمكن التفكير في معنى التاريخ بعد انحراف الأيديولوجيات الكبيرة؟

وبعد أن استوحى فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama من قراءة ألكسندر كوجيف Alexandre Kojève لهيغل، أصدر عام ١٩٩٢م كتاباً مثيراً للجدل: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، الذي دافع فيه عن الفكرة القائلة بأن تطور التاريخ البشري المأخوذ على أنه صراع بين العقائد، قد وصل إلى نهايته مع الإجماع على الديمقراطية الليبرالية منذ نهاية الحرب الباردة. بالطبع سيحصل على الدوام أحداث لكن من دون تطور في مبادئ التنظيم الإنساني التي تمّ استيعابها اليوم بشكل نهائي. لكن ألا يعتبر ذلك رؤية عجيبة لنهاية العقائد؟

اختفاء معنى التاريخ؟

من جهته، حلَّل فرانسوا هارتوك[٣] François Hartog خصائص الزمن المعاش ودمجه في استمرارية الزمن الاجتماعي الراهن. فيستنتج في شرحه أنه مع الأنوار ومع ثورة عام ١٧٨٩م، وحتى مع الماركسية، قد نشأت فكرة مستقبلية واستمر تشيّدها عندما تمت تغذيتها في معتقد التقدم وفي الديمقراطية. فبالنسبة إلى المؤرّخ، سيطرت هذه الصورة المستقبلية بشكل واضح مدة مئتي عام من عام ١٧٨٩م إلى عام ١٩٨٩م، أي إلى تاريخ سقوط جدار برلين. تبع ذلك حاضرٌ من دون رؤية واضحة لما سيكون عليه الغد. واليوم، تنتقل أفكار الماضي كآثار للماضي وليس كرسالة المفروض بها أن تُسلَم إلى الأجيال.

في كتابه الأخير، رثاء السياسة الدنيوية[٤]، يرى دانييل بن سيّد Daniel Bensaïd تراجع الأيديولوجيات الكبيرة، إضافة إلى صعوبة تزداد بالظهور عند معاصريه في عملية البروز أفقياً حتى في موضوع الزمن. عندما تصبح السياسة هشة (هذه الإمكانية في البروز عرضانياً في التاريخ) فمن الطبيعي برأي الفيلسوف، أن يبحث الأفراد عن سبل الارتفاع نحو الأعلى. ثم يتناول بن سيّد التضاد الكلاسيكي بين المثولية[٥] وبين التعالي[٦]، ويعزي عودة الفكر الديني الذي نشهده إلى غياب الرؤية السياسية، وإلى عدم القدرة على إضفاء معنى للتاريخ بطريقة دنيوية صحيحة.

ومن تصريحاته الحديثة[٧] ما يقول فيها: «التعبير (حكم) الذي أصبح اليوم مشوشاً جداً وقد أساؤوا العمل به، هو ليس سوى نتيجة لوصول المفهوم السياسي إلى معتقد بأنه فن من فنون الإدارة».

وبشكل موازٍ، يربط هذا المفكر صعوبة (ابتكار) معنى للتاريخ بمسألة الممارسة المؤسساتية للسلطة: أليست هي التي تقرِّر اليوم من هو الذي ينبغي عليه أن يخطط التوجهات الكبيرة؟ الدول؟ المنظمات الدولية؟ السلطات المحلية؟ الجمعيات التشاركية؟ (بينما منذ القرن السابع عشر أقامت الحداثة السياسية تنسيقاً إقليمياً، ومبدأ السيادة، ونظاماً دوليّاً لضبط النزاعات، حيث دخل هذا الأنموذج حديثاً في أزمة تحت تأثير صدمة العولمة وخصخصة العالم).

نهاية العقائد، وخصخصة العالم والمصالح، يبدو أن معنى التاريخ اختفى تماماً تحت تأثير الفردية النرجسية.

أولوية الانفعالات

هل يمكن للتاريخ أن يكون مجموعة مشاريع فردية؟ تساءل المؤرخ ومدير الدراسات في مؤسسة الـEHESS كريستوف بروشاسون Christophe Prochasson في كتابه الأخير (إمبراطورية الانفعالات)[٨] L'Empire des emotions حول المكانة المتعاظمة للمؤثرات الفردية في صناعة التاريخ. (من احترافية المؤرخين في نهاية القرن التاسع عشر إلى عام ١٩٧٠م، سيطر التاريخ العلمي بشكل مستمر في السرّاء والضراء). ويعتقد بروشاسون أنّ نظاماً انفعاليّاً جديداً قد زاد من إخضاع المؤرخين لسيطرة المؤثرات سواء أكانت لها علاقة بالتزامات أو معتقدات أو انتماءات واقعية حقيقية أو مفترضة، أو حتى بعبادة الذات المستندة إلى الفردية المعاصرة.

هناك مثال واضح: تكاثر الدراسات حول السير الذاتية في السنين الأخيرة، هو أمر يطرح قضية معرفة الغير التي يعاني منها الباحثون في مواضيع دراساتهم. «هل ينبغي أن يكون المرء على درجة متقدمة من البؤس كي لا يشعر بشيء ولا يتعاطف مع قصة حياة إنسان آخر؟ كيف لا نستشعر النداء الذي يطلقه أحدهم رجلاً كان أم امرأة للمساعدة في إعادة بناء الحياة، كيف يختلط علينا الأمر أو على العكس هل نطرد كل عناصر الغيرية؟» بالنسبة إلى المؤرخ، إنّ شيوع السير الذاتية كأسلوب مقاربة تاريخية هو ربما تناذر عصرنا الذي اتسم بالفردية. عنصر آخر يكرس أولوية الانفعالات والخصوصيات في الكتابة الحالية للتاريخ: وهو تاريخ الضحية الذي بدأ منذ عام ١٩٨٠م.

تاريخ الأنا أم تاريخ العالم؟

قدَّم الكاتب مثالاً بسيطاً: بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، عومل الجنود كأبطال. لكن في عام ١٩٦٨م، تمَّ إنزالهم هم أنفسهم من مقامهم: صاروا يبصقون على قبر الجندي المجهول. ومنذ عشر إلى خمس عشرة سنة أصبح الجنود يُقدمون كضحايا. وبشكل موازٍ، لا يستطيع بروشاسون إلا أن يلاحظ تطور تاريخ النساء، وتاريخ

المستعمَريـن، وتاريخ المهاجرين،.. إلخ. وقد صرّح منذ فترة وجيزة[٩]: ما يزعجني، عندما تصبح كتابة التاريخ الرؤوف منهجية.

لقد تراجـع المؤرخون منذ عشرين سنة، وبخلوا في تغذية الجـدل. أصبحوا وكأنهم قـد أدّوا قسمـاً في الأخـلاق. بالنسبة إلى بروشاسون Prochasson، التاريخ الثقافي المنتشر كثيراً، أخذ شـكل مواعظ مبرمجة. «نصـادف في آن معـاً مشاريـع فكرية في منتهى الأصالـة والابتكار مـع مشاريع في منتهى التفاهة، ملائمة لطوفان انفعالي.

هنـاك الشفقـة مـكان التحليـل، الألم مكان الطبقـة الاجتماعية، وأخيراً التشهير الأخلاقي مـكان المعركة السياسية». فعصر التقنيات هو عصر الانفعالات أيضاً مدعوماً بالتأثير المفرط للبرامج الإعلامية.

هل أتـى تاريـخ (الأنا) لنجـدة تاريخ جماعي عاجز؟ هل تكـون أزمة التفكير في التاريخ المنظـور إليه وكأنـه إدراك شامل، علـى صورة مجتمعنـا المعاصر، الذي عكف نهائياً علـى مصالحه الخاصـة ومشاعره الانفعالية؟.

هل ينبغي إهمـال كل التاريخ الجمعي؟ يجهـد التاريخ الكبيـر big history منذ عـام ١٩٨٠م علـى التلاقـي مـع المناهج الجامعية والتواريخ القومية وعلى مضاعفة المقاربـات الغربية وغير الغربيـة للإجابة بطريقـة متماسكة عن المسائـل الأساسية للبشرية: من أيـن أتيت؟ إلى أين أنا ذاهب؟ في كتـاب (خرائـط الزمـن Maps of Time): وفي مدخل إلى التاريخ الكبيرAn introduction to big history، يدافع دافيد كريستيان David Christian، وهو الأنغلـو – ساكسوني، عن إنتاج تاريخ بشري عولـي: «في عالم يوجد فيـه أسلحة نووية، وحيث تفرض فيه القضايـا البيئية نفسها أكثر فأكثر، وحيث تتجاوز الرهانات الحدود القوميـة، نحن بحاجـة شديـدة لأن نرى البشريـة وكأنها كيان واحد». وبتعبير واضح إن إمكانية وضـرورة إعطاء معنى للتاريخ لم يكن يوماً ملحاً مثلما هو عليه اليوم.

لقد كتب فولتير Voltaire عام ١٧٣٤م في كتابـه بحـث في المـاوراء Traité de métaphysique: «سوف أعمل ما بوسعي عندما أدرس الإنسان، أن أضع نفسي خارج مجاله وخارج المصلحة. أفترض، على سبيل

المثال، أنني قد ولدت وأنا أملك ميزة التفكير وميزة الشعور الذي أملكه حالياً، ولا أتمتع مطلقاً بالشكل البشري، وأنزل من كوكب المريخ أو كوكب المشتري. أستطيع أن ألقي نظرة سريعة على كل القرون وكل البلدان وبالتالي على كل الحماقات التي ارتكبها هذا الكوكب الصغير». هل نحن بحاجة إلى برنامج إنتاج المؤرخين؟ رهان التجديد والتأمل في التاريخ مع إعطاء الملاحظات، يكمن ربما في تجديد معايير التحليل.

وأخيراً، ما هو التاريخ؟

هل يمكن لنا أن نماثل أو نطابق بين التاريخ والذاكرة الجماعية؟ إنه سؤال من عدة أسئلة يطرحها المؤرخ بول فين Paul Veyne في كتابه «مدح الفضول[11] (Éloge de la curiosité). البيان والإدراك في التاريخ Inventaire et intellection en histoire». يسمح هذا التمييز بتحديد طبيعة الحقيقية لعمل المؤرخ. ويشير بول فين إلى أمر واقعي: احتفال شعب ما بماضيه لا يعني مطلقاً أنه يمتلك معرفة تاريخية.

وعلى العكس من ذلك، إن كان شعب ما من دون ذاكرة هذا لا يعني أنه شعب من دون تاريخ. بالنسبة إلى المؤرخ، «الذاكرة الجماعية لا توجد طالما أن هذه الآلية ليست مشتركة مع الظاهرة الفيزيولوجية للذاكرة الفردية. ينبغي التمييز بين المعرفة التاريخية للإحياءات التاريخية، بالنصوص، أو الأوابد الأثرية أو الشعائر الدينية أو الأحداث السياسية الكبيرة أو الدينية، الأسطورية أو الأصلية والتي تكون عزيزة على قلب مجتمع معين».

فبرأي فين Veyne، بخلاف الذاكرة الفردية، المجموعات، والمجتمعات تنسى ماضيها إلا إذا قامت المؤسسات أو الإدارات بالاحتفاظ بأجزاء منها مدعومة ومحفوظة بالتربية. وبالعكس، المعرفة التاريخية لا تقدِّس حدثاً بل تسعى للإجابة عن النص التالي: هل ذلك صحيح أم خطأ؟ ويؤكد بول فين P. Veyne أنَّ التاريخ هو معرفة نقدية.

إيمانويل كانط Emmanuel Kant

١٧٢٤-١٨٠٤

برأي الفيلسوف الألماني، التطور في التاريخ هو واجب أخلاقي. وقد كتب في مؤلفه النظرية والممارسة Théorie et

Pratique ١٧٩٣: «إنني أستند إلى واجبي الفطري كي أؤثّر على الأجيال القادمة بطريقة تصبح فيها بحال أفضل مما نحن عليه اليوم».

مهما تعاظمت مثالب الإنسان وهي مثالب يشهد التاريخُ عليها، فبالنسبة إلى كانط لا يمكنها أن تعفي الأفراد من العمل لتحسين النوع البشري. فمعنى التاريخ لا يتعارض مع حرية الإنسان، بل على العكس من ذلك فهي ضمان له.

غيورغ هيغل Georg Hegel ١٧٧٠-١٨٣١

هل يمكننا التأكيد على أن الخصوصيات هي التي تصنع التاريخ؟ بالنسبة إلى هيغل، التاريخ هو المسيرة التدريجية للعقل العالمي. حتى من أجل هذا، إنهم الأفراد هم الذين يفعلون في التاريخ، برغباتهم، وانحرافاتهم الناجمة عن اتباع أهوائهم، وبانفعالاتهم. لكن ينبغي أن يتواجد عندهم الكبرياء وحس الكرامة ليهتدوا إلى طريقهم. المحركات الشخصية التي تحرك البشر هي بالنسبة إلى المفكر الألماني خدع العقل: فالبشر من دون أن يدروا وعبر محركاتهم الشخصية يكتمل العقل في التاريخ.

كارل ماركس Karl Marx ١٨١٨-١٨٨٣

يتفق كارل ماركس مع فكرة هيغل التي وفقها يكون للتطور التاريخي اتجاه حتمي. بالنسبة إليه، للتاريخ نهاية وهذه النهاية تتم عند تحقيق الوحدة العالمية.

غير أنه على العكس من هيغل، يرى في التناقضات المادية للتنظيم الاجتماعي محركاً للتاريخ. وفي تحليلاته أي ماركس، يرى أن وسائل الإنتاج في الماضي البعيد كانت تستند إلى تقسيم المجتمع وفق طبقتين اثنتين: الأشخاص الأحرار والعبيد. وهو تقسيم نعود فنجده في الإقطاع: فهناك الأسياد يقابلهم الرقيق أو عبيد الأرض. أما وسيلة الإنتاج البورجوازية، فهي تضع الملاكين في مواجهة مع العمّال. فبالنسبة إلى هذا الفيلسوف، البشرية المحرَّرة هي البشرية التي تكون إنسانية بالفعل.

بول ريكور Paul Ricoeur ١٩١٣-٢٠٠٥

بالنسبة إلى هذا الفيلسوف الفرنسي، لا يستطيع المؤرخ أن ينفصل عن ذاتيته. من أجل أن نفهم عصراً معيناً، ينبغي علينا أن نسعى بالرجوع إليه وأن نكشف عن أفكاره وعن محركات صنّاعه بتعاطف وبمشاركة وجدانية.

هـذه الذاتيـة الصالحة ليسـت ذاتية الانفعـالات أو الارتباطات الشخصية. إنها الذاتيـة التي تسمح للمؤرخ بفهم عالم كامل. وفي كتابـه (تاريخ وحقيقـة Histoire et Vérité) يقـول ريكـور P. Ricœur: «لا موضـوع الأهمية ولا النظريـة ولا التصوّر الزمنـي، ولا التعاطف والمشاركة الوجدانية على الأخص، يمكنهـا إيقاع التاريخ في أي جنون ذاتـي كان؛ هذه الحالات الذاتية هي أبعاد للموضوعية التاريخية نفسها».

ما هو التاريخ الكبير؟ Qu'est-ce que la big history

التاريخ الكبير هو دراسة موسعة ومعمقة للتاريـخ بـدءاً مـن الانفجـار الكبير Big Bang وصولاً إلى العالم المعاصر، وذلك وفق مقاربـة متعددة المناهجيـة شبيهة بالتاريخ العالمي world history، لكنها تنتمي أكثر إلى المفهوم الكلاسيكي للتاريخ العالمي، لأنها تتفحص التاريـخ منذ بدايـة العصور إلى العصر الحالي، من دون أن تنحصر في تاريخ الجنس البشري.

ينهل التاريخ الكبير من نتائج الدراسات في جميـع الميادين المتنوعـة بـدءاً مـن البيولوجيـا إلى علـم الفلك والجيولوجيا وعلـم المناخـات وظواهرها وعلـم ما قبل التاريخ وعلم الآثار والأنثروبولوجيا والعلوم الطبيعية والديموغرافيـة والعلوم البيئية، إلخ. الهـدف واضح ومعلـن: تلاقي أفكار المناهـج مع بعضها بعضـاً، إزالة الحواجز بـين الاختصاصات التي بزغـت في القرن العشريـن، بطريقـة يتم من خلالهـا إبراز المراحل الكبرى للتطور والدوافع المتواترة.

توحـي الفكـرة أيضـاً بالخـروج من الإطارات القومية، ومضاعفة وجهات النظر حول التاريخ والتركيز على فكرة الخروج من المركزية الأوروبية. المحاولات الأولى لتنفيذ كتابة تاريخ على مستوى كبير بدأت في نهاية عام ١٩٨٠م: مع جون ميرز John Mears من جامعة الجنوب الميتودية[11] في تكساس، أو مع دافيد كريستيان David Christian مـن جامعة مكاري في أستراليا، اللذين بديا وكأنهما المبادران لهذا التيار.

لقد أثارت هـذه المحاولة من دون أدنى شك انتباه المهتمين، وأنذرتهم بالضرورة التي أصبحـت أكثر إلحاحاً عنـد المعاصرين في زمـن العولمة، كي يدركوا العالم ويفهموه على

أنه واحد. والكتاب المرجع في الوقت الراهن حول هذه القضية هو: المدخل إلى التاريخ الكبير introduction to big history لدافيد كريستيان D. Christian، إصدار عام ٢٠٠٤م، خرائط الزمن Maps of Time. تناقش الفصول الخمسة الأولى نشوء وتطور الكون، والمجرات والنجوم، والنظام الشمسي والأرضي. والفصلان السادس والسابع يبحثان في أولى التنظيمات البشرية، وخصص الفصل الثامن لأولى المجتمعات الزراعية. في الفصل التاسع والعاشر وصف لبزوغ المدن والدول. ومن الفصل الحادي عشر إلى الفصل الرابع عشر بحث في أصل وأشكال الحداثة. وأخيراً في الفصل الأخير محاولة رسم للمستقبل. وفي إحدى كتاباته يقول دافيد كريستيان: «إنَّ محاولة خلق رؤية شاملة عن الماضي، هو شأن بالنسبة إليَّ شبيه باستخدام خارطة الكرة الأرضية. لا يوجد أي اختصاصي في الجغرافيا يمكن أن يدرس علمه بوساطة خارطة طريق حصرياً».

في الوقت الراهن، الغالبية العظمى من المؤرخين يعلمون الماضي لأمم خاصة، وحتى لحضارات زراعية من دون التساؤل حول المعنى العام للماضي. ما هو المعادل الزمني لخارطة العالم؟ هل يوجد هناك أطلس للزمن يلخص الماضي على جميع أصعدته؟ يُلزم الكاتب معاصريه على دراسة التاريخ برؤية جديدة».

الهوامش

١- مقال نشر في مجلة العلوم الإنسانية- الملفات الكبيرة Grands Dossiers العدد رقم ١٠-آذار- نيسان- أيار ٢٠٠٨م.

le sommaire du magazine Les grandes questions de la philosophie.

٢- صحفية في مجلة التربية

Education – Magazine.

٣- فرانسوا هارتوك، أنظمة تاريخية. الحاضر وتجارب الزمن

F. Hartog, Régimes d'historicité.Présentisme etexpériences du temps, Seuil, 2003.

٤- كتـاب رثاء السياسة الدنيويـة Éloge de la politique profane، صدر عـن دار نشر آلبان ميشيل Albin Michel.

٥- المثولية: immanence.

٦- التعالي، transcendence: كينونة فوق الوجود المادي ومفارقة له.

٧- تصريحـات دانييـل بن سيد Daniel Bensaïd علـى فرانس - إنـتر France Inter، ١٩ janvier ٢٠٠٨.

٨- بروشاسون، إمبراطورية الانفعالات. المؤرخون في المعترك،

C. Prochasson, L>Empire des émotions.Les historiens dans la mêlée, Demopolis, 2008.

٩- في الثقافة الفرنسية

France Culture, 21janvier 2008.

١٠- صدر عن دار نشر مركز بومبيدو

in collectif, Philosophie et Histoire, éd. Centre Pompidou, 1987.

١١- الميتوديـة méthodiste: نظرية كنيسـة الميتوديين أو تعاليمها، وهي حركـة دينية إصلاحية قادها في أكسفورد عام ١٧٢٩م تشارلز وجون ويزلي محاولين فيها إحياء كنيسة إنكلترا.

الصحافة ونظريات الإعلام

د. محمد البخاري ✪

نظريات الإعلام هي خلاصة لما توصل إليه الباحثون في مجالات الاتصال والإعلام الجماهيري ومن بينها كتاب نظريات الصحافة الأربع الذي ألفه بيترسون، وشرام اللذان وضعا فيه أسس العلاقة المتبادلة بين نظريات الإعلام وفلسفة الإعلام، لوجود علاقة متبادلة بين نظريات الإعلام وفلسفة الإعلام، ففلسفة الإعلام تبحث العلاقة الجدلية بين الإعلام وتطبيقاته الاجتماعية، أي تحليل التفاعل بين الإعلام كعلم وبين ممارساته الفعلية في الواقع الاجتماعي، ورأى منظرو نظريات الإعلام أنها جزء من فلسفة الإعلام لأن فلسفة الإعلام هي أعم وأشمل من النظريات، لأن استخدام تعبير نظريات الإعلام كان في مجمله انعكاسا للحديث عن الأيديولوجيات والمعتقدات الاجتماعية والاقتصادية، والحديث عن أصول ومنابع العملية الإعلامية ضمن معادلة: المرسل؛ والمستقبل؛ والوسيلة.

وترتبط نظريات الإعلام بالسياسات الإعلامية في المجتمع، ومدى التحكم بوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية من النواحي السياسية، وفرض الرقابة عليها وعلى مضامينها التي تنشر أو تذاع من خلالها. ليبرز سؤال هل تسيطر الحكومات فعلاً على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية؟ أم أن لها مطلق الحرية في التحرك؟ أم التقيد بالقواعد التي تحددها القوانين النافذة؟ خاصة وأن مجموعة العوامل التي تشترك في تأسيس منطق النظرية العلمية

✪ أديب وباحث سوري مقيم في أوزبكستان، أستاذ جامعي متقاعد.

في المجالات الإنسانية المختلفة في حقيقتها نابعة من بيئة الإنسان ومجموعة المنبهات والاستجابات التي تتكون وفقاً لها.

واستطاع الإنسان تشخيص تلك العوامل البيئية والاجتماعية والنفسية بعد أن عرف اللغة ومفرداتها، لأن اللغة في شكلها الأول وبطبيعتها البسيطة البدائية كانت ضرورية لحياة الجماعة وأساساً لتكوين علاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبمرور الزمن تطورت اللغة لتصبح ذاكرة للمجتمع ومكنت الإنسان من تنسيق جهوده وتوحيدها في مجرى مشترك وجعلت الكتابة من تداول الخبرة ممكناً بين الأفراد والأجيال والمجتمعات.

واللغة بهذا المعنى الواسع أصبحت أداة اتصال رئيسية بين بني البشر، كما أنها في الجانب الثاني أصبحت أداة فكر وأداة لتبادل الآراء والأفكار بين الناس.

ومعروف أن المطبعة جاءت لتفتح الطريق أمام الثورة الصناعية بعد أن مهدت لها الثورة العلمية، وما إن دخل القرن العشرون حتى صار العالم يعيش ثورة شاملة في المعلوماتية ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وانحسرت المسافات الجغرافية أمام القدرات التكنولوجية لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيري.

ومن أجل تسخير هذه القدرات وتوظيفها لخدمة المعلومات وتبادلها بين المجتمعات أخضعتها الحكومات والدول لنظرياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. مما دفع علماء الاتصال والإعلام الجماهيري لوضع نظريات إعلامية مستنتجة من تلك النظريات السياسية الأوسع وتطبيقاتها العملية في المجتمعات المختلفة من رأسمالية واشتراكية وهجينة ومتفردة وغيرها.

ولا غرابة في أن يكون لإعلام الدول النامية قولٌ في هذا المجال لاسيما وأنها ابتليت بالأوضاع التي فرضتها عليها السياسات الاستعمارية، وما تعانيه من شدة الخلافات السياسية التي انعكست بالنتيجة على فعالياتها الإعلامية.

ورغم دخول العالم القرن الحادي والعشرين، وعصر المعلوماتية ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية المتطورة فإننا نلاحظ استمرار تخبط الدول النامية في مشاكلها الاتصالية والإعلامية الجماهيرية التي ازدادت صعوبة وتعقيداً.

وبقي الاتصال والإعلام الجماهيري ظلاً للسياسة في الحركة الاتصالية اليومية لتطبيق المناهج السياسية والاقتصادية والفكرية والتربوية والتعليمية والثقافية، في هذا البلد أو ذاك.

وارتباط وعي الإنسان بهذه العوامل وبالتكوينات الاجتماعية وبتقديره للظروف

الموضوعية والذاتية التي تحيط به، والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بلغته القومية، لاسيما وأن اللغة هي التعبير عن تقديرنا للواقع الموضوعي، وكان ظهور الوعي واللغة في مرحلة محددة من التطور الاجتماعي للبشرية ليتمكن بنو البشر من التواصل والاتصال ببعضهم البعض. واللغة تمنح الإنسان إضافة إلى وراثته البيولوجية فرصة للاستثمار الأمثل للثقافة والمعرفة.

وقد أتاح العلم الحديث للغة ممكنات ووسائل متعددة للتعبير عن دقائق الأحكام الفعلية في صورها النظرية والتطبيقية لمختلف الحاجات الإنسانية. ونظراً لتعدد خصوصيات تلك الحاجات الإنسانية وأساليب إشباعها من الوجهة الاتصالية والإعلامية الجماهيرية فقد عمد رجال الإعلام إلى اتباع النظرية المناسبة لهم في خطابهم الإعلامي والاتصالي الجماهيري لتجسيد **المستويات الإعلامية الوظيفية المطلوبة**، وهي: **المستوى المعلوماتي**: الذي يتوسل باللغة لتوصيل المعلومات إلى المتلقي بأسلوب مباشر وبصياغة واضحة ودقيقة؛

والمستوى الإقناعي: والذي يقصد به إقناع المتلقي ودعوته إلى الالتزام الأولي ومن ثم تبني المضمون المطروح أو الفكرة المقصودة أو الرأي المراد إيصاله ومن ثم تدعيمه عن طريق خلق قناعات لدى الشرائح الاجتماعية؛

والمستوى التعبيري: الذي يدخل ضمن فن الأدب المستخدم في وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية السمعية والمرئية والمقروءة لاسيما المستندة منها على استعمال الصورة المتحركة أو الثابتة. ومن النظريات الإعلامية السائدة في العالم:

- **نظرية الإعلام والسلطة المطلقة**: وهي من أنظمة الحكم المستبدة التي لا تسمح بمشاركة الشعب في الحكم على الإطلاق، وتستند السلطة المطلقة باعتبارها نظاماً من أنظمة الحكم القائمة على فكرة (الحق الإلهي) وعلى الفكرة القائلة في أوروبة خلال القرون الوسطى (بأن الحاكم هو ظل الله وخليفته في الأرض).

ولنظرية الإعلام والسلطة المطلقة: **مدخل؛ وأسس نظرية؛ وعلاقة بالسلطة المطلقة يعتمد على مذهب الحق الإلهي؛ والرقابة وسيطرة الأجهزة المسؤولة على الصحافة؛ والتاريخ الطويل للأيديولوجية السياسية؛ وهو ما صاغه الفلاسفة الأقدمون أمثال: سقراط وأفلاطون وأرسطو** من نظريات فلسفية تخدم السلطة الاستبدادية، بدليل أن أفلاطون خلع صفة المثالية على الشكل الأرستقراطي للدولة معتقداً أن طبيعة الإنسان واهتماماته المادية

وعواطفه الأنانية تتسبب في تدهور الحكم من الأرستقراطية إلى الديمقراطية، أي إلى التفتت والانحلال.

واعتبر أن الدولة لا تجد الأمان إلا في أيدي الحكماء من رجالها ورجال القانون من أنصارها، وأصحاب المثل الأخلاقية العليا التي يتم فرضها على كل عناصر التركيبة الاجتماعية، ليظلوا على الطريق القويم الذي رسموه لهم معتبراً أن هذه الصفوة من البشر تجعل العقل يسيطر على عواطف القلب وغرائز الجسم.

- **ونظرية الإعلام الحر**: التي تؤمن بالفرد أساساً وتعتبر أن الفرد يولد وهو مزود بحقوق طبيعية، وتؤمن وتفترض أن الفرد كائن عقلاني وأخلاقي وأن أخلاقيته تحدد له ما يجب المحافظة عليه من دون قانون أي (تمتعه بالحرية المطلقة) في حياته وآرائه، والدعوة إلى العيش الكريم من دون أي تدخل من السلطة.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن الفرد أسمى من الحكومة ومن الدولة، وأن الدولة هي وسيلة فقط أو واسطة يمارس من خلالها الفرد نشاطه، وحين تقف الدولة في وجهه عليه محاربة تلك القوة التي تمنع تحقيق أهدافه التي يرغب الوصول إليها.

وتعتمد نظرية الإعلام الحر على مبادئ؛ وأيديولوجية نظرية؛ وعلاقة النظرية بوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية؛ وعلى العموم وضع الغرب الحرية في المرتبة الأولى والمسؤولية في المرتبة الثانية بينما وضع السوفييت قبل الانفتاح الغورباتشوفي في ثمانينيات القرن العشرين المسؤولية أمام الحزب الشيوعي أولاً والحرية بعد ذلك.

وتغيرت الظروف والطروحات بعد انهيار المنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفييتي السابق، ولاحت تباشير الانفتاح على المفهوم الغربي للحرية والديمقراطية في وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية للدول المستقلة التي قامت على أنقاض الاتحاد السوفييتي السابق، وأنقاض المنظومة الاشتراكية السابقة التي كان يقودها وراحت تلك الدول تبحث عن مكان لها في النظام العالمي الجديد، منفتحة على العالم بعد سنوات طويلة من العزلة والمواجهة.

- **ونظرية الإعلام الاشتراكي**: التي ظهر مفهومها في أوروبة مع بداية عام ١٨٣٠م واستمر في تطوره حتى عام ١٩٤٨م وخلال هذه الفترة الطويلة التي دامت أكثر من قرن، ظهر الكثير من المفاهيم والمذاهب الفلسفية والأفكار السياسية المكملة لمفهوم الاشتراكية وكان أولها ما ظهر في فرنسا إبان الثورة الفرنسية التي اعتمدت على المنشور والمطبوع في نشر أفكارها.

وظهر مصطلح الاشتراكية بمعناه السياسي الحديث الدال على نظام اجتماعي واقتصادي في الصحافة لأول مرة عندما نشرت صحيفة كلوب عام ١٨٣٢م مقالة عنها كتبها بيير ليرو أحد أتباع مدرسة سان سيمون الفلسفية. وأطلق مصطلح الاشتراكية للتعبير عن الفلسفة الاجتماعية الإصلاحية التي آمن بها أتباع هذه المدرسة المؤمنة بالنظرة الإنسانية إلى الطبقات المعدمة.

وسرعان ما اتسع مدلول الاشتراكية بفضل فورييه وبرودون ولويس بلان، لتعبر عن التطلع إلى نوع جديد من النظم الاجتماعية. واعتمدت على التيارات الاشتراكية التي تبلورت في أوروبة وهي: الاشتراكية الإنتاجية؛ والاشتراكية التعاونية؛ والاشتراكية العلمية، التي بنيت على دعائم نظرية.

وعلى هذا الأساس أصبح للحرية الصحفية في النظام الاشتراكي معنىً مخالفاً تماماً لمعناها في النظام الرأسمالي، ووفقاً لمصالح الطبقة الكادحة فإن النظام الإعلامي الاشتراكي: يؤمن بحرية القول؛ وحرية الاجتماع بما في ذلك الاجتماعات الشعبية؛ وحرية التجمع أو المواكبة أو التظاهر لتحقيق غرض معين.

ولم يعد في الإمكان الحديث عن نظرية إعلامية اشتراكية بعد انهيار المنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفييتي السابق، وتفكك الجمهوريات السوفييتية إلى جمهوريات مستقلة ذات سيادة واستقلال وطني.

-ونظرية المسؤولية الاجتماعية للإعلام: التي ولدت نتيجة للمعاناة التي سببتها النظريات السابقة، وقد يكون أيضاً بسبب تأثير نتائج الحرب العالمية الثانية، حيث وجد المفكرون في المبادئ والوظائف والصيغ الجديدة انعكاساً للنظرية الليبرالية، واعتُبِرَ القرنُ العشرون الميدان التطبيقي لأفكار هذه النظرية في المجتمع والدولة وكان أمثل تطبيق لأفكار هذه النظرية الولايات المتحدة الأمريكية التي طبقت فيها أولاً ومن ثم أخذت بالانتشار في بقية أنحاء العالم.

وتوجهت أفكار ومبادئ هذه النظرية بالنقد لأفكار النظرية الليبرالية (نظرية الحرية). ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها هذه النظرية: إعطاء الحقيقة إلى الفرد ولا يحق التستر عليها ولا يجوز تزويد الفرد بمعلومات كاذبة أو ناقصة؛ وممارسة النقد البناء والقبول بأي فكرة أو طرح جديد من قبل الفرد وتقبل مناقشة ذلك الفرد، لتصحيح الخطأ إن وجد بأسلوب ديمقراطي بنَّاء هادف وهادئ؛ ونشر أهداف المجتمع وخططه التربوية والتعليمية والاقتصادية والسياسية.

فالإعلام يهدف إلى خدمة المجتمع ويبشره بالرفاهية واحترام حقوق الفرد الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية؛ وإتاحة الفرصة للفرد للحصول على المعلومات التي يستفيد منها أو يريد أن يتعلمها أو يضيفها إلى حصيلة مستوى الثقافي والسياسي من خلال فكر الدولة أو فكره الشخصي.

والحرية في هذه النظرية تنطوي على قدر كبير من المسؤولية الاجتماعية ولهذا فالحرية ليست حقاً طبيعياً يعطى من دون مقابل، بل حقاً مشروطاً بمسؤوليات يمارسها الإنسان تجاه نفسه واتجاه المجتمع. ولا حق لأحد بالاعتداء على حريات الآخرين. أي أن الحكومة والشعب يعطيان وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية حقهما في حرية التعبير، ولكن في الوقت نفسه يمكن أن تفقد هذا الحق فيما لو أسيء استعماله.

ولا يمكن عزل المجتمع ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والدولة عن بعضهم البعض لأن التمتع بالحقيقة وحرية الرأي أمران ضروريان للأطراف الثلاثة وهي: الدولة؛ والمجتمع؛ ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

- **ونظرية المسؤولية العالمية للإعلام:** وتهدف إلى: ربط أجهزة الاتصال والإعلام الجماهيري والعاملين فيها بقضية الإنسان في كل مكان؛ ورفع مسؤولية الاتصال والإعلام الجماهيري إلى مستوى القضايا العالمية التي تحتاج إلى كلمة الحق المنزهة عن الهوى، وإلى الموضوعية التي تفتقر لها أجهزة الاتصال والإعلام الجماهيرية في المجتمعات المتخلفة؛ وتحقيق المساهمة الإيجابية لأجهزة الاتصال والإعلام الجماهيرية في معركة الوجود الإنساني نفسه؛ ونبذ ومحاربة التهديدات الإنسانية المصيرية والمتمثلة في الحرب النووية والاحتكارات والمصالح الدولية.

وتتلخص فلسفة نظرية المسؤولية العالمية للإعلام بالعبارة التالية: (حب الإنسان للإنسان). وقد تختلف أو لا تختلف الغاية من الأهداف التي تتضمنها هذه النظرية إلا أن الغاية الأساسية تركز على تكييف طبيعة الصراع الإنساني لتحقيق الغاية الأسمى، وتعتبر أن الإنسان المتطلع إلى مبادئ المسؤولية العالمية بحق، هو ذلك الإنسان المنادي بالحرية الحقيقية وبمفهومها الحقيقي، ومعناها المناهض للوسائل المتخلفة التي تعمل على تفكيك وتجزئة شعوب العالم من خلال النزاعات الدينية والتوسعية والعبودية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التي في النهاية تحطم الإنسان في كل مكان.

ونرى أن منظمة الأمم المتحدة معنية في إعادة النظر في جميع الممارسات الاتصالية

والإعلامية الجماهيرية الدولية المستندة على مبدأ حق امتلاك التكنولوجيا، الذي يعني حق احتكار المعلومات فالقضايا الإنسانية وحقوق الشعوب المهضومة جميعها تمثل جوهر عملية الاتصال والإعلام الإنساني الموالي للحب والسلام والوئام بين شعوب العالم على أساس من الاحترام المتبادل وتبادل المنافع والمصالح الإنسانية.

-ونظرية الإعلام والمشاركة الديمقراطية: التي تعد من أحدث النظريات الإعلامية وأصعبها تحديداً، فقد برزت هذه النظرية من واقع الخبرة العملية كاتجاه إيجابي نحو ضرورة وجود أشكال جديدة لتنظيم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيري، فالنظرية قامت كرد فعل مضاد للطابع التجاري والاحتكاري لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية المملوكة ملكية خاصة.

كما أن هذه النظرية قامت رداً على مركزية مؤسسات الإذاعة المسموعة والمرئية، التي قامت على معيار المسؤولية الاجتماعية، وتنتشر بشكل خاص في الدول الرأسمالية. ويعبر مصطلح **المشاركة الديمقراطية** عن معنى التحرر من نظام الأحزاب والنظام البرلماني الديمقراطي في المجتمعات الغربية، الذي أصبح مسيطراً على الساحات الإعلامية متجاهلاً الأقليات والقوى الضعيفة في تلك المجتمعات، وتنطوي هذه النظرية على أفكار معادية لنظرية المجتمع الجماهيري، الذي يتسم بالتنظيم المعقد والمركزية الشديدة والذي فشل في توفير فرص عاجلة للأفراد والأقليات في التعبير عن اهتماماتها ومشكلاتها.

ومن منظور هذه النظرية أن التنظيم الذاتي لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية لم يمنع ظهور مؤسسات إعلامية تمارس سيطرتها من خلال مراكز القوة في المجتمع، وفشلت في أداء مهمتها ولم تتمكن من توفير فرصة المشاركة من خلال أسس تحددها الجماهير بدلاً من المسيطرين على تلك المؤسسات. وتتلخص أفكار **نظرية الصحافة والمشاركة الديمقراطية** في التالي:

إن للمواطن الفرد والجماعات والأقليات حق الوصول إلى وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية واستخدامها، والحق في أن تخدمهم طبقاً للاحتياجات التي يحددونها.

وأن تنظيم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية ومضامينها يجب أن لا تخضع لسيطرة مركزية؛ وأن سبب وجود وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية أصلا هو خدمة الجماهير وليس المؤسسات التي تسيطر على تلك الوسائل أو العاملين فيها.

وأن الجماعات والمنظمات والتجمعات المحلية ينبغي أن يكون لها وسائل اتصالها

الإعلامية الجماهيرية الخاصة بها؛ وأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الصغيرة والمتسمة بالتفاعلية والمشاركة أفضل من وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية المهنية الضخمة التي ينصب مضمونها في اتجاه واحد؛ وأن الاتصال أهم من أن يترك للإعلاميين أو الصحفيين.

- **ونظرية الإعلام التنموي**: التي تراعي اختلاف ظروف العالم النامي، وخاصة الدول التي ظهرت إلى الوجود في منتصف القرن العشرين، واختلفت عن الدول المتقدمة من حيث إمكانياتها المادية والاجتماعية، وكان لابد من نموذج إعلامي لهذه الدول يختلف عن النظريات التقليدية يناسب الأوضاع القائمة في مجتمعاتها، وظهرت نظرية **الإعلام التنموي** في ثمانينيات القرن الماضي، وقامت على الأفكار والآراء التي وردت في تقرير **لجنة برايل** حول مشكلات الاتصال في العالم الثالث. وتضمنت مبادئها وأفكارها المفيدة لدول العالم النامي، لأنها تعارض التبعية وسياسة الهيمنة الخارجية. وتعمل تلك المبادئ على: تأكيد الهوية الوطنية والسيادة القومية والخصوصية الثقافية للمجتمعات.

على الرغم من أن هذه النظرية لا تسمح إلا بقدر قليل من الديمقراطية وحسب الظروف السائدة، إلا أنها في الوقت نفسه تفرض التعاون وتدعو إلى تضافر الجهود بين مختلف القطاعات الاجتماعية لتحقيق أهداف التنمية، وتكتسب هذه النظرية وجودها المستقل من نظريات الإعلام الأخرى ومن اعترافها وقبولها بالتنمية الشاملة والتغيير الاجتماعي.

وتتلخص وجهة نظرها من مهام وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في عملية التنمية بالتالي: تشكيل اتجاهات الشعب وتنمية هويته الوطنية؛ ومساعدة المواطنين على إدراك أن الدولة قامت بالفعل بأداء التزاماتها على الوجه الأكمل؛ وأن الحكومة تنتهج سياسات هادفة للمساعدة على تحقيق التنمية الوطنية؛ وتشجيع المواطنين على الثقة بالمؤسسات والهيئات والسياسات الحكومية مما يضفي الشرعية على السلطة السياسية ويدعم مركزها؛ والإسهام في تحقيق التكامل السياسي والاجتماعي من خلال تجنب الصراعات السياسية والاجتماعية وإحباط أصوات التشرذم والتفرقة والتخفيف من التناقضات في القيم والاتجاهات بين الجماعات الاجتماعية المتباينة؛ والمساعدة على الاستقرار والوحدة الوطنية وتغليب المصالح الوطنية على المصالح الذاتية؛ وإبراز الإيجابيات وتجاهل السلبيات وتقليل حجم النقد إلى حجمه الأدنى.

وهو ما يبرز مشكلة سوء استخدام صحافة التنمية في إطار الاحتكار الحكومي لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيري، حيث تتحول طاقاتها لخدمة هدف تدعيم مركز السلطة السياسية وتصبح أهداف التنمية الوطنية ذات أهمية ضئيلة، وتتحول حرية الصحافة كما أشار **جراهام مايتون** إلى نوع من الترف الفكري من وجهة نظر المتحمسين لمفهوم صحافة التنمية، وأوضح فاروق أبو زيد أن بعض الدول العربية ادعت ضرورة توجيه وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية لخدمة التنمية والقضايا القومية وانتهى الأمر فيها إلى توظيف الصحف لتدعيم النظم السياسية الحاكمة والترويج لأفكارها والدفاع عن سياساتها وأن **نظرية صحافة التنمية** لم تلبي واقع أنظمة الاتصال والإعلام الجماهيري في دول العالم الثالث، الأمر الذي يؤكد ضرورة صياغة نظريات جديدة ينتجها مفكرو العالم الثالث، لتخاطب الواقع في الدول النامية بمفاهيمه وتعقيداته.

- **ونظرية التبعية الإعلامية**: التي ظهرت في دول أمريكا اللاتينية في حقبة ما بعد الاستقلال كرد فعل على إخفاق نظريات التحديث الغربية في تفسير أسباب تخلف الدول النامية، وتتلخص في أن ما تقدمه الدول الصناعية من تكنولوجيا الاتصال والإعلام وأنظمة وممارسات مهنية إعلامية ومواد وبرامج إعلامية للاستهلاك في الدول النامية يعمل على صنع وتعميق التبعية الإعلامية لهذه الدول، وزيادة اعتمادها على الدول الصناعية المتقدمة.

ومن أهم منظري هذه النظرية شيلر **وماتلارات ويويد باريت**، الذين قالوا: إن التكنولوجيا والأنظمة والممارسات الإعلامية المنقولة من دول العالم المتقدم تعمل على تشويه البنية الثقافية في دول العالم النامي، وتسهم في إحداث سلبيات عديدة منها:

خلق ثقافة مهجنة؛ وتغريب ثقافي؛ وغزو ثقافي. وفي هذا الإطار جاءت جهود منظمة اليونسكو لتسهم في تقديم منظور نقدي يتميز بالشمول والموضوعية في محاولة لتجاوز الرؤى الجزئية التي تسعى إلى سيادة الرؤية الغربية (دول الشمال) في الاتصال والإعلام الجماهيري وتتجاهل وتغفل حقوق شعوب الجنوب في الاتصال والإعلام الجماهيري.

والنظرة المتعمقة لتجارب العالم الثالث كشفت لنا حقيقة الدور الذي تقوم به بعض وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في تشكيل اتجاهات الرأي العام بصورة خادعة ومضللة ومستهدفة في الأساس، لإضفاء الشرعية على السياسات الاستبدادية للسلطات الحاكمة، واعتمادها على تكنولوجيا الاتصال الجماهيرية

والمعلوماتية التي تتحكم فيها الشركات متعددة الجنسيات، والقوى المحلية المتمتعة بالنفوذ السياسي والاقتصادي. لنفهم أن نظرية التبعية الإعلامية أعطت اهتماماً كبيراً للأبعاد الثقافية والتاريخية والدولية في تفسيرها للعلاقة القائمة بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيري والسلطات السياسية ودورها في إطار التبعية الإعلامية والغزو الثقافي. ولو أنه يمكن أن يؤخذ عليها مبالغتها في تقدير أهمية المتغيرات الخارجية وتأثيرها على الأنظمة والسياسات الاتصالية لدول العالم الثالث، وهو ما يقلل من أهمية المتغيرات الداخلية، بالرغم مما تمثله الضغوط الدولية من أهمية إلا أن صياغة السياسات الاتصالية والإعلامية الجماهيرية تبقى مسؤولية وطنية في المقام الأول ويفترض أن تعكس الإرادة الشعبية وتصون الشخصية الثقافية الوطنية. لأن أنظمة الاتصال والإعلام في العالم الثالث تقوم على: نظام اتصالي إعلامي جماهيري تسيطر عليه الدولة في إطار مفهومي التنمية والوحدة الوطنية، وأن الرقابة فيه على المضمون الإعلامي صارمة؛ وأنه نظام اتصالي إعلامي جماهيري موجه من الدولة وظيفته الأساسية تعبئة الجماهير من أجل التنمية وتدعيم الوحدة الوطنية لتحل المسؤولية الوطنية محل المسؤولية الاجتماعية؛ وأنه نظام اتصالي إعلامي جماهيري مستقل تتمتع فيه وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بقدر من الحرية بعيداً عن التدخل المباشر للحكومة، وتستطيع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في ظله إظهار استقلالية في مواجهة الضغوط الحكومية.

ويعتبر هذا التصنيف أكثر مرونة في تصنيف أنظمة الاتصال والإعلام الجماهيرية في العالم الثالث، لأنه من الصعب إخضاعها لتصنيفات جامدة نظراً لما تتضمنه من تناقضات وتعقيدات كثيرة.

نظريات الإعلام والتجربة الإعلامية العربية: للصحافة العربية موروث لا تحسد عليه بحكم نشأتها في أحضان السلطة، واستمرار تطبيق الكثير مما خلفه الاستعمار من قيود وممارسات معادية لحرية الاتصال والإعلام الجماهيري.

وقد انعكس هذا الموروث بشكل واضح في التشريعات والسياسات والممارسات الإعلامية لدرجة تطابقت فيها الأنظمة الصحفية والأنظمة السياسية، والتعامل مع ما ينشر في معظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية العربية وكأنه يمثل وجهات نظر رسمية للحكومات العربية.

وقامت بعض الدراسات الإعلامية العربية بتحليل قوانين المطبوعات والصحافة

العربية؛ والعلاقة بين الصحافة والسلطة السياسية؛ وتطور الصحافة العربية، خلال مرحلتي الاستعمار والاستقلال. ومن تلك الدراسات، الدراسة التي قام بها **فاروق أبو زيد** للأنظمة الصحفية العربية، معتمداً على تحليل مضمون ١٦ قانوناً للمطبوعات نافذ في بعض البلدان العربية، وخلص إلى أنه نظام صحفي سلطوي، ويشكل الاتجاه الغالب للأنظمة الصحفية العربية، ولا يوجد نظام صحفي عربي نقي بسبب تداخل تلك القوانين مع خصائص الأنظمة الليبرالية والسلطوية والاشتراكية، وخلطها بين النظم: السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي محاولة لتطبيق نظريات الصحافة الغربية على واقع الصحافة العربية توصلت الدكتورة **عواطف عبد الرحمن** إلى أن هناك الكثير من أوجه التشابه بين النظرية السلطوية وممارسات الصحافة العربية، على الرغم من وجود بعض التشابه بين النظرية الاشتراكية وبين الأوضاع الإعلامية العربية إلا أنها ترى أنه من العسير إن لم يكن من المستحيل تعميم هذه النظرية.

أما النظرية الليبرالية فأنها لا تصلح للتطبيق على الصحافة العربية ولا تتلاءم مع الواقع السياسي والاقتصادي العربي الراهن حيث تسود الأمية والفقر والتخلف الاجتماعي مع شيوع الأنظمة الأوتوقراطية المتسلطة.

وأوضح **حماد إبراهيم** أن النظام الصحفي السلطوي هو النظام السائد في الوطن العربي، حيث يبرز احتكار النشاط الإعلامي من قبل السلطة السياسية، وأن أغلب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية العربية لا تتسع إلا لوجهات النظر الرسمية والارتفاع بمكانة صانع القرار المركزي والترويج لسياسات السلطة والتشكيك في الخصوم أو المعارضين السياسيين وتشويه صورتهم أمام الرأي العام.

وفي دراسة لدور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في صنع القرارات في الوطن العربي انتهى **بسيوني حماده** إلى أن هناك فجوة حقيقية بين النظامين السياسي والاتصالي والإعلامي الجماهيري وأن هذه الفجوة لا تلغي التبعية، وأرجع هذه الفجوة إلى أنها نظم الاتصال والإعلام الجماهيرية العربية تميل نحو الإثارة والمبالغة وعدم القدرة على التعبير عن الرأي العام، وإلى غياب المعلومات الموثوقة من السلطة السياسية، وعدم اهتمام صانعي القرار بقراءة ما تنشره وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وتفسر الاستجابة لمطالب نظم الاتصال والإعلام الجماهيرية على أنه ضعف من السلطة السياسية.

النظام السياسية ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية: لكل مجتمع من المجتمعات نظامه السياسي الخاص به، ويشمل كل نظام آليات معينة تهدف إلى تحقيق وظائف السلطة السياسية كنظام اجتماعي متكامل.

ومفهوم النظام السياسي هو من الأسس التي تعتمد عليها العلوم السياسة في دراستها لجميع أوجه الحياة السياسية وتمييزها عن غيرها من مكونات الحياة الاجتماعية في مجتمع معين، وتتفاعل تلك المكونات فيما بينها ضمن المحيط الذي تتفاعل داخله لتكوّن نتيجة لتفاعلها علاقات معينة تربط بين البنى التي يتكون منها المجتمع الواحد.

والنظام السياسي بمفهومه الحديث أخذ بالتشكل في أواسط القرن العشرين، واعتبر تطوراً منطقياً للعلوم السياسية، وضرورة منطقية لوصف الحياة السياسية ومواقف النظم السياسية ومقارنتها مع غيرها من النظم والمواقف.

ولدراسة بعض نماذج النظم السياسية للوصول إلى تصور معين عن المواقف السياسية وآليات أداء الوظيفة السياسية للنظام قيد البحث. وتحتفظ النظم السياسية عادة بمداخل معينة تعبر عن نفسها من خلال الطرق والوسائل التي تنعكس من خلالها وتعبر عن نبضات التطور الاجتماعي، وتأتي تلك النبضات عادة على شكل مطالب اقتصادية واجتماعية معينة، يطالب بها البعض ويؤيدها أو لا يؤيدها البعض الآخر داخل المجتمع الواحد. وتتشكل تلك المطالب عادة وتظهر من داخل الأوساط الاجتماعية المحيطة بدائرة السلطة الحكومية، أو من داخل النظام السياسي السائد في المجتمع.

وتعبر الشرائح الاجتماعية عن تأييدها للنظام السياسي عن طريق الالتزام بدفع الضرائب، وأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، والتقيد بالقوانين النافذة، والمشاركة الإيجابية والتصويت في الانتخابات العامة، والتعاطف مع السلطات الحكومية وشعاراتها المطروحة على الرأي العام.

وبغض النظر عن وجود أو عدم وجود مطالب محددة لدى بعض الشرائح الاجتماعية فإن التأييد العام المعبر عنه من قبل أكثرية الشرائح الاجتماعية، يصبح جزءاً من كيان النظام السياسي الذي يلتزم بأخذ المطالب المطروحة بعين الاعتبار، بما يتفق ومصالح سائر التركيبة الاجتماعية.

وتلتزم السلطة الحكومية باتخاذ إجراءات معينة لا تخل بالمصالح الوطنية العليا للدولة، كتلبية مطالب شريحة اجتماعية معينة بإعادة النظر بسلم الأجور المطبق انطلاقاً من حاجات تلك الشريحة

الاجتماعية على ضوء مجريات الأحداث والتطور الاقتصادي والاجتماعي المحقق.

ونتيجة لأداء النظم السياسية لوظيفتها يتحقق شكل القرار أو الفعل سياسي. وهذا القرار والفعل يؤثران بشكل معين على الوسط المحيط. والتأييد المقدم للنظام يرتفع في حال إذا كان هذا القرار والفعل يتفقان مع المنتظر والمطلوب من قبل الشرائح والجماعات الاجتماعية الواسعة، ليتعزز استقرار النظام السياسي.

وفي حال عدم تلبية القرار السياسي للمنتظر أو المطلوب بالكامل أو جزئياً يمكن حدوث نتائج سلبية تؤدي إلى ظهور مطالب جديدة، يمكن أن تؤدي إلى أزمة جزئية أو كاملة للنظام السياسي. وفي هذه الحالة تتكاثر في المجتمع أوضاع تهدد استقرار النظام السياسي، وتتمثل بمطالب تتعلق بالرواتب وأوقات العمل، وشروط الحصول على التعليم والخدمات، ومطالب تنظيمية تتعلق بتوفير الأمن في المجتمع، والتحكم بالسوق... إلخ، ومطالب اتصالية تتعلق بتقديم معلومات سياسية وإظهار القوة السياسية وغيرها.

النظام السياسي المنفتح: تحت تأثير مجموعة كبيرة من تأثيرات الوسط المحيط يتخذ النظام السياسي القائم قرارات لتحقيق الاستقرار الاجتماعي. وفي حال كانت تلك التأثيرات ضعيفة ولا يملك النظام السياسي عنها معلومات كافية يمكن لهذه التأثيرات أن تدفع النظام السياسي لاتخاذ قرار لمصلحة شريحة اجتماعية معينة وباتجاه واحد، مما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار والأوضاع الاجتماعية.

وقد يكون التأثير قوياً ومغرقاً بالمعلومات مما يؤدي إلى اتخاذ قرارات خاطئة تؤدي إلى ردود فعل من خارج النظام السياسي، مبنية على طبيعة السلطة السياسية والمطالب الموجهة لها. وتتكون ردود الفعل على القرارات السياسية وتوزيع السلطات والقيم على شكل تقبل السكان أو عدم تقبلهم لها. لأن القرارات السياسية ما هي إلا شكل من أشكال توزيع السلطة للقيم.

ويرى غ. ألموند أن للنظام السياسي تأثيرات متبادلة كثيرة، نابعة عن التصرفات الحكومية وغير الحكومية ومن الضروري دراستها.

ويذكر أن أي نظام سياسي يملك تركيبه خاصة متعددة الوظائف، وكل نظام سياسي يحقق أو يقوم بالوظائف نفسها بالمعنى الثقافي. والخاصية الهامة تكمن في تعدد وظائف النظام بغض النظر عن المبادئ المعلنة لتقسيم السلطة، لأن الكثير من الوظائف في مختلف النظم السياسية غير مجزأة.

وعلى سبيل المثال: تدخل البرلمان في السياسة الحكومية المتبعة، والتدخل بنشاطات الحكومة والرئيس عن طريق إصدار القوانين وهو ما يحدث في مختلف دول العالم. والخلط السياسي يكمن في مفهوم أنه لا يوجد سلطة خالصة، لا إدارة رئاسية خالصة، ولا سلطة حكومية خالصة، ولا سلطة برلمانية خالصة. ويتجاوز نموذج غ. ألموند بعض النقائص في نموذج د. إستون. ويراعي في نموذجه النواحي السيكولوجية الفردية للتأثيرات السياسية المتبادلة، والنبضات الآتية ليس من الخارج فقط، بل ومن الشريحة الحاكمة ومن الحكومة. ويورد مثالاً عليها: «إقرار الكثير من المسائل المتعلقة بمصالح ومطالب المواطنين أو استخدام القوة ضد بعض الشرائح الاجتماعية، أو اتخاذ قرار بشن الحرب». والحصول على المعلومات اللازمة لاتخاذ القرار وفق غ. ألموند، يأتي من تسييس المجتمع وتعبئة السكان وتحليل المصالح القائمة ودراسة عملية تكامل المصالح والاتصالات السياسية ضمن علاقات متبادلة بين مختلف القوى السياسية.

لأن النظام السياسي هو نظام شامل لإدارة المجتمع، ومرتبط بالعلاقات السياسية التي تضبط العلاقات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية لتحقيق الاستقرار والنظام في المجتمع، واستخدام السلطات الحكومية.

ويسمح **مدخل التحليل السياسي** بتقديم الحياة السياسية كنظام لتصرفات الناس، ويحدد آليات تأثير الفعاليات السياسية المؤثرة على طبيعة المؤسسات السياسية وهياكلها؛ وإعطاء المفهوم السياسي ككيان موحد، وفتح مجالات تحليل الطرق المتبعة للعمل المشترك مع الوسط المحيط، والأجزاء المكونة للطبيعة الاقتصادية والثقافية والتركيبة الاجتماعية؛ وهي من أهم الوظائف السياسة الهادفة لتأمين الوحدة الوطنية والحفاظ على لحمة التركيبة الاجتماعية، وعدم تجاوز المداخلات والاختلافات الكثيرة وتنوع الاتجاهات في مراحل العمل.

والنظام السياسي ما هو إلا وسائل للتكامل الاجتماعي، تعتمد على: أشكال الحياة السياسية؛ وتحديد مقاييس متفق عليها لوصفها وتحليلها. والنظم السياسية مرتبطة بتشكل العلاقات السياسية بالتدريج إلى جانب ملامح العلاقات السياسية الحقيقية المتمثلة بـ: الارتباط المتبادل والثابت لمختلف عناصر الحياة السياسية. وتنظيم العلاقات السياسية، مع توفير **إمكانية تحقيق الاستقرار والتطور.**

لأن الرد يأتي في ظروف صعبة، ويظهر

شكل جديد لنظام ليس أفضل من سابقه وقد يكون أكثر خطراً منه؛ وللنظم السياسية أساس ثقافي يتمثل **بالقيم الجماعية، والشعارات السياسية، والقناعات**، التي تمكن الناس من فهم بعضهم بعضاً.

وتظهر الخبرة التاريخية أن النظم السياسية، مهيأة للاستقرار لفترات طويلة ويتقاسم هذا الاستقرار أكثر أعضاء المجتمع وهي موجودة في النظم التربوية.

ومن الأمثلة على ذلك: الثقافة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية التي تخدم قيم **الحلم الأمريكي**، والإيمان بارتباط النجاح الفردي بالجهود والإمكانيات الخاصة، وعلاقة الفرد ببلده المختار من قبل الله، وما توفره للإنسان من إمكانيات نادرة من أجل تحقيق الذات، وهو موضوع معروف ويمكن قراءته على شعار الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية، **نحن نؤمن بالله**، أي الرابطة بين الإيمان بالله والسياسة؛ وللنظم السياسية **استجابات مشتركة لكل العناصر وضمنها التأثيرات الخارجية**. متمثلة بالفاعلية المشتركة، والتعاون الذي يوفر للنظم السياسية إمكانية تعبئة الموارد الضرورية بسرعة لحل المشاكل العامة المشتركة. وفي هذا المجال تعتمد مساعي الأجهزة الحكومية على مساهمة المواطنين، وتستخدم تأييد المنظمات السياسية والاجتماعية المتنوعة والأحزاب للحصول على تأييد الرأي العام.

ومما سبق نرى أن **فكرة مدخل تحليل الحياة السياسية** يتلخص في دراسات: النظم السياسية في إطار النظم الأكثر اتساعاً؛ والبنية التحتية للنظام وعناصره.

ويسمح هذا المدخل بتحديد المصطلحات، وتحديد مفاهيم النظريات السياسية وتحديد علاقاتها المشتركة. وارتباطات النظام السياسي المفتوح، وما يعانيه من تأثيرات متنوعة تعتمد على حقائق التأثيرات الداخلية والخارجية، وتدرسها كلها العلوم السياسية.

والنظم السياسية المتنوعة تملك آليات مختلفة لمقاومة التأثيرات الخارجية والأزمات الداخلية والتفاعلات والتناقضات الناتجة عنها، ووجود النظم السياسية يعتمد على ضرورات تعديل السياسة والنظم. ووجوب حصر الاهتمامات السياسية بالشخصيات والأحزاب عند ظهور الأزمات، وبطرق حصرها ضمن التفاعلات في المراحل المبكرة ليمكن ضبطها من دون خسائر جدية.

هياكل النظم السياسية ووظائفها: للهيئات الدينية ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية دور في السياسة حدده الباحثون في النظم السياسية بوظيفة تدخل في تركيبة النظم السياسية كهيئات أو منظمات أو

مؤسسات، لها: معايير قانونية وأخلاقية وتقاليد سياسية؛ ووظيفية تأخذ أشكال واتجاهات النشاطات السياسية التي تمارسها، مع اختلافات في التفاعلات السياسية، وطرق وأساليب ممارستها للسلطة؛ واتصالية تعمل على توحيد العلاقات وتعدد أشكال الاتصال المتبادل، كالاتصالات بين الأحزاب والحكومات وبين النظم السياسية والاقتصادية؛ وأيديولوجية تتضمن الأفكار التي تتبناها.

ونصادف في المراجع العلمية، العربية والأجنبية، **مجموعات رئيسية لعناصر النظام السياسي هي**: المنظمات السياسية؛ والعلاقات السياسية؛ والقواعد السياسية الحقوقية والقانونية؛ والوعي والثقافة السياسية. والعناصر الرئيسية للنظام السياسي في المجتمع وآلية أدائها الوظيفي ينعكس في دستور الدولة وفي القوانين التي تضبط مبادئ تشكيل ونشاطات أجهزة السلطات الحكومية وحقوق وواجبات المنظمات والهيئات الاجتماعية والحكومية والحزبية والاقتصادية وغيرها.

والمنظمات السياسية تعتبر المكون الأكثر حيوية في النظام السياسي في المجتمع. وتتم من خلالها النشاطات السياسية بأشكال منظمة وعمل مشترك، وتنضوي تحت أهداف واحدة، وتضبطها قواعد خاصة وحدود تصدرها الجماعات السياسية. ويجري تحويل القوة الأيديولوجية والأخلاقية إلى مادية عن طريق تلك التنظيمات، لتصبح الأفكار قواعد للسلوك. وبذلك تصبح المنظمة السياسية أهم وسيلة لتشكيل الإرادة الموحدة. وفي هذه الحالة تقيم الجماهير علاقات سياسية في تلك الدولة أو غيرها.

وفي حال غياب المنظمات السياسية اللازمة لتطور العلاقات السياسية، تأخذ دورها ووظائفها قوى أخرى كالجيش أو التركيبات القبلية أو الجماعات الدينية.

وتسمى عملية تحويل الأفكار إلى قواعد، والأساليب إلى تصرفات ومبادئ لاستمرار المنظمات السياسية في الحياة السياسية **الشكل القانوني للمؤسسات**. ومن خلال **الشكل القانوني للمؤسسات يجري تأسيس** منظمات سياسية في المجتمع.

أما القطيعة ورفض الأفكار والتنظيمات فتولد عملية عكسية **ضد الشكل القانوني للمؤسسات**، وتتمثل بانهيار المنظمات السياسية وازدياد الفجوة بين تصرفات الناس والأصول القانونية التي تضبطها. ومن الواضح أن العلاقة عضوية بين السياسة والمؤسسات، والنشاطات السياسية متنوعة وتتم بأشكال منظمة، وانهيارها يؤثر سلباً على السياسة. لأن النظام السياسي في

المجتمع ما هو إلا عبارة عن تلاحم المنظمات والمؤسسات المعنية لتقوم بوظائف معينة، ونتيجة لعملها المشترك تتحقق السلطة السياسية في المجتمع.

ويتشكل النظام السياسي من: الحكومة والأحزاب والمنظمات والحركات الجماهيرية في المجتمع ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والهيئات الدينية.

والحكومة والأحزاب هي منظمات سياسية وهذا يعني أنهم بشكل مباشر يؤدون مهام السلطة السياسية بحجمها الكامل أو يسعون لأدائها، وجوهر نشاطهم يتجه نحو تحقيق السلطة أو الصراع عليها.

وترتبط المنظمات السياسية بشكل غير مباشر بعملية تحقيق السلطة السياسية، ولكن هذا ليس إلا واحداً من الاتجاهات الرئيسية لوظيفتها. لأن النقابات المهنية والمنظمات السياسية ومنظمات الشباب تسهم في تحقيق السلطة السياسية إلى جانب الهيئات الرياضية ومختلف التكتلات والحركات الاجتماعية. وتجري عملية تسييسها جميعاً في مراحل معينة من حياة البلاد عن طريق دعم الهيئات الاجتماعية للمرشحين لعضوية البرلمان. ووظيفة المنظمات السياسية تتمثل بالنشاطات المنظمة التي تعكسها وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التابعة لها، وتسهم في معترك الحياة السياسية في المجتمع. وفي الإطار القانوني يتم قيد كل المنظمات السياسية، وتقوم الإدارات الحكومية بمراقبة وضبط نشاطاتها ضمن الإطار القانوني العام.

وتعمل وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والهيئات الدينية في إطار النظام السياسي، بشكل متخصص جداً.

ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية: ما هي إلا مؤسسات معقدة تتألف من أجهزة وعناصر متعددة موجهة لإعلام السكان عما يجري داخل الدولة وما من حولها في العالم من أحداث وظواهر.

وفي بعض الدول يطلق على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية صفة السلطة الرابعة، إلى جانب السلطات الثلاثة الأخرى: التشريعية والتنفيذية والقضائية. ويتوجه دورها السياسي كمؤسسات مستقلة نحو إنتاج الخبر السياسي وتشكيل الرأي العام، وتقوم بالتأثير على التفاعلات السياسية الجارية في المجتمع، وتوافر المصادر التربوية والثقافية والسياسية لأوسع الشرائح السكانية.

وفي الظروف المعاصرة تحظى وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بتأثير فعال من خلال جملة حقائق تؤديها عبر وظيفتها الاجتماعية ومن خلال التوجه إلى ساحة إعلامية محددة. وتتبع التوجهات الوظيفية

من خلال مراعاة طبيعة الفئات العمرية، وطبيعة الحاجة المعنوية للساحات التي تتوجه إليها. ولهذا تعتبر خصوصية أوضاعها في النظام السياسي للمجتمع موجهة.

وتعتبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية من أجهزة المؤسسات الحكومية والمنظمات الاجتماعية الجماهيرية والأحزاب السياسية. وتتميز مضامين ووجهات نظر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية عن غيرها من مجالات العمل السياسي، لأنها تعمل من خلال ما خصصت من أجله تحديداً.

ولتطوير الفكر السياسي الموجه لأوسع ساحة وتتناول المصالح الحياتية للجماهير. وتوافر الظروف لعملية تكامل الإدارة الاجتماعية والسياسية، وتشترك في إعداد وإقرار القوانين، واتخاذ القرارات الحكومية والإدارية.

ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في مختلف النظم السياسية تختار المعلومات دائماً بشكل دقيق. وتحاول إضفاء الشرعية على قرارات أجهزة السلطة السياسية وتراقب عملها بشتى الطرق المباشرة وغير المباشرة، وهو ما يساعدها على تعزيز الواقعية في عملها. لأن المعلومات الرسمية الآتية من الأعلى، كقاعدة تتضمن غموضاً يفرض ضرورة تنويع مصادر وقنوات المعلومات.

أما سيل المعلومات الآتية من الأسفل، من خلال القنوات غير الرسمية، فتحمل حقائق عن آراء الجماهير في موضوع معين. ويتم التوحيد بين المعلومات الآتية من الأعلى، والآتية من الأسفل من خلال وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وكثيراً ما تعبر الحاجات السياسية عن نفسها على شكل ظواهر اجتماعية أو أوضاع نفسية معينة. ويأخذ هذا الوضع باعتباره وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التي ترفع من مستوى الرأي العام أو على العكس تضعفه.

والسلطة تسعى دائماً لمراقبة وضبط أداء وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، لأن من يسيطر على سير المعلومات يمكنه التأثير على الرأي العام ويملك القدرة على تحديد إجراءات يتم من خلالها توجيه تصرفات الجماهير.

ووسائل الإعلام الجماهيرية في النظم الديمقراطية تعمل بشكل مستقل، وتوزع معلومات مهمة في المجتمع بشكل واسع، وقد يكون لها طابع معارض نابع عن القوى السياسية القائمة. وهناك الكثير من الأمثلة منها أن مقالات في الصحف أثارت فضائح سياسية أدت إلى خلق أزمات وحتى إلى استقالة قادة سياسيين.

أما في النظم الشمولية فتقوم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية فيها بدور الرقيب على نشاطات الشخصيات الاجتماعية والجماعات الاجتماعية وحتى الأفراد لصالح النظام القائم. وعلاقة وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بالدولة والحكومة والقادة السياسيين والأحزاب متناقضة. لأنها تلعب دوراً مهماً في الحد من استغلال السلطة وقيام الأوساط الحاكمة بأعمال سياسية معينة، وفي فضح التجاوزات القانونية والدفاع عن حقوق المواطنين من التصرفات الحكومية غير المسؤولة.

وتضطر الأجهزة الحكومية والقيادة السياسية لمنح وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية حرية واستقلالية معينة كي لا تفقد ثقة السكان. ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية من جهتها كقاعدة تعزز من شخصيتها كمصدر للمعلومات الحكومية الموجهة للأوساط الاجتماعية ولأجهزة السلطة الحكومية.

ولكن تحول وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية إلى مجالات تجارية، وتمتعها بحريات حصلت عليها من الدولة وخلصتها من الرقابة، سمحت بتكتلها باتحادات إعلامية ضخمة، وأبقت لدى السلطة ولدى رجال الأعمال إمكانيات واسعة للتأثير والضغط على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية عن طريق إعطاء المساعدات وتخصيص الإعلانات التجارية.

وهكذا بقيت وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية جزءاً هاماً من النظام السياسي، وتؤثر إلى حد كبير على تطورات الحياة السياسية في المجتمع.

ودور **الهيئات الدينية في النظم السياسية** في العديد من دول العالم، يتضح من خلال ما تقوم به هذه المنظمات في المجتمع، وبسبب التفاف المؤمنين حول الأفكار الدينية وأدائهم لعباداتهم الدينية الجماعية وخاصة في الأوقات العصيبة.

والهيئات الدينية كالكنيسة في الدول الغربية تملك إدارة مركزية لها نظامها الخاص ومبادئها الأخلاقية والسلوكية الدينية، ويخضع لها المؤمنون ورجال الدين على حد سواء. وخلال قرون طويلة التقى الدين بالسياسة.

ولكن درجة وطبيعة تأثير العامل الديني على السياسة كانت متفاوتة، لأن الدين كان ولم يزل موجوداً في التفاعلات السياسية والحركات الجماهيرية كجوهر وليس كظاهرة. وهذا يفسر جوهر العلاقة بين الدين والسياسة. ويعتمد الدين على جماهيريته وكثرة أتباعه، وتكوينه لوعي الجماعات الدينية. وفي مراحل تاريخية

معينة كان يشكل الوعي الجماهيري في مناطق جغرافية واسعة من العالم، وكان الوعي الديني الأكثر انتشاراً بين الجماهير وفي بعض الأحيان فاق كل أشكال الوعي الاجتماعي.

ولهذا عندما يدور الحديث عن الدين يبقى السؤال المطروح ما هو مدى تعرض الجماعات البشرية للفكر الديني. لأن السياسة أيضاً مرتبطة بجماعات غفيرة في أوساط السكان.

ولأن الدين والسياسة ظاهرتان لم تختلطا في الحياة الاجتماعية، بل على العكس كانتا دائماً محددتين بقنوات تقليدية تتشابك من خلالها المفاهيم الدينية والسياسية. وهنا يجب أن نشير إلى أنه يجري اليوم البحث عن حداثة أكثر، ودقة أكثر للعلاقة بين الدين والسياسة، علاقة تسمح بتعايش الدين والسياسة.

وهذا البحث يحمل طبيعة متنوعة لأن المجددين من المسيحيين يسعون لتحرير المسيحية من بعض الأفكار الجامدة، آخذين بعين الاعتبار منجزات العلوم الحديثة، ليتمكنوا من مسايرة توجهات مختلف العبادات، غير التقليدية، والوعي الديني للمحافظة على البيئة الاجتماعية. وهناك إلى جانب المنظمات السياسية في تركيبة النظام السياسي للمجتمع علاقات سياسية. يحددها **العمل المشترك للجماعات الاجتماعية والأفراد والهيئات الاجتماعية من أجل بناء إدارة المجتمع.**

ويمكن تقسيم جوهرها الإيجابي إلى مجموعات وهي:

المجموعة الأولى: وتتمثل بالعلاقة بين الطبقات والجماعات الكبيرة في المجتمع وبين القوميات والدول. والعلاقات بين الطبقات والجماعات، وداخل الطبقات وبين القوميات التي تؤلف جوهر النظام السياسي وتنعكس في ممارسات المنظمات السياسية وعلاقاتها المتبادلة؛ **والمجموعة الثانية:** وتتألف من العلاقات الشاقولية التي تتراكم من خلال عمليات تحقيق السلطة السياسية تحت تأثير أجهزة السلطة المركزية والمحلية والقيادات والإدارات والتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية؛

والمجموعة الثالثة: وتتألف من العلاقات السياسية التي يمكن أن تتضمن علاقات تتراكم بين المنظمات والمؤسسات السياسية. وتعتبر **القواعد الحقوقية لممارسة السياسة** العنصر الفعال في النظم السياسية وتتمثل بالدستور والقوانين والنظم الداخلية وبرامج الأحزاب السياسية والتقاليد السياسية والإجراءات التنظيمية التي تضبط التفاعلات السياسية.

ومن خلال القواعد السياسية والتشريعية يتم الاعتراف الرسمي بالمصادر السياسية.

ومن خلال قواعد أجهزة السلطة السياسية يجري الوصول للمجتمع ولأهداف الجماعات الاجتماعية والأفراد. وتحدد النماذج الخاصة للتصرفات وأسباب القرارات السياسية المتخذة من قبل القيادات المشاركة في الحياة السياسية.

الخاتمة

وهكذا نرى أن الوعي السياسي والثقافة السياسية هما من ضمن العناصر المؤلفة للنظام السياسي في المجتمع وتسعى وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية لتوفيرهما. ويعتبران انعكاساً للمنافسات الاجتماعية والسياسية التي تصور توجهات وقيم ومواقف وأحاسيس ومنطق تفكير المشاركين في الحياة السياسية، الذي يؤثر تأثيراً كبيراً على تصرفات حركاتهم السياسية. لهذا من المهم الأخذ بالمشاعر السياسية للجماهير بعين الاعتبار من خلال التفاعلات الجارية بين قيادة وإدارة المجتمع والمجتمع بحد ذاته، ووظائف النظم السياسية المتنوعة والمعقدة بسبب ظروف الحياة السياسية. وتتمثل في: تحديد أهداف ومهام المجتمع؛ وإعداد برامج حياتيه تتفق مع مصالح الشرائح التي تدير المجتمع؛ وتعبئة إمكانيات المجتمع بما يتفق وتلك المصالح؛ ومتابعة توزيع القيم الاجتماعية. وفي هذا المجال لابد من تحديد وتحليل الصدامات الجارية بين مصالح الجماعات الاجتماعية لتحقيق الوحدة الاجتماعية بالكامل. لأن فقدان السيطرة عليها يحدد مصير النظام الاجتماعي وتهدده بالأزمات. ويبعد المجتمع عن الالتفاف حول الأهداف والقيم الاجتماعية والسياسية. وتحقيق هذه الوظيفة ممكن من خلال توفير إمكانيات متطورة للنظم السياسية لتجنب ظهور تناقضات داخل المجتمع وتجنب الصراعات وتزيل الأضرار الاجتماعية. وتحقق نوع من الرقابة على مجالات توزيع القيم الاجتماعية التي تشمل الموارد المادية والامتيازات السياسية والثقافية وإنجازاتها، للوصول إلى مختلف أشكال التعليم المستمر مدى الحياة وشغل أوقات الفراغ.

طبعاً لا يجب أن يكون الضبط شاملاً، ولا يجب أن ينحدر إلى الجزئيات، لأن من لا يملك أشياء مشتركة يمكن توزيعها اجتماعياً، لا يمكنه الوصول للرفاهية الاجتماعية المطلوبة للجميع ولمختلف الشرائح والجماعات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد.

المراجع

١- إبراهيم إمام: الإعلام والاتصال بالجماهير،ط١، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩م.

٢- إبراهيم الساعدي:نظريات الاتصال والإعلام الجماهيري. الإنترنت منشورات ميديا & PR.

٣- تشارلــز. ر.رايت: المنظور الاجتماعي للاتصال الجماهــيري، ترجمة: محمد فتحي. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٣م.

٤- **د. جبار عـودة العبيدي وهادي حسن عليـوي**: مدخل في سياسة الإعلام العربي والاتصال. صنعاء: مكتبة الجيل الجديد ١٩٩٣م.

٥- **د.جيهان أحمد رشتي**: الأسس العلمية لنظريات الإعلام. ط٢. القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٧٨م.

٦- **د. حامد ربيع**: أبحاث في نظرية الاتصال والتفاعل السلوكي. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٣م.

٧- **د. صابر فلحوط وأ.د.محمد البخاري**: الأمن الإعلامي العربي وهموم المجتمع المعلوماتي في عصر العولمة. دمشق: دار العيسى، ٢٠٠٢م.

٨- **عبد العزيـز حمد عبد الله الحسـن**: وسائل الإعلام والإعلان وصف نظري للعلاقــة والتأثير. مدير عام الإعلان التجاري - تلفزيون المملكة العربية السعودية. الرياض: منتديات ستار تايمز الإنترنت.

٩- **عثمـان الأخضر العربي**: التظريات الإعلاميــة المعيارية ماذا بعد نظريات الصحافة الأربع. حوليات كلية الآداب، الحولية ١٦، الرسالة ١١٢. الكويت: مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت ١٩٩٦م.

١٠- **أ.د. محمـد البخاري**: العلاقــات الدولية والثورة المعلوماتية. //الرياض: صحيفة البلاد، ٢٠١٢/٥/٢٧م؛ و٢٠ عامــاً من تطور العلاقــات العمانية الأوزبكستانية. مقرر جامعي لطــلاب مرحلة الماجستير. جامعة مــيرزة ألوغ بيك القومية الأوزبكية. طشقند: دار نشر أوزبكستان ٢٠١٢. (باللغة الروسية)؛ وأشكال وطرق قياســ وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. مقــرر جامعي لطلاب مرحلة الماجستير. جامعة ميرزة ألوغ بيــك، القومية الأوزبكية. طشقنــد: مطبعة الجامعة ٢٠١٢م. (باللغة الروسيــة)؛ والوطن العربي وقضايا الأمن الإعلامي في الظروف المعاصرة. // دمشق: مجلة المعرفة العدد ٥٧٧ ذو القعدة ١٤٣٢ الموافق تشرين أول ٢٠١١م. ص٢٧٢-٢٩١؛ والثــورة المعلوماتية فجّرت الحواجز القائمة بين الشعوب والدول. //دمشق: مجلة المعرفة العدد ٥٧٦/أيلول ٢٠١١م. ص١٦٣-١٨٢؛ والأمن المعلوماتي جزء لا يتجزأ من الأمن القومي. //دمشــق: مجلة المعرفة العدد ٥٧٤/تموز ٢٠١١م. ص٢١٦-٢٣٥؛ ووسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية. // دمشــق: مجلة المعرفة العدد ٥٧٣/حزيــران ٢٠١١. ص٢٧٧-٣٠١؛ والعلاقــات العامة الدولية وإدارة الأزمات. // دمشق: مجلة المعرفة، العدد ٥٧٠ آذار ٢٠١١م. ص٢٧٣-٢٨٩؛ ومقدمة في الإعلان والعلاقات العامة الدولية. مقرر جامعي لطلاب مرحلة الماجستير جامعة ميرزة ألوغ بيك، القومية الأوزبكية. طشقند:

مطبعة الجامعة ٢٠٠٩م. (باللغة الروسية)؛ وتقارب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. // دمشق: مجلة «المعرفة»، العدد ٥٥٥/كانون أول/ديسمبر ٢٠٠٩م. ص٢٦٦-٢٧٦.

١١- د. **محمد فلحي**: صناعة العقل في عصر الشاشة. عمان: دار الثقافة ٢٠٠٢م.

١٢- **ولبر شرام**: أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية، ترجمة: محمد فتحي. القاهرة: الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧٤م.

١٣- د. **يوسف مرزوق**: مدخل إلى علم الاتصال. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ١٩٨٨م.

14- Alln wells: Mass communications, Aword view pola Alto, California national press books,1974.

15- Defleur and Dennis: Understanding mass communication, Houghton Mifflin company,1996.

16- UNESCO: Final Report. Intergovernmental Conference on Communication in Latin American & the Caribbean. San Jose Costa July 1976.

الحياة والجزيئات المعقدة

م. فايز فوق العادة ○

تعتمد الحياة ثلاثة أصناف من الجزيئات المعقدة هي: البروتينات والـ(دي.إن.إي) والـ(آر.إن.إي). تُعتبر البروتينات ثاني أهم مكون للخلايا بعد الماء وتشارك في كل النشاطات الخلوية بلا استثناء. تلعب بعض البروتينات دور لَبِنات البناء. فالأكتين مثلاً وهو من أكثر البروتينات توفراً في العضويات العليا، يصنف في قطاع البروتينات المذكورة. يرتبط وجود الأكتين بالحركة إذ إنه يشكل أهداباً تساعد الخلية على الحركة. تتوقف حركات الأطراف وخفقان القلب على الخلايا العضلية التي تضم محركات جزيئية تتكون بشكل رئيسي من الأكتين إلى جانب بروتينات عضلية مختلفة.

تتابع بروتينات أخرى الأجسام الدخيلة كالبكتريات والفيروسات مما يُسهّل التخلص منها. أمَّا نقل الجزيئات من وإلى الخلية فيقع على عاتق صنف ثالث من البروتينات. إن بروتينات هذا الصنف هي مضخات جزيئية بحق.

ليست الوظائف آنفة الذكر إلَّا جزءاً يسيراً مما تنجزه البروتينات. أمَّا المهمة الأكثر تميزاً للبروتينات فهي الوساطة في التفاعلات الكيميائية. تفضي هذه الوساطة إلى توجيه وتسريع التفاعلات الكيميائية داخل الخلية وتؤدي التفاعلات بدورها إلى تجزئة المواد الكبيرة في الخلايا كما تسهم بتجميع الجزيئات الصغيرة بدءاً من بنى أكثر صغراً.

تُعتبر بعض البروتينات عناصر رئيسية في تشكيل البروتينات وجزيئات الـ(دي.إن.إي)

○ رئيس الجمعية الكونية السورية.

والـ(آر.إن.إي). ونظراً للفعالية الخاصة لمثل هذه البروتينات فقد ظفرت بتسمية منفردة هي الأنزيمات.

تتوسط الأنزيمات في التفاعلات الحيوية من دون أن يؤدي ذلك إلى نفادها. يتضح ذلك التوسط بتسريع التفاعل الكيميائي ملايين ملايين المرات وتتفوق الأنزيمات بذلك على البلاتين والبالاديوم وسواها من مواد الوساطة الكيميائية المألوفة.

تضم الخلية آلاف الأنواع من الجزيئات الصغيرة وما يتراوح بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ بروتين مختلف معظمها من الأنزيمات التي يؤثر كل أنزيم منها في تفاعل كيميائي واحد.

يعني ذلك أن مئات بل آلاف التفاعلات الكيميائية تجري في آن معاً ضمن الخلية. إن ترتيب هذه التفاعلات ليس أمراً صعباً بل تحققه الخلية في إيقاعات بالغة الانتظام. يعتقد العلماء أنّ الأنزيمات تسرع التفاعلات الكيميائية بثلاثة أساليب. إمَّا أن تلتصق الأنزيمات بالجزيئات وتجرها إلى مسافة كافية كي تتفاعل.

قد تلتصق الأنزيمات بالمواد المهيئة للتفاعل في اتجاهات محددة من دون غيرها وهذا هو الأسلوب الثاني.

في الأسلوب الثالث تتفاعل الأنزيمات تفاعلاً عكوساً مع مادة أو أكثر مكونة بنى آنية سرعان ما تتحول مخلفة المركبات المطلوبة.

تعمل الأنزيمات وفق هندسة تسمح بجريان سريع للتفاعل وتتوقف عن العمل إن طرأ خلل على هذه الهندسة. الهندسة الملائمة هنا هي التي تجعل التفاعل مُحَبذاً من الناحية الطاقية.

تتكون البروتينات من سلاسل من الحموض الأمينية. صنف العلماء عشرين حمضاً أمينياً منها على سبيل المثال وليس الحصر الغليسين والآلانين والغالين والسيستين وسواها. تتحدد طبيعة البروتين بالمواقع النسبية للحموض الأمينية التي تكونه.

نتطرق فيما يلي إلى الدور الذي تلعبه الجزيئات العملاقة في العمليات البيولوجية. يقع الغلوكوز أو سكر العنب في مقدمة هذه الجزيئات. إنه السكر الطبيعي الحامل للطاقة في معظم الأنظمة البيولوجية. يظهر الغلوكوز على شكلين، كخط مستقيم وكحلقة.

يتشابه الغلوكوز والإيزو أوكتان المكوّن الرئيسي للبنزين. فكلاهما بنزين وكلاهما مهم لحياتنا لما فيه من طاقة. والإيزو أوكتان هو الجزيء الذي يوضع عادة في خزانات الوقود في السيارات.

إنه يحتوي على ثماني ذرات فحم. من هنا أتى مقطع ال(أوكت) في الكلمة إذ إنه يعني ثمانية باللاتينية. وما نسميه بنزيناً في حياتنا اليومية ليس في الواقع إلاّ مزيجاً من أنواع مختلفة من الجزيئات مثل الأوكتان. ويكون

بعض هذه الجزيئات كالأوكتان العادي موجوداً في سلاسل فحمية مستقيمة. أمَّا الإيزوأوكتان فيتسم بوجود تفرعـات وهو الوقود المرغوب أكثر من غيره لأنه يحترق بسهولة.

نذكـر في هذا السيـاق أن السائل المؤلف كلياً من الإيـزو أوكتان يعطـي درجة أوكتان ١٠٠٪ في حين أن سائلاً مؤلفاً من فحم مائي مختلف يسمى هبتـان ويضم سبع ذرات فحم في سلسلة مستقيمة يعطي درجة أوكتان صفر لأنـه ويعتبر غير مرغوب على الإطلاق كوقود ذلك أنه يتسبب بتفجيرات ثانوية في المحرك. والوقد بدرجـة ٩٠٪ أوكتان يعني مزيجاً من ٩٠٪ من الإيزو أوكتان و١٠٪ من الهبتان.

نعـود إلى الجزيئات الأهـم في العمليات البيولوجيـة ونتطـرق إلى الكلوروفيـل أو اليخضـور وهو الجزيء المركـزي في عملية التمثيل الضوئي. إنه المسؤول الأوَّل عن جعل أوراق النباتـات خضـراء. الجزيء الآخر هو الأدينوزيـن ثلاثـي الفوسفات وهـو الوحدة العامة للطاقة في عمـل الخلية ويمكنه خزن الطاقة لأنـه يحتاج إليهـا لإضافة مجموعة الفوسفور- الأوكسجين إلى ذيله.

هكـذا إذا توافرت الطاقة لـدى الكائن يستطيـع دفع واحـدة من هـذه المجموعات وتشكيل جـزيء الادينوزين ثلاثي الفوسفات. ثـم ينتقل إلى أقسام أخـرى من الخلية حيث يُمكن أخذ المجموعة وإطلاق الطاقة المخزونة أثناء هذه العملية.

عندما يموت الكائن الحي يتوقف تركيب الأدينوزيـن ثلاثـي الفوسفـات في خلايـاه وتتصلب العضلات لأنهـا تصبح عاجزة عن استخدام الطاقة.

وهــذا ما يفسـر السبب في أنـه إذا مات الإنسان إثر خوف مبالغ فيه يحصل التخشب بسرعـة كبيرة جـدّاً نظراً لنضـوب المخزون مـن الأدينوزين ثلاثي الفوسفـات. إن هناك مجموعة مميزة من الجزيئات الكبيرة الأخرى التي تلعب دوراً رئيسياً في الحياة.

إن هناك فروقاً في جزيئات الـ(دي.إن.إي) الخاصة ببني البشر. لكن أكبر فرق بين جزيئين من جزيئات الـ(دي.إن.إي) البشرية تباعداً هو أصغر بكثير من الفرق بين جزيئي دي.إن.إي لفردين من أفراد قبيلة غوريلا يعيشون سوية في الظروف نفسها.

لماذا كان هذا التقارب الكبير في حالة بني البشر؟ يقارن العلماء جزيئات الـ(دي.إن.إي). المأخوذة مـن أفراد متباعدين من بني البشر. كلما كانـت الفروق بين جزيئين أكبر كلما كان الأصل المشترك للجزيئيـن أبعد في الأحقاب التاريخية السابقة.

ينقسم جزيء الـ(دي.إن.إي) في نواة أية خليـة بشرية إلى ٢٣ زوجاً من الكروموزومات المنفصلـة. يتوضـع في الكرومـوزوم امتداد

لجزيء الـ(دي.إن.إي) يضم حوالى ٥٠ مورثة تبرمج لإنتاج البروتينات الضرورية لبناء الجهاز المناعي عند الإنسان. تستقر المورثة الخاصة بـكل بروتين في موقع من جـزيء الـ دي.إن.إي، لكنهـا تختلف من فرد لآخر. مثلاً المورثة الخاصة بلون العينين تتباين بشكل كبير.

يصل العـدد الممكن للمورثـات المختلفة للجهـاز المناعي إلى مـا يتجـاوز ٦٠ مورثة مختلفة. إن المقـدرة الهائلة لإنتاج البروتينات على خلفية التنـوع الكبير للمورثات هي التي تمنح الجهاز المناعي مرونته الواسعة.

يُختـزل البحث عن الأصـول المورثية إلى تحديد عدد عمليات تبديل المورثات في جزيء الـ دي.إن.إي مما يـؤدي إلى إنتـاج جزيء دي.إن.إي خاص بفرد آخـر. كلما كان عدد عمليـات التبديل أكبر، كان الأصل المشترك للفردين أبعد.

تأتـي النتائج مدهشة أحياناً. إذ يتبين أن بعض المورثات دخلـت الشريط المورثي قبل ثلاثـين مليون سنة أي قبـل ظهور السلالات البشرية بفترة طويلة جداً.

يجري العلمـاء أبحاثاً تهـدف إلى تعيين العدد الضروري للأفراد ضمن جمهرة معينة كي تبقى المورثة محتفظة ببدائلها الكثيرة من دون أن يصيب العطب أي بديل منها. إن كان العدد قليلاً فإن البدائل المختلفة للمورثة التي ذكرناهـا والتي قد تتجـاوز الستين بديلاً لا يُمكن أن تبقى موجـودة في حالة جيدة لأكثر من قرون معدودة.

خلـص العلماء مـن هـذه الملاحظة إلى استنتاج مفاده أن تعداد بني البشر منذ ملايين قليلة من السنوات كان بحدود مئة ألف. أفادت دراسات العلماء أن الجد المشترك لبني البشر الحاليـين قد عاش في فترة منذ ما يتراوح من مئة ألف إلى أربعمئة ألف سنة.

قد يؤدي توسع الأبحاث لتشمل قطاعات جديدة من بني البشر إلى تغيير جذري في هذا الاستنتاج.

دخلت المورثـات المتباينة جزيئات الـ(دي. إن.إي) لمختلـف التجمعات البشرية في أوقات متباينة من التاريخ. إن عمليات التفرع المورثية مازالت جارية.

علـى أيـة حـال، إن معـدل الطفـرات والتبـدلات في مختلف أقسـام جزيء الـ(دي. إن.إي) البشـري ليـس واحداً. مثـلاً تنتشر التغيـيرات المفيدة في جزيء الـ(دي.إن.إي) بسرعـات أكـبر بين بنـي البشـر مقارنة مع التغييرات ذات الفائدة الأقل.

من ذلك أن التغييرات الطارئة على الجهاز المناعي تتسـع بمعدلات أكبر مـن التغييرات المقابلة الخاصة بلون العينين.

المراجع

1- Adams, Julian (editor), Convergent Issues in Genetics and Demography, (Oxford university press, New York, 1990).

2- Alcamo, I.E., DNA Technology: The Awesome Skill, (Academic Press, New York, 1996, 2nd edition in 2000).

3- Farnsworth, Marjorie w., Genetics, (Harper& Row, New York, 1978, 2nd edition in 1988).

4- Zamenhof,s., the chemistry of Heredity (charles C.Thomas, publisher Spring Field, Illinois, 1959).

الصدوع الكلاسيكية في الفيزياء

✪
د. جهاد ملحم

لم تكن فرضية بلانك من صنع إنسان، بل كانت من وحي الله.

(نيلز بور، حامل جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٢٢م)

أدى اكتشاف النظرية الكمومية الحديثة في منتصف عام ١٩٢٠م إلى مراجعة جذرية للأفكار حول طبيعة العالم المادي والتي سادت منذ أيام إسحق نيوتن. ما اعْتُبِرَ أنه ميدان تنافس لعملية واضحة ومستمرة أصبح، وفق المستوى الذري، ميداناً لعملية ضبابية ومتقطعة.

مقارنة مع هذا التغير الثوري الحاصل، يبدو الاكتشافان الكبيران الآخران (نظريتا النسبية العامة والخاصة) مجرد تغييرات مثيرة للاهتمام على الأفكار الكلاسيكية.

حتى ألبرت آينشتاين، مبدع النظريتين، وجد الميكانيك الكمومي ثقيلاً على حسه الميتافيزيائي فبقي يعارضه بعناد حتى نهاية حياته.

ليس مبالغة القول: إن النظرية الكمومية ليست من أهم الإنجازات الفكرية البارزة للقرن العشرين المنصرم فحسب، بل قد تكون أعظم قصة في تاريخ العلم تحكي عن عباقرة ومبدعين حكاية البدايات الخاطئة وصراعات الطموح والإلهام.

بلغ علم الفيزياء الكلاسيكية أوج ازدهاره في عام١٦٨٧م مع طباعة إسحاق نيوتن كتابه (المبادئ) (PRINCIPIA). منذ ذلك الحين أصبح الميكانيك فرعاً مكتملاً قادراً على وصف حركة الجزيئات بطريقة

✪ أستاذ الفيزياء في جامعة تشرين.

تبدو واضحة ومحددة. ما بدا أنه اكتمال لهذا العلم الجديد، مع نهاية القرن الثامن عشر، وضّحه (بيير سيمون لابلاس)، من أعظم خلفاء نيوتن، في مقولته الشهيرة «بأن كائناً لديه آلة ذات مقدرات حسابية هائلة ومزودة بمعلومات مكتملة عن تصرفات جميع الجزيئات في لحظة ما من الزمن، يمكنه أن يستخدم معادلات نيوتن كي يتنبأ بمستقبل الكون بكامله ويعيد بدقة متساوية ماضيه».

في الحقيقة، ظلّت هناك شكوك قوية تراود البعض حول هذا الادعاء الميكانيكي الفاتر، لسبب وحيد هو أن الكائنات الإنسانية لا تعتبر نفسها تعمل بآلية الساعة.

ولسبب آخر، مفروض مع إنجازات نيوتن غير المشكوك فيها، لم تكن لدى العلماء إحاطة بجميع مظاهر العالم المادي التي كانت معلومة آنذاك. بقيت هناك مسائل لم تجد حلاً هددت الاعتقاد السائد بالكفاءة الذاتية الكلية لقوانين نيوتن. من بينها، على سبيل المثال، مسألة الطبيعة الفعلية ومصدر قانون التربيع العكسي العالمي للثقالة الذي اكتشفه نيوتن، وهي مسألة جعلته يتجنب صياغة الفرضية.

كما كانت في حينه مسألة أخرى غير محلولة تتعلق بطبيعة الضوء. وهنا أطلق نيوتن لنفسه العنان لدرجة عالية من التأمل والتخيل، حين انحاز في كتابه الضوئيات (Optics) إلى وجهة النظر التي تقول بأن الضوء حزمة مؤلفة من شلال من الجسيمات الضئيلة. كانت النظرية الجسيمية عن طبيعة الضوء منسجمة مع ميل نيوتن العميق لمعاينة العالم وفق المفاهيم الذرية.

ماهية الضوء The nature of light

لم يصل العلماء حتى القرن التاسع عشر إلى أي تقدم حقيقي في فهم ماهية الضوء. لكن مع بداية القرن الثامن عشر، في عام ١٨٠١م تحديداً، أبرز (توماس يونغ) دليلاً مقنعاً جداً على حقيقة أن للضوء خاصة موجية، كان قد تحدث عنها الفيزيائي الألماني (كريستيان هويجينز) أحد معاصري نيوتن قبل أكثر من قرن.

تركزت المراقبات الأساسية التي قام بها يونغ على مفاعيل ندعوها الآن ظواهر التداخل. ما يثير السخرية إلى حد كبير، أن المثال النموذجي عن وجود عصابات متناوبة مضيئة ومظلمة، كان السير إسحاق نيوتن نفسه قد عرضه من خلال ظاهرة أصبحت تدعى باسمه فيما بعد (حلقات نيوتن).

لهذا النوع من المفاعيل خواص الأمواج وينشأ بالطريقة التالية. معلوم أنّ أسلوب اتحاد موجتين يعتمد على العلاقة التي تربط بين اهتزازتيهما. إذا كانتا في الخطوة ذاتها

(متفقتان في الطور، كما يقول الفيزيائيون) عندئذ تتطابق الذروة بشكل بناء مع الذروة الأخرى، مما يجعل التآزر أعظمياً، ويحصل المرء على عصابات مضيئة.

أما إذا كانت الموجتان مختلفتين في الخطوة (متعاكستين في الطور)، عندئذ تتطابق ذروة الموجة مع قاع الأخرى في إفناء تبادلي، ويحصل المراقب عندها على عصابة مظلمة. هكذا يصبح ظهور عينات تداخل مضيئة ومظلمة دليلاً لا يخطئ على وجود الأمواج. بدا أن مراقبة يونغ قد حسمت المسألة. (الضوء موجة).

ما أن انتهى القرن التاسع عشر، حتى بدت واضحة طبيعة الحركة الموجية المرافقة للضوء.

بينت الاكتشافات المهمة من قبل كل من (هان كريستيان اورستيد) و(ميشيل فراداي) أن الكهرباء والمغناطيسية، ظاهرتان وإن بدتا لأول وهلة مختلفتين جداً في خواصهما، إلا أنهما في الحقيقة متصلتان في الجوهر معاً. أنجز الطريقة التي يمكن أن تجمعهما في نظرية كهرطيسية متماسكة في نهاية المطاف الفيزيائي الأسكتلندي (جيمس كلارك ماكسويل)- شخصية عبقرية إلى حد يمكن التحدث عنه كما لو نتحدث عن إسحاق نيوتن ذاته.

صاغ ماكسويل معادلاته، ولا تزال هي الركن الأساسي للنظرية الكهرطيسية، التي أطلقها في عام ١٨٧٣م في كتابه (أبحاث في الكهرباء والمغناطيسية)، أحد أهم الكلاسيكيات العلمية التي طبعت في أي وقت من الأوقات.

أدرك ماكسويل أن هذه المعادلات تملك حلول موجية وأن سرعة هذه الأمواج تتحدد بدلالات ثابتة فيزيائية عالمية. تبين فيما بعد أن هذه الثابتة هي سرعة الضوء المعروفة C!

كان هذا الاكتشاف هو النصر الأكبر لفيزياء القرن التاسع عشر. وحقيقة أن الضوء هو أمواج كهرطيسية بدت مرسخة بثبات مطلق. اعتبر ماكسويل ومعاصروه أنَّ هذه الأمواج كونها اهتزازات تنتشر في كامل وسط مرن، صار يطلق عليه لقب الأثير. تُعرِّف الإنسكلوبيديا البريطانية الأثير بأنه هو أفضل كيان مؤكد الوجود في كامل النظرية الفيزيائية.

ندعو فيزياء نيوتن و فيزياء ماكسويل بالفيزياء الكلاسيكية. فقد أصبحت مع نهاية القرن التاسع عشر صرحاً نظريا مهيباً. ليس من المدهش بالكاد أن الرجال الأجلاء الكبار، مثل اللورد كلفن، باتوا مقتنعين أن كل الأفكار الضخمة في الفيزياء أصبحت معروفة الآن، وأن كل ما بقي عليهم فعله هو الدخول في التفاصيل بدقة متزايدة.

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كان هناك شاب في ألمانيا يفكر ملياً بمتابعة دراسته الأكاديمية لكنه نُصح بعدم المتابعة في مجال الفيزياء. سيكون من الأفضل عليه التخصص في مجال آخر، كون الفيزياء بلغت نهاية الطريق، وأن ما بقي فعلياً منها قليل لا يستحق الاهتمام. كان هذا الشاب هو (ماكس بلانك)، ولحسن حظ التطور العلمي أهمل النصيحة التي قُدّمت له.

في الواقع، فإن بعض الصدوع بدأت تظهر في الصورة الرائعة للفيزياء الكلاسيكية. في عام ١٨٨٠م، قام الأمريكيان (ميكلسون) و(مورلي) ببعض التجارب الذكية التي تهدف إلى توضيح حركة الأرض خلال الأثير.

تقول الفكرة: إنه إذا كان الضوء أمواجاً تنتشر في وسط من الأثير حقاً، عندئذ يجب أن تعتمد سرعتها على الكيفية التي يتحرك بها المراقب بالنسبة لهذا الوسط.

حتى نفهم الأمر جيداً، علينا أن نتصوّر الأمواج في البحر. ولأن السرعة الظاهرية للأمواج حين مراقبتها من السفينة تعتمد على كونها تتحرك مع الأمواج أو في عكسها، فهي تظهر أقصر في الحالة الأولى منها في الحالة السابقة.

صُمّمت التجربة لمقارنة سرعة الضوء في اتجاهين متعامدين تبادلياً. إذا تزامنت حالة سكون الأرض بالنسبة للأثير وقت إنجاز التجربة عندها فقط تكون السرعتان المتوقعتان نفسهما، وهذه الاحتمالية يمكن استبعادها بإعادة التجربة بعد أشهر عدة، حين تكون الأرض متحركة على مدارها في اتجاه مختلف.

في الحقيقة، أن ميكلسون ومورلي لم يكتشفا فرقاً في سرعة الضوء، وبالتالي لم يجدا الدليل على وجود الأثير المزعوم. تطلب حلّ هذه المشكلة استخدام النسبية الخاصة لأينشتاين، التي تمنح حلاً يستغني عن الأثير تماماً. مع أنّ هذا الاكتشاف الكبير ليس مجال قصتنا الحالية.

على المرء ملاحظة أن النسبية، بالشكل الذي كانت عليه نظرية مدهشة وذات دلالات عميقة، لكنها لا تلغي مواصفات الوضوح والحتمية اللتين تملكهما الفيزياء الكلاسيكية كما تفعل النظرية الكمومية.

الأطياف Spectra

أوّل إشارة إلى الثورة الكمومية، لم تكن واضحة في حينه كما هي واضحة الآن، جاءت فعلياً في عام ١٨٨٥م من نشاط عابث لمدرّس الرياضيات السويسري المدعو (بالمر). كان بالمر يفكر حول طيف الهيدروجين، وهو مجموعة من الخطوط الملونة المنفصلة تتشكل حين ينقسم الضوء الصادر عن غاز متوهج من جراء مروره في الموشور. تتطابق الألوان

المختلفة مع التواترات المختلفة (معدلات الاهتزاز) للأمواج الضوئية المستخدمة. بترتيب الأرقام حول بعضها اكتشف بالمر أن هذه التواترات يمكن شرحها بصيغة رياضية بسيطة تماماً.

مع الزمن يبدو أنّ الأمر كان أكثر بقليل من شيء فضولي.

حاول لاحقاً العديد من العلماء تفسير نتيجة بالمر بدلالة الصورة المعاصرة لديهم عن الذرة.

في عام١٨٩٧م، اكتشف /طومسون/ أن الشحنة السالبة في الذرة تحملها جسيمات ضئيلة، حيث أعطيت في النهاية الاسم (إلكترونات). افترض في حينه أن الشحنة الموجبة المكافئة للشحنة السالبة تتوزع ببساطة في كامل الذرة. أطلق على الفكرة (نموذج طبق حلوى مُرَصّع بثمر الخوخ)، حيث تقوم الإلكترونات بدور ثمرة الخوخ وتقوم الشحنة الموجبة بدور الطبق.

سوف تتوافق التواترات الطيفية مع الطرق المتعددة التي يمكن أن تهتز فيها الإلكترونات ضمن الطبق المشحون إيجابياً. على كل حال، تبين لاحقاً أنّه من الصعب جدّاً جعل النموذج يعمل بطريقة مقنعة تجريبياً. وسنرى في نهاية المطاف أن التفسير الفعلي لاكتشاف بالمر يمكن إيجاده باستخدام مجموعة من الأفكار مختلفة جداً عما ذكرناه.

في غضون ذلك، بدا مرجحاً أن طبيعة الذرات تخفي شيئاً خلافياً حول هذه المسائل أدى إلى نشوء بلبلة واسعة الانتشار في الأوساط العلمية.

الكارثة فوق البنفسجية The ultraviolet catastrophe

جاء التحدي الأكثر وضوحاً وإرباكاً من صعوبة أخرى، وضعها في بقعة الضوء اللورد (رايليه) في عام١٩٠٠م، والتي أصبحت تعرف فيما بعد بالكارثة فوق البنفسجية.

نشأت الصعوبة من استخدام أفكار الاكتشاف الكبير الآخر للقرن التاسع عشر، الفيزياء الإحصائية. هنا كان العلماء يحاولون الإمساك بسلوك الأنظمة المعقد جدّاً، التي يمكن لحركاتها التفصيلية أن تأخذ لها أشكالاً مختلفة جداً.

مثال على ذلك: جملة مؤلفة من عدد هائل من الجسيمات، لكل جسيمة منها حالتها الخاصة من الحركة. والمثال الآخر سيكون طاقة الإشعاع، والتي يمكن أن تتألف من مساهمات يتقاسمها العديد من التواترات الاهتزازية المختلفة. سيكون مستحيلاً تماماً اقتفاء أثر جميع التفاصيل لما يحصل في جمل بمثل هذا التعقيد، لكن مع ذلك يمكن الحصول على بعض الخواص العامة

الناتجة عن سلوكها الجمعي. كان ذلك هو ما يتم تجريبياً لأن السلوك الجمعي للجملة ينتج من أخذ متوسط تقريبي لمساهمات مكوّناتها الفردية. من بين جميع الحالات الممكنة، تسيطر الحالة الأكثر احتمالاً.

على قاعدة الاحتمال الأعظمي، كان (كلارك ماكسويل) و(لودفيغ بولتزمان) قادرين على تبيان أن المرء يمكن أن يحسب بثقة بعض الخواص الجهرية للسلوك الكلي للجملة المعقدة، مثل حساب ضغط غاز عند حجم ودرجة حرارة محددتين.

طبّق (رايليه) تقانات الفيزياء الإحصائية هذه على مسألة كيفية توزع الطاقة بين تواترات مختلفة في حالة إشعاع الجسم الأسود. يُعرّف الجسم الأسود بأنه جسم يمتص بشكل تام كامل الإشعاع الساقط عليه ثم يعيد إصداره كلياً. يوجد على أرض الواقع ما يكافئ الجسم الأسود يُمكّننا من استقصاء الموضوع تجريبياً ونظرياً، والمثال على ذلك هو دراسة الإشعاع في داخل فرن. تتبسط المسألة بمعرفتنا أن الجواب يجب أن يعتمد على درجة حرارة الجسم فقط وليس على أية تفاصيل إضافية عن بنيته.

أشار رايليه إلى أن التطبيق المباشر للأفكار المُجَرَّبة جيداً في الفيزياء الإحصائية يقود إلى نتيجة لا تتفق مع التجربة. ليس فقط أن الحساب لا يتوافق مع الطيف المسجل، بل لم يكن له أي معنى فيزيائي على الإطلاق.

إذ تتنبأ الدراسة الكلاسيكية بأن كمية لا نهائية من الطاقة تتركز في التواترات العالية جداً، وهي نتيجة مريكة أُطلق عليها الكارثة فوق البنفسجية.

نشأت الكارثة لأن الفيزياء الإحصائية الكلاسيكية تتنبأ بأن كل درجة حرارة للجملة سوف تتلقى الكمية الثابتة نفسها من الطاقة، وهي كمية تعتمد على درجة الحرارة. يتزايد التواتر بسرعة من دون حدود، مُجَمِّعاً كميات غير محدودة من الطاقة.

لم يعد الخلل بين النظرية والواقع التجريبي مجرد شق يخدش الواجهة الرائعة لمبنى الفيزياء الكلاسيكية، بل أصبح فجوة آخذة في التوسع تهدد المبنى بكامله.

خلال عام واحد، أوجد ماكس بلانك، وقد أصبح الآن أستاذ الفيزياء في برلين، طريقة رائعة للخروج من المأزق. أخبر ابنه في جلسة خاصة اعتقاده أنه صنع اكتشافاً يعادل في أهميته ما أنجزه نيوتن قبل أكثر من مئتي عام. قد يبدو بلانك لأول وهلة مُبَالِغاً في دعواه، لكن هذا العبقري كان يتحدث ببساطة عن الحقيقة الرصينة.

اعتبرت الفيزياء الكلاسيكية أن الإشعاع يرشح باستمرار من الجسم الأسود وإليه،

مثل ما يرشح الماء من قطعة الإسفنج وإليها.

في عالم الفيزياء الكلاسيكية المتغير بنعومة، لا يبدو افتراض آخر غيره مقبولاً بالمرة. ومع ذلك قدم بلانك اقتراحاً مناقضاً، يقول فيه: إن الإشعاع يصدر ويمتص من وقت إلى آخر في حزم من الطاقة ذات حجم محدد. وقد بيّن أن محتوى الطاقة E من هذه الكمّات Quanta (كما كانت هذه الحزم تدعى) يجب أن يتناسب مع تواتر الإشعاع V وفق العلاقة التالية:

E=h V. أخذ العلماء ثابتة التناسب بمثابة ثابتة عالمية للطبيعة، والتي عُرفت فيما بعد بثابتة بلانك وقد أعطيت الرمز h. أما قيمة h فهي صغيرة بمقدار ما يمكن للمرء أن يتصور وفق مصطلحات الأحجام المألوفة لدينا.

هذا يفسر لماذا لم يلاحظ من قبل هذا السلوك المتقطع للإشعاع؛ لاحظ أنّ صفاً من النقاط الصغيرة قريبة جداً من بعضها بعضاً تبدو خطاً مستمراً.

كانت النتيجة المباشرة لهذه الفرضية الجسورة أن الإشعاع عالي التواتر يمكن أن يُصدر أو يُمتص فقط في حوادث تشتمل على كمّ مفرد Quantum Single طاقته عالية جداً.

هذه التعريفة ذات الطاقة الكبيرة عنت أن تلك الحوادث عالية التواتر سوف تُحظر بشدة عكس ما تتوقعه الفيزياء الكلاسيكية. مكّن ترويض التواترات العالية بهذه الطريقة ليس إزاحة الكارثة فوق البنفسجية فحسب، بل أنتج أيضاً صيغة رياضية على توافق في التفاصيل مع النتائج التجريبية.

يبدو بجلاء أن بلانك كان يمسك بشيء ما ذي أهمية عظيمة. لكن ماذا كانت دلالة هذا الشيء بدقة، لا هو ولا آخرون كانوا متأكدين منه في البداية. كم يجب على المرء أن يأخذ على محمل الجد هذه الكمّات بالحسبان؟

هل كانت الكمّات صفة دائمة للإشعاع أو هل هي ببساطة مظهر عن الطريقة التي يتفاعل فيها الإشعاع مع جسم أسود؟

ومع ذلك، فإن القطرات الساقطة من صنبور تشكل سلسلة من الكمّات السائلة، لكنها تندمج مع بقية الماء حين تصبح في الحوض وتفقد هويتها الفردية.

المفعول الكهرضوئي The photoelectric effect

صنع التقدم الآخر شاب امتلك مزيداً من الوقت أثناء عمله موظفاً من الدرجة الثالثة في مكتب براءة الاختراع في مدينة برن السويسرية. كان هذا الشاب هو ألبرت آينشتاين. في عام١٩٠٥م، (العام الذهبي) لآينشتاين، أنجز فيه ثلاثة اكتشافات أساسية. بيّن الاكتشاف الأول أنه الخطوة

التالية في المسيرة التاريخية للنظرية الكمومية.

نشأت فكرة آينشتاين حول الخواص المريكة التي قفزت إلى الأضواء من الاستقصاءات الجارية على المفعول الكهرضوئي، وهو الظاهرة التي تقتلع فيها الحزمة الضوئية إلكترونات من المعدن الذي تسقط عليه.

تحتوي المعادن على إلكترونات قادرة على الحركة دائرياً في داخلها (تدفقها هو الذي يولد التيار الكهربائي) لكن ليس لديها ما يكفي من الطاقة للهروب من المعدن كلياً.

ومسألة أن المفعول الكهرضوئي حصل ليست مدهشةً بالمرة. ذلك أنّ الإشعاع ينقل طاقة إلى الإلكترونات داخل المعدن ويمكن للإلكترون، إذا كان الريح كافياً، أن يهرب من القوى التي تحجزه. وفق الطريقة الكلاسيكية في التفكير، تهيج الإلكترونات مع تزايد شدة الأمواج الضوئية وتضطرب ما يكفي لمغادرة المعدن.

توافقاً مع هذه الصورة، فإن مدى تحرر الإلكترونات يجب أن يعتمد على شدة الحزمة، لأن هذا يحدد محتواها من الطاقة، لكن لا يتوقع المرء أي اعتماد خاص على تواتر الضوء الساقط. على أرض الواقع، بينت التجارب حصول عكس ما ذكرناه. تحت تواتر حرج ما، لا تصدر عن المعدن إلكترونات بالمرة، أياً تكن شدة الحزمة الضوئية؛ فوق ذلك التواتر حتى الحزم الضعيفة منها يمكن لها أن تسبب قذف بعض الإلكترونات.

رأى آينشتاين أن هذا السلوك الملغز يصبح مفهوماً إذا اعتبر المرء حزمة الضوء كشلال من الكمّات المستمرة. سيتم قذف إلكترون ما لأن أحد هذه الكمّات اصطدمت به وأعطته طاقتها بالكامل. كمية الطاقة في ذلك الكمّ، وفق مقولة بلانك، تتناسب مباشرة مع التواتر. إذا كان التواتر منخفضاً جداً، لن يكون هناك كمٌّ يكفي من الطاقة المنتقلة في اصطدام تسمح بهروب الإلكترون. من الجهة الأخرى، إذا كان التواتر يزيد عن قيمة حرجة ما، سيكون هناك ما يكفي من الطاقة لهروب الإلكترون.

تحدد شدة الحزمة ببساطة ما تحتويه من الكمّات، وبالتالي عدد الإلكترونات المنخرطة في الاصطدام والمقذوف منها. زيادة الشدة ليس بإمكانه أن يغير الطاقة المنتقلة في اصطدام مفرد. عندما نأخذ جدياً وجود كمّات من الضوء (أصبح اسمها فيما بعد فوتونات)، يمكن تفسير أحجية المفعول الكهرضوئي. هكذا صنع آينشتاين الشاب اكتشافاً كبيراً. في الحقيقة، من أجل ذلك منح في نهاية المطاف جائزة نوبل، ومن المفترض أن الأكاديمية السويدية أخذت

بعين الاعتبار اكتشافيه الكبيرين الآخرين لعام ١٩٠٥م -النسبية الخاصة وبرهانه المقنع لواقعية الجزيئات- اللذين ظلا مثيرين للإعجاب حتى يُكافأ عليهما بعد وقت طويل.

كان التحليل الكمومي للمفعول الكهرضوئي نصراً كبيراً للفيزياء، لكنه شكّل معضلة يبدو حلها مستحيلاً وعرّضه لانتقادات حادة. كيف يمكن لكل ذوي البصائر النافذة في القرن التاسع عشر من أتباع الطبيعة الموجية للضوء أن يتصالحوا مع هذه الأفكار الجديدة المناقضة لأفكارهم؟ ومع ذلك، الموجة شيء متموج، ينتشر نحو الخارج، بينما الكمّ شبيه بالجسيم، نوع من طاقة صغيرة. كيف يمكن أن يكون الاثنان حقيقيين؟ لفترة طويلة كان على الفيزيائيين أن يعيشوا مجبرين مع متناقضة غير مريحة للطبيعة المزدوجة للضوء (موجة/ جسيم). لم يحصل أي تقدم في محاولة التبرؤ من أفكار يونغ و ماكسويل أو بلانك وآينشتاين، إذ بقي كل فريق صامداً في مكانه لا يتزحزح. كان على الفريقين الانتظار كي تأتي التجربة بمعجزة علي أيدي بعض أقرانهم المبدعين، عندما فشلا في تحديد معنى هذه الازدواجية. يبدو أنَّ العديدين استخدموا بدلاً من ذلك تكتيكاً لتجنب الازدراء من نظرات الآخرين المحدّقة بهم. على كل حال، في نهاية المطاف، كان للقصة نهاية سعيدة.

نواة الذرة The nuclear atom

في غضون ذلك، تحول الانتباه من الضوء إلى الذرات. في مدينة مانشستر البريطانية منذ عام ١٩١١م، بدأ أرنست رذرفورد وبعض معاونيه الشباب دراسة كيف تتصرف جزيئات مشحونة إيجابياً وصغيرة تدعى جزيئات- α حين تسقط على قلم رقيق من الذهب. وجد المجريون الشباب أن معظم جزيئات- α التي مرت خلال الصفيحة تنحرف قليلاً لكن، مع دهشتهم الكبيرة، كان بعض منها يرتد إلى الوراء.

قال رذرفورد فيما بعد أن التجربة كانت مدهشة بالنسبة له كما لو أن (١٥) صدفة بحرية قد ارتدت من جرّاء صدمها صفيحة من الورق. هكذا أصبح النموذج الذري على شاكلة طبق الحلوى لا يحمل أي معنى بعد هذه النتيجة. ستكون جزيئة- α قد مرّت خلال الذرة مثل مرور طلقة بندقية من خلال قطعة حلوى.

سرعان ما رأى رذرفورد أن هناك طريقة واحدة فقط للخروج من المعضلة. فالشحنة الموجبة لذرات الذهب، التي سوف تدفع جزيئات- α الموجبة، لا يمكن أن تكون متوزعة كما في (طبق الحلوى) بل يجب أن تكون متمركزة في قلب الذرة. الاقتراب من مُتصادم له مثل هذه الشحنة المتمركزة سيكون قادراً بشكل قوي على حرف جزيئة-

α. معتمداً على كتاب تدريسي في الميكانيك يعود لمرحلته الجامعية في نيوزيلندا، استطاع رذرفورد- هو فيزيائي تجريبي رائع لكن ليس رياضياً من طراز رفيع- أن يبين أن فكرته الجديدة، شحنة موجبة متمركزة في قلب الذرة تدور حولها إلكترونات سالبة، تتفق تماماً مع النتائج التجريبية.

هكذا أخلى نموذج طبق الحلوى مكانه لنموذج جديد للذرة يشابه الجملة الشمسية، حيث تكون النواة في المركز تدور حولها الإلكترونات كما تدور الكواكب حول الشمس. لقد اكتشف رذرفورد وزملاؤه نواة الذرة.

ما تحقق لحينه كان نجاحاً كبيراً، لكن بدا من أول نظرة كما لو أنه انتصار باهظ الثمن.

في الحقيقة، أدى اكتشاف النواة إلى مواجهة الفيزياء الكلاسيكية لأعمق نقد واجهته من قبل. إذا كانت الإلكترونات في الذرة تدور حول النواة، فهي تغير اتجاه حركتها باستمرار. تقتضي النظرية الكهرطيسية الكلاسيكية من الإلكترونات أن تشع جزءاً من طاقتها ما دامت متحركة، نتيجة لذلك يجب أن تسقط في نهاية المطاف وهي تدور حلزونياً متجهة نحو النواة.

هذه النتيجة كارثية حقاً، لأنها تعني أن النموذج الذري السابق غير مستقر.

علاوة على ذلك، في مجرى تفكك الذرة، تنبعث عينة مستمرة من الإشعاع لا تشبه التواترات الطيفية الحادة التي تعطيها صيغة بالمر. لهذه الأمور مجتمعة، بدا بعد عام ١٩١١م أنّ الصرح الكبير للفيزياء الكلاسيكية ليس آخذاً بالتصدع فقط، بل كما لو أن هزة أرضية قد ضربته.

ذرة بور The Bohr atom

على كل حال، كما في حالة بلانك والكارثة فوق البنفسجية، جاء فيزيائي نظري بطريقة للإنقاذ محاولاً انتزاع النجاح من فم الفشل حين وضع فرضية جديدة جسورة وجذرية. إنه الدانمركي الشاب نيلز بور، الذي كان يعمل في مخبر رذرفورد في مانشستر.

في عام ١٩١٣م، أدخل بور افتراضاً ثورياً مفاده أنّ إصدار الطاقة وامتصاصها يتم على شكل متقطع (كمّات). وبدلاً من أن تدور الإلكترونات حول النواة في مدارات أنصاف أقطارها يمكن أن تأخذ أي قيمة ممكنة كما يفترض فيزيائي كلاسيكي، اقترح بور استبدال هذه الإمكانية المستمرة بشرط التقطع الذي ينص على أن أنصاف الأقطار تأخذ سلسلة من القيم المتقطعة فقط بإمكان المرء حسابها (الأول، الثاني، الثالث إلخ..) مستخدماً صيغة تتضمن ثابتة بلانك، h.

نشأت نتيجتان هامتان من اقتراحات بور. كانت الأولى صفة مرغوبة إلى حد كبير لإعادة ترسيخ استقرار الذرات، تقول إنه ما دامت الإلكترونات تدور على مداراتها فلن تخسر شيئاً من الطاقة. والثانية تقول: إنه عند الانتقال من مدار إلى آخر تنطلق الطاقة الفائضة بعيداً على شكل فوتون وحيد.

بينت عمليات الحساب أن هذه الفكرة قادت مباشرة إلى النتيجة الثانية لحدس بور الجسور، وهو التنبؤ بصيغة بالمر عن الخطوط الطيفية. بعد حوالي ثلاثين عاماً، تغيرت هذه القاعدة الحسابية الغامضة من كونها غريبة وغير قابلة للتفسير إلى كونها خاصة واضحة للنظرية الجديدة للذرات.

أصبح يُنظر إلى الخطوط الطيفية الحادة كانعكاس للتقطع (قفزات Jumps) بعد أن كان ينظر إليها في البداية كسمة مميزة للتفكير الكمومي. الحركة اللولبية المستمرة التي تُعدّ أساساً للفيزياء الكلاسيكية استبدلت بقفزات كمومية متقطعة حادة تنجزها الإلكترونات بين المدارات المحددة (نصف قطر مدار محدد يتوافق مع سوية طاقة محددة).

كانت ذرة بور نصراً عظيماً، ولو أنّها نشأت من فعل إصلاحي إلهامي لا يزال، من نواحي عديدة، يُعدُّ فيزياء كلاسيكية. كان عمل بور الرائد، في الواقع، إصلاحاً جوهرياً، بمثابة رقعة قبيحة على الصرح المهيب للفيزياء الكلاسيكية.

في محاولة بسط هذه المفاهيم بعيداً بدأت حالاً تجلب معها المشاكل وتواجه عدم الانسجام مع النظرية الكمومية القديمة، كما كانت هذه الجهود والمحاولات تدعي.

لم تكن سهلة ولم تكن تركيباً يوفّق بين الأفكار الكلاسيكية لنيوتن وماكسويل وبين القواعد الكمومية لبلانك وآينشتاين. كان عمل بور خطوة حيوية في التاريخ المنشور للفيزياء الكمومية، لكنه لم يكن أكثر من محطة مرحلية في الطريق إلى النظرية الكمومية الجديدة، وهي تفسير متماسك ومتكامل لهذه الأفكار الغريبة والجديدة كلياً. قبل أن يتم الوصول إلى الهدف، كانت هناك ظاهرة مهمة أخرى يجب اكتشافها كتأكيد إضافي على الحاجة الماسة لإيجاد طريقة للإمساك بالمفاهيم الكمومية.

مفعول كومبتون Compton scaterring

في عام ١٩٢٣م، تقصى الفيزيائي الأمريكي آرثر كومبتون تشتت أشعة- X (إشعاع كهرطيسي عالي التواتر) بوساطة المادة.

وجد كومبتون أن الإشعاع المتشتت يتغير تواتره، وهذا التغير لا يمكن إيجاد تفسير

لـه وفق الصورة الموجية للضوء. إذ تقتضي عملية تشتـت الإلكترونـات في الذرات أن تمتص الطاقة من الموجات الساقطة وتعيد إصدارها، دون حصول أي تغير في التواتر. أمَّا وفق الصــورة الفوتونية، على كل حال، فيمكــن فهم النتيجـة بسهولة. مَــنْ يكون منخرطــاً في عملية الاصطدام بين إلكترون وفوتــون هو (كــرة بليــارد)، يخسر خلالها الفوتــون بعضاً من طاقتــه إلى الإلكترون. ووفقــاً لفرضيــة بلانــك القديمــة، تتغير الطاقــة بمقدار تغير التواتــر. هكذا أصبح كومبتون قادراً على أن يعطي وصفاً كمومياً لتجاربه، مقدماً بذلك الدليل الأكثر إقناعاً حتى الآن عــن الخاصة الجسيمية للإشعاع الكهرطيسي.

الاكتشافــات الثلاثــة التــي ذكرتها في السيــاق والتــي بدت عويصة علــى الفهم، فتحت الطريق أمام ظهــور نظرية كمومية جديــدة وأشّرت لبداية حقبة بارزة في تاريخ الفيزياء.

على الصخرة *

كانت قمة ربوة تشرف
على مدينة حلب ينتهي
مشوارهما إليها كل مساء

* سليمان العيسى

لا تهدئي يا عاصفات الهَوى
وَلْتَضحكي في جانبي يا همومْ
إنْ تَغْرقِ الأفلاكُ في صمْتِها
ويَتْعَب الليلُ، وتَغْفُ النجومْ
فإنني باقٍ على صخرتي
أداعب الذكرى ببعضِ الكلوم
صمْتٌ عميقٌ.. رَقدَتْ تحتَه
مدينةُ الأحلام.. أخْتُ الخلود(١)
والشاعرُ الحيرانُ مستسلِمٌ
لنشوةٍ ساخرةٍ بالوجودْ

وتمتماتُ الحب: هل نَلْتقي
هنا؟ وأيَّانَ تُراها تعودْ
الصخرةُ الغَرْقى بأحلامِها
تُحِسُّ مثلي وحدةً قاتلةْ
هذي خُطانا لم يزل وَقْعُها
وشوشةً في سمعها ماثلةْ
تسألني الصخرةُ يا طفلتي
عنك.. وترتدُّ معي ذاهلةْ
ألَمْ نكُنْ نرسو على شَطِّها
طفلَيْنِ مثْلَ النَّغَمِ الشارد

* شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

في قُبلةٍ حالمة إن أضعْ
وإنْ تَضيعي فعلى ساعدي
تبارَكَ الحُبُّ فَكَمْ أرعشَتْ
يمناهُ قَلْبَ الحجرِ الهامدِ
أيُّ خيالٍ ساحرٍ لَفَّني
في جانحيْه عبْرَ هذي الدُّنَى
فرُحْتُ أطوي الغيبَ في سَكْرةٍ
وأصْهَرُ الأبعادَ ما بيننا
ونلتقي: أنتِ على خافقي

والكونُ -مادمتِ معي- لي أنا
دعيه، في قلب الدجى، سادراً
في غَمْرَةٍ من وهمِهِ الساحِرِ
ما أضْيَقَ الدنيا إذا جُرِّدَتْ
من خَلَجات الشعر، والشاعرِ
غداً تعودينَ.. غداً يرتمي
غمغمةٌ في شَعرِكِ العاطر

١٩٥٠

الهوامش

(*) هذه القصيدة اخترناها من ديوان قديم لشاعرنا الكبير.. وكتبت عام ١٩٥٠، عندما كان الأستاذ سليمان يقيم في قبو في هذه المدينة العظيمة، ولا أعتقد أن هنـاك ذروة للثقافة والإبداع أعلى وأغلى من مدينة حلب.

رئيس التحرير

١- مدينة حلب.

جليلـة

○
جميل حسن



«حرب البسوس حـرب فاجـرة، سعَّرهـا الطيش والجـبروت. بدأت في الجاهليـة، وتناسخـت إلى عصرنـا الحاضر. كانت بـين قبيلتين مـن العـرب، فأصبحت الآن بين كلّ العرب. وجليلة المرأة الضائعة، الضحية الممزّقة بين جبروت زوجها ورعونة أخيها هـي الآن أمّة بأكملها تفتك بها خناجـر الرعونة والحماقة. فمتى يـدرك أبناؤها أنَّ دمها عليهم حرام فيكفون عن سفكه؟».

✿ شاعر وأديب وناقد.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

لست أشكوها على ما فعلت
وهي تستلُّ من الحس الرّجولةْ
هي مثلي لا تداري عريها
فغدا فارسها يهجو خيولهْ
وهي مثلي صيحة غارقةٌ
بأساها، وهي تخشى أن تزيلَهْ
فالأسى سرُّ سناها، وأنا
سائحٌ يذخر للصبح رحيلَهْ
كلّما قلتُ لها: أين أنا
ناولتني ريشة الحبِ النحيلهْ
هذه المرأة من يعرفُها
طولُها يوجزُ في طول الجديلةْ
وعلى مبسمها أسطورة
من حكايا الحبّ تنداح ملولةْ
كلّما رفَّ عليها أملٌ
همٌ يستجمع من خوفِ رعيلَهْ
فهي كالحلم تداني لمحةَ
ثمَّ تنأى كوعودٍ مستحيلةْ
والأماني حول عينيها رؤىً
ومرايا وارتشافاتُ خميلةْ
عالمٌ للسحر إن تهززْ لها
عطفها الأيّام ترتدُّ خجولةْ
حدّثوا عنها وما قالوا لها
هي أختٌ وهي زوجٌ وقبيلةْ
وهي حبٌ وعذابٌ دائمٌ
وهي تاريخ دمٍ يروي غليلهْ
أيَ شعرٍ ضاع من دفترها
يحضن النجم ولا يخشى أفولَهْ
لقيته عصبةٌ مجهولةٌ
تأكل الضغن وتجتر ذيولهْ
ورمته غارقاً في دمِهِ
ومضى القاتل يستعدي قتيلهْ
من رأى في الناس مثلي حَدَثاً
يتولّى ثأره حتى يديلَهْ
ويعود الثأر من تحت الثرى
يعجن الضغن بأحلام الطفولةْ
يابنةَ الأيّام لا تغتربي
أنت عنوان امتثالاتِ طويلةْ
كيف أجلوكِ وفي مثل المدى
لغةٌ حيرى وأوهامٌ قليلةْ
لغتي قاتلةٌ مقتولةٌ
مثلما كنتِ، وأفكاري هزيلةْ
ضائعٌ بين دمٍ لا ينثني
يطلبُ الثأر وقولٍ لن أقولَهْ
كيف أحكي قصتي؟. عابثة
قصة الثأر وأمجاد البطولةْ
وأنا فكّا رحاها، ودمي
بين فكيها.. أتدرين مثيلهْ؟
أتمرّين بأبياتي عجولةْ؟
لبّثي يا امرأة الشكوى الذليلةْ
نحن صِنوان. ففي عالمنا
يحبسُ الحبُ أغانيه الجميلةْ

وأنـــا بَعض ارتـشـافـات مُنـى
مثلما أنـتِ، وأحــلام كسولـة
كـلّنـا يمضـي إلى غـايتـه
بـأمـانِ كـدعــاواهُ دخيـلـة
نجتلـي الأمـــر ونـطـوي سـرّه
ونـــداري بـوحَـه حتـى نـزيـلـة
ونـــرى دون عـيــونِ غـدنـا
فهو كالليل الذي إذ أرخى سدولة
لا تـلـومـيـنـي عـلـى مـا قلتـه
كـان أهـدى لـو تتبَعتِ فلولَة
إنْ أكــن أحـيـا بـاسـمـين مـعـاً
هـاربـاً، أو هـادمـاً يبكي طلولَة
فــأنــا بــين شـفـاهـي ودمـي
سـفـرٌ ضـيّـعَ لـلسـاري دلـيـلَـة
وأراكِ الآن في دربــي أســى
فاجع اللهفة يستهدي سبيلة
ما اسمُك اليوم وقد ذاب الهوى
في المآقي والمواثيق الأصيلة
وتـخـطّـى كـلّ عـمْـر عـمـرَهُ
فــإذا الـتـاريـخ حـبٌّ وبطولَة
وإذا جـسّــاس شِـلـو رائـغٌ
وكليبٌ فـارسٌ يخشى خيولة
وإذا بــكــرٌ بــلا مــوعـدهــا
وإذا تـغـلـبُ أشــلاءُ قـبـيـلـة

والـبـسـوس امـتـحـنـت نـزوتـهـا
قبل أن تصبح في الربَع نزيلة
نــاقــةٌ تـرعــى ووعـــد قــاتـلٌ
وهي لا تسقط بالوعدِ قتيلة
إنمــا الــنـار الـتـي جـاءت بـهـا
غـايـةٌ تسعى إليـهـا ووسيلـة
والـلـظـى مِسعـره في كـنـهِـه
جـــبروتٌ آكـــلٌ حـتـى فـتـيـلـة
أكــلـوا لحـم بُـجـير، وافــتـدوا
ببجيرِ شسعهم عند القبيلة
أيـهـا الــنـار اشـمـخـي في حيِّـنا
دمـنـا نـــذرٌ لأحــقـادِ مهـولـة
فكلي منـا!. وإن شئتِ اشربي
واروي للكلُ من الحقدِ غليلهُ!.
يابنـة الأحــزانِ والإثــم الـذي
جعل الدّنيا بعينيك عجولَة
أنــت مثلي لم تـخـوني موثـقـاً
إنَّمـا خانتكِ أوهــامُ الفحولَة
نـــزوة.. ثــانـيــةٌ.. ثــالـثـةٌ
فــإذا المجد بــأردانِ النـغـولـة
أعــرفــتِ الآن مــاذا في غـدٍ
تـغـلـبٌ محظـيـةٌ فـيـه خليلـة
وكــهــوفٌ لــلـمـدى موصـولـةٌ
بسنا عينيك بالوعدِ مطولة
راقـبـيـهـا واقــرئــي أبـيـاتـهـا
أكتبتِ الشعر يوماً يا جَليلة

(شبه رجل..
وأنثى)

قصة: محسن يوسف ○

.. منذ أعوام، أقرأ الملامح والوجوه، من حولي، بحثاً عن وجه أعرفه، وأحبه، وأظنني لن ألتقيه أبداً، فبعد رحلة طويلة، مع النساء والزمـــن، بدا لي، أن ما أبحث عنه، لا وجود له.

هذا ما بت على قناعـة بشأنه، وهو ما كان يدور في خلـدي، عندما غادرت عربة، أقلتني إلى منـزل، مضى على آخر زياراتي إليـه، عقود من السنـين. يرحّب بي سكان البيـت، ونحـن نجلس علـى أرائك قديمة أعرفها.

الصديـق القديم وزوجته علـى أريكة، وعلـى أخرى، إلى جانبـي، فتاة ملأ الحزن وجهها، وكنت رابعهم وقـد أنهكني السفر، وامتـد إلى أناملي القابضة على كأس، شفّ أديمها وفضح ارتعاش الأنامل.

قالت المرأة، مخاطبة الفتاة:

- إنه الرجل الذي يعرف كل شيء.

فوجئـت، وامـرأة صديقي، تشـير إليّ ضاحكة:

- لعلها صاحبة الوجه الذي أضعته..

لا أصـدق. يـا لها مـن امـرأة قرينة صديقـي؟. كيـف تتذكر ما بحـث به، في أمسية مماثلة؟.

في تلـك الأمسيـة، سألتنـي الصديقة القديمة:

- مـاذا تنتظـر؟ الجميـلات كثيرات، وسأختار لك أجملهن.

صديقي، بعلها، أكد ما تقول:

- إنّها أفضل من يختار، فلقد اصطادتني من بين عشرات الرجال.

أحـب هذيـن الصديقـين كثـيراً. هي إضمامة فرح تملأ العيون سعادة، وهو أشبه بالفارس، وقامته تطال الذرا.

○ أديب وقاص سوري.

-١-

قلت لهما، تلك الليلة:

– شكراً لكما.. جميلتي، أضعت وجهها في الزحام، ولن يخفق قلبي.. لسواها..

صوت الصديق، يوقف الذكرى:

– نحن.. هنا..

عينا الفتاة تتفحصان ملامحي، وصوتها يأتيني أقرب إلى الهمس:

– أنا طوع أمرك..

سألتها هامساً:

– هل عرفت رجلاً من قبل؟..

هزت رأسها مستنكرة، وأجابت:

– مات أبي قبل أن أولد..

أخذت كأسها الفارغة، ورحت أتأمل الخطوط والتضاريس المتداخلة. تخيلتها عارية كما لحظة الولادة، فتعوذت وبسملت، وغضضت طرفي خجلاً، لكنها ظلت أمامي، لا تفارقني. بقيت كالألم في داخلي. لم تكن الأنثى الأولى كما أراها، وليست أجمل النساء، ممن عرفت.

في وجهها لمحت ملامح جدتي وأمي الحزينة، ومن عينيها يضوع فوح ابنتي وحفيدتي، وفيها أنوثة كل الجميلات: ((يا إلهي.. أي إغواء هذا وعبدك في أرذل العمر وأواخر الأيام؟.))...

توهمت أنها تلتصق بي كثوبي، دافئة ناعمة. أحاول إبعادها. يصطدم جسدي بخشب الأريكة، ويصخب الوجع في أعضائي. أرمي الكأس بعيداً، وأنا أتقرب دون إرادة، من الجسد الهادئ، على مسافة ضئيلة مني.

زوجة الصديق تبتسم، وتدعو زوجها لمرافقتها، فيخرجان وهما يتهامسان، وكان قلبي يفيض بالحزن، فالمكان يضيق بجثة نسر ميت، تحرسه عينا حمامة تشعان اطمئناناً..

-٢-

..آخر الليل، عبرت بي، سيارة عابرة، سهولاً وجبالاً وأودية. استسلمت لنوم مضطرب، إلى جوار سائق، صوته الصاخب أيقظني هاتفاً:

– قصّ عليّ حكاية الأنثى التي كنت معها هذا المساء.

تساءلت (هل كنت أتحدث في نومي؟).

قلت له:

– أي امرأة يا رجل؟ ربما كان مجرد حلم.

أطلق ضحكة طويلة، وعيناي تتجهان نحو النافذة، وعبرها أطل وجه الفتاة الذي يذكرني بملامح أمي وجدتي، وعيون ابنتي وحفيدتي. بدا كوردة تتفتح، في صباح ربيعي ندي. أغمضت عينيّ محتضناً المشهد، ورحت في نوم عميق..

نقاط على الطريق

✿
باسم عبدو



حاولتُ أن أمشي على الرصيف، فلم أجد رصيفاً يتحمَّل أثقالي.. بقيتُ في صعود وهبوط، أتعرَّجُ بين السيارات المتوقفة إلى جانبي الطريق. خطوتُ من دون إرادة خطوات سريعة في الجانب الأيمن من الشارع. تكبّدتُ خسائر كبيرة وأنا أتلفت بين اتجاهين بلهفةِ من يبحث عن شيء مجهول.

راودتني فكرة فضولية محمولة على زورق يبحر في ذاكرتي، ورذاذ هواجسي يتناثر فوق رأسي.. فكرة تغلغلت في مساحة ضيقة من حقل تخيلاتي.. أرهقتني رؤية نقاط الدماء،

✿ قاص من سورية.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

والعرق يتسلل كلصّ يسرق تعباً كان تاجاً على رأسي، ورثته من أب غيور متسامح.. دماء شكّلت قافلة حزن دفعتني للسير بجانبها، وانطلقت من دون أن ألتفت خلفي في بحر الرؤية، وعجائب صور تجمّعت في ألبوم ذاكرة مزّقتها القذائف والقناصات.

وعندما طال شريط الدماء في انحناءات الطرق وانكسارات قلبي، أحسستُ أنني أغرق في وحل أفكار وبحر أوهام خذلني. كنتُ منذ سنوات أبخّر لها في معبدي الليلي، وأصبحت طقساً مقدساً.. الغريب أنني بعد أن رأيت وسمعت وقرأت في خرائب المدن، عدتُ إلى مذكرات رجل لم يرحل من ذاكرتي، فأنا اليوم بحاجة لإعادة قراءة تاريخنا من جديد، وتيقّنت من السبب الحقيقي لهذا النزف. وطوال هذه السنين ظل غشاء أسود يغطي وجهي، حرم عيني من رؤية هذه النقاط الأرجوانية، وهذه البقع الحمراء المفروشة في طريقي التي روت الأرض ولم تتلطخ باليأس والجفاف.

فشلت محاولاتي في تجميع هذه النقاط في كفّي، وأن أتذكر بيتاً من الشعر يفتح درباً لهروب كل مشتقات الألم من صدري.. وفشلت محاولاتي أيضاً في ترتيب بعض المفردات، لإطلاق صرخة وإزالة جفاف حلقي.

غامت أجمل الأفكار، بل تاهت في الصحراء، واستقلّتْ حافلة صغيرة، ارتميتُ فوق أرضها خوفاً من طلقة غافلة أو شاردة.. تيقظتُ حينما رأتني أفتح النافذة وأطلق الحرية لبصري ولزفير كاد يخنقني، والنسيم المتمرّد يمسح وجهي، إصبعه على الزناد.

طلقة شمّت رائحتي، خرجت من خلف متراس. وعرفتُ أنني أروي قمح بلادي بدمي ودموعي. وأنا في هذه الحال من الشرود وهذا التأمل.. وهذه التخيلات المفروشة على مساحة الوطن، وقفتُ في نهاية الشارع تحت مظلة خوفاً من شمس آب، أمامي بقعة بحجم رسالة ما زلت أحتفظ بها منذ عقود.

قرأتُ على نصف جدار يطلّ على نهر جاف عبارات مبعثرة كحبّات الرمان، لم أقدر جمع حروفها الملطّخة بالسواد، فغابت بعض الكلمات. وبقيت الحروف النافرة في تضاريس الشعارات، ثمّ أغلقت عينيَّ. وتفتّحت في قلبي وردة تحولت إلى بيكار لرسم صور أجمعها في ظل قلبي. وبدأتُ أرسم نقاط الماء وأرصد الصور فيها.

• نقطة دم بحجم بؤبؤ عيني.. ابتسامة طفل مثل وردة الصباح، تسخر من شظية مسمارية ثقبت زجاجة الحليب. ومن طرف الشفة السفلى نزل خطان مستقيمان من الحليب والدماء لا يلتقيان، يسيران في اتجاهين مختلفين. وأمّ تنزف تغلق عيني

طفلها بحنان وتصرخ وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة!

نقطة دم باتساع حديقة خالية من ألعاب الأطفال.. عصفوران هاربان من صوت القذائف يتزحلقان، ويبحثان عن ماء وطعام..

عينان تتحاوران في نقطتي دم متقابلتين في جبهتين.. البياض يواجه السواد في مساحتين متساويتين.. بؤبؤان يطلقان النيران، وتتساقط قذائف الدموع على خدّين لم يبقَ من توردهما سوى الصمت.

أسير بجانب النقاط.. تعبت وأنا أحصي عددها.. لفتت نظري عين نزعتها شظية من محجرها، استقرّت بجانب رأس مهشّم. لم أتمكّن من جمع أعضاء جسد منفوخ، وأن أبقى في المكان من شدة رائحة الجثث. عندئذ تجرّأت وجمعت أهداب العين، وصنعتُ منها ريشة غمستها في محبرة من الدموع والدماء.. رسمت وروداً ونثرتها فوق جثامين الأطفال والنساء. وعندما غادرت المكان رافقني عصفور.. ظلّ يغني فوق رأسي، لكنّ طلقة قناص ألقته أمامي جثة هامدة، فحملته إلى مقبرة العصافير وقرأتُ عليه نشيد الوطن!.

زهير ميرزا..
نابغة من دمشق طواه النسيان
١٩٢٢-١٩٥٦م

أحمد سعيد هواش ✪

الشعراء الراحلون في نضارة الشباب، الذين اختطفتهم يد المنون قبل الأوان كثُرٌ في أدبنا العربي منهم: طرفة بن العبد، وأبو فراس الحمداني، وأبو القاسم الشابي، إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، كمال ناصر، معين بسيسو.. عبد السلام عيون السود. وغيرهم..

إنَّهم الشهب المحترقة في سماء الشعر العربي، إنَّهم المشاعل المتوهجة المتأججة أوارها ناراً ونوراً ثم تنطفئ وإلى الأبد.

وشاعرنا الراحل «زهير ميرزا» من تلك الحزمة الضوئية المنطفئة بعد أن سطع نورها إيذاناً بالرحيل المبكر.. حيث كانت مأساته «حين صعد طيارة، كما صعد فوزي المعلوف، ولكنه سقط من الأعالي مع الحكام، وهو يحاول بلوغ السماء، فأصبح بعد قليل من بني الموت، ورجع إلى التراب الذي نشأ منه»(١)

وكان شاعرنا الراحل «زهير ميرزا» قد ولد في دمشق في أسرة دمشقية قديمة، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس دمشق، وهو مجاز في الأدب العربي من جامعة دمشق ١٩٤٨م.

درَّس المربي «زهير ميرزا» في ثانوية السويداء، وفي ثانوية دمشق الأهلية، ويجيد الإنكليزية والفرنسية وقد زار مصر، ولبنان،

✪ أديب وناقد.

وعمل في المملكة العربية السعودية مدرساً. لقي مصرعه على إثر تحطم طائرة الركاب السورية في طريق عودته من حلب إلى دمشق في ١٩٥٦/٢/٢٤م. حيث كان ذاهباً للتعزية بصديق له.

نشر مقالات وقصائد في دوريات عدة سورية ولبنانية ومصرية.. صدر له:(٢)

١- كافر (ديوان شعر)، دمشق، دار اليقظة، ١٩٤٨م.

٢- الفضيلة العربية، دمشق، دار اليقظة.

٣- إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر، دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ١٩٦٣م.

بعد موت الشاعر، وطبعة ثانية بالدار نفسها عام ١٩٦٧م، تحوي على جميع شعر الشاعر «إيليا أبو ماضي».

شعر الشاعر «زهير ميرزا»:

كان الشاعر الراحل «زهير ميرزا» نابغة، موهوباً ذا شخصية غنية قلقة انعكست في شعره: الوطني، الغزلي، وفي رثائه للشهداء، وبعض الشخصيات الوطنية السورية والعربية، وهو في رثائه في بعض قصائده كأنه يرثي نفسه.

لقد أهدى الشاعر الراحل «زهير ميرزا» ديوانه (كافر):

«إلى الجيل الصاعد الذي نحن أمه وأبوه، أضع هذه اللبنة المتواضعة في صلاح فكره الحي الخالد..».

يهزج بـ «هزيج» الأبطال

ويتعالى على ذرى الأجيال

رائدة الفكر، ومرآته الفكر، واتجاهه:

نحو مطلع الشمس

إنه إهداء فيه سمو وتحليق وطني وقومي، نثر يسمو لمنزلة الشعر، لنسمعه يرد على قصيدة الشاعر الراحل «نزار قباني»: (خبز وحشيش وقمر) فيقول: (٣)

في بلادي

في بلاد الكبرياء

حيث يحيا الأقوياء

ويعيشون على الدهر حياة الأنبياء

وينامون على حلم وأمجاد وضياء

حيث لا جبن، ولا ضعف، ولا دنيا رخاء..

كلهم ذاك «الهلالي»

عندما يدعوهمو داعي الرجال

فتراهم زاهدين

ويطلبون الموت مرفوعي الجبين

لقد وصف الشاعر «نزار قباني» الأمة العربية بأوصاف تفرح الأعداء، وكان الأجدر به أن يُلّمح لا يُصرح.. فجاء رد الشاعر «زهير ميرزا» يثلج الصدر..

وفي المقابل نجد شاعرنا الراحل زهير ميرزا يشيد ببطولات رجالات الأمة العربية

بعامة، والسورية بخاصة، مما يرفع من معنويات أبطال الأمة العربية..

المتحفزين لمحاربة الصهاينة الذين اغتصبوا أرض فلسطين العربية إذ قال:

حدِّثي يا شمسُ عن بأس الرجال
نحن ذاك الليث في ساح القتال
هل سألت الدهر عنا والليالي؟
إنما السُّوريُّ من عزم الجبال!..
حَدِّثي يا شمس!..

● ● ●

إلى أن يقول مظهراً شجاعة المقاتلين العرب:

قد جعلنا من لظى الجمر الحُساما
وركبنا الدهرَ للمجدِ اقتحاما
وأذقناهم من الكأس الحماما
وأدرناها وقلنا: لن نضاما
حَدِّثي يا شمسُ

● ● ●

ومن مذكرات الشاعر «زهير ميرزا» نقرأ بأنه كان يعمل في مدينة القنيطرة السورية إبان احتدام المعارك بين المقاتلين العرب والعصابات الصهيونية في عام ١٩٤٨م، إذ كان قريباً من ساحات القتال، وهو الشاعر الوطني المرهف الإحساس، فنقرأ له قصيدة بعنوان:

«جيشنا» نظمها خصيصاً ليوم الجيش السوري فيقول: (٤)

أهتف اليوم بهتاف الجنود.. والبنود
وأصدح اليوم بحوشي النشيد.. والرُّعود
وأوغل الجيش ثمن آياته.. حطم القيود

إلى أن يقول:

جيشنا جيشُ الخلاص المفتدى
لن يهمدا لن يهمدا
وبه نزداد عزاً أمجدا
كي نخلدا كي نخلدا
نحن نفديه شباباً وشيوخاً
بالوليد.. والطريف والتليدا

نعم.. إنه جيشنا الباسل نفديه بالطريف والتليد: إنه حامي الديار وأمل الشعب بتحرير فلسطين واستردادها من المحتلين الصهاينة الذين لفظتهم أوطانهم.

وما أجمل هذا المشهد الذي يصور لنا فيه الشاعر «زهير ميرزا» بطولة الشهيد العربي وهو يقاتل ويستشهد دفاعاً عن ثرى وطنه الطاهر، إنَّها لوحة مصورة نقلتها إلينا عدسة مصور فنان إذ قال الشاعر «زهير ميرزا»(٥):

أزفت ساعة النضال.. وماج الـ
جحفل المجر.. بالبطولات يحدى
وتوالى على النفوس صراعٌ
أكبر الدهر ما رأى وتبدَّى
وارتمى الشبل في الغار وقد جرَّد
سيفاً يضيء وجهاً وزندى

إنَّهم الشهـداء، مشاعل نور على طريق الخلاص والنصـر، إنَّهم الصـوى المضيئة على طريق العزة والكرامة، فليحمل الشهداء على الهامات وليكرِّموا من شعوبهم كأمثولة يقتدى بها، لينهج نهجهم أبناء الوطن والأمة العربية والأجيـال اللاحقة كما كرمهم الله تعالى فقال الشاعر «زهير ميرزا»:

كـفـنـوه بـثـوبـه ودمـاه
ثـم عـادوا بحفـنـة مـن تـنـدى
وطووا جرحه على النصر والمجد
وأعـظـم بـه عـلـى الـدهـر مجدا
كـل مـا لـم يـخـط بـالـدم تمحو
ه اللـيـالـي مهـمـا تـطـاول عـهـدا

وكما بكى شاعرنا الشهيد العربي الذي بـذل دمه رخيصـاً في سبيل أمتـه العربية وكرامتهـا، فها هو يبكـي المجاهد المفقور لـه «سعد الله الجابري» أحـد رموز الثورة الوطنية السورية الذين عملوا على استقلال الوطن بفكرهم وقلمهم وجهادهم فيقول[٦]:

أبـدم الـبـيـان، والـلـفـظ جدُّ
عـيـيٌّ يـنـوء دون المـقـاصـد
أم بدمع الوفـاء، والناس صنفا
ن، مـتـأسٍ أمجـاده ومعـانـد؟
لست أدري فقد تلقفني الخط
ـبُ وألـوى بمنطقي والقصائد
وادلهمت سحائبُ الفكر واعتافت
عـن الفيض بـاضطـراب المرافـد

لقد اجتمعت الشاعرية والوفاء والصدق لـدى الشاعر «زهـير مـيرزا» فكانت تلك الأبيات المؤثـرة من شاعر وطني يودع علماً في الوطنيـة والرجولـة، فلكأني أقـرأ رثاء الشاعر «زهير ميرزا» لنفسه.

ولما كان الشاعر «زهير ميرزا» وفيا لأبناء وطنه شهداء ورجـالات وطن فبكاهم بأحرّ الدموع وأصدقها، كذلك قابله شعراء الوطن معروفاً بمعروف، ووفاءً بوفاء، فهاهو الشاعر المرحوم زكي المحاسني يرثي الشاعر «زهير مـيرزا» مظهراً خسـارة الوطن بفقد شاعر وطني رحل في عز الشباب، وكان أمثولة في الوطنية والشاعرية فقال[٧]:

جـاء الـربـيـعُ فـبـوحـي
ومـثـل زهـرك فـوحـي
طـي الـضـلـوع انبجاس
كـالـسـيـل يـهـمـي بـروحـي
فـبـكـى الـضـاد فـقـدان
أن تـنـتـقـي جـروحـي
تـولـول الـريـح وهـنـاً
كـأنـهـا مـن ذبـيـح
ولـلـشـهـيـد رفـيـفٌ
يـمـوج عـنـد الـسـفـوح

أجل لقد كان الشاعر «زهير ميرزا» كالنسر عين له على الذرا وعين له على السفوح..

وفي الختام لابد لي من ذكر فقرات صغيرة مما جاء في مجلة (الرسالة) الغراء لصاحبها:

أحمد حسن الزيات -رحمه الله- حيث قال الناقد المشهور المرحوم أنور المعداوي بصدد ديوان (كافر) للراحل «زهير ميرزا»:

.وهكذا يمضي زهير ميرزا في «لقاء» و«غانية» و«فكر» و«كافر» و«مصرع المثال».

إنَّ ريشة «زهير ميرزا» قد بلغت الغاية في تلوين هذه اللوحة التي تمثل قوة الصراع بين بائعة الجسد وبين راهب الفكر:

إنّني أود أن ترجعوا إلى المجموعة كلها لتقضوا مع الشاعر لحظات جميلة وممتعة قضيتها معه..

تلك كانت أمنية الناقد الكبير أنور المعداوي.. أضاءت نوراً ساطعاً على أدب شاعر فقدناه في شرخ الشباب فنسيناه.. وقد أعطى أمته العربية ووطنه -سورية- أجمل ألحانه في الوطنية والحب، فهل نرد له بعض الجميل؟!!..

الهوامش

١- من تصدير الدكتور سامي الدهان لكتاب إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر، شعر ودراسة الشاعر «زهير ميرزا»-طبعة ثالثة- دار اليقظة- دمشق ١٩٦٣م.

٢- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين- عبد القادر عيّاش- دار الفكر - دمشق ١٩٨٥م.

٣- من قصيدة مخطوطة موجودة لدى أسرة الشاعر.

٤- من قصيدة (جيشنا) مخطوطة موجودة لدى أسرة الشاعر.

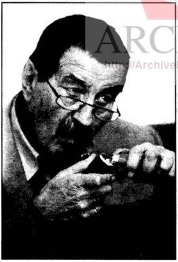
٥- من قصيدة (الشهيد) مخطوطة موجودة لدى أسرة الشاعر.

٦- من قصيدة بعنوان (في أربعين المغفور له سعد الله الجابري) المتوفى في ١٩٤٧/٦/٢٠م في حلب، مخطوطة لدى أسرة الشاعر.

٧- من قصيدة (هبوب الربيع) بقلم الدكتور زكي المحاسني، رثاء «زهير ميرزا »، دمشق. نيسان ١٩٥٦م.

غونتر غراس والإخلاص الحرّ للحقيقة

✿
إبراهيم سلوم



يُعدّ الكاتب الألماني غونتر غراس البالغ من العمر ٨٥ عاماً والحاصل على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٩م الأديب الأكثر شهرةً في بلاده ألمانيا لا بل الأكثر إثارةً للجدل في عالمنا المعاصر، ذلك أنه كلما نشر كتاباً أو رواية أو قام بأي عمل أدبي فني أحدث بذلك دوياً سياسياً وأدبياً في آن واحد. والسبب في ذلك يعود إلى أن أدبه يتميز بصفتين أساسيتين على مستوى تقنيات العمل الروائي: الأولى وتتمثل بحرصه على التعاطي مع مواضيع يرفض الجميع التحدث بها إمّا لأسبابٍ أيديولوجية وغالباً

✿ مترجم وباحث سوري.

لقصر النظر السياسي، وهما أمران غالباً ما يقودان إلى الكارثة.

والثانية وتتمثل برغبته في استرجاع التاريخ الحديث إلى الذاكرة بعين الناقد المراقب وإسقاطه على الحاضر، ونخص بالذكر العهد النازي الذي عاشته ألمانيا وقادها إلى حرب كونية مدمرة، والذي كاد أن يطويه النسيان من ذاكرة الألمان.

وضمن هذا المنظور يقول غراس: «أنا أستمد موضوعاتي من الواقع الحي. إنه لمن الصعوبة بمكان أن نمحو من أذهاننا قرابة ١٢ سنة من الحكم النازي في ألمانيا بشكل خاص وفي أوروبة بشكل عام، وأن نتهرب من ماضينا الذي سيبقى يلاحقنا ويلومنا على عدم قول الحقيقة».

ولهذا السبب انتهج غراس نهجاً أدبياً جديداً وهو الإخلاص الحرّ للحقيقة والبوح بها بكل شجاعة مهما كلف ذلك من ثمن.

واللافت للنظر أن غراس أقرّ في العام ٢٠٠٦م بأنه خدم في منظمة (إس إس) النازية إبان الحرب العالمية الثانية، ولا يزال اعترافه المثير بانتسابه إلى هذه المنظمة حاضراً بقوة عندما كان في سن السابعة عشرة من العمر. ولدى بلوغه الثامنة عشرة من العمر سقط جريحاً في الحرب وسقطت حينذاك سلطة الرايخ الثالث، أي أن ذلك حدث قبل أن يتمكن من تنظيم أفكاره كإنسان، وقبل أن يختار توجهه الأدبي ككاتب، وقبل أن يؤسس سلوكه الناضج كفرد ألماني يعيش في حقبة تاريخية محددة.

لقد أثار اعترافه ردود فعل عالمية واسعة، وأصيب الجميع في بلده بالدهشة والخرس، كيف يعترف رجل بهذه المنزلة الرفيعة بأمرٍ يشوّه سمعته.

حتماً أن ذلك يعود إلى إخلاصه المطلق للحقيقة التي هي الوسيلة الجوهرية في الوفاء لعامله البشري الكبير وإلى كونه روائياً ملتزماً ومناهضاً للتدخل العسكري للدول الكبرى في العالم مثل الغزو الأمريكي للعراق، أو لامتلاك إسرائيل القنبلة النووية التي تهدد السلم العالمي.

لقد كان على درجة من الشجاعة أهّلته لأن يستخرج من دفائنه الخفية ما لم يجرؤ أحد من البشر في عصره على استخراجه وقوله. وكان إخلاصه الحر للحقيقة هو وسيلته الجوهرية في الوفاء لعالمه البشري الكبير. وهذا الإخلاص لا يمكن له أن يتم إلا عبر (الأنا) المتحررة من عبودية الخارج

لطالما أن الغرب يعيش، من وجهة نظره، ثقافةً مفرغة تماماً من كل القيم الجمالية والمعرفية، ومن كل ما يربطها بحرية الإرادة وحرية العقل.

إذن، هي ثقافة قائمة على النفاق ومداراة الواقع العام. ومن هنا استخدم غراس الأدب كسلطة ثقافية أراد لها أن تكون أداة للحكم والفعل والتغيير، وهذا ما نلمسه في مؤلفاته الأدبية وأولها (ثلاثية دانتزيغ)، التي تضم ثلاث روايات متتالية هي: (الطبل الصفيح) الصادرة في العام (١٩٥٩م)، (القط والفأر) الصادرة في العام (١٩٦١م)، (سنوات الكلاب) الصادرة في العام (١٩٦٣م).

وأيضاً في رواياته السرد ذاتية مثل: (تخدير موضعي) (١٩٦٩م)، و(اللقاء في تيلكتي) (١٩٧٩م)، (الفأرة) (١٩٨٦م)، (مئويتي) (١٩٩٩م)، (مشية السرطان) (٢٠٠٢م)، و(الرقصات الأخيرة) (٢٠٠٣م).

والجدير بالذكر أن رواية (الطبل الصفيح) نالت شهرة عالمية منذ صدورها وترجمت إلى لغات عالمية عدة من بينها اللغة العربية. إنَّها بحق الرواية الأولى ضمن ثلاثية دانتزيغ التي تركت أثراً كبيراً في الساحة الأدبية والفكرية في ألمانيا لما تميزت به من جرأة وعمق وإبداع وانعكاس لرؤية غراس للواقع الحياتي الذي نعيشه.

تجري أحداثها قبيل الحكم النازي في ولاية دانتزيغ الواقعة على الحدود الألمانية البولونية، وتروي بضمير (الأنا) قصة طفل يدعى أوسكار ماتسرات الذي وُلد من أم بولونية وأب ألماني، والذي يحكي لنا قصة حياته مع عائلته الألمانية وهو مقيم في مصحة للأمراض العقلية.

فمنذ بلوغه سنّ الثالثة من العمر سقط أوسكار من أعلى السلم على رأسه فسبّب له هذا السقوط عاهةً دائمة حيث توقف نموه الجسدي وبدأ مشواره في الحياة على شكل قزم، وهي عاهة لم يكن رافضاً لها أو مصاباً بعقدة نفسية منها بل قبل بها طواعيةً لحماية نفسه من الأشرار الذين هم أكبر منه سناً وأثقل منه وزناً مستعملاً آليتين غريبتين لحماية نفسه من الخطر الخارجي وهما: طبل من صفيح يقرع به كلما اقتضت الحاجة، وحنجرة قوية جداً تصدر أصواتاً هدّامة.

فالطبل له وقع سحري على سامعيه، والحنجرة كان لها من القوة ما يكفي لتكسير

الزجاج إذا ما انطلقت بالصراخ، وكلاهما سلاح يستعمله أوسكار للتعبير عن تمرده على وضع قائم. تارةً لكي ينتقم ممن يراه طاغياً مستبداً حياله، وطوراً لاختبار سلوك الناس وردود أفعالهم. فاستخدام الطبل وتكسير الزجاج بالصراخ من حنجرته القوية ليسا سوى استجابة لنزعة الدفاع الذاتي من شرّ خصومه الذين هم أطول منه قواماً وأكثر منه وزناً.

وعلى الرغم من مظهره الجسدي يملك أوسكار وعياً أخلاقياً لكل ما يجري حوله، إذ يعتبر نفسه الإنسان النبيل وسط الخبثاء المصابين بالهذيان الأيديولوجي الذي كان يوماً وراء انجرار ألمانيا النازية نحو الحرب العالمية الثانية بادعائها التفوق العرقي وحرصها على المجال الحيوي في القارة الأوروبية. وفي هذه الرواية يلوم غراس العقلية الهمجية والتمييز العنصري والعرقي ويرى أن من واجب الأدب أن يقوم بفضح الأكاذيب والحقائق الباطلة.

هكذا نلاحظ أن أوسكار يطرح مأساة الإنسان الألماني قبل الحرب وخلال وقوعها وما تركته من تداعيات خطيرة مادية وفكرية وبيئية على مستوى العالم.

خلاصة القول: إن هذه الرواية لها وزن أخلاقي، فكثيرة هي المشاهد السوريالية والعبثية والغرائبية التي تتخللها، مما يكسبها أبعاداً سياسية تنتقد أيديولوجيا التبعية العمياء والتقديس اللامعقول لعقيدة ديماغوجية لا ينجم عنه سوى الدمار والخراب.

ومن الواضح أن مؤلف ثلاثية دانتزيغ لم يرتو بكل ما كتب عن مسقط رأسه في ألمانيا وما شاهده من أحداث سوريالية في (الطبل الصفيح) و(القط والفأر) و(سنوات الكلاب) بل نبش من حطام الذاكرة موضوعاً أجمع الرأي العام الألماني على تناسيه وأهملته كتب التاريخ إلا أنه ظل يؤرق العديد من معاصريه أو الذين عرفوا ما حصل في منتصف ليل ٣٠ كانون الثاني من العام ١٩٤٥م، هذا الحدث الجلل الذي دوّنه غراس ضمن رواية بعنوان: (مشية السرطان) التي بيع منها منذ صدورها في العام ٢٠٠٢م وحتى يومنا هذا أكثر من ٢٧٠ ألف نسخة. كما ترجمت إلى ٣٠ لغة عالمية ومنها العربية، وتعتبر اليوم من أفضل الروايات التي لاقت لها رواجاً واسعاً في مبيعاتها، والتي تتزين بها واجهات المكتبة في معظم عواصم العالم ويتضمن مضمونها ما يلي:

في تلك الليلة وفيما كانت سفينة (ويلهيلم غوستلوف) الألمانية العملاقة تمخر عباب بحر البلطيق وقد تكدس على متنها أكثر من ١٠ آلاف راكب معظمهم من الألمان في رحلة سياحية شبه مجانية كان ينظمها الحزب النازي تحت شعار (القوة في السعادة)، والهدف من وراء ذلك صهر المجتمع الألماني في بوتقة مفاهيم الحزب النازي ونظرته إلى الشعب الألماني انطلقت ثلاثة طوربيدات من غواصة سوفييتية في عرض البحر لتجهز على السفينة ومن فيها قبل أن يدرك أحدهم ما حدث!!

فالذي حدث حقاً كان مرعباً للغاية حيث أصابت الطوربيدات جسم السفينة، الأمر الذي أدى إلى إغراقها وبالتالي وفاة ٩ آلاف قتيل قضوا غرقاً وحرقاً وبرداً ودهساً تحت الأقدام الهاربة من ويل الكارثة. وكان بين القتلى ٤٠٠٠ رضيع وأكثر من ألف جندي من الحربية الألمانية.

أمّا الذين نجوا وبقوا على قيد الحياة فكان معظمهم من الرجال، فيما القبطان الروسي ومساعدوه الثلاثة لم يمسّهم أي سوء وبقوا على قيد الحياة.

وفي هذه الرواية يضعنا غونتر غراس أمام بحر مزبد متلاطم الأمواج تطفو على سطحه آلاف الجثث من ضحايا الباخرة المنكوبة.

وكان قد صرّح في إحدى المناسبات خلال تقديمه لهذا الكتاب بالذات أنه لم يجد بداً من وضع أحداث هذه الباخرة في قالب قصصي متسلسل مسلطاً الضوء على ثلاث شخصيات في الرواية. وأمام هذا المأزق يبدأ الكاتب سؤاله لماذا الآن؟

ويجيب لأني أردت أن أضم صراخي إلى صرخات الضحايا الهائمة على وجه الماء. إنها بحق كارثة إنسانية تجاوزت فظاعتها مأساة (سفينة تيتانيك) الشهيرة التي غرقت لدى اصطدامها بجبل جليدي في العام ١٩١٢م في أعماق المحيط الأطلسي، وكانت ضحاياها تقدر بـ ١٥٠٠ ضحية، وهو رقم قليل بالمقارنة مع ضحايا سفينة (ويلهيلم غوستلوف).

ورغم ذلك كله بقيت حادثة هذه السفينة الألمانية طيّ الكتمان لأنّها وليدة العار، وهو عار الجيش النازي الذي تسبب بالكثير من المآسي للقارة الأوروبية، والذي نُعت بكل الأوصاف الوحشية فكان من الطبيعي أن يرفض العالم التعاطي مع مأساة كهذه بسبب

عقدة الذنب التي تشكلت عند الألمان بشكل راسخ.

وفي هـذه الروايـة يتّبع الكاتـب تقنية معينة في الكتابة تبرز هذا الصراع الداخلي ولا تضيع الخط الدرامي، فاقتضت الحبكة الأدبية اللجـوء إلى تقنية خاصة في الكتابة بحيث تتشابـك المشاهد والأسماء في مشية السرطان أي الرجـوع إلى الوراء ثم الاتجاه يميناً ويساراً حتـى يمكن التقدم إلى الأمام أي نحـو الحاضر تمامـاً كمشية السرطان. وفيهـا يسبح الكاتب بـين الأموات ولكنه لا يزال يحلم بالعودة إلى الحياة ويخلط التاريخ بالخيـال مما يجعـل كتابه مليئـاً بالخوف ولكن بروح لا تخلو من الدعابة، فهو لا يريد التستر على آلام الألمان رغم جرائم النازية.

ثـم يخلص إلى هـذه الحكمـة التي نستشفها بين أسطر كتابه وهي: أن التشدد الأيديولوجي وقصـر النظر السياسي غالباً مـا يقـودان إلى الكارثة. وإمعانـاً في ربط الماضـي بالحاضر يركز غراس على خطورة صعود التيارات السياسية والدينية المتطرفة التـي بدأت تنمـو في عصرنا هـذا، والتي تحمل أيديولوجيا شبيهة بالنازية بقوله:

«لطالمـا أقلقني أولئك الذيـن يركزون بصرهـم على نقطة واحـدة تتجمر إلى أن يتصاعد معها الدخان وينبعث منها اللهب.

إن حـادث السفينة الألمانيـة ليست إلا تجسيـداً لإرادة هتلـر في شحـن الأجواء وتأزيم العلاقات مع الآخرين، ولذلك وقعت الكارثة». وفي مكان آخر قال غونتر غراس: إنه اختار هذا العنوان لرواية مشية السرطان لأن السرطان يزحف أحياناً نحو الوراء، كما أنه يزحف بشكل منحرف أو مائل نحو جهة مـا، إلا أنـه مع ذلك مثلما يعـود القهقرى فإنّـه يتقدم إلى الأمـام كذلك، وهنا مكمن الخطر.

ثم ذكر بأن السـلاح الذي دمر السفينة الألمانية هو سـلاح ألماني لأن الغواصة التي قصفت الباخرة كانت من صنع ألماني، وكانت ألمانيا قد باعتهـا للاتحاد السوفييتي قبيل اندلاع الحرب الكونية الثانية ببضع سنوات، أي أن ألمانيا جربت مدى قوة سلاحها وفتكه في جلد أبنائها.

وأخـيراً أقول: «لقد كتبـت هذه الرواية ونبشت قصتها من جديد لأحذر الألمان من مخاطر اليمين المتطـرف الألماني الذي بدأ يطفو اليوم على سطح الساحة الألمانية الذي سوف يردنـا إلى العصر النـازي وما جلبه

لألمانيا والعالم من حروب وأهوال واستخدام أسلحة مدمرة ومن بينها الغواصات التي لا تزال تصول وتجول حتى أيامنا هذه في أعماق المحيطات وكأنها حيتان فولاذية عملاقة مرعبة».

وفي هذه الرواية تتبَّع غراس بدقة متناهية حياة ثلاث شخصيات أساسية تمثل ثلاثة أجيال متعاقبة وهي: المناضل النازي ويلهيلم غوستلوف المتعلق بالنازية إلى درجة الجنون، والذي قُتل على يد يهوديٍّ ألماني متطرف يدعى ديفيد فرانكفورتر ليتحول بعدها شهيداً، ويُمنح اسمه لإحدى سفن الحزب النازي الذي باتت تحمل اسمه، ويُقام له نصب تذكاري في بلد (شفارين) مسقط رأسه.

وبالنسبة لديفيد فارنكفورتر فهو متطرف يهودي مهووس بأفكار دينية غيبية تجعله يشعر وكأنه من (شعب الله المختار). يحاول التعرف على مكان إقامة ويليهلم ثم يقوم باغتياله.

أمَّا الشخصية الثالثة فتتمثل بالقبطان الروسي ألكسندر مارينيسكو الذي عمل على إغراق السفينة الألمانية بتوجيه طوربيد عليها من الغواصة التي كان يقودها، ولقد انتهى به الأمر في أحد السجون السوفيتية حيث قضى ما تبقّى من حياته إلى أن مات في العام ١٩٩٠م.

وفي أحد تصريحاته قال غراس إنه كان يفكر منذ سن مبكرة في نقل هذه الحادثة التاريخية إلى رواية لما كان لها من أثر بليغ في نفسه، وقد فعل ذلك انطلاقاً من شخصيات لا تزال على قيد الحياة وقد عايشت هذه المأساة بكل تفاصيلها المرعبة، منها امرأة مسنة وابنها اللذان ما زالا على قيد الحياة حتى يوم صدور الرواية في العام ٢٠٠٢م، وحفيدها الذي أصبح اليوم منضوياً تحت راية حزب ألماني يميني وكأنه تجسيد للنازية الجديدة.

وفي هذه الرواية يريد غراس أن يربط الماضي بالحاضر مشدداً إسقاط هذا الماضي على واقعنا اليومي نتيجة التطرف الذي أظهره مؤخراً اليمين الأمريكي من جهة وتنظيم القاعدة من جهة أخرى والذي كان السبب في غزو العراق في العام ٢٠٠٣م.

فجورج بوش وأسامة بن لادن، في نظر غراس، كانا آنذاك مسيرين بفكر خارجي، وكلاهما مشبع حتى الثمالة بسموم التطرف وكأن التطرف أصبح الوسيلة الوحيدة

للبقاء. وفي هذه الحال يسقط الحل الوسط ويسود قانون الغاب، وابتداءً من غزو العراق ٢٠٠٣م لم يعد يسري إلا قانون الأقوياء. واستناداً إلى هذا القانون الظالم يمتلك الأقوى السلطة لشراء الراغبين في الحرب ومكافأتهم، واحتقار غير الراغبين في الحرب ومعاقبتهم.

لقد اتهم غراس سياسة الإدارة الأمريكية الحالية بأنها لعبت دوراً في انهيار القيم الديمقراطية لتجاهلها الأمم المتحدة وإخافتها العالم بحرب منافية للقانون الدولي.

وبناءً عليه يتمنى غونتر غراس مجيء وقت جديد يعود فيه المرء إلى الحوار مع خصمه مهما كانت طبيعة الخلاف بينهما. وما الحرب ضد العراق سوى شكل من أشكال العجز عن الكلام. فمن يتكلم يخاطب الآخر، ومن يصمت يصفع الآخر على خديه.

لكن موقفه الثاني الذي كان الأكثر جرأة تجلى حيال إسرائيل التي شن هجوماً عليها ووصفها بأنها تشكل تهديداً للسلام العالمي عبر القصيدة التي نشرها في يوم ٤ نيسان الفائت باللغة الألمانية وتُرجمت إلى الفرنسية بعنوان: (ما ينبغي قوله).

ففي هذه القصيدة انتقد غراس وهو يقف على قمة هرم الشيخوخة وعلى قمة الهرم الثقافي محملاً بأعباء تجربة تاريخية مثقلة بالدمار والشرور سياسة إسرائيل وامتلاكها القنبلة النووية. كما انتقد رغبتها في شن هجوم عسكري على إيران.

كذلك وجّه غراس في قصيدته هذه انتقادات لبلده ألمانيا بسبب إرسالها صفقات من الأسلحة المتطورة جداً كالغواصات إلى إسرائيل. لقد أثارت هذه القصيدة موجة انتقادات حادة في ألمانيا التي تعتبر أن أي انتقاد لإسرائيل يدخل في باب المحرمات.

وقالت صحيفة (دي فيلت) الألمانية الواسعة الانتشار «بأن قصيدة غراس معادية للسامية، وأن غراس يشكل نموذجاً للمثقف الألماني المعادي للسامية الذي يطارده الشعور بالذنب والخزي، ولكن في الوقت ذاته تدفعه الرغبة الدائمة في أن يعيد التاريخ النازي نفسه».

نورد فيما يلي بعض الأبيات من القصيدة التي أحدثت زوبعة لم يخمد أوراها بعد والتي يقول مطلعها:

«لماذا ينبغي عليّ أن أسكت وألتزم بالصمت طويلاً
وأنا أرى شعباً كالشعب الإيراني وهو يخضع
إلى ممارسة الضغوط عليه من كل حدب وصوب
تحت ذريعة أنه يقوم بصنع قبلة نووية؟
ولماذا ينبغي عليّ أن أصمت وألا أقول
إن هناك بلداً آخر (إسرائيل) يملك قوة نووية ما تزال
آخذة بازدياد
ومن دون أن تخضع لأي مراقبة أو تفتيش دوليين.
لقد آن الأوان لكي أقول ذلك اليوم وليس غداً.
إنّ الالتزام بمثل هذا الصمت يزعجني ويضغط على
أعصابي بشدة
لأني إذا تجرأت على البوح به فسوف أتهم بمعاداة
السامية،
ولاسيما أن شعب ألمانيا يعاني من وطأة هذه العقدة
النفسية التي لا تزال تثقل كاهله
ولهذا السبب استجاب بلدي إلى طلب إسرائيل
بتسليمها الغواصة السادسة
النووية القادرة على سحق كل حياة فوق اليابسة
بفضل ما تحمله من مواد متفجرة سريعة الانشطار.
إني أقول ما ينبغي قوله ولو حصل ذلك في هذه
اللحظة بالذات
حيث هرمت وكبرت ولم أعد أستطيع الكتابة؟
أقول إن القنبلة النووية الإسرائيلية تهدد السلام
العالمي الهش والسريع العطب
بفضل الدعم الذي نقدمه لها، نحن الألمان.
لن أسكت بعد اليوم لأنني بدأت أتعب من التزام
الصمت الطويل
وتحديداً من النفاق الأوروبي، ولكم أمل في أن يتحرر
قسم كبير في العالم من هذا الصمت المطبق
ويطالب بمراقبة ترسانة الأسلحة النووية الإسرائيلية
شريطة أن تقوم بذلك منظمة دولية.
إنها الوسيلة الوحيدة التي تسمح لنا بإزالة شبح العنف
في المنطقة
وفي مساعدة الفلسطينيين والإسرائيليين لكي يعيشوا
معاً جنباً إلى جنب».

لقد جاءت ردود الفعل شديدة الغضب لكنها لم تلبث أن تحولت لدى بعض المفكرين من الطبقة المثقفة الألمانية إلى موقف يتسم بالتفهم وبتصنع القدرة على ابتلاع الحقيقة الجارحة.

أما رد غراس على هذه التهديدات ومنها سحب جائزة نوبل منه فكان بسيطاً وواضحاً: «أنا لا أنتقد الشعب الإسرائيلي بل أنا أنتقد الحكومة الإسرائيلية على تصرفاتها وعلى نهجها السياسي لأن هذا النهج في نظري يشكل تهديداً حقيقياً للسلام العالمي. إن بلادي ألمانيا متواطئة في هذا الأمر عندما وافقت على تسليم إسرائيل ست غواصات نووية».

في الواقع إن من يقرأ هذه القصيدة يراها متواضعة في بنائها الفني لكنها عظيمة المغزى في أهدافها السياسية وفي جرأتها وصدقها. إنها رسالة تاريخية تم تأجيل البوح بها لأكثر من سبعة عقود بغض النظر عن قيمتها الجمالية والفنية.

ومنذ شهر نيسان الفائت وغراس يتعرض إلى موجة انتقادات منذ نشره هذه القصيدة بعد أن سئم من نفاق الغرب فيما يتعلق بإسرائيل مبيناً أن أهوال النازية ليست ذريعة للصمت، ومنتقداً بلده ألمانيا على بيع غواصات لإسرائيل يمكن تجهيزها بأسلحة نووية، ومطالباً المنظمات الأممية بإخضاع المنشآت النووية الإسرائيلية إلى رقابة دولية.

ومن المعروف أن غونتر غراس هو من مواليد ١٦ تشرين الأول من العام ١٩٢٧م في مدينة دانتزيغ (غدانسك)، وهي مرفأ بولوني على بحر البلطيق وتعجّ بالقصور الملكية التي لا تزال تشهد على العظمة التاريخية لهذه المدينة. تَبعت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ثم أُلحقت ببولونيا في العام ١٩٤٥م غداة الحرب العالمية الثانية، وما زالت على حالها الراهن حتى يومنا هذا.

في العام ١٩٨٠م شهدت هذه المدينة إضرابات عمالية كثيفة بزعامة (ليش فاليسا) جعلت منها أن تكون مهداً لحركة (التضامن) النقابية البولونية التي قامت للتعبير عن معارضتها لسيطرة الحزب الشيوعي في بولونيا.

قضى غراس طفولته في ربوع هذه المدينة إلى أن بلغ سن الشباب حيث شارك في العام ١٩٤٤م في الحرب العالمية الثانية كمساعد في سلاح الطيران الألماني. وبعد الانتهاء من الحرب وقع سنة ١٩٤٦م في أسر القوات الأمريكية إلى أن أطلق سراحه في السنة نفسها ليعود إلى متابعة دراسته في كلية الفنون بمدينة دوسولدورف ومن ثم في كلية برلين للفنون (١٩٤٦-١٩٥٦م) ليحصل على إجازة في مادة الفنون وينصرف إلى عالم الأدب بدافع شخصي منه.

وعلاوةً على ذلك فإنَّ غونتر غراس هو كاتب مسرحي أيضاً. فقد كتب مسرحية (الطهاة الأشرار) (١٩٥٦م)، و(الفيضان) (١٩٥٧م). إضافةً إلى أنه فنان يهوى الرسم الساخر لعالمنا الحديث الذي نعيش فيه حيث يخلط في لوحاته الفنية وفي التماثيل التي ينحتها بنفسه الواقع والخيال معاً بقوله:

«بالنسبة لي فإن الأدب والفن والشعر والرسم والكتابة والنحت تحتوي كلها على القيمة الجمالية نفسها، إنّها تتفاعل مع بعضها البعض وتتلاقح بحوار مستمر لا نهاية له من دون أن تتحاسد فيما بينها، وهي على هذا النحو في حالة انسجام دائم».

ما من شك أن تقويمه لمثل هذه الأعمال الأدبية والفنية نابع من الخبرة العلمية المتعددة الجوانب التي اكتسبها وهو يدرس في جامعات وأكاديميات ألمانيا، وهي خبرة أهلته لنيل جوائز محلية كثيرة نذكر منها: جائزة كارل فون أوستسكي للآداب في العام ١٩٦٧م، وجائزة الأدب في أكاديمية بافاريا في العام ١٩٩٤م، وشهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة برلين في العام ٢٠٠٥م. وبحلول عام ١٩٩٩م حصل غراس على جائزة نوبل للآداب تقديراً لدوره في إثراء الأدب العالمي.

إنه بحق أهم الأدباء الألمان في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. على حد قول المستشار (غيرهارد شرويدر) الذي أنصفه حين قال عنه خلال حفل التكريم الذي أقيم في العام ٢٠٠٣م في مدينة شتوتغارت الألمانية على شرف هذا الكاتب العظيم: «إن غونتر غراس هو أعظم كاتب عرفته الأمة الألمانية المعاصرة، وهو أيضاً مواطن مخلص لبلده ومفكر لامع يتمتع بإحساس خاص حيال حقوق الإنسان أينما وُجد، وحيال العدالة الإنسانية. الأمر الذي سبّب له المزيد من المضايقات والمتاعب المليئة بالكدر».

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكاتب المذكور البالغ من العمر اليوم ٨٥ عاماً لا يزال مليئاً بالحيوية والنشاط، فهو يمارس رياضة المشي للحفاظ على لياقته البدنية. وعندما سُئل عما يفتخر ويعتز به كثيراً أجاب: (أن أبقى منتصب القامة ومن دون الحاجة إلى عكاز أتكئ عليه).

المراجع

١- موسوعة (لاروس) الكبرى الفرنسية.
٢- جريدة (النهار) اللبنانية تاريخ ٢٠١٢/٤/٢٨م.
٣- الملحق الثقافي جريدة (النهار) اللبنانية تاريخ ٢٠٠٣/٤/٦م.
٤- مجلة (جيش الشعب)، (غونتر غراس من مشاهير الأدب العالمي)، تموز ٢٠٠٣م.
٥- جريدة (لوموند) الفرنسية تاريخ ٢٠١٢/٤/١٠م.
٦- مجلة (لونوفيل أوبسرفاتور) الفرنسية، تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ٢٠٠٢م.

أفكار في الحياة*

ترجمة وإعداد: وفيق فايق كريشات

لم يزل موضوع الحياة يشغل بني الإنسان قديماً وحديثاً وعلى اختلاف مشاربهم. ولم يزل ذلك ينعكس جلياً في ما يتخذونه من مواقف ويذهبون إليه من آراء، ولاسيما أهل الثقافة منهم. وفيما يلي طائفة مختارة مما سطره في ذلك الفلاسفة والمفكرون والعلماء.

قيم للألفية

الدالاي لاما[1]

«في رأيي، لقد خلقنا مجتمعاً يعسر فيه على النّاس، يوماً بعد يوم، أن يبدي بعضهم لبعض الحد الأدنى من المودة. في مكان الإحساس بالجماعة والانتماء، وهذه سمة تبعث على الطمأنينة من سمات المجتمعات الأقل ثراء (وهي ريفية على وجه العموم)، نحن واجدون قدراً كبيراً من الوحدة والاغتراب.

مع أنّ الملايين يسكنون متجاورين قريبين بعضهم من بعض، فالظاهر أنّ كثيراً من النّاس، ولاسيما المسنون منهم، ليس عندهم مَن يتحدثون إليه سوى حيواناتهم المدللة. إنّ المجتمعات الحديثة الصناعية كثيراً ما تصعقني بشبهها من آلة ضخمة ذاتية الدفع. بدلاً من أن تكون الكائنات الإنسانية

* كاتب ومترجم له ترجمات عديدة.

هي صاحبة الأمـر، فإنّ كل فرد هو عنصر صغير جداً غير ذي شأن وليس له اختيار إلاّ التحرك متى تحركت الآلة».

مجلة نيويورك تايمز، بتاريخ ١١ أيلول ١٩٣٠م

ألبرت آينشتاين(٢)

«تشـترك (الأديـان) في الخصيصـة الأنثروبومورفية(٣) لمفهوم الله فيها. وعلى وجه العموم، إنّ الأفراد ذوي المواهب الاستثنائية، والجماعـات ذات العقول السامية على نحو استثنائي، هم من دون غيرهم الذين يرتفعون فوق هذا المستوى ارتفاعـاً ذا شأن. بيد أنّ هاهنـا درجة ثالثة من الخبرة الدينية تُنسب إلى الأديـان جميعـاً، وإن لم توجد في صورة محضة إلاّ نـادراً: سوف أدعو ذلك بالشعور الديني الكوني. من العسير بيان هذا الشعور لمن يفتقـده بالكلية، والسبـب في ذلك على وجه الخصوص هو عـدم وجود مفهوم لله أنثروبومورفي مطابق له.

يشعـر الفرد بعقم الرغبـات والمقاصد الإنسانيـة وبرفعـة النظـام وروعته، الذي يجلوهـا في كلّ من الطبيعة وعالم الفكر. إنّ الوجود الفردي يحدث فيه انطباعاً فيجده نوعاً من السجن فيرغب في أن يلاقي الكون بوصفه كلاً مفرداً ذا مغزى.

تظهر بدايات الشعور الديني الكوني في مرحلة باكرة مـن التطور، وعلى ذلك أمثلة في كثـير من مزامـير داود وفي بعض كتاب حيـاة الأنبياء(٤). تحتوي البوذية، بحسب ما علمناها على وجـه الخصوص من كتابات شوبنهاور الرائعة، على عنصر من هذا أشد قوة.

لقـد تميّز النوابـغ الدينيـون على مرّ العصـور بهذا النـوع من الشعـور الديني، الـذي لا يعرف اعتقاداً مسلمـاً به ولا إلهاً يُعـرف بصورة إنسان؛ وعلى هذا فلا يمكن أن توجـد طائفـة تؤسـس عليـه تعاليمها الصميمة. ولهـذا فإنّ زنادقة كل عصر من دون غيرهم هـم الذين نجد فيهم مَن طفح بهذا النـوع الأرفع من الشعور الديني، ومَن عدّهـم معاصروهـم في كثير مـن الأحيان جاحدين للإله وأحياناً أولياء له.

إنّ رجـالاً مـن مثـل «ديمقريطـس» و«فرانسيـس الأسيـزي» و«سبينوزا» تظهر بينهـم صلة وثيقة متى نُظـر إليهم في هذا الضوء.

أنّى للشعـور الديني الكوني أن يُنقل من شخص إلى آخر إذا كان لا ينشأ عنه مفهوم لله محـدد ولا لاهوت؟ في رأيـي، الوظيفة

الأهم للفن والعلم هي إيقاظُ هذا الشعور وجعلُه دائماً حيّاً في من يتقبلونه».

فقرات من كتاب في معنى الحياة ويل ديورانت(*)

«عزيزي فلان،

هلا قطعت عملك لحظة ولعبت معي لعبة الفلسفة؟

إني محاول أن أواجه مسألة يظهر على جيلنا، على نحو لعله يبز به كلّ جيل آخر، أنّه دائماً متأهب لإلقائها وأنّه غير قادر على الجواب عليها البتة- ما معنى الحياة الإنسانية وما قيمتها؟ إلى يومنا هذا كان أكثر من تناول هذه المسألة هم أصحاب النظريات، من «إخناتون» إلى «لاوتسه» وإلى «بيرغسون» و«شبنغلر». لقد كانت النتيجة ضرباً من الانتحار الفكري: يظهر من أمر الفكر أنه، بنفس تطوره، قد دمّر قيمة الحياة ومغزاها.

إنّ نمو المعرفة وانتشارها، وهي التي صلّى طلباً لها كثرة بالغة من المثاليين والمصلحين، قد أنتجا استبصاراً كاد يحطم روح عصرنا.

أنبأنا علماء الفلك أنّ الشؤون الإنسانية إنّما تكوّن لحظة في المسار المنحني لنجم من النجوم؛ وأنبأنا علماء الأرض أنّ الحضارة إنّما هي فترة بين عصرين جليديين محفوفة بالمخاطر؛ وأنبأنا علماء الأحياء أنّ الحياة بأسرها حرب، نضال في سبيل الوجود يشتبك فيه الأفراد والزمر والأمم والحلفاء والأنواع؛ وأنبأنا المؤرخون أنّ «التقدّم» هو ضلالة، لمجده خاتمة هي الانحلال المحتوم؛ وأنبأنا علماء النفس أنّ الإرادة والذات أداتان عاجزتان من أدوات الوراثة والبيئة، وأنّ النّفس التي اعتُقد فيها زماناً طويلاً أنّها غير فاسدة إنّما هي توهج للدماغ زائل.

إنّ الثورة الصناعية قد خربت المنزل، واكتشاف موانع الحمل يخرب الأسرة والفضيلة القديمة وربما العنصر (بوساطة عقم الأذكياء). يُحلل الحب فيُجعل احتقاناً بدنياً، ويصبح الزواج طريقة مؤقتة إلى السعادة الفيزيولوجية أرفع من الإباحية بقليل.

لقد بلغت الديمقراطية حضيضاً من الفساد لا يعرف له مثيل في روما أيام ميلو[1]؛ وهاهي أحلام المدينة الفاضلة الاجتماعية التي حلمناها في شبيبتنا تتلاشى ونحن نرى، يوماً فيوماً، عطش النّاس للاقتناء الذي لا يُطفأ. إنّ كلّ اختراع يقوّي القوي ويضعف الضعيف؛ وكلّ تقنية جديدة تأخذ

من النّاس أماكنهم، وتزيد من رعب الحرب أضعافاً مضاعفة.

إنّ الله، الذي كان ذات يوم هو السلوان في حياتنا القصيرة والملجأ إذا فقدنا عزيزاً أو نزلت بنا نازلة، قد غاب من المشهد على نحو ظاهر؛ ليس يكتشفه منظار ولا مجهر. لقد أصبح الحياة، في ذلك النظر الكلي الشامل وهو الفلسفة، هي كثرة في التناسل لا قيمة لها تأتي بها على الأرض الحشرات الإنسانية، هي أكزيما[٧] أصابت الكوكب ولربما يشفى منها عاجلاً؛ ليس فيها شيء قطعي ما خلا الانحدار والموت- نومة ليس بعدها انتباه، على ما يظهر.

لقد دُفعنا إلى أن ننتهي إلى القول بأنّ أعظم خطأ ارتُكب في التاريخ الإنساني قد كان هو اكتشاف «الحقيقة». إنّها لم تحررنا إلا من الضلالات التي جلبت لنا الراحة ومن القيود التي حفظتنا. لم تجعلنا سعداء، لأنّ الحقيقة ليست جميلة، ولا هي جديرة بأن يُسعى وراءها بحماسة. إننا لنعجب، ونحن ننظر إليها، لماذا طلبنا العثور عليها عجلين كلّ هذه العجلة. فلقد أخذت منا كلّ سبب للوجود ما خلا لذة اللحظة وتافه أمل الغد.

هذا هو السبيل الذي أتى بنا العلم والفلسفة إليه. أنا، الذي قد أحب الفلسفة سنين طويلة، أنظر الآن ورائي إلى الحياة نفسها، وأسألك، أنت الذي عشت وفكرت أيضاً، أن تمدني بالعون على الفهم. لعلّ حكم الذين عاشوا مختلف عن حكم الذين فكروا فقط.

أعرني لحظة وأخبرني: ما معنى الحياة عندك، وما الذي يجعلك تبقى في حال جيدة، وما العون الذي يمدك به الدين -إن كان يمدك بعون- وما هي مصادر الإلهام والنشاط عندك، وما الهدف من عملك الشاق أو القوة الدافعة له، وأين تجد عزاءك وسعادتك، وأين كنزك، ملاذك الأخير. اكتب لي باختصار إن كنت مضطراً؛ اكتب بتطويل وتفصيل إن استطعت؛ فكل كلمة تأتي منك سوف تكون عندي ثمينة.

المخلص
ويل ديورانت

مقتطفات من مقدمة ويل ديورانت

«ليست حرب سنة ١٩١٤م وحدها هي التي قذفت بنا إلى التشاؤم، ولا الكساد الاقتصادي الذي ضرب في السنوات الأخيرة، فنصيبه من ذلك أقل؛ الأمر الذي

علينا الالتفات إليه هو أبعد غوراً من مؤقت انكماش ثروتنا، أو هلاك ٢٦٠٠٠٠٠٠ إنسان؛ ليست منازلنا ولا خزائننا هي الخاوية، وإنّما «قلوبنا». من المحال، على ما يظهر، أن نؤمن بعد الآن بعظمة الإنسان الدائمة، وأن نسبغ على الحياة معنى ليس للموت قوة على إبطاله. إننا داخلون في عصر من الإعياء الروحي والقنوط كالعصر الذي تعطش لمولد المسيح.

لقد تحققت آمال التنوير بأسرها: تحرر العلم، وصار يشكّل العالم على نحو جديد. لكن بينما كان التقنيون يستعملون العلم لتغيير وجه الأرض كان الفلاسفة يستعملونه لتغيير وجه الكون. مع إفادة علم بعد آخر عن كشوفه، كانت الصورة تُنزع ببطء عن نضال وهلاك عالمين؛ وفي عقد من السنين بعد آخر استسلم تفاؤل القرن التاسع عشر لتشاؤم اليوم.

مدارسنا مثل اختراعاتنا- تقدم لنا أفكاراً جديدة، وسائل جديدة لفعل أشياء قديمة؛ إنها تحلّق بنا من سرقة غير ذات شأن إلى انهيارات المصارف وأغطية أباريق الشاي[٨].

يراهن الجميع على الذكاء، وإذا بهم يجدون أنّ الغلبة في خاتمة الأمر هي للشخصية. لقد علّمنا الناس القراءة، وهاهم يُثرون «الجرائد الشعبية» و«الصور المتحركة الناطقة»؛ اخترعنا الإذاعة، وهاهي تسكب موسيقا المتوحشين وشرور الغوغاء أكثر من قبل بمئات المرات. أعطيناهم، بالتقانة والهندسة، أموالاً لم يسبق لها مثيل -سيارات خرافية وأسفاراً باذخة ومنازل واسعة؛ وإذا بهم يجدون أنّ السلم يرحل مع قدوم الثروة، وأنّ السيارات تدوس على الفضيلة وتدخل في المؤامرات الإجرامية، وأنّ الشجار يزداد مرارة كلّما ازدادت الغنائم، وأنّ أكبر المنازل هو أدمى ميادين القتال في الحرب القديمة بين المرأة والرجل.

لقد اكتشفنا السيطرة على النسل، وهاهي الآن تصيب الأذكياء بالعقم، وتُضاعف من عدد الجهلة، وتحط من الحب إلى الإباحية، وتحبط المربين، وتقوي الديماغوجيين[٩]، وتفني العنصر.

لقد أعطينا الرجال جميعاً حق التصويت، فوجدناهم يؤيدون ويصوتون، في المدن كلها إلا قليلاً منها، «آلة» شريرة تقطع الطريق بين المقدرة والمنصب؛ أعطينا النساء جميعاً حق التصويت، فاكتشفنا أنّه لا شيء قد تغيّر ما عدا نفقات كتاب السجلات.

لقد حلمنا بالاشتراكية، فوجدنا نفوسنا أكثر جشعاً من أن تجعلها أمراً ممكناً؛ نحن، في قلوبنا، رأسماليون، ولا اعتراض لنا جديّ على أن نصير أغنياء.

ليست المسألة الكبرى في زماننا هي التباين بين الشيوعية والفردية، ولا بين أوروبة وأميركا، ولا حتّى بين الشرق والغرب؛ إنّها: هل يستطيع الإنسان أن يعيش من غير الله».

مدح الحمق

إراسموس[١٠]

(يتكلم هاهنا الأحمق، وهو الشخصية الرئيسية) «ليس عليكم النظر إلى أولئك الناس المهمومين المهيبين الذين وقفوا أنفسهم للدراسات الفلسفية أو الأعمال الجادة والصعبة-لقد أخذوا في الكِبَر حتى قبل شبيبتهم، وجفت منهم كلّ أرواحهم الأساسية وعصائرهم الحيوانية، حدث ذلك عن دائب القلق وضغط التدبّر الأليم الشديد. أما أغبيائي فهم جميعاً سمان، ناعمة جلودهم ووضّاءة... لا يشعرون بشيء من أسف الكِبَر إلا إذا واجهوا مشكلة ما بالصدفة وبأعداء من أهل الحكمة. صدق، إذاً، من قال إنّه في كلّ حياة يجب لبعض المطر أن يسقط».

تنوعات الخبرة الدينية

وليم جيمس[١١]

«حقّاً إنّ الفقر حياة شاقة- ليس فيها فرق نحاسية ولا أزياء موحدة ولا تصفيق هستيري شعبي ولا أكاذيب ولا تطويلات؛ وحينما يرى المرء كيف يدخل كسب الثروة في صميم نقي عظام جيلنا في صورة مثال يحتذى، فإنّه ليعجب قائلاً: أليس إحياء الاعتقاد بأنّ الفقر هو نداء باطني ديني ذو قيمة أليس هو «التحول الذي ينبغي أن يطرأ على صورة الشجاعة العسكرية» والإصلاح الروحي الذي زماننا في أمس الحاجة إليه.

ينبغي لمدائح الفقر أن تغنّى من جديد وبجراءة، ولاسيما عندنا نحن الشعوب الناطقة بالإنكليزية. لقد نشأنا -بالمعنى الحرفي للفظ- على الخوف من أن نكون فقراء.

إننا نزدري كلّ من يختار أن يكون فقيراً لكي يسبغ على حياته الداخلية البساطة فينقذها. إن لم يلتحق بالتزاحم العام ولم يلهث مع الشارع الذي يصنع المال حكمنا عليه بأنّه فاقد للنشاط وللطموح.

لقد فقدنا القدرة حتى على تخيّل ما كان لمثال الفقر القديم من معنى: أعني الانعتاقَ من الروابط المادية، والنفسَ التي

تأبى أن ترتشي، ورباطةَ الجأش التي هي أليقُ بالرجال، ودفعَ ما هو مستحق علينا بما نحن عليه أو ما نفعله وليس بما نملكه، والحقَّ في خلع حياتنا في أي لحظة من غير إحساس بالمسؤولية، -أعني اللياقة ذات الصبغة الرياضية أكثر من غيرها، وباختصار: الهيئة الأخلاقية المقاتلة.

ما دمنا نحن الذين ندعى الطبقات الفضلى نفزع من القبح والقسوة الماديين كما لم يفزع الناس قط في تاريخهم؛ وما دمنا نرجئ الزواج إلى أن يكون منزلنا آية في الفن، ونرتعش للتفكير بأن ننجب ولداً ليس له حساب في المصرف مقضياً عليه بالعمل اليدوي، فإنّ هذا هو أوان احتجاج الناس ذوي التفكير على هذه الحال من الرأي الأبعد عن أن تليق بالرجال والمنافية للدين.

من الصحيح أنّه ما دامت الثروة تفسح الوقت للغايات المثالية وتتيح استعمالاً للقوى المثالية، فإنّها خير من الفقر واختيارها مستحب. لكن الثروة لا تفعل هذا إلا في جزء من الأحوال الفعلية. في ما عداها، الرغبة في كسب الثروة والخوف من فقدها هما أكبر الوالدين للجبن فينا والناشرين للفساد.

في آلاف من الأزمات، الإنسان المقيد إلى الثروة هو عبد من غير شك، أمّا الإنسان الذي لا يحدث الفقر فيه رعباً فيصبح إنساناً حرّاً. أعمِل فكرك في القوة التي للامبالاة الشخصية بالفقر أن تمنحنا إيّاها إذا وقفنا أنفسنا للقضايا غير المحبوبة من عامة النّاس. لن نحتاج بعدها إلى أن نسكت أو نخشى من التصويت للقائمة الثورية أو الإصلاحية.

لعل أسهمنا تهوي، وآمالنا في الترقية تتبدد، ورواتبنا تكف عن الزيادة، وأبواب أنديتنا تغلق في وجوهنا؛ لكننا سوف نبقى، ما حيينا، شهوداً على الروح لا نلين، وسوف يكون مثالنا الذي نضربه عوناً على تحرير جيلنا. سوف تحتاج القضية إلى موارد مالية، ولكن نحن خدامها سوف نكون أقوياء بقدر مصارعتنا لفقرنا مصارعة شخصية».

«إني أحيل هذا الأمر إلى تدبرك الجاد، فمن المقطوع به أنّ الخوف من الفقر الشائع بين الطبقات المتعلمة هو أسوأ ما ابتليت به حضارتنا من داء أخلاقي».

الإنسان ورموزه

كارل يونغ[١٢]

«في زماننا، الملايين من الناس الذين فقدوا كلّ إيمان بأي صنف من الأديان. ما عاد الذين كهؤلاء يفهمون الدين. ما دامت

الحياة تجري على ما يرام من غير الدين، فإن فقده يبقى من غير لحظ. ولكن متى جاءت المعاناة، كانت تلك قضية أخرى. فهنالك يأخذ الناس في نشدان المخرَج وفي التفكر في معنى الحياة وتجاربها المدهشة والمؤلمة.

مما له مغزى أنّ اليهود والبروتستانت أكثر من الكاثوليك استشارة للطبيب النفسي (بحسب خبرتي). لعلّ هذا متوقع، لأنّ الكنيسة الكاثوليكية ما تزال تحس بالمسؤولية عن رعاية مصلحة النفس.

لكن في العصر العلمي فإنّ المختص بالعلاج النفسي يصلح لأن يُسأل الأسئلة التي كانت ذات يوم تنتسب إلى ميدان اللاهوت. يشعر الناس أنّ فرقاً عظيماً سوف يحدث، أو قد يحدث، إذا كان عندهم اعتقاد إيجابي في طريقة للحياة ذات معنى أو في الله أو الخلود.

إنّ شبح الموت المقترب كثيراً ما يُعطي دافعاً قوياً لأفكار كهذه. منذ زمان لا يُعلم وللناس أفكار بشأن الكائن الأعلى (أكان واحداً أم أكثر) وعالم الآخرة. في يومنا هذا فقط يعتقد الناس أنهم قادرون على الحياة من غير أفكار كهذه.

لأننا لا نستطيع أن نجد عرش الله في السماء بالمنظار ولا أن نعرف (على نحو قطعي) أنّ أبانا أو أمنا المحبوبين ما يزالان في صورة جسدية على نحو ما، فإنّ الناس يسلمون بأنّ أفكاراً كهذه «ليست بحق». إني أحبذ القول بأنّها ليست «بحق» على نحو كاف، ذلك أنّ هذه المفاهيم هي من النوع الذي اقترن بحياة الإنسان منذ الأزمنة القبتاريخية، وما تزال تبرز إلى الشعور عند أدنى استثارة.

قد يقرر الإنسان الحديث أنّه يستطيع الاستغناء عنها، وقد يقوي رأيه بالإصرار على أنّه ليس من دليل علمي على صدقها. أو قد يأسى على فقدان اعتقاداته الراسخة. لكن ما دمنا نعالج أشياء لا تُرى ولا تُعلم (ذلك أنّ الله هو فوق متناول فهم الإنسان، وليس من وسيلة للبرهان على الخلود)، فلماذا نشغل أنفسنا بالدليل؟ حتى لو أننا لم نعلم السبب في حاجتنا إلى الملح في طعامنا، فإنّه ينبغي لنا، مع ذلك، أن ننتفع باستعماله.

لعلنا نجادل بأنّ استعمال الملح هو مجرد وهم من أوهام الذوق أو خرافة؛ لكن سوف يبقى له إسهام في صلاح حالنا. لماذا، إذاً، نحرم أنفسنا من الآراء التي يثبت أنّها عون لنا في الأزمات وتهب لوجودنا معنى؟

وأنـى لنا العلم بأن أفـكاراً كهذه ليست بحـق؟ سوف يوافقنـي الكثـيرون إن قلت بصراحة إنّ أفكاراً كهذه هي، على الأرجح، أوهـام. الـذي يفوتهم إدراكه هـو أنّ نفي العقيـدة الدينيـة وتقريـره متساويان في استحالـة «البرهـان» علـى كلّ منهما. إننا أحرار في اختيار زاوية النظر التي نتخذ؛ في الحالين القرار اعتباطي.

بيـد أنّ هاهنـا سببـاً تجريبيـاً قوياً في استحبـاب العنايـة بأفـكار لـن يمكن البرهان عليها أبداً. إنّـه العلم بأنّها نافعة. يحتاج الإنسان، حاجـة إيجابية، إلى أفكار واعتقادات جازمة عامة تهب لحياته المعنى وتمكّنـه من العثـور على مـكان لنفسه في الكـون. إنّه يستطيع الصمود لما لا يُعقل من الشدائد متى اعتقد على نحو جازم بأنّ لها موقعاً في فهمه؛ سوف يُسحق متى أقرّ، فوق كلّ سـوء حظه، بأنّه جزء من «حكاية يرويها معتوه».

إنّ دور الرمـوز الدينية هو إسباغ المعنى على حيـاة الإنسان.. إدراكُ أنّ لوجود المرء معنى أوسع نطاقاً هو الذي يسمو بالإنسان فوق مجرد الكسب والإنفاق. إذا أعوزه هذا الإدراك فهو ضائع وبائس».

أفكار

بليز باسكال[١٣]

«ليـس الإنسـان إلا قصبـة، هي أوهن شـيء في الطبيعة؛ بيد أنّـه قصبة مفكرة. ليس يحتاج الكون بأسره ليحمل سلاحاً حتى يحطمه. يكفي لقتله نفثة دخان، قطرة ماء. لكن لو أنّ الكون حطم الإنسان، فإنّ الإنسان يظل هو أعظم كرامة من الذي قتله، والسبب هو علمـه بأنّه مائت وبمـا للكون عليه من مزية؛ ليس يعلم الكون من هذا شيئاً.

عماد جانبنا الإلهي كله، إذاً، هو الفكر. به يجب علينـا السمو بأنفسنـا، لا بالمكان والزمان الذي لن يمكننا أن نملأه. لنحاول، إذاً، أن نُحسـن التفكـير؛ هـذا هـو مبدأ الفضيلة.

قصبة مفكرة. ليس من المكان يجب عليّ طلب جلالتي، بل من الحاكمية على فكري. لن أزداد شيئاً حتّى لو ملكت العوالم. بالمكان يطوقنـي الكون ويبتلعني مثـل ذرة؛ بالفكر أدرك العالم».

في تفاهة الوجود

أرتور شوبنهاور[١٤]

«تتجلـي تفاهـة الوجـود في الصـورة الإجمالية التي يتخذها الوجود: في لا تناهي الزمـان والمـكان المقابل لتناهـي الفرد في

كليهما؛ في الحاضر السريع الزوال بوصفه الصورة الوحيدة التي توجد بها الواقعية؛ في طراءة(١٥) الأشياء جميعاً ونسبيتها؛ في مستمر الصيرورة بلا وجود؛ في مستمر الرغبة بلا إشباع؛ في مستمر إحباط النضال الشاق الذي هو قوام الحياة...

في مشاهد حياتنا شبهٌ من الصور في فسيفساء غير واضحة؛ ليس لها أثر عن قرب، ومن الواجب النظر إليها عن بعد إذا أريد لها أن تظهر جميلة. هذا هو السبب في أن نيل شيء مرغوب يحتاج إلى اكتشاف كم هو تافه؛ وهو السبب في أننا، مع عيشنا كل حياتنا ونحن نرتقب أشياء أحسن مما لدينا، كثيراً ما نتوق في الوقت نفسه لما قد مضى توق النادمين. من ناحية أخرى، يُعدّ الحاضر شيئاً مؤقتاً تماماً ولا قيمة له إلا كطريق إلى هدفنا.

هذا هو السبب في أنّ أكثر الناس يكتشفون حين ينظرون وراءهم إلى حياتهم التي عاشوها أنّهم قد عاشوا طوال الوقت في الوقت الفاصل ويدهشون إذ يرون أنّ الذي تركوه يذهب بلا اكتراث له ولا اهتمام به إنّما كان هو نفس حياتهم، نفس ما قد عاشوا وهم يترقبونه».

أهمية العيش
لين يوتانغ(١٦)

«في هذه الحياة كثرة من الخدع، بيد أنّ الكثرة البالغة من الخدع الصغيرة قد صُنفت عند البوذيين الصينيين في خدعتين كبيرتين، الشهرة والثروة.

هاهنا قصة تروى عن الإمبراطور تشئينلونغ أنه ارتقى في أحد الأيام تلاً يشرف على البحر في أثناء سفره إلى جنوبي الصين فرأى عدداً كبيراً من السفن تبحر في بحر الصين بسرعة جيئة وذهاباً. توجه إلى وزيره سائلاً عما يفعل الناس في مئات السفن تلك؛ فأجابه وزيره قائلاً إنه إنّما رأى سفينتين اسمهما «الشهرة» و«الثروة». لقد استطاع كثير من المثقفين النجاة من شرك الثروة، لكن الأعظم بينهم فقط هو القادر على النجاة من شرك الشهرة.

في أحد الأيام كان أحد الرهبان يحادث تلميذه في هذين المصدرين للهموم الدنيوية، فقال: «إنّ الخلاص من الرغبة في المال أيسر من الخلاص من الرغبة في الشهرة. حتى العلماء والرهبان المعتزلون يحبون أن يتميزوا ويشتهروا بين صحبهم. إنّهم يحبون إلقاء الخطب علانية على جمهرة عظيمة من المستمعين، وألا يعتزلوا في دير صغير يتحدث فيه الواحد منهم إلى تلميذ واحد،

على مثال حالنا أنا وأنت الآن». أجاب التلميذ: «حقاً أقول، يا معلمي، لأنت الرجل الذي ليس في العالم غيره قهر الرغبة في الشهرة!». فتبسّم المعلّم».

الهوامش

● المصدر: أخذت هذه المختارات من موقع إلكتروني فلسفي هو (philosophicalsociety.com) ثم حققتها بالرجوع إلى الأعمال التي منها اقتبست، وهي أعمال ليست منشورة بالعربية.

١- الدلاي لاما (١٩٣٥م - ...): الزعيم الروحي للتبت.

٢- ألبرت آينشتاين (١٨٧٩- ١٩٥٥م): فيزيائي ألماني

٣- النزعة الأنثروبومورفية هي الاعتقاد في شيء ما بأنه يتخذ صورة الإنسان وكيفياته- المترجم.

٤- هذا مجموع من القصص والمرويات الشعبية تُروى عن بعض أنبياء العهد القديم من الكتاب المقدس. وضع الكتاب بالعبرية يهودي (أو جماعة من اليهود) من القرن الأول الميلادي - المترجم.

٥- ويل ديورانت (١٨٨٥- ١٩٨١م): فيلسوف ومؤرخ أميركي.

٦- ميلو (ت ٤٨ ق.م): سياسي روماني أيد بومبيي في صراعه مع كلوديوس. نظم عصابات من المرتزقة خاضت صدامات مع أنصار كلوديوس كانت روما مسرحاً لها بين سنتي ٥٧ و٥٢ق.م- المترجم.

٧- انتفاخ واحمرار في الجلد- المترجم.

٨- غطاء إبريق الشاي هو اسم لفضيحة وقعت في الولايات المتحدة في عشرينيات القرن العشرين وحامت حول تأجير وزير الداخلية لاحتياطات النفط الاتحادية سراً- المترجم.

٩- الديماغوجي هو الزعيم الذي يستعمل تظلمات الشعب والدعاوى والوعود الكاذبة لنيل السلطة- المترجم.

١٠- إراسموس (١٤٦٩- ١٥٣٦م): أحد الإنسانيين الهولنديين.

١١- وليم جيمس (١٨٤٢- ١٩١٠م): فيلسوف وعالم نفس أميركي.

١٢- كارل يونغ (١٨٧٥- ١٩٦١م): عالم نفس سويسري.

١٣- بليز باسكال (١٦٢٣- ١٦٦٢م): رياضي وفيزيائي وفيلسوف فرنسي.

١٤- أرتور شوبنهاوَر (١٧٨٨- ١٨٦٠م): فيلسوف ألماني.

١٥- طرأ الشيء طراءة فهو طارئ.

١٦- لين يوتانغ (١٨٩٥- ١٩٧٦م): أديب صيني.

فاخر عاقل
رائد علم النفس في سورية
(شؤون وشجون)

د. عمر الدقاق ❂

إنَّ وراء كل نتاج في العلوم والآداب والفنون أناساً مبدعين وأعلاماً نابهين كانوا مصادر المعارف الإنسانية ومنابعها الثرة. والتأريخ لهؤلاء الأعلام فن خاص يعرف باسم (التراجم). والمكتبة العربية من أفضل ما عرفته حضارات الشعوب من المصنفات في هذا الصدد.. وقديماً أطلق العرب أيضاً على هذا اللون من المؤلفات اسم الطبقات المرادف للتراجم والأعلام. وكان أن صنفوا كتباً جمة في طبقات الصحابة وطبقات الفقهاء والحفاظ والمحدثين، وأيضاً في طبقات الشعراء والأطباء والمغنين.

على أن الترجمة لعالم أو علم تكتسب أهمية وتزداد ثراء حين يتاح للمؤرخ أو الباحث أو المصنف أن يتناول المترجم له وهو على قيد الحياة، لما تنطوي عليه شخصيته من تفرد وخصوصية قد لا يتاح مثلها لمن يتناول الشخص المراد بعد وفاته وانقضاء زمن على رحيله..

وهذا ما أتيح لي عبر مسيرتي في الكتابة والبحث والتأليف حين كتبت مقالات ودراسات عن بعض أعلام العصر من مفكرين وأدباء وشعراء وعلماء ممن قدر لي أن أعرفهم في أيامهم الأخيرة من مثل ساطع الحصري ومحمد كرد علي وخير الدين الزركلي وشفيق جبري وعمر أبو ريشة

❂ أديب وباحث وأستاذ جامعي.

وأمجد الطرابلسي ونزار قباني ومحمود درويش وخير الدين الأسدي والشاعر القروي وإلياس فرحات ونظير زيتون وعبد الله يوركي حلاق وسامي كيالي وخليل هنداوي ومحمد مندور وعبد السلام العجيلي ثم عبد الله عبد الدايم وفاخر عاقل ونحوهم ممن اسعدتني معرفتهم أو التتلمذ لهم، رحمهم الله وجزاهم خيراً بقدر ما قدموه لوطنهم وأمتهم.

أمَّا فاخر عاقل فقد كانت زياراتي له المتقاربة أو المتباعدة أحياناً حافلة بفيض من ذكريات الرجل الكبير المصحوبة بقدر واف من الحلاوة والمرارة..

• • •

السيرة والتكوين:

تأسست في سورية العربية الجامعة السورية في دمشق في عهدها الجديد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وفي إثر نيل البلاد استقلالها. وكان ذلك بفضل مبادرة ساطع الحصري المستشار الأعلى بوزارة المعارف. وكانت هذه الجامعة الوليدة مؤلفة من مجموعة من الصروح العلمية في دمشق هي كلية الآداب وكلية العلوم والمعهد العالي للمعلمين، وفي الوقت نفسه كلية الهندسة في حلب. كل ذلك إضافة إلى معهديّ الطب والحقوق اللذين كانا النواة الأولى للجامعة السورية، وقد افتتحت الجامعة أبوابها واستقبلت طلابها في دمشق وحلب في العام الدراسي ١٩٤٦-١٩٤٧م. ثم انبثقت في كلية الآداب أقسام علمية متخصصة أولها قسم اللغة العربية ثم قسم الفلسفة. وأنشئت بعد ذلك كلية التربية، وكان علم النفس أهم أقسامها.

وقد نعمت الجامعة السورية في ذلك الحين ولاسيما كلية الآداب بأساتذة كبار يعود إليهم الفضل في رفد الحركة التعليمية بجيل تال مكين من المتخرجين حمل لواء التدريس في المرحلة الثانوية على خير ما كان مرجواً في عهد سورية الحديثة. ومن هؤلاء الأساتذة الروّاد في مجال الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع خالد شاتيلا وجميل صليبا وكامل عياد وحكمت هاشم وعادل العوّا وعبد الله عبد الدائم، ومن ثم فاخر عاقل الدارس الموفد الذي عاد من أوروبة بعد حصوله على المؤهل العلمي وانضم إلى هذه الصفوة الجليلة من أساتذة الجيل.

إنها سيرة مواطن عصامي نابه أنجبته أسرة متوسطة في بلدة كفر تخاريم الصغيرة من إدلب الخضراء بظاهر محافظة حلب، وهي البلدة الوادعة التي شرفت قبل ذلك بإنجاب الزعيم الثائر إبراهيم هنانو بطل المقاومة الوطنية ضد المحتلين الفرنسيين.

فقد ولد فاخر سنة ١٩١٨م لأب كان

يعمل مديراً للمال في بعض أقضية حلب حيث أتمّ دراسته الابتدائية. ومن ثم انتقل مع أسرته إلى حلب وتابع دراسته الثانوية في (المكتب السلطاني) العريق الذي اشتهر باسم مدرسة التجهيز وبعد ذلك باسم ثانوية المأمون، حيث حصل على شهادة البكالوريا. وسرعان ما وقع عليه الاختيار بفضل نباهته ليسافر إلى بيروت موفداً على نفقة إحدى المنح الدراسية، فالتحق بالجامعة الأميركية وتخرج فيها حاملاً درجة البكالوريوس ثم درجة الماجستير. وتبعاً لتفوقه على سائر أقرانه أوفدته وزارة المعارف السورية إلى بريطانيا لمتابعة دراسته العالية في الكلية الجامعية في جامعة لندن حيث تخرج فيها حاملاً درجة دكتور في الفلسفة قسم التربية وعلم النفس.

وفي إثر عودة الدكتور فاخر إلى وطنه عين مدرساً في كلية الآداب في الجامعة السورية فأستاذاً مساعداً ثم أستاذاً ذا كرسي. وقد تولى في ذلك الحين رئاسة قسم علم النفس في كلية التربية. ثم انتدب بعد حين للتدريس في الجامعة الأردنية في عمان ثم في جامعة الكويت. وحينئذ تم اختياره للعمل خبيراً في منظمة اليونسكو حيث أمضى ثمانية أعوام في رحاب تلك المؤسسة الدولية.

تزوج الدكتور فاخر عاقل ورزق ثلاثة أبناء يقيمون الآن في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تعمل كبراهم هدى أستاذة متميزة في جامعة ميشيغان، والثاني بشر وهو طبيب متخصص في أمراض الصدر والإيدز، ثم ميادة وهي أستاذة في جامعة جورج تاون ومستشارة في مديرية الصحة النفسية الأميركية..

ولعل هؤلاء النجباء النابهين خير أنموذج للتربية القويمة والتوجه العلمي الذي آثره الوالد العاقل في أسرته، فقد أحسن رعايتهم وتكوينهم ليؤدوا رسالة العطاء في حياتهم. ولا ريب أن ذلك التباعد المكاني بين الأب والأبناء يحز في نفوسنا، وأنا واحد من هؤلاء حين نرى فلذات أكبادنا منتثرين في أرجاء الأرض، حيث يبدعون في أرض غير أرضهم ويعطون خيرهم لغير قومهم. هو ذا واقعنا وحال أبنائنا في المهاجر القصية وما أكثرهم. إنه قانون علم الاجتماع المعهود، الذي يعلل هذه الظاهرة في وطننا وفي سائر عالمنا الثالث بالعوامل النابذة والعوامل الجاذبة..

❁ ❁ ❁

تعد مرحلة دراسة فاخر عاقل في مدرسة التجهيز في حلب وهي كبرى المدارس خلال ثلاثينيات القرن العشرين أساساً وطيداً في تكوين شخصيته الثقافية واللغوية والعلمية، وقد صاحبه في دراسته يومئذ عدد من مجايليه الشبان النابهين الذين أصبحوا فيما بعد في عداد الصفوة من الجيل

الصاعد الذي نعمت به سورية العربية في عهد الاستقلال وذلك في مجالات القانون والقضاء والإدارة والتدريس والاقتصاد والسياسة..

وكان تأثير الأستاذ الجليل الشيخ بدر الدين النعساني بالغاً في تكوين شخصية فاخر عاقل. والنعساني أحد روّاد الحركة التعليمية المباركة في مدينة حلب، وهو شاعر جزل الأسلوب وخطيب مفوه، كما أنه متمكن من تراث العربية ولغتها الضادية، وكانت له مشاركة في تحقيق عدد من مؤلفات السلف.

وقد امتاز بقوة حضوره وتميز عطائه في حقل التدريس. ومن صور الوفاء، وفاء التلميذ لأستاذه أنه أي فاخر عاقل كان يستقبل بين الحين والحين زائريه في مسكنه بدار السعادة للمسنين في حلب وجلهم من طلابه السابقين وذوي الفضل والمكانة. وكثيراً ما كان يأخذ بأطراف الحديث الشائق ويسترسل في رحاب الذكريات المعتقة ثم لا يلبث أن يعرج على ذكر أستاذه النعساني كلما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وإذ ذاك يشير باعتزاز إلى تلك الصورة المعلقة في صدر غرفته صورة شيخه المعمم، مشيداً بفضله مترحماً عليه. ومما حدثنا به وأثبته في بعض كتبه أن سأل مرة أستاذه الشيخ أن يرشده إلى كتاب يعتمد عليه لاكتساب ثروة اللغة وامتلاك ملكة التعبير وجمال الأسلوب فكان جوابه: القرآن، وحين طلب منه المزيد قال أيضاً: القرآن ثم القرآن.

وهكذا كان لإجادة فاخر عاقل اللغة العربية فضل كبير على اقتداره في التدريس وحسن محاضراته وجودة كتاباته في دراساته ومؤلفاته ولا سيما تأليفه معجمه النفيس (معجم العلوم النفسية).

وقد تمكن فاخر عاقل من إتقان اللغة الإنكليزية خلال دراسته في الجامعات الأجنبية في لبنان ثم في بريطانيا وأميريكة. كما كان له إلمام حسن باللغة الفرنسية. وقد أهله هذا التكوين اللغوي لخوض غمار التأليف المعجمي وتناول المصطلحات العلمية على أفضل وجه من الدقة والإتقان.

للعلامة فاخر عاقل ثلاثون كتاباً باللغتين العربية والإنكليزية، ثلاثة كتب منها مترجمة، ومن مؤلفاته الموسوعة النفسية في علم النفس والطب النفسي، وكتاب الإبداع وتربيته، وكتاب علماء نفس أثروا في التربية، وكتاب ما وراء علم النفس..إلخ، ثم كان آخر كتاب له هو (معجم العلوم النفسية - إنكليزي-عربي. مع مسرد عربي -إنكليزي) ويقع في ٦٧٧صفحة وقد صدر عن دار شعاع في حلب سنة ٢٠٠٣م. وهو أجلّ كتبه وفي طليعة المؤلفات المتخصصة التي يعتد بها في موضوعه. وقد أسعدني وشرفني أن

يتكـرم الدكتور عاقل بإهـداء هذا الكتاب النفيسـ إليّ. وبسبب وطـأة مرضه ورجفة أطرافه أملى على مساعـده عبارات طيبة دوّنها في رأس المعجم، ثم تناول الكتاب ومهر الإهداء بتوقيعه الكـريم وبيمناه المرتعشة، رحمه الله.

آثـر فاخر عاقل الإقامة في دار السعادة للمسنـين في مدينة حلـب وبقي فيها قرابة عشر سنين بعد بلوغه مرحلة التقاعد. وكان خـلال هذه السنـين كمـا كان شأنه طوال حياتـه يعيش من كد عملـه ومما كان لديه من وفـر يكفيه ويغنيه عـن الاعتماد على أبنائه وهم نجباء وأبـرار.. وفي هذا الملاذ الحضاري الهادئ وضمن جناحه المريح كان يمضي أوقاتـه في الكتابة ومتابعة بعض ما يختاره من الإصـدارات الجديدة في مجال العلـوم الاجتماعية ونحوها في عالم الثقافة والفكر.

وكان في شيخوختـه بل في هرمه ناشطاً نابهـاً يرفد مجلة المعرفـة في دمشق ومجلة العربـي في الكويت بمقـالات رصينة حول المراهقة والإبـداع وقضايا التعلم والسلوك وهـو في التسعين من عمره، مستعيناً بشاب يوفـر له متطلبات النسخ والتراسل، وهو في الغالب مستلق على فراشه حيناً أو مضطجع على مقعده الطويل حيناً آخر.

وعلـى هذه الحـال كان يستقبل زائريه من طلابه السابقين ومن سائر محبيه وكنت واحـداً منهم أتبرك بلقائـه المحبب وأسعد بحديثـه الشائق وذكرياتـه الطريفة. وكان أن حباه الله ذاكرة حية وقدرة مناسبة على البصـر والسمـع، ولم يخل ذلـك من رعشة تتبدى في كفيه وقدميه..

وكان يعتذر عن حالته هذه أمامنا بقوله لم يبـق في جسـدي عضو سليـم، ثم يشير بإصبعـه إلى رأسه ويقـول إلا هذا، وأحمد الله علـى نعمته. وقد تعددت زيارات بعض الكتّاب والصحفيين له في غرفته وكتبوا عن لقاءاتهم به العديد من المقالات.

لقـد شـارك فاخر عاقـل في السنوات الأخيرة من عمـره المديد ببعض النشاطات الاجتماعية والخيرية والندوات الثقافية في حلب، تحدث خلالها بكلمات طيبة وموفقة كانت موضع استحسان وتقدير لدى سامعيه من الحاضرين.

ومـن جهة أخـرى حظي فاخـر عاقل بحفل تكريمـي يليق بـه في المركز الثقافي بحلـب في السابـع من تموز سنـة ٢٠٠٧م. وبعد عامين من هذه المبادرة في صيف سنة ٢٠٠٩م تنادى الأوفياء والمحبون مرة أخرى إلى تكريم الأستاذ الجليل داخل داره في بهو المكتبـة الرحيب ومراعـاة لضعفه ومرضه بعد أن بلغ التسعين بل تخطاها.

وفي هـذا الجو الرائق الحميـم ألقيت

كلمات مفعمة بالود والإجلال ومنها كلمة السيدة نجوى شـنن رئيسة مجلس إدارة دار السعادة، وكلمة المحامي شمس الدين فنصة، وكلمة الدكتور محمود عـكام مفتي حلب، وكلمة السيد أحمد عبد الكريم الذي قدم إلى حلب لتجديد اللقاء مع أستاذه الأثير. وكلهم من طلابه السابقين. ثم كانت الكلمة الأخيرة للمكرم العزيز فاخر عاقل الذي توج الكلمات على جمالها بكلمة استغرقت قرابة الساعة كان حديثه خلالها سائغاً شائقاً على نحو أدهش الحاضرين، وكأنما استمد من هذا الجمع الحميم عناصر طاقة وحيوية غير معهودة من مثل ما كان عليه حاله من التعب والمرض، فالنور لابد أن ينبثق، والنبع يأبى إلا أن يندفق.

وبعد سنين حافلة من المهام التربوية والأكاديمية آثر فاخر عاقل أن يتقاعد عن الأعمال الرسمية ليتفرغ للكتابة والتأليف. وقد احتفى به محبوه وعارفو فضله في حلب وعمدوا إلى تكريمه والإشادة بفضله. وكان التكريم الأمثل حين أنعم عليه السيد رئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد بوسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة في حفل مشهود في دمشق.

توفي أستاذ الجيل فاخر عاقل في حلب يوم السابع والعشرين من كانون الثاني عام ٢٠١٠م عن اثنتين وتسعين سنة حافلة بالعطاء الثر والأداء المتميز. وقد أقيم له في رحاب جامعة دمشق حفل تأبين كبير تجلت فيه مشاعر الوفاء والإجلال إلى أبعد مدى.

وإذا كان من المعهود في هذه الحياة أن تتخلل الورود بعض الأشواك، وأن تكدر المياه بعض الأقذاء، فإن حياة فاخر عاقل الحافلة بالعطاء المتميز والمفعمة بالسيرة الحميدة والعمل الدؤوب لقيت بعض المنغصات التي طالما تأذت منها نفسه المرهفة.

• • •

فخلال أوقات متقاربة أو متباعدة روى لي أستاذنا العاقل وأنا أعوده في معتكفه الهادئ خبر لقائه بالسيد رئيس الجمهورية حافظ الأسد. وذلك حين استدعاه إلى مكتبه بالقصر الجمهوري في موعد خاص. وكان ذلك كما قال ضمن سياق رغبة الرئيس في التواصل مع النخبة والاطلاع على المزيد من أحوال الناس والتعرف من خلالهم على من يرجى منهم الخير للوطن والمجتمع..

وبطبيعة الحال دار الحديث يومئذ حول أوضاع التعليم العالي وحول الجامعات والمعاهد ونحو ذلك. ثم تطرق الكلام إلى موضوع البحث العلمي في الكليات الجامعية وخاصة في جامعة دمشق العريقة. وعندئذ أبدى الأستاذ فاخر رأيه حول هذا الموضوع ومفاده أن البحث العلمي مازال متعثراً، وأنه

غير راض عنه. وعندئذ أبدى الرئيس الأسد لضيفه الأستاذ استغرابه مما سمع وأن ما يحمله من انطباع في هذا الصدد انطباع إيجابي، ثم أضاف أن هذا ما كان يسمعه خلال لقاءاته مع بعض الأساتذة والإداريين وكبار أصحاب العلاقة في هذا القطاع التعليمي.. وإزاء هذا التعارض في الرأي بدا للأستاذ فاخر أن يقول للسيد الرئيس معلقاً على أولئك الذين سبق أن أسمعوا الرئيس ذلك الكلام الجميل فقال له من دون تردد: (لقد كانوا يغشونك).

وهنا أطرق الرئيس ببصره لحظات ثم سكت عن متابعة الموضوع. وكان أن انتهى اللقاء في إثر ذلك..

وإذ ذاك، وفي إثر سماعي من الأستاذ فاخر مجمل هذه المقابلة المهمة بدا لي أن أعلق حول هذا الموضوع فقلت له لا ريب أن عبارتك المقتضبة تلك كانت مفاجأة للرئيس في واقع تصوره لحال الجامعة والبحث العلمي فيها، وأن صمته أو إطراق بصره كان يدل على أنه أخذ يتساءل في قرارة نفسه: (ولكن أين هي الحقيقة؟)...

ثم اعتدل أستاذنا في مضجعه ليقول بثقة واهتمام: يا سيدي إن العلة تكمن قبل كل شيء في بطانة السوء، هذه البطانة التي طالما كان يحذر منها أجدادنا، إنها متغلغلة إلى أبعد مدى لدى مجمل أصحاب القرار وسائر الحكّام العرب في عصرنا، وإليها تعود جذور الفساد المستشري بين العباد في البلاد.

وهنا استأذنت أستاذنا بالقول: (إن الشيء بالشيء يذكر، وأود في هذا الصدد أن أستأنف الحديث حول موضوع البحث العلمي لقد كانت واقعة مؤسفة عرضت لي في جامعة حلب التي أمضيت في رحابها شطراً عزيزاً من عمري ومفاد ذلك أنني وبعد ممارستي التدريس والإدارة سنوات مديدة تقدمت بخطاب إلى رئاسة الجامعة أبديت فيه رغبتي في الإيفاد إلى فرنسا وفقاً للأنظمة المرعية، وذلك لمدة اثني عشر شهراً بقصد ترميم معارفي ومعلوماتي كما يقال).

وهذا ما كان في مطلع ثمانينيات القرن العشرين الماضي. وهناك في باريس وفي رحاب جامعة السوربون ومكتبة اللغات الشرقية أمضيت سنة عزيزة تعد من العمر حقاً حيث أتيح لي خلالها أيضاً أن أسعد بالتواصل مع نخبة من كبار الأساتذة والمستشرقين مثل شارل بللا وأندريه ميكيل ومحمد أركون.. وفي هذا الجو الأكاديمي الرفيع أنجزت دراستي المنشودة حول (اللغة المحكية في كتابات الجاحظ) وعندما عدت إلى الوطن بادرت إلى كتابة تقرير معهود عرضت فيه مجمل عملي عن مهمتي

العلميـة وأبديـت في نهايتـه رغبتي في أن تتولى جامعتي طباعة البحث المذكور ونشره في إصدار خاص.

ثـم تابعت حديثـي مع الأستـاذ عاقل قائلاً:

ولكـن مـا صدمنـي في إثر ذلـك أن تقريري أدرج ضمن جـدول إحدى جلسات مجلس الجامعة ثم ذيل بالعبارة المألوفة(تم الاطلاع).

وقـد ساءني هـذا الاستخفاف بجهدي وسـاءني تجاهل الجامعة ثمـرة ما أوفدت لأجله. وقصدت رئيـس الجامعة معاتباً بل منتقداً. وقد علل ذلـك بأنه ليس من مهام الجامعة ومطبعتها نشر مثل هذه الدراسات، وأن مهمـة المطبعـة تنحصـر في طباعة جداول التسجيل وما يتعلق بشؤون الطلاب والامتحانات، وبطبيعة الحال طباعة الكتب الجامعية المقررة.

وعندئـذ قلت بثقة: إننـي قمت بعملي وفقاً لخطة البحث العلمي المنشود، وتحملت الجامعة كلفـة الإيفاد كاملة، ومن حقها أن تسائلنـي بل تقاضيني لو لم أنجز ما يتوجب عليّ في مقابـل ذلك، وكأننـي أمضي سنة كاملـة في أوروبـة بصفة سائـح فقط. ثم أضفت إلى كل ذلك قولي إن مطبعة الجامعة الحديثة والملاصقة لكليتـي لا يضيرها أن تطبع بحثاً لا تتعـدى صفحاته الأربعين أو الخمسـين وهكـذا بقي البحـث راقداً في خزائن الإدارة.

وعندئذ سلكت طريقـاً مغايراً فأرسلت نسخة مصـورة عن بحثـي إلى مجلة (عالم الفكر) الفصلية الشهيرة التي تصدرها دولة الكويت. وبعد أسابيع معدودة صدر عددها الخاص يوليو - أكتوبر ١٩٨٦م وقد تضمن بحثي تحت عنوان (اللغـة المحكية في أدب الجاحظ). وفي السنة التالية أعدت نشره في كتابـي الصادر عن اتحاد الكتّاب العرب في بضع وخمسين صفحة. وما يجدر ذكره أنني تلقيت من المجلة المذكورة ما يعادل مكافآت أربعة كتب تقريباً تدفعهـا الجامعة لمؤلفها في سورية..

• • •

وتبعـاً لممارسـة الدكتـور العاقل عمله المديد في حقل التدريس وفي مجال التأليف ولاسيما خـلال ترؤسه قسم علم النفس في جامعـة دمشق فقـد طمـح إلى إغناء هذا العلم الجديد بعد أن بلغ في البلاد المتقدمة مرحلة متقدمة من التطور.

وقد ذكر في حديث آخر ذات يوم وهو في مضجعه أن العلـوم النفسية لم تعد دراسات نظرية مثل ما كان سائداً في القرن العشرين وأصبحت تستند إلى التجريب وتعتمد على المخابر، شأنها في ذلك شأن العلوم الأساسية. كما ذكر في هذا الصدد أنه لم يتم في سورية

إنشاء مخبر واحد يلبي حاجة الدارسين. وعلى ذلك وبفضل مساعيه تم جلب ما يلزم من الأجهزة من أمريكا واليابان. ثم اقترح الأستاذ عاقل أن تكون إلى جانب ذلك ورشة صيانة لهذه الآلات ضماناً لاستمرارية العمل على النحو المنشود..

على أن ذلك لم يتم، وتوالت الأيام لتبقى هذه الأجهزة راقدة في خزائن الجامعة ومقفلة من دون الاستفادة منها. وهذا إحباط آخر على صعيد تطوير البحث العلمي الحديث ومواكبة التكنولوجيا المعاصرة، إذ نحن كما قال الشاعر (كلنا في الهم شرق)

• • •

وذات يوم، وفي زيارة أخرى لجناح الدكتور عاقل في دار المسنين في حلب حملت إليه كتاباً جديداً صدر لي بعد أن وشحته بإهداء لائق. وبعدئذ أخذنا بأطراف الأحاديث التي كان أكثرها شائقاً طيباً ومغشى بروح ناقدة ساخرة. ويبدو لي أن أستاذنا كان يرتاح لي ويطيب له أن يمتح ما يعن في باله من مخزون ذكرياته السالفة. وإذ ذاك يسترسل في الحديث ويتدفق برائق الكلام في سياق حميم مسربل بالبوح.

ومن هذا القبيل ما ظل عالقاً في ذاكرته وأورده في كتابه (علماء نفس أثروا في التربية)، ثم حدثنا به ذات يوم بمرارة، وذلك حين التقى بدمشق فيما مضى من السنين برئيس وزراء سابق كان من قبل واحداً من تلاميذه وأصبح بعد ذلك وزيراً ثم رئيس وزارة، فوجدها الأستاذ عاقل فرصة مناسبة فاقترح على هذا الوزير وهو معلم سابق أن يحدث وساماً للمعلمين المتميزين، تشجيعاً لهم وتقديراً، فابتسم الرجل على التو وقال: (يبدو لي أن أستاذنا يريد وساماً). وكان تعليق الأستاذ هو الصمت والإطراق وإلقاء تحية الانصراف..

ومن تلك الذكريات المرة التي تنغص على المرء عيشه أنه كما حدثنا أستاذنا كان لديه مكتبة نفيسة منتقاة تضم أربعة آلاف وخمسمئة كتاب. وكان يؤرقه مصيرها من بعده. فقرر إهداءها إلى كليته الأثيرة في دمشق كلية التربية. ثم عرض هذه المكرمة على السيدة الدكتورة عميدة الكلية وقال لها إنه يرغب أن يكون تبرعه مقترناً بتخصيص غرفة أو قاعة لهذه الكتب وأن يفرز لها موظف ليكون قيماً على المكتبة المهداة. ولم يطل الأمر سوى لحظات، لا للشكر وقبول الهبة بل للاعتذار عن عدم الموافقة على هذا العرض لعدم توافر الإمكانيات..

وذلك بكلمات مقتضبة باهتة هي (لا هذا ولا ذاك). وفي إثر ذلك انعطف الأستاذ عاقل إلى مسار حميد آخر وتبرع بكتبه القيمة وحصاد عمره المديد لتودع

في ركن حريز في مكتبة الأسد.. ومنذ ذلك اليوم انسحب من سلك التدريس وانصرف إلى حقل التأليف.

وثمة منغص أخير كان مبعث أسى عميق في نفس الأستاذ عاقل، وقلما يفصح عنه، إنه كان يأمل أن يغدو في عداد أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق. ولكن المجمع قد غفل عنه، على حين بادر إلى ضم آخرين إليه لم يكن يقل عنهم شأناً في سلم المعرفة والعطاء، أما أنا فلطالما حرصت على أن أتحاشى ذكر عضويتي في المجمع أمامه وأنا تلميذه، فيما أرى أنه قد يسبب حرجاً لي وله.

وإلى الآن أتساءل ويتساءل العديدون معي أين هي المعايير، أليس كتابه الجليل معجم العلوم النفسية وحده كافياً ليجعله مؤهلاً لدخول تلك المؤسسة الرفيعة من بابها الواسع ومن قبله ضم مجمع اللغة العربية إلى عضويته العلامة الأمير مصطفى الشهابي صاحب المعجم الرائد الرائع أيضاً وهو معجم الألفاظ الزراعية، هذا إذا أغفلنا محتوى رف كبير من مؤلفات الدكتور عاقل العلمية عبر مسيرة عمر حافل بالعطاء الثر المتميز في حقل العلم والمعرفة.

ومهما يكن من أمر فإن قيمة المرء ما يحسن كما قال الإمام علي الخليفة الراشدي، فالخير ملحوظ والمقام محفوظ. فمن أبرز ملامح النجابة والوفاء والتقدير والإجلال أن تبادر مئات من الأوفياء والمحبين أكثر من مرة إلى تكريم هذا الأستاذ الكبير، وأن يهرع أيضاً عدد من الرسميين وذوي المناصب إلى زيارة أستاذهم في داره هذه للاستفسار عن حاله وإبلاغه أطيب التحيات وأخلص التمنيات، من مثل مبادرة السيدين وزيريّ الثقافة الدكتور محمود السيد ثم الدكتور رياض نعسان آغا والدكتورة بثينة شعبان والعميد أحمد عبد الكريم. وسوى هؤلاء المرموقين. على أن التكريم الأكبر أو المبادرة الأسمى تتجلى لدى أعلى مستوى في الدولة حين منحه السيد رئيس الجمهورية بشار الأسد وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة..

وكل ما بوسعنا قوله بعد رحيل أستاذ الجيل والعلامة الجليل فاخر عاقل: بارك الله هذه المدينة حلب المحروسة التي احتضنت في نهاية المطاف أحد أبنائها الأوفياء وأحبتها المبدعين وضمته إلى شغاف قلبها وهي تردد باعتزاز قول شاعرها أبي بكر الصنوبري:

حلب أكرم مأوى
وكريم من أواها

من مصادر البحث:

١- مؤلفات الدكتور فاخر عاقل ومقالاته في مجلة العربي ومجلة المعرفة.
٢- كتابات ومقالات نشر أكثرها في جريدة الجماهير في حلب بقلم فواز حجو وجمال طحان وعمر الدقاق.
٣- كلمات في مناسبتيّ تكريم الأستاذ عاقل ألقاها الشيخ الدكتور محمود عكام والمحامي الأستاذ شمس الدين فنصة وآخرون.

الذكاء الوجداني (العاطفي)
نافذتك على التوازن النفسي والنجاح في الحياة

د. معمر نواف الهوارنة *

إنَّ الذكاء الأكاديمي لا يعدّ المرء في الواقع لما يجري في الحياة بعد ذلك من أحداث مليئة بالاضطرابات والتقلبات، أو لما تتضمنه من فرص. ومن ثم فإن أي ارتفاع في مستوى معامل الذكاء لا يضمن الرفاهية أو المركز المتميز أو السعادة في الحياة. ذلك لأنَّ مؤسساتنا التعليمية، وثقافتنا تقف في ثبات عند القدرات الأكاديمية متجاهلة الذكاء العاطفي. والذكاء العاطفي مجموعة من السمات، قد يسميها البعض صفات شخصية لها أهميتها البالغة في مصيرنا كأفراد.

فالحياة العاطفية ميدان يمكن التعامل معه مثل الرياضيات والدراسات بدرجات متفاوتة من المهارة، وهي تتطلب أيضاً مجموعة من القدرات الفريدة الخاصة بها، وكيف يتميز الإنسان بمهارة تتطلب تفهماً في الحالات الحرجة.

ما هو الذكاء الوجداني؟

الذكاء الوجداني هو عبارة عن مجموعة من الصفات الشخصية والمهارات الاجتماعية والوجدانية التي تمكّن الشخص من تفهم مشاعر وانفعالات الآخرين، ومن ثم يكون أكثر قدرة على ترشيد حياته النفسية والاجتماعية انطلاقاً من هذه المهارات.

* باحث وعضو هيئة تدريسية بقسم علم النفس- جامعة دمشق.

فالشخص الذي يتسم بدرجة عالية من الذكاء الوجداني، يتصف بقدرات ومهارات تمكنه من أن:

- يتعاطف مع الآخرين خاصة في أوقات ضيقهم.
- يسهل عليه تكوين الأصدقاء والمحافظة عليهم.
- يتحكم في الانفعالات والتقلبات الوجدانية.
- يعبر عن المشاعر والأحاسيس بسهولة.
- يتفهَّم المشكلات بين الأشخاص ويحل الخلافات بينهم بيسر.
- يحترم الآخرين ويقدرهم.
- يظهر درجة عالية من الود والمودة في تعامله مع الناس.
- يحقق الحب والتقدير من الذين يعرفونه.
- يتفهم مشاعر الآخرين ودوافعهم ويستطيع أن ينظر للأمور من وجهات نظرهم.
- يميل للاستقلال في الرأي والحكم وفهم الأمور.
- يتكيف حسب المواقف الاجتماعية الجديدة بسهولة.
- يواجه المواقف الصعبة بثقة.
- يشعر بالراحة في المواقف الحميمية التي تتطلب تبادل المشاعر والمودة.
- يستطيع أن يتصدى للأخطاء والامتهان الخارجي.

مما تقدم يلاحظ أن الذكاء الوجداني مفهوم يحمل في طياته عدداً من السمات والصفات التي يمكن تلخيصها فيما يأتي:

١- الإدراك الواضح لدوافعه الشخصية بما في ذلك وعيه بمختلف المشاعر التي تتملكه حتى وهو في قمة الانفعال.

٢- يثق في نفسه ويتحمل مسؤولية أفعاله وينزع للاستقلال في تصرفاته وآرائه.

٣- يتمتع بدرجة عالية من الصحة النفسية بما في ذلك الخلو النسبي من اضطرابات القلق والكآبة.

٤- ينظر للحياة بتفاؤل وإيجابية.

٥- قد يشعر أصحاب هذا النوع من الشخصية بالكدر والضيق أحياناً كالآخرين ولكنهم يستطيعون التخلص من هذه المشاعر في فترات قصيرة بسبب ما يتسمون به من عقلانية وحنكة.

٦- لديهم قدرة عالية على التحكم في تقلباتهم الانفعالية، مع توظيف مشاعرهم وعواطفهم لما فيه الصالح الشخصي من دون تضحية بصالح الآخرين.

٧- يتفهمون جيداً ما يواجههم من آمال أو آلام ومن ثم تتسع الفرص أمامهم

للنجاح والتفوق وتكوين علاقات إنسانية فعالة بالآخرين.

٨- يمكنك أن تتوقع ما تستطيع تحقيقه في الحياة من فوز وتفوق إذا كنت تملك قدراً مرتفعاً من الذكاء الوجداني إضافة للذكاء العقلي الذي يرتبط بالنجاح الأكاديمي وتحصيل العلم والمعلومات وغيرها من المهارات الفكرية والذهنية التي تقيسها مقاييس الذكاء التقليدية.

ومنذ تبلور هذا المفهوم، أصبح من أكثر المفاهيم رواجاً في علم النفس لدرجة أن الرئيس الأمريكي السابق «كلينتون» عندما سألوه في إحدى اللقاءات عن أهم المفاهيم التي أثرت في حياته المهنية ونجاحه السياسي والاجتماعي كان مفهوم الذكاء الوجداني من أكثر المفاهيم التي ذكر أنها أثارت تشوقه واهتمامه وأفادته في حياته أجل الفائدة.

الذكاء الوجداني يمكن تعلمه واكتسابه:

ولعلّ من أهم جوانب التطور إثارة في موضوع الذكاء الوجداني، ما يتعلق بتدريبه وزيادته في السلوك. فالذكاء الوجداني -بعكس الذكاء العقلي ونسبة الذكاء التقليدية- يتصف بعدد من المهارات التي يمكن تعلمها واكتسابها بيسر. وقد كشفت بحوث العلماء في هذا الصدد أن الذكاء الوجداني خاصية أو مجموعة من الخصائص يمكن تدريبها وتنميتها من خلال كثير من الأساليب التي تساعد على تنميتها وتقويتها في الشخصية.

سر اللعبة:

الآن عرفت ما هو الذكاء الوجداني وتعرفت على بعض خصائصه الثابتة، ويبقى لك أن تعرف بعض ما يجب عمله لاكتساب مهاراته. وقد استطاع العلماء لحسن الحظ أن يكتشفوا كثيراً من أسرار هذا النوع من الذكاء كما استطاع البحث العلمي أن يمنحنا كثيراً من التوجيهات التي ترفع من معدل الذكاء الوجداني من بينها:

- تدريب الذات على الهدوء والاسترخاء في مواجهة الأزمات.

- كن واعياً بالمشاعر والانفعالات السلبية التي تتملكك أحياناً من دون توقع.

كن منتبهاً بشكل خاص لحالات القلق والاكتئاب والغضب، واعمل على التخلص منها أو الإقلال منها بقدر ما تستطيع، لأنَّها تعيق تفاعلاتك الجيدة بالناس وتجعل بينك وبينهم سداً منيعاً يعيق تفاعلك بهم.

- لا تجعل العناد أو المكابرة يحرمانك من التعلم من الآخرين حتى لو كانوا أصغر منك أو مختلفين عنك أو أقل مركزاً أو سطوة فالرأي الجيد والحكمة لا تعرف التمييز

فاطلبها حيثما وجدتها وأينما وجدتها ومع من تجدها.

- حافظ دائماً على مشاعر طيبة عند التعامل مع الآخرين بأن تتفهم مشاعرهم وما يوجههم من دوافع وحاجات شخصية واجتماعية.

تفهم مخاوفهم، ومشاعرهم بالغيرة والغضب حتى تكون أقدر على توجيه تفاعلاتك معهم في الطريق الإيجابي دائماً وبأقل قدر من التوتر.

- علينا أن ندرب أنفسنا جيداً على مواجهة الأزمات بهدوء، وأن نتصدى لحل الخلافات خاصة تلك التي تثور عندما نواجه مختلف التأثيرات السلبية والعقبات التي قد تطرحها أمامنا بيئة اجتماعية تعوق قدراتنا على النمو السليم والصحة النفسية.

- كذلك ينصح العلماء بأن تنمّي قدرتك على مواجهة النقد الخارجي. انظر للنقد بوصفه فرصة للناقد والمنتقد للعمل معاً نحو تحقيق هدف له معنى للوصول إلى حلول ناجحة للمشكلات التي أثارت النقد، وليس بوصفه خصومة وتآمر.

- راقب تحيزاتك وتعصبك الشخصي ضد بعض الأشخاص المختلفين عنك اجتماعياً أو ذهنياً.

تذكّر أن التعصب نوع من الجمود العاطفي ولهذا تتصف الشخصية المتعصبة بالعدائية نحو المختلفين عنا في الرأي أو السلوك مهما كانت الحقائق مختلفة عما نحمل من رأي متحيز أو توجه سلبي نحو الآخرين.

- ولكي تنمّي شخصيتك في اتجاه الذكاء الوجداني امنح فرصة لنمو مهاراتك على التعاطف ومؤازرة الآخرين ومد يد العون لهم.

أنّ العطاء لا يكون مادياً فحسب بل يمتد ليشمل قدرتك على العطاء من جهدك ووقتك وعلمك.

تذكر وأنه إذا كان من أهدافك أن تمد يد العون والمساعدة للآخرين فثق أنك ستجد الكثير من الطرق الملائمة لعمل ذلك، فالمجال أمامك واسع جداً لتكون خدوماً و«خادم القوم سيدهم».

- وأخيراً انظر وتأمل العبارات التي ننهي بها هذه الموضوع وعامل هذه العبارات على أنّها عقبة في تطورك الشخصي ونجاحك في العمل، ومن ثم تجنّب ما تصفه هذه العبارات من آراء أو سلوك، واعمل على أن تتصرف بعكسها، أي بحسب الخصائص الثمانية المذكورة في الموضوع.

استمر في ذلك حتى تصبح تصرفاتك

الجديدة عادية وترتبط بحق بما يسمى بالذكاء الوجداني.

إذا كنت أباً أو أماً كن على وعي بالعوامل التي تيسّر نموَّ الذكاء الوجداني لدى أطفالك مبكراً، قلل من انتقاداتك لآرائهم.

ناقش آراءهم في الناس والآخرين من دون تعصب. شجعهم على التعاطف مع الآخرين والتطوع للأعمال التعاونية والخيرية.

دربهم مبكراً على اكتساب المهارات الاجتماعية وتنويع صداقاتهم بفئات مختلفة من الناس.

شجعهم على التخلي عن الغضب والثورات الانفعالية بأن ترسم أمامهم بتصرفاتك قدوة لهم على الهدوء وتجنب الانفعالات. اطلب منهم دائماً أن يقدموا لك على الأقل ثلاثة حلول لأي مشكلة قد تواجههم أو تعترض نموهم.

أمّا عن القدرات التي تكمن وراء التمتع بالذكاء العاطفي فهي:

- **أن يعرف كل إنسان عواطفه:** فالوعي بالنفس، والتعرف على شعور ما وقت حدوثه، هو الحجر الأساس في الذكاء العاطفي، كما أن عدم القدرة على ملاحظة مشاعرنا الحقيقية، تجعلنا نقع تحت رحمتها،

فالأشخاص الذين يثقون بأنفسهم، هم من نعتبرهم أفضل من يعيشون حياتهم، لأنهم يمتلكون حاسة واثقة في كل ما يتخذونه من قرارات، مثل اختيار زوجاتهم، أو الوظيفة التي يشغلونها.

- **إدارة العواطف:** إنَّ التعامل مع المشاعر لتكون مشاعر ملائمة، قدرة تنبني على الوعي بالذات.

إن من يفتقرون إلى هذه المقدرة يظل كل منهم في حالة عراك مستمر مع الشعور بالكآبة، أمّا من يتمتعون بها فهم ينهضون من كبوات الحياة وتقلباتها بسرعة أكبر.

- **تحفيز النفس:** أي توجيه العواطف في خدمة هدف ما، أمر مهم يعمل على تحفيز النفس وانتباهها، وعلى التفوق والإبداع أيضاً. ذلك لأن التحكم بالانفعالات بمعنى تأجيل الإشباع ووقف الدوافع المكبوتة التي لا تقاوم، أساس مهم لكل إنجاز، وكذلك القدرة على الانغماس في تدفق العواطف حين يستلزم ذلك التوصل إلى أعلى أداء.

ونحن نجد أن إنتاج الأشخاص المتمتعين بهذه المهارة العاطفية، على أعلى مستوى من الأداء كما أنّهم يتمتعون بالفاعلية في كل ما يعهد به إليهم.

- **التعرف على عواطف الآخرين:** أو التقمص الوجداني «Empathy» وهو مقدرة أخرى تتأسس على الوعي بالانفعالات، إنّه «مهارة إنسانية» جوهرية بحق. فالأشخاص الذين يتمتعون بملكة

التقمص الوجداني يكونون أكثر قدرة على التقاط الإشارات الاجتماعية التي تدل على أن هناك من يحتاج إليهم.

وهذا يجعلهم أكثر استعداداً لأن يتولوا المهمة التي تتطلب رعاية مثل مهن التعليم، والتجارة، والإدارة.

- **توجيه العلاقات الإنسانية:** إنَّ فن العلاقات بين البشر هو في معظمه مهارة في تطويع عواطف الآخرين.

هذه هي القدرات التي تكمن وراء التمتع بالشعبية، والقيادة، والفعالية في عقد الصلات مع الآخرين، ولاشك في أن المتفوقين في هذه المهارات، يجيدون التأثير بمرونة في كل شيء يعتمد على التفاعل مع الناس. إنَّهم فعلاً نجوم المجتمع.

ومن الطبيعي أن يختلف الناس في قدراتهم في هذه المجالات المختلفة. فقد يكون بعضنا ذكياً في معالجته - مثلاً- لحالات القلق التي تنتابه، ولكنه لا يستطيع أن يخفف شعور شخص آخر بالملل أو الضجر.

ولا شك في أن أساس ما نتمتع به من قدرات، أساس عصبي «Neural» ومع ذلك، فالمخ طيع بصورة ملحوظة، لأنَّه دائم التعلم. وانخفاض القدرات العاطفية بصورة مؤقتة أمر ممكن علاجه، لأنَّ هذه القدرات في أي مجال، هي مجموعة من العادات واستجابة لهذه العادات، ومن الممكن أن تتحسن مع بذل الجهد المناسب معها.

انظر للعبارات التالية وأجب عن كل سؤال منها بالموافقة إذا كنت تعتقد أنَّها تنطبق عليك، أو عدم الموافقة إذا كنت تعتقد أن العبارة لا تنطبق عليك:

- أشعر أحياناً بالضيق من دون أن أعرف السبب في ذلك.

- بعض الأشخاص يثيرون استيائي مهما حاولت أن أبدو غير مهتم بهم.

- كل شخص يعاني من بعض المشاكل في حياته، ولكن مشكلاتي النفسية أضخم من أي شخص آخر.

- عندما تواجهني مشكلة تكون دائماً نتيجة لفشلي وخيبتي وغبائي.

- لا أشعر بالراحة في المواقف التي تحتاج للتعبير عن إظهار المشاعر الطيبة والمودة والحب.

- عندما أقرر تحقيق هدف معين أجد كثيراً من العقبات التي تحول بيني وبين الوصول لأهدافي.

- أشعر بالملل وفقدان الصبر.

- أشعر بالتعاسة لأسباب لا أعرفها.

- أحتاج دائماً لتأييد الناس حتى أرضى عن أي عمل أفعله.

- أحتاج لقوة دفع خارجية حتى أتمكن من ممارسة أعمالي بنجاح.

إذا كانت إجاباتك عن الأسئلة السابقة أو أمثالها بالإيجاب فمعنى ذلك أنك تفتقر للذكاء الوجداني، أي أنك من النوع الذي تسيطر عليه التقلبات الانفعالية، والاستغراق في القلق. وأنك تجد صعوبة في تكوين علاقات مستقرة ودافئة مع الآخرين.

كما يعني أنك لا تشعر بالرضا عن نفسك ولا عن الآخرين ولا عن المجتمع الذي تعيش فيه.

بعبارة أخرى فإن فرصك في النجاح والتفوق والسعادة في الحياة العملية والمهنية ستكون محدودة بالمقارنة مع الشخص الآخر الذي يتمتع بعكس هذه المشاعر، أي ذلك الذي يتسم بقدرة عالية من الذكاء الوجداني.

المراجع

١- دانييل جولمان. (٢٠٠٠م). الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، الكويت، عالم المعرفة، عدد (٢٦٢).

2- Fannin, B. E.(2001). The contributions of Emotional Intelligencence to Academic achievement and production, (DAI), Vol.(62).

3- Rovenger, J.(2000). Fostering Emotional Intelligence, Journal School Library, Vol.(46).

الرحالة الأجانب إلى المنطقة العربية
مراسلون بلا حدود

❁
د. محمد فاتح زغل

المفاهيم الغربية عن الرحيل والصور السائدة للعربي والمسلم عند الرحالة والمبشرين:



شكل الرحيل في الفكر الأوروبي المسيحي بحثاً عن التوبة والخلاص، كما كان موضوعاً رائجاً في الثقافة والأدب الغربيين، ولذلك فهم ينطلقون إلى الرحلة باعتبارها رحلة قوامها المحن وضروب المعاناة، وثمة مفهوم آخر للرحيل في الثقافة الغربية، وهو مفهوم أقل خطورة وعدوانية، ويتجلى في السعي الرومانسي وراء الرحلة مما أضفى على الشرق

❁ أديب وباحث سوري مقيم في الإمارات العربية المتحدة.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

العربي مسحة شعرية على مشهد الغروب في صحراء شبه الجزيرة العربية، أو على المشهد النادر للبدوي وهو يمضي بقافلة جماله نحو الأفق.

ولم تكن صورة الصحراء في ذاكرة الأوروبيين واضحة تماماً، فالإغريق قالوا عنها إنّها بلاد العرب السعيدة، وفي الكتاب المقدس وردت الصحراء على أنّها رمز للخطيئة والجوع والفقر والقحط وذلك لانعدام المطر فيها وانعدام الحياة.

ولهذا فإنّها هنا بمثابة تطهير للنفس الإنسانية من شرور المدنية وآثامها، أمّا في القرون الوسطى فقد نظر إليها الأوروبيون على أنّها مجرد أرض قاحلة نفيت إليها السيدة هاجر عليها السلام أم النبي إسماعيل (عليه السلام)، ومن نسله خرجت خير أمة أخرجت للناس،وهي زوجة إبراهيم الخليل الذي تركها وولدها إسماعيل في واد غير ذي زرع لا حياة فيه «رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» سورة إبراهيم، الآية(٣٧)، فأكرمها الله سبحانه وتعالى بأن فجر بئر ماء بين يديها هو بئر زمزم لتشرب منه وولدها، وقد عرفت في التاريخ بأم العرب العدنانيين.

أمّا في كتابات المؤرخين الذين كتبوا عن الحملات الصليبية إلى المشرق فقد كانت الصورة أيضاً غير واضحة وغير منصفة، فقد كتبوا عن عرب الصحراء بأنّهم كانوا ينتظرون نهاية المعارك لينقضوا على المهزومين لغنم المغانم.

وفي القرن الرابع عشر وصفهم الرحالة الإنكليزي جون ماندفيل بأنّهم وحشيون وقساة؛ لكن عصر التنوير في أوروبة رسم لهم صورة مغايرة تماماً، فقد أصبح عربي الصحراء رمزاً للبدائي النبيل الذي تجتمع فيه صفات الخليل النبيل وصفات الحرية والاستقلالية والبساطة، كما في عبارة جين لويس بركهاردت الرحالة السويسري الذي سافر وعاش مع البدو في جزيرة العرب.

غير أنّ الرحالة الذين قدموا إلى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى والذين وجدوا في الربع الخالي من جزيرة العرب والصحراء الكبرى في المغرب والجزائر متنفساً رومانسياً وواحة فكرية استظلوا

بها من عناء المدينة والدمار الروحي الذي اجتاح أوروبة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية وقد كان موقفهم أكثر إنصافاً.

لكن يبدو أن أكثر الكتابات إنصافاً جاءت في كتابات «ويلفريد ثيسجر» و«جون فيلبي» وغيرهم. فقد عاش (ثيسجر) مع البدو خمس سنين،وكان مبهوراً بصبر البدو وشجاعتهم وتسامحهم وكرمهم ونبلهم، فقد وجد حياتهم حياة مفرطة في الصعوبة، ماء ضحل أجاج، وخبز معفر بالرمال، وتحمل كبير لشدة البرد، ولفح الحرّ حيث لا ظل ولا شجر ولا سحاب.

ومع ذلك كانوا صابرين غير متذمرين. ويرى (ثيسجر) أنهم تقبلوا مشقة حياتهم بأنفة وعزة نفس، ويضرب مثالاً على نبلهم وإخلاصهم بأنَّ نقوده كانت مودعة في الخرج في كيس من الخيش وعلى الرغم من الفقر المدقع لمرافقيه فإن أحداً لم يفكر يوماً في سرقته؛ بل تقاسموا معه الطعام بالتساوي عندما كانوا يصطادون أي حيوان من الصحراء.

كما تحدث عن الحفاوة البالغة للعرب في الصحراء الذين قدموا له اللبن رغم فقرهم المدقع، ومن ميزاتهم كما يرى (ثيسجر) صفة الإيثار فهم يقدمون له كل ما أعدوه من طعام باعتباره ضيفاً حلّ عليهم رغم أنهم لا يملكون غيره.

كما تحدث عن انضباطهم في صلواتهم وصيامهم رغم العطش والجوع في الصحراء، وعلى الرغم من أنه غير مسلم فقد عاملوه بأدب ولطف ولم يكونوا متعصبين ضده كونه نصرانياً.

يقلّب (ثيسجر) في مقدمة كتابه (الرمال العربية) القيم الغربية وعلى رأسها القيم الأمريكية، فهو يهاجم بشراسة الولايات المتحدة الأمريكية معتقداً أنَّها تحاول فرض ثقافتها التكنولوجية المادية الأجنبية على الشعوب في كل أنحاء العالم، ويرى الأمريكيين أنَّهم أناس وقحون ومتكبرون تعوزهم الأصول والتاريخ والتقاليد، ومن ناحية أخرى يمتدح (ثيسجر) الحضارة الإسلامية ويرى أن قيمها النبيلة كفيلة ببقائها.

بعض النقاد وصف فلسفة (ثيسجر) بالرومانسية المفرطة يقول «هيلجا غراهام» أن (ثيسجر) لم يدرك أن قدرة التحمل بالنسبة للبدو لم تكن رياضة مازوشية

يستعذبونها وإنما كانت فقط البديل الوحيد في أيديهم.

يتساءل المرء فيما إذا كان (ثيسجر) قد جاء إلى الصحراء العربية من دون أن يكون قد كوّن فكرة مسبقة عنها؟ من المؤكد أن (ثيسجر) قرأ للورانس العرب وقد كان معجباً به كما قرأ لبقية الرحالة البريطانيين الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب مثل ريتشارد بيرتون وغيره.

وشكلت قراءاته خلفية ذهنية عن الصحراء العربية، كما أن (ثيسجر)، وقد درس التاريخ في أكسفورد، كان لديه تصور موضوعي عن تاريخ تلك المنطقة غير أن لورانس كان له نصيب الأسد في الاستحواذ عليه، فقد كان (ثيسجر) معجباً به أشد الإعجاب وتمنى لو أنه قابله.

ومن يقرأ كتابات لورانس يمكنه اكتشاف تأثيرها على (ثيسجر) خاصة في نظرته للشخصية الفريدة لسكان الصحراء وتميزهم عن غيرهم في القدرة على تحمل شظف العيش حيث كان يطلق عليها موتاً في حياة.

ويرى أيضاً أن البدوي تخلص من جميع العلائق المادية ووسائل الراحة وكل الحاجات الفائضة لتحقيق الحرية الشخصية التي تلازم معها الجوع والموت على حسب تعبيره. وبالتالي فإن (ثيسجر) عبر عن هذه النظرة بقوله إنه كلما اخشوشنت الحياة كان المرء أسمى وأرفع.

وهذه النظرة لم تغب أيضاً عن الرحالة البريطانيين فقد كانوا يحملون النظرة نفسها والتي أطلق عليها النظرة الرومانسية ولكنهم يرون أنّهم لم يكونوا رومانسيين لأنَّهم ظلوا لفترات طويلة يعيشون مع البدو في حلهم وترحالهم وتقاسموا معهم الحياة والحرمان ولذلك ماكتبوه عنهم لم يكن بدوافع رومانسية وإنّما كتبوا الواقع كما عايشوه.

إن من يلقي نظرة على الأدب الأوروبي والأمريكي وما كتبوه عن هذا الموضوع يدرك مدى ذيوع هذه الصورة الرومانسية بين الغربيين. فقد كتبت «هارييت بتشر ستو» في مقدمتها لـ:(ألف ليلة وليلة) تقول: «لم يكن أقل روعة ذلك الموسم الساحر عندما كان كل شيء حولي يصبح موضعاً للعبث واللهو، فيما كنت طفلة تتوق إلى دارها وهي

في منزل ريفي منعزل، وتحف بنا سحابة من رؤية ذهبية، فنمضي وسط العفاريت والجنيات والقصور المسحورة والأشجار التي تثمر جوهراً وأودية ماس، وأصبحنا أصدقاء حميمين لسندباد البحار، وعرفنا كل الجواهر في نوافذ قصر علاء الدين، وتبحّرنا في فنون السحر وفك طلاسمه».

وعلى الرغم من وجود التباينات في النظرة للعربي فقد قدم المستشرقون الأجانب خدمات كثيرة للأدب العربي وللتاريخ العربي والإسلامي أمثال «فلهاوزن» و«كارل بروكلمان» الذي ترجم عمله الضخم (تاريخ الشعوب الإسلامية)، وجاء «نولدكه» بكتابه عن تاريخ القرآن ليلقى شهرة كبيرة لدى الأكاديميين العرب.

كما جاء كتاب البارون «فون أوبنهام» عن البدو في أربعة مجلدات ليفتح نوافذ من التواصل بين الغرب والشرق، وعلى الرغم من أهمية هذه الكتابات لا بد أن نقول شيئاً في اللغة العربية التي تعامل معها هؤلاء المؤرخون والرحالة والمستشرقون.

وهي دقة المعاني في اللغة العربية ومرادفاتها الكثيرة للمعنى الذي يختلف في الجملة حسب المعنى، وهذه الفوارق في اللغة هي خاصية فريدة تميزت بها لغتنا العربية، تلك (الفوارق) التي أشار إليها أبو هلال العسكري في كتابه (الفوارق اللغوية) ونسوق هنا بعض الأمثلة للقارئ ليدرك عظمة هذه اللغة التي حفظها لنا القرآن الكريم:

فالفرق بين الابتلاء والاختبار: إن الابتلاء لا يكون إلا بتحمل المكاره والمشاق. والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال اختبره بالإنعام عليه ولا يقال ابتلاه بذلك، ويجوز أن يقال إن الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلي من الطاعة والمعصية، والاختبار يقتضي وقوع الخير بحاله في ذلك.

ومن الأمثلة الفرق بين التذلل والتواضع: فالتذلل إظهار العجز عن مقاومة من يتذلل له والتواضع إظهار قدرة من يتواضع له سواء كان ذا قدرة على المتواضع أو لم يكن.

رغم الأسلوب الأدبي الذي كتب به (ثيسجر) كتابه (الرمال العربية) والذي صيغ بلغة أدبية تصف حياة الصحراء كملحمة، إلا أنه لم يقف عند هذه الفروق اللغوية في لغتنا العربية يقول:

«نظرت من حـولي، أبحث بالغريزة عن مهرب ما. لم يكن هنـاك حد لمد بصري في مـكان ما في هـذا المدى المطلـق، اندمجت الرمـال في السمـاء، وفي ذلـك الفضـاء اللامتناهي، لم أستطع أن أرى أي كائن حي، ولا حتى نباتاً ذابلاً يمكن أن يعطيني بعض الأمل». انتظر ثيسجـر عشر سنوات، حتى فكر في إنجاز عمله الرائع عام ١٩٥٩م.

العقوبات الجزائية في التشريع الإسلامي

المحامي منيب هائل اليوسفي

ظفرت الشريعة الإسلامية في مجال التشريع المدني بما تستحقه من تقدير علمي لم يقتصر على علماء القانون من المسلمين بل تعداه إلى علماء القانون من غير المسلمين وإلى المحافل العلمية الدولية التي أبدى علماؤها صراحة تقديرهم العظيم للتشريع الإسلامي المدني موضوعاً وصياغة.

غير أن التشريع الجنائي الإسلامي لم يظفر للأسف بذلك الاهتمام سواء من علماء القانون المسلمين أو من غيرهم بل اسُتهدف بكثير من النقد، وأوّل أسباب ذلك، أن هذا التشريع لا يكاد يطبق في البلاد الإسلامية ذاتها وسادت في هذه البلاد نظريات في التجريم والعقاب تختلف اختلافاً كاملاً عن السياسة الجنائية الإسلامية، وبذلك لم يكن للتشريع الجنائي الإسلامي حظه في التجربة التي تكشف عن الصلاحية أو الجمود بوضوح كاف.

ومن أهم مواطن الخلاف بين التشريع الجنائي الوضعي والتشريع الإسلامي، هو أنّ الشريعة الإسلامية تعتمد العقوبة البدنية في سياستها الجنائية بصفة أساسية وذلك في طائفة كبيرة من الجرائم كجرائم الحدود وجرائم الاعتداء على النفس بالقتل أو بما دون القتل.

✪ محام وأديب سوري.

فمن المعلوم أن الشرع الإسلامي يقسم ظاهرة الجرائم وعقوباتها قسمين رئيسيين أولهما ما نص الشارع فيه على الجريمة وعلى العقوبة وحدودها تحديداً قاطعاً لا خيار فيه للحاكم أو القاضي، وهذا القسم يشمل جرائم الحدود مثل: حد السرقة وحد الحرابة وحد الزنا وحد القذف، وكذلك شرب الخمر وقد وردت عقوبات هذه الجرائم في القرآن أو في السنة النبوية الصحيحة، ومن هذا القسم أيضاً جرائم الاعتداء على النفس بالقتل أو بما دون القتل، إذ إن العقوبة الإسلامية مقدرة هنا كأصل بالقصاص، وهو المماثلة بين الجريمة والعقوبة وفي جرائم الحدود والقصاص، نجد أن العقوبة بدنية أي تلحق ببدن المجرم وهي مقدّرة من الشارع، ويتم توقيع العقوبة متى توافرت شروط إنزالها، فلا يجوز العدول عن عقوبة الحد أو عن القصاص إلا لسبب تقرره الشريعة.

وأمّا القسم الثاني من جوانب التجريم والعقاب في الشريعة الإسلامية فمرجعه في تحديد الجريمة وعقوبتها إلى الحاكم أو القاضي بحسب المصلحة والعدل، مما لا يختلف في شيء عن أصول السياسة الجنائية الوضعية التي تتأثر بظروف الزمان والمكان والجريمة والمجرم.

وقد وردت العقوبة البدنية في القرآن الكريم لعدد من الجرائم ففي جريمة السرقة قال تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا».

وفي جريمة الحرابة (وهي الاستيلاء على المال كرهاً بالقتل أو بغيره أو قطع الطريق لإخافة الناس) قال تعالى: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ».

كما وردت عقوبة الجلد لجريمة الزنا في قوله تعالى: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ».

كما وردت العقوبة لجريمة القذف (وهي اتهام شخص محصن بارتكاب جريمة الزنا وفقاً لشروط معينة) قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» هذه هي العقوبة البدنية في جريمة القذف.

أمّا عقوبة الزاني المحصن وهو من سبق له الزواج فقد وردت في السنة النبوية الصحيحة وهي الرجم (الموت رمياً بالحجارة) كما وردت عقوبة شرب الخمر كذلك في السنة النبوية الصحيحة وهي الجلد.

وفي قدر العقوبة خلاف يسير، والأرجح أنها ثمانون جلدة ومن اليسير أن نتبين أن

الرجم ما هو إلا عقوبة الإعدام، وتستوي الوسيلة ما دامت الغاية إزهاق روح المجرم ،كما أن عقوبة الجلد قد عرفتها التشريعات الوضعية في أوقات معينة، وقد طبقت حتى عهد قريب في بعض الدول في أوقات خاصة كأوقات الحروب ونحوها أو بالنسبة لتنظيمات خاصة كالنظم العسكرية أحياناً، وأباحتها لوائح السجون والمعتقلات كعقوبة لنزلائها في بعض المخالفات.

وهنا تبقى عقوبة القطع (قطع اليد في جريمة السرقة أو قطع اليد والرجل من خلاف في جريمة الحرابة) كما تبقى عقوبة القصاص (وهي إحداث الفعل الإجرامي نفسه ببدن المعتدي وفق شروط خاصة في جرائم الاعتداء على النفس).

وهما عقوبتان بدنيتان تنكرهما التشريعات الوضعية، وتستهدف كل منهما لجانب كبير من النقد من علماء القانون الوضعي الذين يضعون العقوبة البدنية في الغالب من كتاباتهم ضمن مرحلة من مراحل تطور العقوبة.

وأنا أحاول من خلال هذه العجالة أن ألقي الضوء على هاتين العقوبتين (القطع والقصاص) من الناحية العلمية وفي إطار مقررات علماء القانون الجنائي الوضعي في بحثهم لظاهرة الجريمة والعقوبة.

ومن السهل أن نتصور ما يوجه إلى عقوبتي القطع والقصاص من نقد، لجسامة العقوبة ومساسها ببدن المجرم ونفسه، ونتصور مع الناقدين أيضاً أن السرقة قد تقع على مال قليل فلا تستوي الجريمة والعقوبة، أو يُعتدى على النفس نتيجة غضب، وكذلك قد يقضى بالعقوبة خطأً، فإذا تبينت الحقيقة بعد ذلك، استحال رفع الضرر، وقد تقع جريمة السرقة ممن تضطره الحاجة إليها.

وأخيراً فلسنا في حاجة إلى زيادة عدد الذين يعجزون عن العمل في المجتمع والعطاء له بسبب آخر هو العقوبة البدنية، فإذا تصورنا هذه الانتقادات سهل علينا أن نناقش المسألة مناقشة علمية هادئة بعيدة عن استفزاز المشاعر الإنسانية، ونعتمد فيها على العلم والإحصاء لظاهرة جرائم الاعتداء على النفس أو اكتشاف أفضل الوسائل لمواجهة هذه الظاهرة مواجهة حاسمة.

إن جريمة السرقة هي اعتداء يتوجه إلى غريزة الاقتناء التي يشترك فيها جميع البشر كما أن جرائم الاعتداء على النفس تتوجه إلى غريزة البقاء ذاتها وهي أوسع، ويقع الاعتداء في كلتيهما من شخص يرضى على نفسه أنه بطريق شاذ، فيعتدي على حق غيره في ممارسة هاتين الغريزتين.

يقول الأستاذ موراش Maurach وهو من علمـاء القانون الجنائي: يجب أن يكون تقدير المشرع حـول أحقية السلوك للعقوبة متفقاً مع جسامة هذا السلوك.

كما أن علماء القانون الجنائي الوضعي يسلمـون بأن الدولة حـين تكافح الجريمة عامة إنّما تكافح سلـوكاً يهدم كيانها، فهي تدافع عن حقها في البقاء، وأن جهاز القانون الجنائي يكلف الدولة في تسييره أعباء مالية كثـيرة في الوقاية من الجريمة والتحري عن مرتكبها وملاحقته وتقديمه للقضاء وتنفيذ ما يصدر ضـده من أحـكام، ولذلك يقول أحد علماء القانون الجنائي: إنَّ حق الدولة في إنزال العقاب بالمجرم (سيف بلا مقبض يجرح الضارب والمضروب).

فـإذا نظرنـا إلى عقوبتيّ القطـع في السرقة والحرابة وإلى القصاص الذي ينزل بالمجرم في جرائم الاعتداء على النفس كما أسلفـت، لوجدنا أن جرائـم الاعتداء على النفس والمـال أكثر الجرائم انتشاراً وشمولاً في المجتمع الإنساني.

و هـي جرائم وقعـت منذ القـدم وما تزال تتطور وسائلها وطرق ارتكابها بحسب المجتمـع الـذي تقع فيه ولا بـد لذلك من مقاومـة ضررهـا الاجتماعي غـير المباشر (الذي يلحق بالمجتمـع وليس بالمجني عليه وحده) ومواجهة ذلك بحزم.

فـإذا تصورنا مجتمعاً إنسانياً من مليون نسمة يتهدده عشـرات قليلة من الأفراد في أمنـه على النفس والمال فإننا عندئذ نفضل مواجهة هـذا الخطر بإجـراء حاسم ضد هذا العدد القليل بدلاً من أن يتحمل مليون شخص نتائـج الخوف علـى النفس والمال وتكاليفه المادية والنفسيـة المستمرة وتبدو العقوبة البدنيـة الشديدة هنا كإنذار مبكر لعدد محـدود للوقاية لا لتعميـم العلاج أو انتشار تطبيقه.

يجـب هنـا أن نقـف متأملـين في الإحصـاءات، فـإن إحصاء تنشـره إحدى الدول الإسلامية يدل على أن جرائم السرقة التي وقعت فيها خلال عام ١٩٩٩م يبلغ من الجنايات ٣٣٤ والجنح ٦٠٣٥١ على التوالي وأن هـذا العـدد في سنـة ٢٠٠٠ م قد بلغ ٣٢٦ و٦٢١٩٦ وفي عـام ٢٠٠١ م بلغ العدد ٣٧٧ و٥٩٠٥٨ كما تبـين في ذلك الإحصاء أن مـن حكم عليهـم في جرائم السرقة وفي الجنح فيها فحسب هو في السنوات الثلاث ٢٥٨٧٣- ٣١٣٩٦ - ٢٧٤٧٩ بالتـوالي فالحصيلة الكلية تكون ٨٤٧٤٨.

كما أن ذلك الإحصـاء بالنسبة لجرائم الاعتداء على النفس بما دون القتل يدل على أن هذه الجرائم في السنوات الثلاث تتفاوت بين اعتـداء بسيط يبلـغ بالنسبة للاعتداء الجسيم الذي يعد جناية عاهة وعدد هؤلاء

المحكـوم عليهم هو ١١٦٠ – ١١٨٤ –١٠٥٠ علـى التـوالي في السنوات الثـلاث، وعدد المحكوم عليهم للاعتداء الذي أدى إلى الموت وإن لم يقصد به القتل بداية هو ٣٠٧– ٢٨٧ – ٢٧٠ علـى التوالي، أمَّا مـن حكم عليهم بالعقوبة بسبب اعتـداء على النفس لا يعد جناية فعددهم في السنوات الثلاث المشار إليها يبلـغ ٦١٢٤٤–٦٠٠٥٠– ٥٩٤١٢ على التـوالي وجملة ذلك فيمـن حكم عليهم في جرائـم الاعتداء على النفـس في السنوات الثلاث يكون ١٨٤١٠٠ شخص.

هنا تبرز الحقيقة التـي أشرنا إليها من قبـل وهي أنَّ إنزال العقـاب بالمجرم يجرح المجتمع حقـاً، فإذا حددنا متوسطاً للعقوبة التي قبض بها على كل واحد من هذا العدد الضخم في السنوات الثلاث بعقوبة الحبس لمدة ثلاثـة أشهر فقط وهــو تقدير شديد التواضع، فكـم يضيع على المجتمع من أيام العمل وشهوره وأعوامه، وكم يتكلف المجتمع من أموال الأبرياء لإعالة هذا الجيش الكبير في السجون، إطعاماً وإكساء وإيواء وحراسة وتعليماً،

إن كانت العقوبة اليسيرة السالبة للحرية وسيلـة للإصلاح، وهو مـا يشك فيه علماء القانون الجنائي أنفسهم.

هنا نجد أنَّ التهديد بالعقوبة الجسيمة يصبـح واجبـاً للوقايـة من هــذه النتائج، فالمجتمع لا يتمتع بالأمـن بطريقة حاسمة وهو مع ذلك يدفع تكاليف باهظة ولسنا في حاجة إلى إثبات سعة هذه الجرائم في البلاد كلها حتى المتمدن منها، والتي نقرأ أن فيها عصابات متخصصــة تحترف الجريمة ولا تفتقر إلى السلاح، مما تنشر الصحف أنباءه وأحياناً تنشر ما لكبـار مجرميها من أقوال ومذكرات.

هـذا عن وجه المصلحـة أمَّا من ناحية المشاعــر الإنسانية التي قــد تفزع لجسامة العقوبــة البدنيــة، فيجب أن يكـون لدينا إحصــاء عن نتائج اعتــداءات فئة محدودة أدانها القضاء الجنائـي، نتيجة اعتداءاتها على آحـاد أو عشرات أو مئات أو آلاف من المجني عليهم.

إنَّ مشاعر العطف علــى المجرم بسبب جسامــة العقوبــة تتم في غيبــة كاملة عن مصير المجني عليهم وهم أولى بهذه المشاعر، ويجب ألا تقتصر هذه المشاعر الطيبة على استنكار عقوبة بدنيــة جسيمة، وإنَّما يجب أن تستنكر كل عدوان على جسد آدمي مهما كان الباعث عليه أو شخص من قام به.

ومــع ذلك فهــل العقوبــات البدنية في التشريــع الإسلامي بحسب ضوابطه المقررة علمياً، تؤدي إلى حرمان عدد كبير من الناس من سلامة أبدانهم؟

أشك في ذلك، لأن هذه العقوبة الجسيمة

تدرأ بالشبهة اليسيرة طبقاً للحديث الشريف (ادرؤا الحدود بالشبهات) وهو خطاب للحاكم والقاضي ولقد فهم الفقهاء المسلمون ذلك منذ مئات السنين.

فما أكثر الشبهات التي عددها الفقهاء لتجنب إنزال حد القطع فيما يعد من جرائم السرقة في الشرع والقانون الوضعي فلا قطع في سرقة على قليل (يقل عن عشرة دينارات) على رأي من الآراء، ولا قطع في السرقة من الشجر أو الثمر، أو السرقة من مكان عام بل من مال عام، ولا قطع في سرقة مال يهمل صاحبه أن يضعه في حرز أمين يليق بمثله.

وهناك من الظروف ما يطرأ حتى بعد الجريمة، فيسقط الحد، كعودة المال المسروق إلى الجاني بوجه من الوجوه، وأهم من ذلك أن تنعدم لدى السارق كل ضرورة وحاجة للسرقة، وأن يتوافر لإثبات التهمة عليه شاهدان عدلان أو يعترف اعترافاً صحيحاً أمام القضاء، فقواعد الإثبات هنا تقيد القاضي الجنائي.

وكذلك في جرائم الاعتداء على النفس، فقد أخرج الفقهاء المسلمون معظم الإصابات التي تلحق الجسد في عداد ما يستوجب القصاص وهو العقوبة البدنية فلا قصاص في إصابة تلحق العظم أو جرح تستحيل معه المساواة، أو يكون في إنزال العقوبة بالجاني خطورة عليه حتى لسبب يتعلق به، ويرجع في إنزال العقوبة إلى أهل الخبرة الذين يجب أن يقرروا إمكان تحقيق المماثلة بين الجريمة وعقوبتها، وضابط ذلك كله أن تتحقق المماثلة الكاملة بين الجريمة والعقوبة بحيث يؤمن عند التنفيذ من وقوع حيف على الجاني.

وفضلاً عما تقدم، فإنَّ عقوبة القصاص تسقط بعفو المجني عليه عن حقه نظير المال أو بغير مال، كما تسقط في أحوال ليست بالقليلة لأسباب راعاها الشارع، فإذا اعتبرنا حالة العفو العامة وحالات سقوط القصاص، أمكننا أن نقول إن تطبيقه يضيق إلا عن الحالات التي يبدو هو فيها أنسب وسيلة للعقاب من وجهة نظر المصلحة والعدل، ولا يخفى أن عدم تطبيق العقوبة البدنية في جرائم السرقة أو الاعتداء على النفس يرجع بنا إلى تطبيق التعزير باعتبار العقوبة الشرعية، ويتحد بذلك موضوع العقوبة ووسيلتها في الشرع الإسلامي وفي التشريع الوضعي ما دمنا قد خرجنا في الواقعة محل النظر عن الالتزام بالحد أو القصاص، وعندئذ يمكن اختيار العقوبة الملائمة بحسب مقررات التشريع الوضعي.

إنَّ الضوابط التي تطبق بها العقوبة البدنية في التشريع الجنائي الإسلامي والضمانات الأكيدة في مجال الإثبات لضمان

سلامة التطبيق، تحقق لنا الموازنة بين فرض العقوبة البدنيــة الشديدة وبين الابتعاد بها عن احتمالات الخطــأ، وفي المحصلة يبقى لي رأي هو ليت التشريع الجنائي الإسلامي يأخذ حظه في التطبيق ولو تدريجياً وسنرى أن كثــيراً من القــرارات التــي تسير عليها السياسة الجنائية الوضعية تحتاج إلى التأمل والمراجعة.

المراجع

- المجلة الجنائية الدولية.
- إحصاءات وزارة العدل السورية.
- نظرية القانون الوضعي والمقارن.

الثقافة والإعلام..
خطوط التقاطع والتواصل

❁
د. نزار عوني

إذا كانت كلمتا الثقافة والإعلام متشابهتين في صعوبة تحديد مفهومهما ورسم حدودهما، فإنّ هناك بعداً آخر يجمع بينهما يتمثل في وجود علاقة وثيقة بين المفهومين تجعلهما يتداخلان في جوانب كثيرة حتى يصعب في بعض الأحيان التفريق بينهما، وهذا ما يجعل بين طرفي هذه المعادلة تجاوراً طبيعياً، تفرضه خصائص كل منهما ومجالات اهتماماتهما وميادين عملهما، ولكن هذا التجاور -كما هو واقع دنيا الناس- قد يكون تجاوراً إيجابياً فيه تفاهم وتعاون، وقد يكون تجاوراً سلبياً فيه الخصام والتنافر، وربما يكون في بعض الأحوال مجرد تجاور مكاني لا تفاعل فيه.

والعلاقة بين الثقافة والإعلام هي علاقة حديثة ووليدة المراحل المعاصرة من تاريخ البشرية، ولكنها علاقة قديمة قدم الثقافة، بل قد يكون الإعلام أقدم من الثقافة، ربما لأن حاجة الإنسان القديم للإعلام كانت أكثر إلحاحاً وأكثر التصاقاً بضرورات البقاء من الثقافة.

وإذا اعتبرنا أن حاجة الإنسان هي التي تؤدي إلى ولادة الظواهر الإنسانية ثقافية كانت أو غير ثقافية أو تحديد عمرها وتطورها، فإن حاجة الإنسان القديم

❁ أديب وناقد.

للإعـلام كانت أكبر وأكثر إلحاحاً، لأنها ألصق بالحياة، وبضرورات البقاء، أليست الأصوات والإشارات التي كان يصدرها الإنسان القديم لينذر بها أفراد أسرته من الخطر أو يدعوهم بها إلى الفعل نوعاً من أنواع الإعلام البدائي الذي أملته الحاجة وضرورات البقاء والحياة؟

جدلية العلاقة

إذن، العلاقة بين الثقافة والإعلام علاقة موغلة في القدم، لكنها لم تكن واضحة أو متبلورة في الماضي، فقد كانت المادة الإعلامية شديدة التداخل والالتصاق، فالمادة الثقافية مبثوثة فيها، ممتزجة بنسيجها، يوم لم تكن هناك وسائل إعلامية معروفة أو مستقلة.

وتجدر الإشارة إلى أن تطور المادة الثقافية والإعلامية تبعاً لتطور الحياة البشرية، قد أدى إلى وجود نوع من التمايز والتباين بين وسائل الثقافة ووسائل الإعلام، فبدأت وسائل الإعلام المستقلة بالظهور، وكان صدور أول صحيفة بعد اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر بداية استقلال المادة الإعلامية، بوسيلة، خاصة، وبداية عصر أو ثورة الإعلام التي انتشرت خلال المرحلة المعاصرة بوساطة الإذاعة ووكالات الأنباء ومحطات البث التلفزيوني الأرضية والفضائية والإنترنت والبريد الإلكتروني وغيرها.

ولكن ما إن استقلت وسائل الإعلام وتنوعت حتى طغت وبدأت باحتلال مواقع الثقافة وغدت من أهم وسائلها ومن أقدرها على نشرها وإيصالها، بل أصبحت القناة الثقافية الرئيسية التي توصل إلى الناس بسرعة ويسر مختلف أنواع وألوان النتاج الإنساني في جميع ميادين المعارف والفنون والآداب.

وهكذا انتقلت وتطورت علاقة الثقافة بالإعلام من مرحلة الاشتراك بوسائل واحدة في الماضي البعيد، هي الوسائل الثقافية، إلى مرحلة تمايز الوسائل أو استقلالها، ثم العودة مؤخراً على وسائل مشتركة إن لم نقل واحدة ولكن رغم ما تعرضت له هذه العلاقة من تلون وتعرج، إلا أنها بقيت مستمرة ووثيقة في آن.

ويرى علماء الاتصال والإعلام أنّ هذه العلاقة مرشحة للبقاء والاستمرار رغم طغيان الإعلام المعاصر على الثقافة ومحاولته الجلوس في مقاعدها إذ ليس هناك من مادة إعلامية خالية من الثقافة والتثقيف، أو مادة ثقافية خالية من الإعلام، فكل عمل ثقافي هو في أحد جوانبه أو وجوهه عمل إعلامي.

أليست الثقافة أو الإعلام تعبيراً عن الرغبة في التواصل مع الآخر أو نوعاً من الحوار مع الآخر، ومحاولة الوصول لمخاطبته أو التأثير عليه أو التأثر به؟

أليس في طبيعة الثقافة ومادتها وهدفها جانب إعلامي ووسيلة إعلامية وهدف إعلامي يعبر فيها الإنسان عن موقفه من نفسه أو من الآخر، أو الحياة، أو الكون، ومن معتقدات الآخر وقيمه وإشكالياته؟

ثم أليس من اليسير اكتشاف الثقافة في الإعلام واكتشاف الإعلام في الثقافة؟

الوظيفة التثقيفية للإعلام

وإذا كان الإعلام يقوم في المجتمع المعاصر بوظائف متعددة ومتنوعة، فإن وظيفته التثقيفية هي في صميم تلك الوظائف من جانبين اثنين.

أولهما أنَّ هذه الوظيفة كانت -ولاتزال- واحدة من أهم وظائف الإعلام منذ أن بدأ علماء الاتصال والإعلام تحديد تلك الوظائف وتقنينها في بحوثهم ودراساتهم. ولعل أوَّل من قام بذلك عالم الاتصال الأمريكي «هارولد لاسويل» (١٩٤٨م)، إذ جعل نقل التراث الاجتماعي من جيل إلى آخر وظيفة رئيسة من وظائف وسائل الإعلام الثلاث.

أمَّا الجانب الآخر فيتمثل في حقيقة أنَّ كل وظيفة من الوظائف الأخرى لوسائل الإعلام، التي أشار إليها لاسويل أو أضافها فيما بعد باحثون آخرون، تتضمن بعداً ثقافياً.

فوظيفة الإخبار التي سماها لاسويل «مراقبة البيئة» تغطي جوانب ثقافية عديدة، كما أن وظيفة التفسير والتوجيه التي سماها «ربط أجزاء المجتمع علائقيا بالبيئة» لا يمكن أن تتم بمعزل عن القيم الثقافية السائدة في المجتمع.

أمَّا الوظيفتان الأخريان اللتان أضافهما من جاؤوا بعد لاسويل، وهما وظيفتا الإمتاع والترفيه، والإعلان والترويج، فإنَّ لهما صلة عضوية بالثقافة من حيث صدورهما من خلفية ثقافية معينة بالضرورة، واستهدافهما تحقيق أغراض ثقافية في المحصلة النهائية، بصرف النظر عن تقييمنا لتلك الأغراض وفق معايير التحسين والتقبيح.

خطوط التقاطع والتواصل

الثقافة هي مناط الشخصية السوية، ومستودع قيمها ووعاء حكمتها وحقيقة هويتها الحضارية، وبغير الثقافة يفقد الإنسان تميزه ويضمحل وجوده، وتتمسخ شخصيته، أمَّا الإعلام فهو وعاء الثقافة ووسيلة بنائها وهو الأكثر تأثيراً في صياغة الرأي العام وفقاً لمتطلبات الثقافة وضروراتها، ولذلك لن نأتي بجديد إذا أكدنا أن الإعلام لا يستغني عن الثقافة

لأنها هي مضمونه ومحتواه، كما أن الثقافة لا تستغني عن الإعلام لأنه وسيلة لنشرها وترسيخ ثمراتها في الوجدان الاجتماعي، وهي أيضا وسيلة جذب الفرد والجماعة للنهل من مناهلها والارتواء من منابعها.

وإننا نجد أن الموقف الثقافي يتميز، عند القيام به من طرف الأديب والفنان بالصياغة الجمالية لتصوير الحدث وتقييمه ببراعة إبداعية حسب حدود موهبة الأديب والفنان وحسب عمق إحساسه بالفكرة أو الحدث المقصود بالتناول.

بينما يكتفي رجل الإعلام بعرض موقفه من الحدث بأسلوب مباشر وبقوالب وصيغ لغوية تتسم عادة بالتكرار والبساطة والسطحية، فأدوات رجل الإعلام اللغوية ثابتة إلى حد كبير فهي تشبه أدوات العامل في المزرعة أو العامل في المصنع، في حين تشبه أدوات الأديب والفنان عملية الباحث الذي يبحث باستمرار عن جديد يكتشفه، ومجهول يرفع عنه ستار الغموض والإبهام.

والثقافة تستند إلى العمق المضموني وتبتعد عن الإثارة المصطنعة والمفتعلة لغايات تجارية استهلاكية سريعة، بينما الإعلام يستند إلى الإثارة التقنية والجاذبية الفنية السريعة والشكلانية، لغايات تجارية واستهلاكية بحتة.

ويتسم الإعلام بقدرة هائلة على الاختراق الجغرافي والسياسي إذ إن الفضائيات لها قدرة هائلة على الانتشار الإعلامي عالمياً وبث برامجها على نطاقات عالمية واسعة، وبالتالي تمتلك قدرة على الاختراق الثقافي فيستفيد الإعلام من التطور التكنولوجي في عملية التأثير الثقافي على الثقافات الأخرى.

بينما الثقافة تبقى متركزة في نطاقات محلية محدودة بسبب طبيعتها البطيئة في الانتشار، لأنها تستند إلى الكتب والآثار التاريخية والحضارية، والعادات والتقاليد والموروث الشعبي وأنظمة اللبس والمسكن وغيرها، وهي جميعا غير قادرة على الانتقال السريع والواسع عالمياً، ولعلّ هذا هو السبب في تخوف دول الأطراف في العالم من خصوصيتها الثقافية التي يمكن لها أن تتعرض للاختراق الثقافي والإعلامي بوساطة التكنولوجيا.

ويتميز الموقف الثقافي بالنزعة الذاتية، إذ إن الأديب أو الفنان ينطلق في معظم الأحيان من حلم أو من تصور أو فكرة، يتأمل داخل وجدانه وينطلق سابحا في واد عميق إلى أن يصل إلى الواقع، بينما يتميز موقف رجل الإعلام بالموضوعية الصارمة بحيث ينطلق من الواقع كما هو في الحياة ليحيط به من جميع جوانبه وزواياه، وينتهي عند الحديث عن الواقع.

بعبارة أخرى الموقف الإعلامي الصحيح هو أن نقول للناس كل الحقيقة من دون خيال أو تزوير للوقائع والأحداث، مهما كان طعم هذه الحقيقة حلواً أو مراً، وإلا سقط رجل الإعلام في بؤرة خداع الناس وتضليلها، وبذلك يفقد الإعلام ثقة المواطن، لأنه فقد مصداقيته. بل فقد جوهره بالمرة.

ويتسم الموقف الثقافي الصحيح بالخلود والبقاء، فكل الأشياء تبهت وتشيخ ويدركها الفناء إلا الموقف الثقافي الأصيل فإنه يحتفظ بنظرته وتوجهه السحري كنجوم السماء إلى أن يتوقف الفلك عن الدوران، في حين ينتهي الموقف الإعلامي مباشرة بعد أن يلعب دوره في تنوير وصياغة الرأي العام وتصحيح أخطائه، ومن ثم ينزوي في أروقة الماضي ليتحول جزءٌ منه إلى مادة لكتابة التاريخ، ويندثر الباقي في حقل العدم والفناء.

إلا أن التداخل بين الإعلام والثقافة كبير، فكل من الموقف الإعلامي وكذلك الموقف الثقافي يقدم متعة روحية ونفسية، تدخل على النفس المتلقية شعوراً غامراً بالرضى والإحساس بالسعادة، وذلك إذا كان الموقف يتسم بالصدق الفني أو الصدق المباشر، ففي كلتا الحالتين يتلقى القارئ أو السامع أو المشاهد إضافة معرفية لحصيلة معارفه وخبراته، ووعيه بماهية الأحداث التي تجري من حوله.

كيف نستثمر العلاقة بين الإعلام والثقافة؟

والمتأمل في الواقع المعاصر للإعلام المتمثل في التقدم التقني الهائل في وسائل صناعة المعلومات وبثها من جهة، وفي مزاحمة وسائل الإعلام للوسائل التقليدية في الترويج للأفكار ومنافستها للمؤسسات الاجتماعية في تقمص شيء من أدوارها وانتزاع بعض وظائفها من جهة أخرى، المتأمل في هذا الواقع سيدرك من دون عناء أن الإعلام بإمكاناته البالغة التأثير، وقدراته الخارقة على اقتحام العديد من الحواجز لم يعد مجرد وسيلة لنقل الثقافة وبث معطياتها وتوسيع دائرة انتشارها، بل إنه يقوم -إضافة إلى ذلك- بوظيفة أخرى ذات أهمية كبيرة هي الإسهام في تحديث الثقافة وتجديد معطياتها وتطوير أدواتها وأساليب صياغتها، لتلبي حاجات الفرد والمجتمع، وتتواءم مع الظروف المتغيرة للمجتمعات، وتتجاوب مع إيقاع العصر بكل ما يتسم به من حيوية وجاذبية وسرعة حركة.

ومما لا شك فيه أن المؤسسة الإعلامية قد اكتسبت لها مكانة متقدمة ضمن منظومة المؤسسات الاجتماعية التي تسهم في صياغة ثقافة الفرد والمجتمع، سواء أكان تأثيرها سلباً أم إيجاباً، ومن هنا لابد من أن يتداعى المثقفون والإعلاميون إلى بحث

موضوع العلاقة بين الإعلام والثقافة، وكيفية استثمار تلك المجاورة التي أشرنا إليها استثماراً صحيحاً، وتوظيفها لخدمة الغاية الأولى للمجتمع في ربط أفراده بالهوية الثقافية المتميزة للأمة، وتحقيق أهداف التنمية الثقافية الوطنية، وبلورة صيغة ملائمة لتفعيل حركات المثاقفة الحضارية من دون تحجر وجمود ومن دون تفلت وذوبان في ثقافات الأمم الأخرى.

وبذلك يمكننا الجمع بين تحقيق الأمن الثقافي الذي يحمي مكونات هويتنا الذاتية من جهة، والانطلاق نحو التفاعل مع ثقافات العصر وتياراته ومنجزاته بما يغني ثقافتنا الأصيلة، ويجدد توهجها من جهة أخرى.

الإعلام والعلوم الاجتماعية والإنسانية

بما أنَّ الإعلام أحد فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، فلا يمكنه إلا أن يكون حاملاً لسمات وخصائص المجتمعات والحضارات التي انبثق فيها، فتساير مفاهيمه ونظرياته سمات من العلوم الاجتماعية والإنسانية والمفاهيم الاقتصادية للمجتمع المتعايش فيه، وكان الأمر طبيعياً أن ينعكس صراع الطبقات والميل للعنف والتحليلات الجنسية النفسية على إنتاج وسائل الإعلام الغربية، وقد صاحب الإعلام في المجتمعات الغربية ذلك الانبثاق المادي للحياة في تلك المجتمعات، فكسبت مسيرة الإعلام خصائصها واكتسبت ميزاتها فجاءت نظرة الإعلام الغربي وفلسفته ومنطلقاته نابعة منها.

وتتأكد الصلة الوثقى بين الإعلام وبقية العلوم الإنسانية والاجتماعية إذا ما أخذ القارئ في استعراض الأبحاث العلمية.

ويرى خبراء الإعلام أنه من الصعب جداً وضع حدود واضحة تحدد الأبحاث الإعلامية وتفصلها عن غيرها من الأبحاث الإنسانية، فاهتمامات أبحاث الاتصال واسعة جداً لأننا لا ندرس فقط وسائل الاتصال بل عمليات الاتصال أيضا، وهذا ما يجعلنا نهتم بعلوم إنسانية أخرى كثيرة مثل علوم النفس، والاقتصاد والأنثروبولوجيا والقانون والاجتماع والسياسة. فالصحافة أو الإعلام تشارك تلك العلوم مسؤولية المشكلات التي تتضمنها عملية الاتصال، ومن ثم فهي بالضرورة أثر للنظريات الغربية في العلوم الإنسانية بل حتى التجريبية، إذا أخذنا في الاعتبار الاتجاهات الكمية - التجريبية التي أخذتها الدراسات والبحوث في ميدان الاتصال بعد النقاش الفلسفي الذي خاضته على غرار بقية العلوم الإنسانية في الغرب.

ويضاف إلى ما سبق ذكره أن الكثير من الدارسين الأوائل وأقطاب النظريات الكبرى في عالم الاتصال، كانت اهتماماتهم العلمية التي عرفوا بها واشتهر بعضهم فيها وذاع صيته تتجه نحو العلوم الإنسانية، كالسياسة

توطين العلم والتكنولوجيا لخدمة مجتمعاتنا

د. منير سويداني ✿

يشهد عصرنا الحالي ثورة علمية تشكل ضعف ما أنتجته البشرية من تقدم علمي وتحديث تكنولوجي طوال تاريخها، ويمكن القول إن هناك ثورات حدثت على المحاور الثلاثة: المعلوماتية والبيولوجيا وإحلال المواد، وظهرت حصيلة هذه التكنولوجيات الحديثة في مجالات متعددة أهمها الفضاء والتسليح والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية والطاقات المتجددة، وتخليق مواد جديدة والاتصال البشري والتحكم بالإنتاج المادي والإدارة العلمية. وتركزت هذه التكنولوجيا إلى درجة كبيرة على المعرفة العلمية في أكثر صورها تجريداً، فهي تنشغل بالتركيب الدقيق على مستوى الجزيء والذرة وعلى مستوى الخلية ومكوناتها وتتحقق من خلال جهود متعددة التخصصات، وما يميز هذه التكنولوجيا عن غيرها أنها تنتقل بسرعة غير عادية إلى مستوى التطبيق العملي بسبب تداولها الميسر على الرغم من أن أسسها العلمية والعملية معقدة ورفيعة المستوى، وبسبب تطبيقها في مجالات كثيرة حيث تغطي نطاقاً فسيحاً من قطاع الإنتاج والخدمات، وكما يبدو فإن هذه الثورات سوف تتيح فرصاً جديدة للوفاء بالكثير من احتياجات المجتمعات.

✿ ناقد وباحث سوري.

توظيف العلم والتكنولوجيا

ليس هناك جدال في أن الصراع الحضاري اليوم هو عبارة عن صراع علمي، ويستفاد من تقرير أعدته نخبة من علماء هذا العصر بناء على دعوة من الأمم المتحدة بقصد دراسة كيفية تسخير العلم والتكنولوجيا لخدمة الدول النامية بأن الدولة في أي مجتمع تعتبر متخلفة إذا كان عدد العلماء فيها أقل من ٤٠ في كل ١٠٠٠ نسمة من السكان.

وهذا يدل على أن عملية النضال من أجل الخروج من «مرحلة التخلف» إلى «مرحلة التقدم» تتوقف بصفة أكيدة على جعل العلم قوة إنتاجية حقا، ومشكلتنا في الدول النامية بصفة عامة أن هناك مجهودات حكومية تبذل لنشر الثقافة وتعميم التعليم في الثانويات والجامعات لكن هذا التعليم يغلب عليه الطابع النظري وينقصه الجانب التطبيقي.

والعلم الذي لا يتحول إلى منفعة عملية تؤثر في مناهج الحياة كل يوم، لا يتغلغل في بنيان المجتمع ولا يؤثر في القوى المتفاعلة فيه.

ولكي يكون للعلم وظيفة عملية في مجتمعاتنا، وليس كلاما للتباهي به، يتعين على القادة وأصحاب القرار أن يدركوا نفعه وأن يقبلوا عليه تعليماً وتطبيقاً، كما يتعين على جميع المسؤولين في الجامعات والإدارات والمؤسسات الإنتاجية أن يظهروا استعداداً نفسياً وفعلياً لتقبل نتائج البحوث العلمية وتأثيراتها الإيجابية في المجتمع.

وإذا توافرت هذه الإرادة والمناخ العلمي الملائم، فبإمكاننا الانتفاع بثمار المعرفة العلمية إن هي أخذت بعين الاعتبار العوامل الآتية:

١ - أن يقترن التعليم الجامعي بالمعرفة العلمية النظرية (أي معرفة لماذا؟) وبالمعرفة التطبيقية (أي معرفة كيف؟) التي هي عبارة عن أساليب عملية نطلق عليها اسم «التكنولوجيا»، وصحيح إن العلم النظري أو الأكاديمي يساهم في تعميق المعرفة في مختلف الاختصاصات، وقد يثمر هذا العلم ويأتي ببحوث ابتكارية، لكن التطبيقات العملية وربط النظريات بالواقع المعاش يوميا هي التي تبين مدى فعالية العقل ومقدرته على تلبية الحاجات الاجتماعية، وفي اعتقادي الشخصي أن التركيز على المعرفة النظرية البحتة ينتج عنه تحوّل الجامعات عن الأهداف الاجتماعية، وعليه فالجامعات مطالبة بتطعيم برامجها التعليمية بخطط عملية للتدريب في الاختصاص حتى يتخرج الطلبة وهم قادرون على ممارسة عمل معين مدعوم بخبرة مكتسبة من ميدان العمل.

٢ - إذا كانت الجامعات هي مراكز الإشعاع العلمي (وكل مؤسسة علمية هي الوسيلة الرئيسية المستعملة لتمكين الإنسان من استعمال فكره وقدراته للانتفاع بعقله ومهارته) فمن الحكمة أن يقوم رجال الحكم بإحالة مشكلات الأمة إلى العلماء لكي يبدوا رأيهم فيها بموضوعية ويتقدموا بالاقتراحات والحلول البديلة لهذه القضايا التي تشغل بال كبار المسؤولين في الدولة، وهذا الاعتماد على العلماء يتطلب بطبيعة الحال، تزويد رجال العلم بالوسائل المادية التي تمكنهم من إجراء البحوث والخروج بنتائج وتحاليل منطقية وعملية، والخطأ الفادح الذي يرتكب في حق العلم بغالبية بلداننا العربية هو أن الجميع يعتبرون أن هذه المهمة تنفرد بها الدولة، ويتكل عليها الجميع في حين أنه كان من المفروض أن يبادر المسؤولون على قطاعات الصناعة والتجارة والزراعة إلى تغذية البحث العلمي، كل واحد في إطار اختصاصه، وتشجيع العلماء على الابتكار، وتحديد مقاييس الجودة وأساليب التنظيم الفعالة لزيادة الإنتاج وخفض التكاليف وتحقيق الأهداف المسطرة في برامجهم بطريقة مجدية، إن المؤسسات الصناعية والزراعية والتعليمية هي سند للبحث العلمي وتستثمر فيه حتى يخدمها ويجدي عليها نفعا وفائدة ملموسة.

٣ - إنَّ مسؤولية خلق ثقافة علمية مبسطة لمجتمعاتنا العربية التي توجد بها نسبة كبيرة من المواطنين غير المتعلمين أو الذين عندهم ثقافة علمية بسيطة، تعتبر في رأيي من أهم الوظائف والواجبات التي يتعين على رجال العلم أن يقوموا بها.

وبذلك يتم التغلب على مشكلة وجود معلومات في أذهانهم لكن علمهم ومعرفتهم تبقى مخزونة ولا تصل إلى أبناء وطنهم.

وعليه، فإنَّ غرس الأفكار العلمية الأساسية والمفيدة لعامة الناس، ممكن أن يتم عن طريق الكتاب لمن يستطيع القراءة، وينقل عن طريق الشاشة لمن يرغب أن يتعلم ويستفيد عن طريق الصورة المرئية في الشاشة، وعن طريق الإذاعة لمن يفضل أن ينصت إلى المذياع ويتسلى ببرامجه المثيرة.

وطبعاً فإنَّ المساهمة العلمية في إفادة الناس بما ينفعهم وفي خلق جيل عربي مثقف ثقافة علمية يتطلب إدراك رجال المؤسسات الإعلامية وقناعتهم بضرورة التنسيق بين أجهزتهم ورجال العلم.

٤ - إنَّنا نعيش الآن في مرحلة الإعجاب والتقدير بجدوى الأسلوب العلمي في البلدان الأوروبية والمتمثل في تطبيق المعرفة العلمية في المؤسسات الرسمية للدولة بحيث توجد

علاقات وثيقة بين العلماء المختصين وبين كل وزارة معنية بذلك الاختصاص.

فالمفروض أن تقتدي مؤسساتنا العربية وتستفيد من هذه التجربة الناجحة، لأنَّ انعدام هذه الصلة بين العلم من ناحية والدولة ومؤسساتها الرسمية من ناحية أخرى، هي التي تحول دون التأثر بالعلم ودون مساهمته في تحسين عيش المواطنين.

وعليه فإنَّ مؤسسات الدولة في حاجة ماسة إلى خلق جسور بينها وبين المراكز العلمية والمعاهد المتخصصة حتى تستفيد تلك المؤسسات الحكومية من التقييم العلمي الموضوعي لبرامجها، والآراء المحايدة في مدى صلاحية خططها، والمتابعة المستمرة لعملية الإنجاز، حتى يتم تدارك أي خطأ يمكن أن يبرز خلال عملية التطبيق الفعلي لكل خطة.

٥ - إنَّ وسائل تبادل المعلومات والحقائق ونتائج الأبحاث والآراء بين العلماء أنفسهم في كل اختصاص تكاد تكون منعدمة، وبالتالي، فإنَّ التقدم العلمي يتأثر سلبياً بهذا النقص الملحوظ في ميادين الترقية العلمية ورفع المستوى وتحسينه، ولهذا فإنَّ تقدم العلوم مرتبط بتوافر الإمكانيات المادية والوسائل التي تستعمل لخلق نهضة حقيقية شاملة، وتتمثل هذه الوسائل في الجمعيات العلمية التي تجمع بين الخبراء، والمجلات العلمية المتخصصة التي تكون منبراً للمناقشات وتبادل منافع المعرفة وإثراء التجارب الإنسانية، والندوات العلمية التي يتم فيها تبادل الآراء واستعراض الأفكار والنظريات المستجدة في كل اختصاص، وكذلك التبادل العلمي بين الجامعات والمعاهد العلمية، كما أنَّ استعمال هذه الوسائل بطريقة عقلانية هو الذي ينمي قدرات العلماء ويساعدهم على تنمية البحث العلمي وكشف أسرار الكون.

٦ - إنَّ المعرفة العلمية تتحسن بالاستخدام التدريجي لها، ومشكلتنا أنَّ مؤسساتنا الإنتاجية وإدارة الخدمات الاجتماعية تبدو متلهفة لتحقيق نتائج إيجابية في أسرع وقت ممكن، وهذا التلهف هو الذي يدفعها للتعاقد مع شركات أجنبية لتنفيذ مشاريعها وذلك ظناً منها أن تلك هي الحلول السهلة لعملية التنمية، وهذا التفكير غير المنطقي هو الذي يخلق الانفصال بين الإنتاج وبين استخدام المعارف العلمية الملائمة للبيئة المحلية.

ونستخلص من هذا أنَّ عملية جلب نماذج غربية، مستوردة من الخارج إلى المجتمعات النامية التي تختلف احتياجاتها وتقاليدها عن تلك الأنماط الموجودة بالدول المتقدمة تخلق انعكاسات سلبية على واقعنا العربي.

والمفروض في مثل هذه الحالات أن تعتمد المؤسسات الإنتاجية على البحوث العلمية المحلية، وأن تدرك بأن النتائج قد لا تكون بالضرورة سريعة ومريحة لأن العثور على الحلول والبدائل الجيدة لكل مشكلة هي عملية تتوقف على الموارد والإمكانيات المتوافرة لكل باحث، لكن الشيء المهم هو العثور على الأسلوب الملائم لتلبية الاحتياجات الاجتماعية، وخلق بنية علمية أصيلة داخل المجتمع الوطني.

٧ – تتسم الحضارة الإنسانية في يومنا هذا بالديناميكية في ميدان التحولات السريعة بفضل التكنولوجيا الحديثة والبحوث العلمية المنيرة، لقد شيدنا الثانويات والجامعات ولكننا لم نتمكن حتى الآن من القيام بمجهودات مماثلة في القيام بترجمة أمهات الكتب العلمية ونقل ثمار العقول التي تغمر العالم إلى لغتنا العربية وتمكين الأجيال الحالية والأجيال القادمة من الحصول على معرفة غزيرة نافعة لهم في الحاضر والمستقبل، وفي اعتقادي أنه من الصعب علينا أن نواكب ركب التقدم الحضاري أو نلحق بمن سبقنا من الدول المتقدمة، إن نحن بقينا بمعزل عن التيارات العلمية في ميدان المعرفة، فلقد كانت الترجمة على مر العصور من أهم وسائل نقل المعرفة وأكثرها تأثيراً في تقدم الشعوب.

٨ – إنَّ قوة الدولة الحديثة مستمدة، في الواقع، من قوة مؤسسات الأبحاث والدراسات السياسية والإستراتيجية.

وبناء على هذه الحقيقة فالدول المدركة لواجباتها، ولما يتطلبه مستقبل أبنائها، ترصد من أجل العلم أموالاً طائلة لأنَّ قادتها يشعرون أنَّ قوة العلم والمفكرين وابتكاراتهم هي ضرورة من ضرورات الحياة ولازمة لمصالح دائمة تتعدى شواغل الساعة وتتخطاها، وانطلاقا من هذا التحليل تتسابق الدول العملاقة إلى تجنيد أقدر العناصر في الجامعات وأذكى العقول لكي تخصص أو تتفرغ للتفكير والتخطيط على المستوى الإستراتيجي في كل المجالات. ومن هنا تنبع قوة الدولة العصرية لأنَّ هناك تفاعل بين قوة مؤسسات التفكير السياسي والإستراتيجي وبين قوة القيادة السياسية التي تحاول أن تخدم المصلحة العامة من خلال الاستعانة بالآراء الثاقبة لعلمائها.

والشيء اللافت للانتباه في هذا الموضوع أنه تمَّ استبدال المؤسسات العلمية في الدول النامية بالأجهزة البيروقراطية وهي بيروقراطية بطيئة في أعمالها وعاجزة عن الاستجابة السريعة للتحديات المعقدة والتي تتطلب مهارات فكرية ومقاييس علمية دقيقة.

وعلينا الآن أن نفصل في هذا الموضوع ونقرر من يكون له التأثير الإيجابي على مستقبلنا: البيروقراطيون المكلفون بالتنفيذ أم أصحاب العقول والأفكار الذين بإمكانهم تطوير أساليب جديدة، متقدمة في مجال كسب المعرفة واختبارها.

٩ - لقد تكلمنا حتى الآن عن الجوانب الإيجابية في العلم، وأشرنا إلى ضرورة الاستفادة من الاكتشافات العلمية التي تخدم الإنسان وتخلق واقعاً جديداً، وطريقة جديدة في التفكير في هذا الواقع ورؤية الإنسان له، وكلامنا هذا لن يكون كاملا إلا إذا اقترن واشتمل على تنبيه خلاصته أن الاكتشافات العلمية والتطورات التقنية لا يقودان بالضرورة إلى تطور اجتماعي حميد، فالعلم سلاح ذو حدين، قد يُسخر لحل مشاكل العالم المتفاقمة مثل نقص الغذاء ومحاربة التلوث والأمراض الفتاكة، وقد يُسخَّر أيضاً لخدمة أغراض شريرة كالإبادة بالأسلحة النووية والتجسس بالأقمار الصناعية وأدوات التنصت وخلق الفراغ واللهو والانغماس في الملذات وتطوير وسائل الهيمنة الفكرية عن طريق أجهزة الإعلام، وبناء على ذلك ينبغي أن ننتبه إلى حقيقة جوهرية وهي أنه ليس من السهل نقل المعرفة أو التكنولوجيا من مجتمع إلى آخر من دون نقل قيم وأساليب الحياة في ذلك المجتمع الذي توجد فيه التكنولوجيا، وعليه فإن التوظيف الجيد للمعرفة هو ذلك النوع الذي يكون نابعاً ومستمداً من قيم اجتماعية محلية ومعارف وخبرات معبرة عن خيارات وطنية.

صعوبات نقل التكنولوجيا

هناك صعوبات عديدة تواجه الدول النامية عند طلبها للاستفادة من التكنولوجيا المطبقة في الدول المتقدمة، وهذه الصعوبات هي صعوبات عامة تتعلق بالعلاقة بين الدول النامية كمجموعة والدول الصناعية المتقدمة كمجموعة أخرى، والحوار ما بين الشمال والجنوب لهو خير دليل على ذلك.

وفي العادة تحاول الدول الصناعية المتقدمة وخاصة الشركات الدولية التي تملك التكنولوجيا الحديثة فرض أكثر الشروط الملائمة لها لضمان الحصول على عوائد أرباحها عاجلة أم آجلة أو امتيازات احتكارية ضخمة على حساب الدول النامية، وإبقائها قدر ما تستطيع تحت مظلة تبعيتها التكنولوجية، ومن ثم الاقتصادية وربما السياسية.

والواقع فإن سوق التكنولوجيا العالمية يتميز بتقيده وعدم عدالته خصوصاً إذا أدخلنا في حسابنا أحلام الإنسانية نحو قيام عالم متوازن، يتعاون من أجل تطبيق مبادئ التعايش السلمي وتبادل المنافع على أساس

المساواة، تمهيداً لإقامة نظام اقتصادي عالمي جديد أكثر عدالة وأقل ظلما مما هو كائن الآن، والحقيقة السافرة على عكس ذلك، إذ سرعان ما تتغلب المطامع والأغراض على المثاليات، ولا يبقى أمام الجميع وخاصة الدول النامية إلا الكفاح ومواصلة الإصرار وصولاً للتحرر وبلوغاً للبناء، خصوصا وأن الدول النامية تعتبر الطرف الضعيف عند طلبها التكنولوجيا من الدول الصناعية وبالذات في أمور المساومة ويرجع ذلك إلى أن البلدان النامية تفتقر إلى الكيان التكنولوجي الذي يوفر لها المعرفة الفنية، والتي قد تساعدها في إستراتيجية التفاوض، ويزيد من تعقيد هذه المشكلة أنه ليس هناك أسعاراً قياسية أو محدودة أو معروفة، وليس هناك حدوداً للشروط التي يمكن أن تفرض، والتي قد تكبل وتقيد البلدان النامية بتبعية تكنولوجية، وتغرقها في طوفان من دفع عوائد مالية باهظة ترهقها وتخل من موازين مدفوعاتها.

ومن أصعب ما يواجه الدول النامية من عقبات هو كيفية انتقاء أو اختيار التكنولوجيا التي تناسبها، وتناسب ظروفها الاجتماعية والاقتصادية من بين التكنولوجيات التي قد تعرض عليها.

أضف إلى ذلك كيفية التفاوض وتحديد الكميات التي قد تحتاجها، خصوصا وقد تكون الشروط مجتمعة والحاجة ماسة لهذا النوع من فن الإنتاج.

وقد قررت هيئة الأمم المتحدة في إحدى لجانها الخاصة بنقل التكنولوجيا: إن نقل التكنولوجيا الصناعية يكلف الدول النامية من رسوم وعلامات اختراع تجارية وصناعية وملكية نحو ملياري ونصف المليار من الدولارات سنويا. أي أكثر ما يستثمر فعلا من رؤوس أموال أجنبية في هذه الدول سنويا.

وقد قدر مؤتمر الأمم للتجارة والتنمية أنَّ هذه التكلفة تتزايد بمقدار ٢٠ ٪ سنوياً، وهي كلها من التكاليف المباشرة، ويتعاظم هذا العبء إذا أضفنا عليه ما تتحمله الدول النامية من شروط خاصة بشراء المنتجات الوسيطة، وقطع الغيار وأرباح القروض وغيرها مما يجعل تكاليف نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة الصناعية إلى الدول النامية لا يمكن في الغالب تحملها.

أضف إلى ذلك إن التكنولوجيا المستوردة قد تصبح في كثير من الأحيان وبعد فترة وجيزة غير مناسبة على الرغم من تكاليفها الباهظة، وهذا يرجع إلى أسباب عديدة أهمها: عدم التوافق ما بين التكنولوجيا المستوردة، وحاجات البلاد الحقيقية، أو ما بين التكنولوجيا المستوردة والقدرات العليا والتكنولوجيا الوطنية بحيث يكون من الصعب امتصاصها على الوجه الكامل.

وقد تستورد بلدان نامية تكنولوجيا ما وبمبالغ باهظة بدافع العظمة أو التقليد للدول الصناعية المتقدمة، ومن أمثلة ذلك أن يتم استيراد التكنولوجيا فيما لا تحتاجه الأسواق المحلية وقت استيرادها على الأقل، أو قد تستورد طرق حديثة في الإنتاج مثلاً، وتدفع فيها البلدان النامية مبالغ طائلة، وتبقى التكنولوجيا المستوردة منعزلة مع ذلك عن القدرات العلمية والتكنولوجية الوطنية، فيبقى المستوى العلمي للبلد النامي عاجزاً عن امتصاص هذه التكنولوجيا المستوردة فترة قد تطول وقد تقصر حتى تستطيع أن تأخذ الفائدة الحقيقية منها، وهنا تبرز أهمية اختيار التكنولوجيا المناسبة، وهو أمر لا يصح أن تحكمه العواطف أو المفاضلة بين عاملي اليد العاملة ورأس المال، بقدر ما يجب أن يتوافق مع الاعتبارات السليمة التي تهدف أولاً إلى تقوية القدرة الوطنية على التنمية المستمرة اقتصادياً واجتماعياً.

وتتحمل الدول النامية تكاليف كبيرة في سبيل نقل التكنولوجيا ويرجع ذلك إلى المبالغ الباهظة التي تتكلفها الشركات الدولية للكشف عن التكنولوجيا.

وحتى تستطيع الشركات الدولية تغطية تكاليفها، وتحقيق ربح مناسب من التكنولوجيا المكتشفة، فإنّ الضرورة تقتضي زيادة مبيعات هذه الشركات من الآلات والعدد التي تنتجها، وهذا سوف يحقق أرباحاً لهذه الشركات من جهة، وانخفاضا في تكاليف نقل التكنولوجيا من جهة أخرى.

ولكن الوضع الحادث غير ذلك، فطلب الدول النامية يختلف من دولة إلى أخرى، إضافة إلى أن ضمان التكنولوجيا ليس مرتبطاً بالعدد والآلات فقط بل قد يكون مرتبطاً بالسلع الوسيطة أو معتمداً اعتماداً كبيراً على الكفاءة الفنية، والذكاء البشري.

وقد قرر أحد خبراء الأمم المتحدة أن ما تتحمله البلدان النامية من تكاليف قد وصل إلى ما يوازي ٣٠ ٪ من إيراداتها الخارجية في دفع تكاليف نقل التكنولوجيا، ومن المؤكد أن هذه التكاليف تتضاعف ما بين ١٥ ٪ إلى ٢٠ ٪ سنويا، وهي نسبة الزيادة في الدخل.

ولاشك أن البلدان النامية بما لها من قوة تستطيع أن تقلل من نفقات نقل التكنولوجيا من الدول الصناعية إليها، بل تستطيع أن تقلب المشكلة رأساً على عقب، بمعنى أن تتحول مشكلة التكنولوجيا من استيراد إلى خلق تكنولوجيا محلية إذا قامت باتخاذ إجراء أو أكثر من الإجراءات التالية:

- محاولة تشجيع وتقوية التكنولوجيا المحلية عن طريق إنشاء معاهد علمية وفنية مختلفة -يرتبط عملها- بالشركات المحلية والإقليمية.
- محاولة إدخال برامج تدريبية بالنسبة

للعمال في الصناعة والزراعة لرفع مستواهم الإنتاجي.

- محاولة إيجاد تكنولوجيا بديلة وبأثمان معقولة تؤدي العمل نفسه ولكن بتكاليف أقل.

ولابد للدول النامية من وقف السباق على طلب التكنولوجيا من الشركات الدولية، حتى لا يؤدي ذلك إلى التنافس فيما بينها، مما يؤدي إلى رفع أسعارها أو اختلاف السعر من دولة إلى أخرى.

ولاشك أن نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية مرتبط بمدى اتساع السوق، ومدى تطور القطاعات الصناعية المختلفة، والاستقرار السياسي في البلاد، فإذا توافرت هذه العوامل فلاشك أن يكون من السهل الاتفاق على نقل التكنولوجيا سواء عن طريق تكوين شركات برأس مال مختلط، أو فروع للشركات الدولية.

ومن أسباب ارتفاع نفقات أو تكاليف نقل التكنولوجيا أنه بمجرد ورودها إلى البلد النامي، فإنها لا توضع موضع التنفيذ لأجل زيادة الإنتاج مباشرة، وقد تقف عقبة أمام ذلك وهي انخفاض نسبة الكفاءة التقنية لدى العمال، مما يترتب عليه ضياع الأموال، أو تعطيلها والتي صرفت في سبيل استيراد التكنولوجيا، وبالتالي ارتفاع أثمان المواد المنتجة نتيجة تطبيق هذه التكنولوجيا فيما بعد.

إعلام الصورة واستلاب العقل العربي

✪
د. تركي صقر

ليس كل مايلمع ذهباً وليس كل ما يجري على الأرض العربية ربيعاً وليس كل ما ينقله الإعلام صحيحـاً عبارات باتت تتردد كثيراً هذه الأيـام في ظل سطـوة وسائل الإعلام علـى عقل المواطن العربـي وخاصة وسائل إعلام الصـورة وزادت محـاولات استلابه وتغييبه منذ أن هبـت رياح ما أطلقوا عليه زوراً وبهتاناً (الربيع العربي) فأضحى إعلام الصـورة سيد الموقف وهـو ينقل الأحداث المتسارعـة والمتلاحقـة من أرجـاء الوطن العربـي كيفما شاء وأنى شاء وقديما قالت العرب آفة الأخبار رواتها..

وقبل الخوض في قـدرة الصورة على التأثـير في العقـل وبالتـالي مقدرتها على استلابـه لابـد من الوقوف عنـد مصطلح الاستلاب وماذا يعنـي ليتسنى لنا مقاربته مع إعلام الصورة أو الإعلام الفضائي المعولم حيـث يبدو أن العصر هو عصر الصورة بلا منازع..

يقول الطيـب بو عـزة في مقالته حول دلالة مفهوم الاستلاب:

يعد مفهوم الاستلاب من المفاهيم الأكثر استعمالا وتداولا في خطابنا العربي المعاصر لتوصيف علاقة المثاقفة الواصلة بيننا وبين الغرب. ولفـظ الاستلاب مصطلح مفهومي

✪ باحث وإعلامي ودبلوماسي سوري.

يستعمل، خاصة من قبل الاتجاه الناقد لتقليد الغرب، وذلك للدلالة على حالة التبعية الثقافية ونقدها.

ولفظ الاستلاب من حيث الأصل يقابل ترجمة للفظ الأجنبي (alienation) الذي يرجع إلى اللفظ اللاتيني (alienation).

إنه دلالة على انسلاخ من الذاتية الثقافية وخضوع للتبعية للآخر كحضارة أو ثقافة. ويكاد يكون هذا المعنى هو المدلول الوحيد الذي يستعمل به المفهوم، ومن ثم جاز القول: إنَّ دلالته غير ملتبسة في المجال التداولي العربي، اللهم إلا من حيث غموض آليات وكيفيات التخلص من الظاهرة الاستلابية.

يقول محمد شاويش في مقالته الثقافة المفروضة:

هناك ثقافة سائدة في مجتمعنا سماها «ثقافة النماذج المفروضة» تشيع بيننا قيماً وأحكاماً وتقييمات استلابية تؤكد (تفوق) و(تقدم) و(جمال) و(إنسانية) و(ذكاء) مكونات الثقافة الغربية، و(دونية) و(تخلف) و(قبح) و(وحشية) و(غباء) مكونات ثقافتنا المحلية. وعلى هذا فكل ما هو غربي يراه الفرد المستلَب في مجتمعنا على أنه أجمل وأرقى وأكثر علمية وعقلانية وفائدة مما هو محلي.

وقد درس محمد شاويش الآلية التي أوصلت مجتمعاتنا إلى حالة الاستلاب هذه، وسماها «السلبنة». فالسلبنة هي العملية التي تصنع الاستلاب، والاستلاب هو الحالة الناجزة التي تنتج عن نجاح عملية السلبنة.

وتتولى عملية السلبنة حسب رأي شاويش تجريد الفرد والجماعة من إمكانية التعبير عن ذاتهم الحقيقية، فيترسخ في يقينهم بأن نموذجهم السائد رجعي ومتخلف وقبيح أو محكوم عليه بالزوال، وبالتالي يقعون ضحية الاستلاب بأنواعه المختلفة..

يمكن القول: إن الإعلام يلعب دوراً خطيراً في عملية السلبنة في المجتمعات العربية نظراً لهشاشة هذه المجتمعات ولكونها مجتمعات استهلاكية تقع تحت سيطرة منتجات الغرب وليس الاستهلاكية المادية فحسب وإنَّما الثقافية والإعلامية أيضاً..

كما يمكن القول: إن الإعلام يغدو في الأحداث الكبرى خبز الناس اليومي فهم ينامون ويصحون عليه لذلك تغدو مقدرته على الاستلاب فائقة للغاية ولاسيما عندما يعتمد على الصور الميدانية التي أصبح بالإمكان التلاعب فيها بسهولة ويسر اعتماداً على التقنيات المتطورة جداً وشيئاً فشيئاً بدأت شبكات التواصل الاجتماعي تركز على الصورة أو إعلام الفيديو وتخصص

بعضها بنقل شرائط الفيديو كشبكة اليوتيوب ذات الشهرة الكبيرة والتي أصبحت مرجعا للفضائيات وشبكات التواصل ويأتي هذا الاهتمام من كون الإعلام الحديث بات إعلام صورة بالدرجة الأولى لتفوق تأثير حاسة النظر على باقي الحواس في تغيير الأفكار والمواقف وغزو العقول..

وتأسيساً على ذلك لانجد أحداً يجادل بأن الإعلام في الوقت الراهن وأكثر من أي وقت مضى له سطوة على عقول الناس حيث يقول المفكر الفرنسي د.جاك أتالي (مجلة السياسات الدولية العدد١٤٤أبريل ٢٠٠١) إن «عالمنا اليوم قد أصبح يسيطر عليه الإعلام وليس الطاقة.. إنّ السيطرة على المعلومات لا على المواد الأولية هي التي ستحدد كل شيء حتى الحرب والسلام».

وأضاف: إن «جميع المؤشرات تؤكد تفوق اقتصاد السوق على أخلاقيات الديمقراطية... إن اقتصاد السوق والديمقراطية يشجعان عقلية القطيع التي يمكن أن تخل باستقرار الدول وهذا الاتجاه يمكن أن يبالغ في حجم المشكلات ويدفع إلى التنافس في الأسواق و...حتى إثارة الأزمات المالية. وتأتي تكنولوجيا الإعلام فتزيد من هذه النزعة التي تخلّ بالاستقرار وتدمر نفسية الشعوب».

كما يقول الدكتور طالب أحمد محمد معمري الخبير الإعلامي العماني:

«إنّ الدور الذي يلعبه الإعلام في حياتنا دور ليس بالهين كما يعتقد كثيرون، دور جعل من رمّم في حياتنا المعاصرة آلهة تعبد وجعل من أمور لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في حياة البشر من المهمات العظام، وأخل بكثير من القيم والثوابت الحسنة والتي لا يمكن الاستغناء عنها في أي عصر من العصور لتستقيم حياة الإنسان وأبدلها السيئ الرديء فاختلط الحابل بالنابل والجيد بالفاسد حتى أصبح ذو اللب في حيرة من أمره».

ويضيف: إن جميع من تكلمه من البشر يؤكد لك أن الجيل الجديد جيل الإعلام الهزيل جيل التقليد جيل الذات المسلوبة المفتقرة إلى أبسط أدوات الذات المستقلة، جيل لا يجيد سوى أن يسير على خطا الآخرين ويصنع ما يصنعه المشاهير الذين أجادوا لعبة تمزيق الذات الإنسانية واستلابها واستطاعوا أن يرسموا له معالم حياته التي تهتم بالتوافه وتقليد التقاليع التي يظهر عليها أولئك المشاهير».

ويشرح الدكتور عبد العالي معزوز في كتابه الإنترنت والاستلاب، منظور هابرماس للتقنية بالإشارة إلى أهم مظاهر التحكم الأيديولوجي للعلم والتقنية، وهي:

١- تقنيـة المراقبـة والاتصـال، جعلت المجتمعات مجتمعات تلصص وتجسس على مواطنيهـا عبر كاميرات المراقبة في كل ركن وكل زاوية.

٢- تطوير وسائل تقنية للتحكم في النظام الجينـي وتوجيهه بما يتـلاءم مع الليبرالية ومبـدأ الفعاليـة. فبالنسبة لهابـر مارس، يضيف الكاتب، فإن هيمنة أيديولوجية العلم والتقنية في المجتمعات المعاصرة سيؤدي إلى ضمـور وانكماش الفضاء السياسي والمجال العمومـي، والتشويه الذي تقـوم به وسائل الإعـلام عبر تحويل النقاش السياسي إلى الفرجة.

من جهته يعتبر الفيلسـوف جاك إيلول التقنيـة علـى أنهـا المنطـق الناظم لكل الآلات والأجهـزة والأدوات ولـكل الطرائق والأنظمة. «فلا معنى لسرعة الاتصالات في العالم التقني الذي نعيش فيه من دون ربطها بأنماط الشغل وبأشكال السكن..».

وبعد أن يتطرق الكاتب إلى مفهوم التقنية وخصائـص النظام التقني، ينتقل إلى موقع الإنسان من العـالم التقني. فبالنسبة لجاك إيلول التقنية هي المحيـط الذي يسبح فيه الإنسـان المعاصر.. والماء الذي يستحم فيه، والوسـط الذي يترعرع فيه. كمـا أن العالم التقنـي هو مـا يهيأ إليه الإنسـان ويعد له وينشأ ويربى عليه. فالتقنية، بالنسبة لإيلول، هـي التي تولـد الرغبـات، فالإشهار مثلا يخلق الحاجـة إلى الاستهلاك، والمواصلات تخلق الحاجة إلى التنقل.. وبالتالي لا يوجد أيـة إمكانيـة خـارج العالم التقنـي وخارج نظام التقنية المعاصر، إنه الشرط الوجودي للإنسان.

وبالنسبة لعلاقة الحريـة بالتقنية، فإن جـاك إيلول يعتبر أنـه «لا وجود للحرية في العالم التقني لأن الاختيار بين إمكانات متعددة لا يعتبر حرية»، لأنَّ منطقة اختياراتي محددة بالعالم التقني، وبالتالي لا يمكن الحديث في المجتمعات التقنية المعاصرة عن الحرية بقدر ما يمكن الحديث عن الاستلاب. فـالإنسان لا يملك أفعالا بل فقط ردود أفعال، وللنظام التقني اليد الطولى فيما يختاره».

نعود للصورة، لنجـد الأهمية القصوى للصورة اليـوم في زمن يجوز لنـا أن نقول عنـه بامتياز أنـه زمن الصـورة في عصر الأقمار الاصطناعية، والكاميرات الرقمية، والهواتف النقالـة، والفضائيات الإخبارية التي تعمل على مـدار الساعة، تبدو أهمية فائقـة للصورة، وقـد أصبحنا قادرين على رؤية كمٍّ هائل من الصور للأحداث في موعد حدوثها نفسه، ومن أي مكان في العالم؟؟

منذ بداية ما أطلقوا عليه الربيع العربي، لاحظنا كيفية استخدام بعض وسائل الإعلام للصورة وكيفية توظيفهـا واستعمالها، وهو

توظيف تغير وتشكل حسب توجهات كل وسيله من وسائل الإعلام وحسب الهدف الذي ترنو إليه من خلال عرض الصورة بطريقه معينة من دون سواها..

توظيف الصورة ليس بالضرورة بريئاً، لأنّ حيادية وسائل الإعلام خلال الحروب ليست دائما مضمونة، وحيادية وسائل الإعلام قد تصبح خلال الحروب مطلبا شبه محال حيث تتضارب مصالح كل الأطراف المتحاربة وتتداخل وقد قيل إن الحقيقة أوّل ضحايا الحروب..

وإذا أردنا الحديث عن أهمية الصورة ومكانتها في توجيه الرأي العام إبان الحروب فإننا سنلاحظ بوضوح أن الصورة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الإستراتيجية العسكرية، فهي تعد من المؤشرات القوية على النصر والهزيمة في الحروب، فالحرب في أفغانستان والعراق والحرب الأخيرة في غزة تمّ خوضها أيضاً من خلال صور تنشر في وسائل الإعلام المكتوبة وشاشات التلفزيون وشبكة الإنترنت وكان لها دورٌ كبيرٌ بل بارزٌ في تحريك ليس فقط الشارع العربي بل الرأي العام العالمي أيضاً.

وتأثير الصورة يبدو فعالاً وقوياً، وقادراً على توجيه الناس وتحريكهم، فنحن لا نستطيع أن ننكر أبداً التأثير الذي أحدثته صور الاحتجاجات في الشارع العربي وكذلك سقوط أطفال غزة تحت أنقاض مدارس الأونروا بعد القصف الإسرائيلي في الحرب الأخيرة ولن ننسى صور أطفال لبنان ضحايا مذبحه قانا خلال حرب تموز ٢٠٠٦م، وعديد الصور التي اتسمت بالبشاعة، صحيح أننا لن ننسى ربما لشهور أو لسنوات كل حسب قدرته على التذكر، وحسب موقع قربه من الحدث جغرافياً ونفسياً وفكرياً إلا أن الصحيح أيضاً أن ذلك يترك تأثيره على مجرى الأحداث مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

ولكن مهما كانت فظاعة الصور وهي تحدث انقباضاً نفسياً رهيباً ينعكس على ملامحنا ونحن نشاهدها،إلا أنّ تأثيرها وقتي سرعان ما يزول بغياب الصورة عن أعيننا أي انه لا يخلق تأثيراً قوياً مستمراً في الزمن قادراً على خلق تحرك فعال وناجع لوقف المعاناة اللاإنسانية التي يعيشها الأبرياء.

إنّ الصورة كما حللها وفسرها أغلب علماء النفس والاجتماع بطبيعتها استهلاكية، فهي تصنف كسلعة كانت نتاج عصر ثقافة الاستهلاك، فنحن حين نشاهد الصورة نستهلكها معرفيا ووجدانيا ثم نسعى للبحث عن الصورة التي تليها علها تحوي الجديد وفي بحثنا عن الجديد نستغني عن القديم ونعامله بلا مبالاة،من جانب آخر يشكل تعرضنا باستمرار للصور نفسها من خلال

اعتماد أسلوب التكرار الذي تنتهجه أغلب الفضائيات إلى تعودنا عليها مما يجعلها تتحول إلى عاديه ومألوفة وهو أمر قد يدفع باتجاه النفور منها رغم التعاطف الكبير معها.

هناك أيضاً جانب آخر قد ينجم عن تكرار الصورة باستمرار من دون اعتماد سياسة انتقائية ممنهجة لاستخدامها حيث تشكل رؤية صور الحروب قناعة راسخة لدى المشاهد الذي يكون بعيداً جغرافياً عن مسرح الأحداث.

إن ما يحدث للآخرين لا يتطلب منا سوى التعاطف الذي قد يكون آنيا،فهم يقومون بالدور نيابة عنا ويموتون نيابة عنا أمّا نحن ففي مأمن مما يحدث حولنا وهو ما يصطلح على تسميته في علم النفس بالخبرة البديلة.

وأمام بشاعة الصورة،يتضاعف لدى المتلقي الرغبة في الهروب من المعرفة أي أنه سيسعى للبحث عما يسعده معرفيا وينفر مما يحزنه ويشقيه وبالتالي فإنه سيقبل على الصورة في مرحلة أولى من باب الاكتشاف أو التأثر أو التضامن والتعاطف لكن هذا الإقبال سيتراجع تدريجياً وبشكل سريع نسبيا،خاصة وأن الإنسان يكتسب عجزاً نفسيّاً كلما ازداد تعرضه لعوامل الإحباط النفسي والألم والشعور بالعجز عن الفعل أو عن التغيير في سير الأحداث، ومن ثم يتحول إلى إنسان غير مبال ويفقد إرادة المواجهة والمقاومة ويفقد الأمل والرغبة في التغيير،و بذلك تفقد الصورة قدرتها على التأثير فيه وعلى إيصال إحساس معاناة الآخرين إليه.

إنَّ تقنية تكرار استعمال الصورة جزء مهم من آليات الإعلام الغربي،تكرار الهدف منه تأكيد السيطرة إعلاميا وثقافيا، لأن الصورة كما أسلفنا هي أداة قوة ومعرفة ويمكن السيطرة من خلالها لذلك نحن نحتاج إلى إعلام عربي قويٍّ وقادر على المواجهة، ويجيد استخدام الصورة، إعلام بديل يواجه إعلاماً غربياً متحيزاً وإعلاماً عربياً سيئاً وتقليدياً يخضع للرقابة والرقابة الذاتية، إعلام قادر على تحقيق الانتشار خارج المنطقة العربية لنقل صورة حقيقية وصادقة عن العالم العربي الذي يقبع في قفص الاتهام في عيون الغرب باعتباره بؤرة للإرهاب والحروب، وهنا تكمن ضرورة القدرة على إحكام استخدام الصورة استخداما صحيحا بما يخدم هذه الأهداف.

إنَّ بروز عدد هام من الفضائيات العربية الإخبارية في العشرينية الأخيرة من القرن الماضي أمر لا يمكننا إغفاله،خاصة أنَّ بعض هذه الفضائيات استطاعت أن تحقق إنجازات هامة وتمكن بعضها من أن يصبح

في زمن قياسي أحد أهم مصادر الأخبار الرئيسية في العالم، وهو عمل يتطلب خبرات مهنيه عاليه وتقنيات مميزة وقد أثبتت الأحداث في المنطقة العربية مهنية وحرفية بعض هذه الفضائيات حيث تمَّ استغلال الصورة، وتوظيفها للتلاعب بعقول الناس..

على أية حال ومهما كانت سطوة إعلام الصورة وتأثير الفضائيات على استلاب العقل العربي فإنَّ تياراً كبيراً من المثقفين العرب بات على قناعة أن مايجري على الساحة العربية شبيه بعصور الانحطاط أو على الأقل حركة لاتبشر بالتقدم إلى الأمام، وأنَّ ما سمي الربيع العربي ليس أكثر من بضاعة مزيفة وحمل كاذب بعد أن جرت سرقته في المهد وزرعه بالألغام والفتن والفوضى.. ولن يستطيع أساطين الفضائيات المبرمجة وجيوشهم الإعلامية الجرارة عبر السماوات المفتوحة أن يمضوا كل الوقت في تزوير الواقع وتغييب عقول الجميع عن حقيقة قتل الثورة باسم الثورة واغتيال القيم باسم القيم وإفراغ الدين والمثل باسم الدين والمثل.. لأن الزبد لابد أن يذهب جفاء وأن ماينفع الناس لابد أن يمكث في الأرض..

المصادر

١- معجم علم السياسة والمؤسسات السياسية، بيار بيرنبوم.
٢- المعجم النقدي لعلم الاجتماع، بودون وف. بوريكو
٣- شمخي جبر، جريدة الصباح العراقية.
٤- سعد مطر عبود، موقع باب.
٥- سعاد جبر، دروب.
٦- هشام البستاني، جريدة الغد الأردنية.
٧- فرانسوا باسيلي، ميدل إيست أونلاين.
٨- توفيق المديني، جريدة الأخبار.
٩- محمد شاويش، مجلة المجتمع.
١٠- إيهاب الأزهري، الناس على دين إذاعاتهم.

أنظمة الإدارة التخطيطية لتطوير بنية المدن المعاصرة

د. حسان القيسي *

إنَّ نظام إدارة المدن نشأ مسايراً للتطور المدني منذ أن شعر الإنسان بالحاجة إلى التضامن مع غيره من سكان المدينة للوفاء بالحاجات المشتركة بينهم، وإن هذا النظام لم يُعرف كتنظيم إداري إلا بعد قيام الدولة الحديثة في نهاية القرن الثامن عشر، وبعد انتشار المبادئ والأفكار الديمقراطية وارتباط الدعوة إليها في المجال السياسي بالدعوة إلى تطبيقها في المجال الإداري. فقد وجدت الديمقراطية السياسية في نظام الإدارة المحلية ما يحقق تلك المبادئ التي قامت من أجلها، وكذلك وجدت حركات التحرر الوطني وسيلة لتحرير الإنسان من كل أنواع السيطرة والاستغلال.

لم يكن نظام إدارة المدينة في الماضي يلقى إلا قليلا من الاهتمام إلا أنه في الوقت الحاضر نال اهتماماً كبيراً بسبب الدور الذي يؤديه في تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وصولاً إلى مجتمع الكفاية والعدل، وللإدارة التخطيطية المحلية أهمية كبيرة في جميع المجتمعات وعلى اختلاف أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية، حيث تخفف هذه الأنظمة عن كاهل الإدارة المركزية الكثير من الصلاحيات والمسؤوليات الإدارية المركزية وذلك بتوزيع جزء من

* باحث في الشؤون الاقتصادية والإدارية.

صلاحيات ومسؤوليات الإدارة المركزية على هذه الإدارات، إضافة إلى مساعدة هذه الإدارات التخطيطية المحلية للجهاز الحكومي المركزي من خلال الإسهام في التخطيط للهيئات المحلية وبيان ما تحتاجه وبيان ما لديها من موارد بشرية ومادية يمكن استغلالها بالصورة المطلوبة، ونشر الرخاء والاستقرار من خلال التفاعل بين الإدارة التخطيطية المحلية والحكومة المركزية.

إنَّ قصور الإدارة التخطيطية المحلية يكون له أثر كبير على المجتمع، وينعكس أثره على الحكومة المركزية واستقرارها وتقدمها، ومتى سار هذا الجهاز بالصورة الصحيحة سار البلد نحو التقدم والازدهار.

والإدارة ليست مهنة، فليس كل من يتخرج في كليات الإدارة والاقتصاد، أو يحصل على شهادات عليا في حقول إدارية يمكن أن يطلق عليه (إداري).

ولم تتوصل المجتمعات في العالم إلى وضع ضوابط ممارسة المهنة الإدارية كما أرست ضوابط ممارسة المهن الأخرى، لأنه خريج كلية الإدارة أو حامل شهادة في الدراسات العليا في الإدارة فهذا لا يعني بالنتيجة أنه يصلح لإدارة مشروع أو مؤسسة تنموية في الدولة.

إنه يملك الثقافة في الإدارة، ولكن ليس بالضرورة أن يملك مواصفات الإداري الجيد. ومن ذلك يظهر الفرق بين الإدارة وبقية المهن الأخرى مثل الطب والهندسة والمحاماة والمحاسبة وغيرها، والإدارة هي حصيلة كل المعطيات والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحضارية لذلك البلد، فنجد اتجاهات وأساليب إدارية إنكليزية في إنكلترا وأخرى أمريكية ومثلها في اليابان والصين وفرنسا وألمانيا.

وقد شهد القرن الماضي نهضة صناعية واقتصادية ضخمة تركزت في المدن الكبرى ثم المدن المتوسطة الحجم والصغرى بنسب متفاوتة يواكبها على المستوى نفسه نمو وتطور في الخدمات المحلية الأساسية عدداً وشكلاً وأسلوباً ونظاماً نلمسه في الإسكان وتجهيز المياه والكهرباء والمجاري والمناطق الصناعية والأحياء التجارية وشبكة النقل والمواصلات وأسلوب استخدام الأجهزة والمعدات الحديثة لإنشائها وصيانتها وأشكال وأنواع النقل والمواصلات السائرة على سطح أرض المدينة أو تحتها..إلخ.

وعلم الإدارة يعد علماً حديثاً قائماً بذاته، أدى تطوره السريع إلى تفرعه إلى العديد من الفروع التخصصية تُدرَّس في كليات ومعاهد متخصصة وغير متخصصة في أغلب أقطار العالم المتحضر.

وفن الإدارة هو الموهبة أو العبقرية المتمثلة في مهارة تطبيق أصولها ونظرياتها،

وهذا يظهر لنا بأن الإدارة ليست علما فقط ولا فنا فحسب وإنما هي كلاهما معا ولا يمكن دراستها في نظريات ما لم تتجه إلى التطبيق العملي في ميادين النشاط العام، وأهمية الإدارة اليوم تبدو في كيفية مواجهة أعباء العمل الكثيف والمتنوع والمتزايد في المناطق الحضرية حيث الطبيعة المعقدة لعمل الإدارة وسط التقدم التقني الهائل.

وهذا انعكاس للتغيرات التي اتخذت سبيلها إلى المدن في العصر الحديث، زيادة مطردة في عدد السكان والخدمات البلدية ومطالب الجماهير الملحة والتطور السريع في حياة المدن ذاتها، وهذا يدل على أن الإدارة تمارس نشاطها وسط مواقع العمل وفي ميدانه وفي مختلف مجالات الشؤون البلدية وأقرب الخدمات إلى المواطنين وأكثرها إلحاحاً واستمراراً وتجدداً وأشدها حاجة إلى سرعة البت وفورية اتخاذ القرار. ثم عليها أن تواكب حركة التنمية وتواجه مقتضيات التطوير وأن تسعى دائماً للارتفاع بمستوى الأداء ونيل رضا الجماهير.

وإدارة المدن تعتبر صورة اللامركزية الإقليمية والقاعدة الأساسية والعريضة للمرافق والخدمات المحلية والشؤون البلدية. ويتمثل ذلك في تنسيق جهود السكان والاتجاه فيها إلى تنفيذ الخطط المرسومة لتحقيق الأهداف العامة.

ومبدأ اللامركزية يعني توزيع الواجبات والمسؤوليات ذات الطابع المحلي جغرافيا على وحدات تتكون من مجموعها المساحة الكلية للوحدة الكبرى وتختص كل وحدة من هذه الوحدات الفرعية بمستوى معين من الصلاحيات داخل حدودها وتعمل تحت الإشراف والتنسيق للوحدة الكبرى صاحبة الاختصاص الأصيل، ولقد لجأت العواصم الكبرى بل وبعض المدن الكبيرة والمتوسطة في كثير من دول العالم إلى هذا الأسلوب من اللامركزية تخفيفاً من أعباء قيادات البلديات لتتفرغ لوضع السياسات والخطط والبرامج ومهام الإشراف والتوجيه والتنسيق والمتابعة وترك العمل اليومي في الشؤون والخدمات البلدية لوحدات صغرى في حدود نطاقها الجغرافي، بما يضمن سهولة الأداء وكفايته وفعاليته.

وإذا كانت الحاجة ماسة للإدارة في مدن الأقطار المتقدمة فإنها أكثر إلحاحا في الأقطار النامية، حيث أن السكان عادة يكونون عجولين لمشاهدة نتائج التنمية ويميلون دائما إلى الإحساس بالجهود المبذولة لتغيير الحياة على الأرض وكذلك التطور السريع الذي يحصل في حياة المدن ذاتها حتى تتمكن من مواكبة أو ملاحقة ما فاتها من تطور. فعلى سبيل المثال إن مطالب المواطنين بالنسبة للإسكان تكون ملحة

وعاجلة التنفيذ لأن الإسكان الذي يعتبر سلعة استهلاكية ما هو في الواقع إلا عامل إنتاجي مهم، إذ إن المواطن المنتج يحتاج في المقام الأول إلى مسكن يحقق له ظروفه المعيشية الصحيحة والاجتماعية والعمرانية السليمة قبل أن نستطيع مطالبته بالإنتاج.

ولذلك يتوجب على التخطيط القومي للدول النامية أن يضع في الاعتبار الأول المشروعات ذات العائد السريع ليستطيع أن يحقق منها التوازن الاقتصادي اللازم، وأن لا يغفل عن أن المشروعات الخدمية هي الهدف الأول لتحقيق الحياة العمرانية السليمة، وبالتالي كفاءة الإنتاج.

ولكن التحديات الاقتصادية التي تواجه الدول النامية تحتم عليها إجراء الموازنة اللازمة لتخطي الأزمات والاختناقات واستغلال الطاقات الاقتصادية كافة ووضع خطة طويلة الأمد لزيادة إنتاجية المجتمع وحينئذ تستطيع أن تعرض له كل ما يلزمه من خدمات.

إلا أن هذا الأمر يحتم العمل على إيجاد نوع من التوازن بين المشروعات الإنتاجية والمشروعات الخدمية العاجلة والضرورية التي يؤثر اقتصادها على الإنتاج بصورة واضحة، وتتبدى هذه الصعوبة القائمة في المجتمعات التي طال حرمانها من الخدمات اللازمة للمعيشة على مستوى إنساني لائق.

إنّ لجنة إدارة تخطيط المدن التي يختارها عادة المجلس البلدي في المدينة تمثل قطاعاً من أهل المدينة المهتمين بشؤون التخطيط الحضري، كما تمثل مجلساً ملهماً للأفكار الجديدة، وتتمثل في هذه اللجنة العلاقة بين المختصين في مجال التخطيط الحضري كما تخفف هذه اللجنة عن المجلس البلدي في المدينة أعباء كثيرة، حيث تشرح للسكان التفصيلات الكثيرة عن مشاكل التخطيط الحضري والإقليمي.

وقد تكون هذه اللجنة وسيلة أو أداة للمساهمة الشعبية تساعد على إثارة اهتمام السكان بشؤون التخطيط وعلى تنفيذ التصميم الأساسي للمدينة. وتلعب اللجنة ثلاثة أدوار رئيسية هي:

- دور الممثلين للشعب، حيث تنقل للمجلس البلدي ولمجلس الشعب رأي سكان المدينة.
- دور المفسرين للشعب، حيث تفسر للشعب أهمية التخطيط وبهذا تحمي المخططين من الجمهور.
- دور المستشار الناصح، حيث تنصح اللجنة الأجهزة الحكومية وتعاونها في حل مشاكل الجماهير.

ويتوقف أعضاء اللجنة على حجم المدينة وعدد سكانها، ويتراوح العدد ما بين (٥-١٠) أعضاء، ويتم اختيار أعضاء اللجنة من رجال الأعمال والمهندسين وغيرهم.

وعادة لا يمثل هؤلاء الأعضاء المختارون المدينة تمثيلاً جغرافياً، ولكن يمثلون اهتمام الرأي العام، ومن صفات هؤلاء الأعضاء القدرة على الرؤية الواضحة، الشاملة والكفوءة وغيرها من الصفات الأخرى، وتعتمد لجنة إدارة تخطيط المدن سلطتها واختصاصها من التشريعات السارية على المدينة، وبهذا تتفاوت سلطات لجان تخطيط المدن من دولة لأخرى بل من مدينة لأخرى في الدولة نفسها، وبعض السلطات التي يمنحها المجلس البلدي في المدينة للجنة تخطيط المدن هي:

- تحضير مشروع التصميم الأساسي للمدينة.
- تحضير الخرائط الأساسية للمدينة.
- مراجعة خرائط إفراز الأراضي.
- تحضير وإعداد تخطيط المناطق السكنية التي تتكون منها المدينة.
- مراجعة وعمل التوصيات على كل التعديلات التي تدخل على تخطيط المناطق السكنية.
- تحضير وإعداد المشاريع المتعلقة بالتجديد الحضري.
- تحضير وإعداد ومراجعة البرامج الحالية للمدى الطويل للمشروعات العامة الخاصة بمرافق وخدمات المدينة مثل مشروعات مياه الشرب والمجاري والحدائق والمدارس.

وللممارسة هذه الاختصاصات تعتمد لجنة التخطيط الحضري على الجهاز الإداري المختص بشؤون التخطيط الموجود بالمدينة، وقد يكون هذا الجهاز عبارة عن مكتب أو قسم أو إدارة تخطيط حسب حجم المدينة، وفي حالة عدم وجود مثل هذا الجهاز التخطيطي تستأجر لجنة التخطيط مخططين استشاريين يقومون بتحضير هذه المشروعات شريطة أن يكونوا من الوطن العربي.

تتمتع لجنة التخطيط بحرية كاملة في عملها، ويجب أن تشعر بالأمان والطمأنينة طالما أنها تؤدي عملها بأمانة وصدق، ويُختار رئيس اللجنة من أعضائها أو حسب ما تنص عليه التشريعات السارية، وعادة يُعين المسؤول عن تخطيط المدينة عضواً باللجنة ويكون سكرتيراً أو مقرراً لها حتى يمكنه نقل قرارات اللجنة بوضوح إلى الجهاز الذي يرأسه وينفذ قراراتها، ويكون اجتماع اللجنة مرة كل شهر أو حسب الحاجة، ويحبذ أن تكون هذه الاجتماعات مفتوحة للجمهور حتى تكون مصدراً لتعليم وتثقيف الرأي العام، وفي الوقت نفسه تعطي ثقة لأعضاء اللجنة، وفي بعض الحالات يكون الاجتماع مغلقاً عند مناقشة بعض المشاكل الخاصة.

ويجب أن تكون مسؤولية لجنة التخطيط تعليم أعضائها وتعليم الجمهور، ويتم

ذلك بتجنيد كل وسائل الإعلام ولمثل هذه المجهودات التعليمية مهمة في الحفاظ على عملية التخطيط على أنها عملية سياسية وعامة.

وعندما يكون حجم العمل كبيراً تشكل لجنة التخطيط لجاناً فرعية، وقد يكون أعضاء هذه اللجان من بين أعضاء لجنة التخطيط أو من الخارج من ممثلي الوزارات والهيئات وأساتذة الجامعات وأهل الخبرة، وغالباً ما يكون المخططون الموجودون في إدارة التخطيط أعضاءً في هذه الدراسات المتخصصة.

ومن أمثلة هذه اللجان الفرعية، لجان الإسكان والمرافق العامة والنقل والخدمات، ويحق للجنة التخطيط أن تعقد اجتماعات مشتركة مع بعض اللجان أو المنظمات الأخرى التي تشارك لجنة التخطيط في اهتمامها بالمشاكل التخطيطية.

إنَّ رئيس اللجنة التخطيطية في أية مدينة، عليه الأخذ ببعض مبادئ علم الإدارة وقواعده ومن هذه المبادئ:

- أن تكون للجنة التخطيطية سياسة واضحة وخطة عمل معروفة يعرفها العاملون باللجنة جميعاً. إنَّ وضوح سياسة اللجنة للعاملين يساعدهم على تفهم العمل على أحسن وجه.

- **توزيع الأعمال والمسؤوليات**: تقتضي الحياة الإدارية الحديثة أن تأخذ بمبدأ تقسيم العمل وتحديد المسؤوليات من أجل تحقيق الأهداف المطلوبة.

- **المركزية**: يجب أن يصدر الأمر إلى الموظف أو العامل عن طريق رئيس واحد لأن تعدد مصدر الأوامر يؤدي إلى إحراج الموظفين.

- **التفويض بالسلطات**: يعفى المسؤول الإداري الأعلى من تضييع وقته في التفصيلات الصغيرة لكي تتاح له الفرصة للتفرغ للمسائل الكبرى وللاتصال بالجماهير والتفويض يفيد باتخاذ القرارات بأسرع وقت ممكن، وتأدية كل وظيفة عند المستوى الصحيح من مستويات الإدارة. ولإنجاح عملية التفويض يجب مراعاة ما يلي:

١ - أن يكون المفوض راغباً في التفويض وقابلاً بنتائجه كافة.

٢ - أن يكون صالحاً لتحمّل المسؤولية.

٣ - أن يتوازن التفويض بالمسؤوليات مع السلطة اللازمة للقيام بتلك المسؤوليات.

ولكي يقوم رئيس لجنة الإدارة التخطيطية بعمله على الوجه الأكمل يجب توافر ما يلي: التخطيط السليم - المشاركة الجماهيرية - المساعدات الفنية.

أولاً- التخطيط:

إنَّ التخطيط أصبح في الوقت الحاضر هو الأسلوب الواجب اتباعه في كل المستويات

الإدارية، سواء كان على مستوى شركة صغيرة أو على مستوى مؤسسة كبيرة، على مستوى إدارة المدينة أو وزارة أو دولة لأنه من خلال هذا الأسلوب نستطيع معرفة ما يجب عمله ووقت العمل والجهة المنفذة والهدف المرجو من ذلك.

إنَّ إدارة المدينة المعاصرة بشكل علمي مطلوب منها الأخذ بأسلوب التخطيط في جميع أعمالها وبصورة خاصة عند وضع التصميم الأساسي للمدينة.

إن رئيس اللجنة التخطيطية كلما كان قريباً في اختصاصه من العملية التخطيطية كلما ساعد ذلك على إنجاح هذا الأسلوب فإذا كان رئيس اللجنة مخططاً عمرانياً فهو يعمل بصميم اختصاصه ومتفهم لما يجب عمله بالمدينة، وعند وضع التصميم الأساسي للمدينة سوف يعرف ما مطلوب عمله سواء أكان منه بصورة مباشرة أم من خلال اعتماده على الأقسام الموجودة في الوحدة الإدارية للمدينة والتي يستطيع توجيهها للقيام بمراحل وضع التصميم الأساسي أو التصاميم التفصيلية للمدينة بمشاركة من خلال جمع الأنشطة والاستعمالات الموجودة من سكن ومواصلات وخدمات اجتماعية وترفيهية، ومعرفة الاحتياجات وما مطلوب عمله حالياً ومستقبلاً، وبالتالي نستطيع وضع تصميم أساسي عملي يمكن تنفيذه بسهولة لأن المصمم والمنفذ هو الجهة نفسها.

ثانياً- المشاركة الجماهيرية:

إنَّ العمل في الإدارة التخطيطية المحلية هو عمل مع الجماهير وهو فن أكثر منه علماً يتقنه الإنسان بالمران العملي والخبرة الشخصية.

إنَّ تنشيط أي مجتمع يستهدف تنشيط مساهمة الأهالي في شؤون مجتمعهم والعنصر الأساسي في إثارة اهتمام المواطنين هو أن تتجاوب المشروعات مع رغبة الأهالي التي يعبرون عنها، ومن هنا ينبغي على القيادات في الإدارة التخطيطية المحلية أن تكون على دراية وفهم كامل لاحتياجات الجماهير ومطالبها الأساسية عن طريق:

- محاولة تسجيل حاجات الجماهير كما يعبرون عنها.
- ترتيب هذه المشاريع حسب أولويتها.
- اختيار مشاريع تتميز بما يلي:

أ- تزيد من ثقة الأهالي في عملهم.

ب- ما يجمع كلمتهم ويبين ضرورة الاستمرار بالتعاون.

ج- ما يعمل على تيسير تمويل المشاريع المقبلة.

وهناك تجارب كثيرة تبين بأن أهالي المدينة هم ليسوا بالجماعات الخاملة، ولكنها متى وجدت القيادة الصالحة

التي توقظها تتكاتف وتقدم عملها مجاناً وجهودها تلقائياً لتحقيق المشروعات التي تعود بالخير على المجتمع، ومن هنا يبرز دور رئيس اللجنة التخطيطية في الاتصال الجماهيري والمخطط العمراني هو أعرف من غيره في ضرورة مساهمة الجماهير وفعالياتها في الإدارة التخطيطية للمدينة.

ثالثاً- المساعدات الفنية:

إنَّ التقدم العمراني والاجتماعي للدولة الحديثة جعل منها دولة التكنولوجيا والخدمات، فالمساعدات الفنية والفنيون أصبحت لهم الأهمية الأولى في الإدارات المحلية لذلك فإنَّ نقص الخبرة في المجالس البلدية يستدعي ضرورة تعيين أهل الخبرة إلى جانب المنتخبين ولو أن ذلك يحد من الأساليب الديمقراطية والخطر الكبير في ذلك أن هؤلاء الفنيين قد يفتقدون الحساسية بالمشاكل الحقيقية للمحليات التي يقومون على خدمتها لانفصالهم عنها نفسياً واجتماعياً ولنظراتهم للخدمة من الناحية الفنية فقط من دون اعتبار لمدى الحاجات الحقيقية ولمدى تقبل المواطن لها.

من هنا يجب أن يكون المسؤولون في اللجان الإدارية التخطيطية في المدينة المعاصرة ذوي خبرة في مجال عملهم.

ومن هنا تأتي أهمية ودور المخطط العمراني في أخذ مكانه الصحيح على رأس اللجنة التخطيطية وتأدية مهامه بالصورة المطلوبة والتنسيق بين الأقسام التي تحت أمرته بصورة صحيحة والاتصال بالجماهير كما ينبغي والجانب الفني له دور كبير في إنجاح العمل الإداري للجنة التخطيطية في تنمية المدينة من خلال وضع التصميم الأساسي لها والتصاميم التفصيلية للأجزاء المختلفة من المدينة بمساعدة وتعاون وتكاتف أهل المدينة، لقيام مجتمع متعاون ومتقدم.

أكاد أسمع طرقاً يقول: إننا عائدون..
خالد أبو خالد
يسمونني شاعراً فلسطينياً وأؤكد أنني شاعر عربي بامتياز

إعداد وحوار: حسني هلال ✪



بحضوره البهي.. وسمرته البدوية ولكنته الفلسطينية يأخذك خالد أبو خالد إلى سيّالة الظهر وحيفا ويافا.. إلى صفد ودالية الكرمل.. إلى عسقلان والنقب، حيث بيارات الكلام وخضرة المواجع المترامية في حاضر وماضي ومستقبل فلسطين أرضاً وشعباً.

في مكتبه بدمشق في «الأمانة العامة للاتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين» التقت مجلة المعرفة، الشاعر والإعلامي خالد أبو خالد. وعلى طاولة

✪ أديب وصحافي سوري

عامرة بالميرمية والهموم العربية «المزمنة منها والمعاصرة» طرحت أسئلتها وتلقت إجاباته:

- حدثنا بداية، عن مكان وظروف ولادتك؟

• ولدت منذ أن كان أبي -رحمه الله- في الجبل يقاوم الاحتلال البريطاني. كان في البداية يسكن حيفا وعندما بدأت الثورة انطلاقتها باستشهاد القائد «عز الدين القسام» كان قد أعاد أمي وطفلته إلى قريتنا «سلة الظهر» حيث كان يظهر في البيت على فترات متباعدة مما أدّى إلى ولادتي عام ١٩٣٧م.

كان بيتنا فقيراً كبيوت معظم الفلاحين، لأن أبي قد وضع كل ما يملك في ثلاث مخدات منزلية، في بيت مال الثورة وانطلق على فرسه محارباً ليُستشهد مخلّفاً لنا «براكية» و١٢ قرشاً في وعاء الملح كما روت أمي.

معلمي ورفيق أبي

- استشهد والدك «أبو خالد» أحد أصحاب الشيخ عز الدين القسام ورفيق دربه الكفاحي عام ١٩٣٨م في معركة «دير غسّانة» قرب القدس ولك من العمر عام واحد، فماذا فعل بك اليتم؟

• كفلنا جدي لأمي بعد استشهاد والدي حتى وفاته عام ١٩٤٢م على ما أذكر.

بعدها كان على أمي أن تعمل على الرغم من أن القرية قد تكافلت مع أسرة الشهيد وطفليه فكانوا يبعثون لنا دائماً زكاة الفطر.

بعدها صارت والدتي هي الأب والأم وظلت تربيني وتصوّب لي سلوكي حتى بلغتُ الستين. حيث رحلت وقد أعطت ما عليها كامرأة كاملة. لم تتزوج بعد أبي لأنّها كما قالت لي: لا يمكن أن تتزوج امرأةُ بطلٍ شخصاً آخر.

بداية، تعلمت في كتّاب القرية، تلك المدرسة الصغيرة التي كان يديرها جدّي، ويحفّظنا فيها القرآن الكريم والأناشيد التي كان يحرص على أن نلقيها على ضريح أبي ورفاقه. وكان هذا يحدث في الصباحات المبكرة من أيام الأعياد و الجُمَع. لأنه كان يقول لي: إن الشهداء يسمعون ما تقوله إذا زرتهم باكراً.

بعد وفاة جَدّي التحقت بمدرسة القرية الابتدائية بالصف الأوّل ثم نقلتني لجنة اليتيم الفلسطينية إلى كلية النجاح الوطنية في نابلس (التي أصبحت جامعة فيما بعد).

هناك تعرفت إلى الشاعر الشهيد عبد

الرحيم محمود الذي كان لنا معلماً وقدوة ودفعنا إلى أن نحفظ قصائد الشعر العربي.

كنا مجموعة من أبناء الشهداء، كان هو ينام في الطابق الأسفل من المنزل الذي نقيم فيه. ويحرسنا من أولئك الذين سلّموا البريطانيين ما تبقّى من الثوار.

كان هؤلاء ينشطون تحت عنوان «فصائل السلام» وكان عبد الرحيم محمود يخشى أن يقتلوا أو يخطفوا أبناء الشهداء لذلك كان يحرسنا في الليل ويعلمنا في النهار. لقد عرّفنا إلى السينما والمسرح وغيره وارتقى بحسّنا الوطني إلى أعلى المستويات.

لقد قاتل عبد الرحيم محمود مع أبي في ثورة الثلاثينيات ثم غادر ليشارك في العراق مع رشيد عالي الكيلاني في ثورة عام ١٩٤١م.

- عملت حصّاداً بحصاد القمح وتبّاغاً بفرك التبغ، ثم ماسح أحذية ومساعد سائق. ماذا تركت تلك الأعمال في طبعك ومزاجك؟

• لقد كونتني تجربة العمل وشدت عصبي وجعلتني إنساناً مسؤولاً في وقت مبكر. وأعتقد أنها أثرت في مجمل مسار حياتي. ويمكن استنباط سيرتي الذاتية من خلال قصائدي التي كتبت.

- قدمت برامج أدبيّة عديدة في الإذاعة، أضاءت على غير شاعر وتجربة، ما تقييمك الشخصي لهذا النشاط وماذا في جعبتك من جديد؟

• ثمة مشكلة في تجربة الشعر العربي الحديث، التي اتبعتْ خُطا السياب، وهذه مشكلة لأنها، أيضاً، كادت تسقط في تجربة النظم. كما حدث في قصيدة العمود.

وهذه المشكلة يتخطاها بعض الشعراء الاستثنائيين، لأن تجربة الستينيات في الشعر العربي الحديث. هي التي رسّخت وجذّرت هذه التجربة.

وما تلاها إمّا كان اتباعياً أو كان نظّاماً من دون أن نغفل تلك الاستثناءات التي جعلتنا نؤمن بأن التجربة تعيش حالة صحية.

.. إلى موقع الثورة

- بعد هزيمة حزيران قدمت استقالتك من الإذاعة والتلفزيون اللذين كنت تعمل فيهما لتلتحق بالثورة الفلسطينية. هل يعني ذلك أنك لا تعوّل على دور الثقافة والإعلام في مقارعة العدو؟

• لم أقدم استقالتي بسبب من عدم إيماني

بالإعلام. فالإعلام أداة حرب كما هو أداة سلام. والإعـلام يمكن أن يكون جيشـاً معادياً كما هو الحال هذي الأيام. ويمكن أن يكون جيشاً ناصراً كما هو الحال أيضاً هذه الأيام.

كمـا أن استقالتي نبعت من طموح شخصي، تشكل لديّ منذ الطفولة. وهو أن عليّ أن أحارب من أجل تحرير فلسطين، وقد فعلت.

مع تقديري الكبير لكل زملائي الذين وظفوا الإعلام للغرض ذاته، فقد قلت في استقالتي التي لم تكن، استقالة بالمعنى التقليدي، وهي مازالت موجودة إدارة الإذاعة والتلفزيون:

«اسمحـوا لي أن أنتقـل إلى موقع من مواقع الثـورة العربية» فقد كنت ومازلت أؤمن أن هذي الأمـة في حالـة إرهاص لثورتهـا المقبلة ضد التجزئـة والتخلـف والاحتـلال، وبمواجهة كل عوامل الموت والدمار.

- إلى الحسّ والنبض والوهج الوطني الذي رافق أشعارك فقد شاركت في العمل الفدائي وخبرت النضال المسلح. فما هو تأثير تجربتك العسكرية على مشروعك الأدبي؟

• لقد اغتنـت تجربتي الشعريـة من خلال تجربتـي في العمـل الفدائي واغتنـت تحديداً بقاموسها الذي انتشر في قصائد جيلنا والأجيال اللاحقـة. وكان لهذا القاموس تأثيره الرائع على قصيدتي وقصائد الآخرين.

- لقد حافظت في شعرك على التفعيلة والوقع الموسيقي ولم تقترب من قصيدة النثر، ما أسبابك في ذلك؟

• لم أقارب قصيدة النثر إلاّ من حيث التضمين وفي بعض القصائـد التي منها «العوديسا» وهي مقاربـة عفوية شكلت رافعة للنصـ المؤلف من عدّة قصائد.

كما أنني وظفـت النقد في مقدمات قصائد «التغريبـة» التي عصرنتُ فيهـا السيرة الشعبية العربيـة. وهي التجربـة الأولى مـن نوعها في القصيـدة العربيـة الحديثـة، حيـث قصيدة «المهلهل» و«سيف بن يزن» و«عنترة» و«تغريبة بني هلال» و«شهرزاد السنة الثانية بعد الألف».

أضفـت إليهـا فيما بعـد قصيـدة «عودة السندبـاد» التي جاءت بلا مقدمة نثرية. ولعلني أردت بهذا أن أغـرف الرمز من وجدان الشعب وأعيـده إلى وجدان الشعب مـرة أخرى، بعد أن كان الرمـز في قصيدتنا الحديثة غريباً «رومانياً أو يونانياً أو حتى بابلياً» بحاجة إلى الهوامش.

قصيدتي في هذه التجربة لم تتطلّب أية هوامش. وكان إيقاع الشعر العربي في ديواننا التاريخي وديواننا المعاصر هي الموسيقى التي أرتكز إليها في علاقتي بالمتلقي.

العوديسة الفلسطينية

- «العوديسا» هو الاسم الذي عنونت به أعمالك الصادرة في ثلاثة أجزاء. كيف ترى إلى العنوان بالنسبة للديوان عامة والقصيدة خاصة؟

• «العوديسا» هي عنوان منحوت من «العودة» و«الأوديسا» فإذا كان أوديسوس العائد إلى «إثاكا» لتحرير زوجته «بنيلوم» من أمراء الحرب، فإن العربي الفلسطيني عائد لفلسطين لتحريرها من مجرمي الحرب.

أمّا تلماخوس بن أوديسوس فهو فتى الانتفاضة التي تتولد باستمرار بانتظار المخلّص والمحرر.

بهذا تكون العوديسا المؤلفة من ثلاث قصائد طويلة هي المعادل العربي الفلسطيني لأوديسة هوميروس.

- إلى حضورك المميز، فأنت تتمتع بصوت وإلقاء مؤثرين. هل الحضور والإلقاء ضروريان للشاعر؟ أم تراهما عاملين مساعدين فحسب؟

• لاشك أن إلقاء الشعر يشكل رافعة للشاعر والقصيدة معاً، وسيظل كذلك حتى وقت بلا حدود.

الإلقاء لا يضيف إلى القصيدة ولكنه أداة التوصيل لها، كما كان الحال في بواكير العرب الأولى.

ومن المهم أن ننتبه إلى أن الموسيقا المرتكزة على عروض الشعر العربي، هي التي تلعب دور الركيزة الثالثة. ولكنها الأولى في عملية التوصيل للمتلقي.

- يقول الناقد يوسف اليوسف: القصيدة العظيمة، يندرج فيها شيء من جوهر الحلم وسُلطة الموسيقا والرعش الصوفي. ترى ما القصيدة العظيمة عند «خالد أبو خالد»؟

• أضيف إلى ما قاله يوسف: إن القصيدة العظيمة هي التي تمتح من وجدان الناس، وهي قصيدة لا تؤثر ولا تغرّب ولكن مرفأها قائم كلما أبحرت عادت إليه.

- سبق واتفق الشاعر علي الجندي والناقد نضال صالح على أن نقد الشعر لدينا بلا طعم ولا لون ولا رائحة. ما تعليقك؟

• المشكلة أن ثمة نقّاداً توقفوا عند قصائد الروّاد، وهؤلاء النقاد اكتفوا بما قدموا.

كنا بحاجة إلى نقّاد لتجربة الستينيات، لكن هـذا النقد ظل غائباً. واكتشف الشاعر أن عليه أن يكون هـو الناقد لقصيدتـه ولأنه فعل ذلك تطورت القصيدة.

الدراسة النقدية غير المتابعات في الصحف. هي التي ترقى للخـروج بمعيار نقدي من داخل القصيـدة وليس من خارجهـا وهذا ما لا نجده حتى الآن.

- قال معلمك الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسر الصديق
وإمّا ممات يغيظ العدا.

وكان ذلك موقف له سجلّه التاريخ والأدب. أين شعراؤنا ومواقفهم ممّا يحدث اليوم في سورية؟

• ليس على كل شاعـر أن يحمل روحه على كفه مقاتلاً بالسـلاح، لكن علـى كل شاعر أن يقول كلمته مهما كان الثمن. وثمة شعراء ناضلوا ودفعـوا مقابل قولهم. هـؤلاء ننحني لهم لأنهم شعراء وفرسان في آن.

بعيني زرقاء اليمامة؟

- «الجسد في حقيبة سفر» هو عنوان إحدى روايات غادة السمان، التي لمّا تؤوب من سفرها بعد.. «وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر» قال الراحل محمود درويش، الذي نأى عن فلسطين، وما زال يسافر فينا إلى الوطن..

«ومسـافرٌ زاده الخيال
والسحر والعطر الجمال».

كان أحمد شوقي في معظم أشعاره.

فهل من سفر يزمعه «خالد أبو خالد» في هذه المرحلة من العمر إلى أين؟ وماذا سيكون زاده إن فعل؟

• الشاعر هنا يشبـه مشايخ الصوفيين الذين يقال أنهم من أهل الحظوة وهم الذين يرون بعيون زرقـاء اليمامة، هم دائماً على سفـر ولكنهـم في المكان، يرون مـا لا يُرى ويقولون المسكوت عنه.

في هذه الحالة، أرى أنني على سفر دائم، أمّا زادي فهو تضحيات هذه الأمة بشهدائها

الأحياء. وبشهدائها الذين رحلوا وشهدائها الذين لم يرحلوا بعد.

- ما أخبارك مع الفن التشكيلي الذي مارسته ردحاً من الزمن وقد أقمت معرضين؟ ألا تنوي إقامة معرض ثالث؟

• أحلم والحلم مشروع، أن أقيم معرضي الثالث قبل الرحيل لكن الموضوع يتطلب نوعاً من الاستقرار، والاستقرار غائب، فالفنان والمثقف العضوي منشغل غالباً بمتابعة وقائع الراهن، مما يجعل هذا قيداً عليه كما هو الحال.

- بعد خروجك من فلسطين ابن سبع سنوات عدت فدائياً في الستينيات. فهل من عودة مؤملة بعد؟

• بالتأكيد، أكاد أسمع طرقاً على الباب وقائلاً يقول:

إننا عائدون، احمل كتبك ودفاترك وفرشاتك ونحن مقلعون إلى فلسطين المحررة.

وكم كنت أتمنى لو أسعفني الجسد وكنت في طليعة المحررين.

.. مناضلة غير متطلبة

- ماذا تشكل لك المرأة عامة. وكيف هي أحوالك بعد رحيل شريكة حياتك «أم محمد»؟

• لقد شكلت «أم محمد» واحداً من أهم الروافع في حياتي. كانت امرأة صابرة ومناضلة، حملت عني عبء أطفالي، كانت شجاعة وغير متطلبة، الأمر الذي أورثته لأطفالي. ولما أقول أطفالي، فأنا أتحدث عن أصغرهم الذي يبلغ من العمر ٤٣ عاماً.

- ختاماً، وبعبارة مختصرة، برأيك، مَن هو الشاعر الفلسطيني؟ وما هي القصيدة الفلسطينية؟

• بعبارة مختصرة يسمونني شاعراً فلسطينياً، لكنني أؤكد في كل أشعاري أنني شاعر عربي بامتياز، وأنني ولدت في فلسطين مؤكداً في المقابل أن القصيدة الفلسطينية، ليست هي التي كتبها شعراء فلسطينيون فحسب. ولكنها القصيدة التي كتبها الشعراء العرب وتمحورت حول فلسطين وكفاحها باعتبارها همّاً مركزياً لهذه الأمة.

لقد حملت قصيدتي هموم أمتي التي يشكلها هذا الرحيل الدائم باتجاه العودة. ورحيلنا لا يحمل تذكرة الاتجاه الواحد، ولكنه يحمل في صميمه تذكرة العودة.

• • •

مؤلفات الشاعر

جمع الشاعر خالد أبو خالد كتاباته، في ثلاثة مجلدات، صدرت عن «بيت الشعر الفلسطيني» في رام الله، تحت عنوان «العوديسة الفلسطينية».

المجلد الأول:

يضم أربع مجموعات شعرية:

- وسام على صدور الميليشا، ١٩٧١م.
- نقوش محفورة على مثلث الأشرفية، ١٩٧١م.
- تغريبة خالد أبو خالد، ١٩٧٢م.
- أغنية حب عربية إلى هانوي، ١٩٧٣م.

المجلد الثاني:

يحوي خمس مجموعات شعرية:

- الجدل في منتصف الليل.
- شاهراً سلاسلي أجيء.
- بيسان في الرماد.
- أسميك بحراً.. أسمي يدي الرمل.
- دمي نخيل للنخيل.

المجلد الثالث:

وفيه ثلاث مجموعات ومسرحية شعرية:

- فرس لكنعان ورمح لغرناطة.
- معلقة على جدران مخيّم جنين.
- قتلنا الصمت والرحيل باتجاه العودة.
- فتحي «مسرحية شعرية».

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✿

حقوق المؤلف بين الواقع والطموح:

بهدف توضيح المبادئ والأسس التي يجب أن يدركها المؤلف ويعرف أين يمكن حماية حقوقه وكيف اعتماداً على أسس وقوانين ومبادئ إضافة إلى حماية الابتكارات الإلكترونية والتفريق بين حماية حقوق المؤلف وحماية حقوق الملكية الصناعية.

أقامت مديرية حماية حقوق المؤلف في وزارة الثقافة ندوة تحت عنوان (حقوق المؤلف في سورية بين الواقع والطموح) شارك فيها كل من الدكتور راتب سكر، ورانيا بوسعد، والدكتور جورج جبور. وأدار الندوة محمد الأمين زعيتر مدير حماية حقوق المؤلف.

وأوضح الدكتور راتب سكر عضو المكتب التنفيذي في اتحاد الكتّاب العرب في إطار مشاركته في محاور هذه الندوة أن اتحاد الكتّاب في سورية يعد من المنظمات والمؤسسات الثقافية التي أصدرت مجموعة من القرارات الناظمة لنشر الأعمال الأدبية والفكرية في الكتب والدوريات ضمن رؤية يطمح إلى ترسيخها في الحياة الثقافية للمجتمع.

ومن ذلك رفض الاتحاد نشر الرسائل الجامعية مثل رسائل الماجستير والدكتوراه في كتب يحمل كل منها اسم الطالب الذي أعدها وقد استند رفض الاتحاد هذا في جملة ما استند إليه إلى الإسهام المغيب المفترض في تأليف هذه الرسائل لكل من المشرف العلمي على البحث وأعضاء لجنة الحكم والمناقشة الذين يرفدون الرسائل

✿ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

الجامعية عادة بخبرات أدبية ثقافية وعلمية لا يمكن التقليل من شأنها.

وأضاف إنَّ اتحاد الكتّاب العرب رفض نشر المؤلفات التي يضمنها مؤلفوها مختارات أدبية أو علمية أو نقدية من أعمال مؤلفين آخرين من دون اتفاق صريح مع أولئك المؤلفين يضمن حقوقهم المادية والأدبية وذلك خلافاً لمؤسسات دور النشر التي أهملت ذلك موضحاً أن مواد قانون حماية حقوق المؤلف تحتاج إلى مناقشات مستمرة في ضوء مقارنتها مع مكونات الظواهر الثقافية الإجرائية التي تتصل بدلالاتها.

وعلق (سكّر) على المادة (٢٦) من القانون والتي تقول.. تؤول إلى الملك العام جميع المصنفات غير المحمية أو التي انقضت مدة حمايتها وفق أحكام هذا القانون مشيراً إلى أنه بما أن القانون يقرّ حماية حقوق المؤلف طوال حياته وحتى خمسين سنة من وفاته فإنَّ سؤالاً مشروعاً حول مآل هذه الحقوق ومصيرها بعد خمسين سنة من وفاة المؤلف لأنَّ الناشرين يعدون المؤلفات التي رحل مؤلفوها قبل خمسين سنة أو تزيد تحتاج إلى تأصيل قانوني لأنَّ ملكية الأعمال الأدبية والفكرية والعلمية لا يمكن أن تتحول إلى مشاع ويفترض ربطها بطوابع مؤسساتية واضحة تعزز أصول معاملة المجتمعات للأعمال التي ألفها الراحلون في أزمنة مضت.

وبينت رانيا بوسعد أن المصنف المعلوماتي بشكل خاص أحد المحميات التي أدت إلى تعديل قانون حماية الملكية وهو مصنف يشمل برامج الحاسوب وقواعد البيانات وكيفية حماية البرامج الحاسوبية وقواعد البيانات التي تختزنها والتي تضمن حساب المشتركين والبيانات الشخصية وحماية المحتوى وبنية القواعد فإذا كانت تعتمد على الإبداع والابتكار فهي عمل فكري يجب حمايته.

وختم الدكتور جورج جبور أنَّ الريادة الفكرية هي أساس في موضوع الملكية الفكرية التي لم تتحدث عنها اليونسكو والمنظمات العالمية للملكية الفكرية، ومنشورات هاتين المنظمتين تحدثت عن فضل الرومان ولكنها لم تذكر فضل العرب مشيراً إلى أن الأدباء العرب تصدوا للسرقات الأدبية منذ القدم مستشهداً بحوارات المتنبي وأبي فراس الحمداني في مجالس سيف الدولة.

وافتتح الدكتور علي القيّم معاون وزيرة الثقافة معرضاً مرافقاً للندوة ضم جميع الأعمال المودعة لدى المديرية التي يجب حمايتها من السرقة الفكرية والحفاظ عليها وتتضمن المصنفات المكتوبة من نصوص تلفزيونية وشعر وقصة وأغانٍ وبرامج أطفال ومعاجم.(1)

الطهطاوي رائداً للترجمة:

ضمن فعاليات الاحتفال بيوم المترجم وخلال مشاركته في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة بعنوان «هموم المترجم» قال الكاتب والمترجم محمد الخولي: إنَّ رفاعة الطهطاوي كان مترجماً عظيماً ووطنياً من الدرجة الأولى وهو مترجم عظيم أكثر من كونه شاعراً.

وأضاف إنَّ الطهطاوي يعتبر علامة من علامات نهضة مصر فهو رائد الترجمة الحديثة والذي بفضله انتعشت الترجمة واستطاعت مصر النقل من الثقافات الأخرى ما يفيدها في بناء نهضتها، وأوضح الخولي بعض المشاكل التي تحول دون ارتقاء حركة الترجمة في مصر والعالم العربي والتي أهمها عدم اجتماع الشعوب العربية على مصطلحات مشتركة بينهم فكلمة معاش باللهجة المصرية تعني الأجر بعد التقاعد بينما في اللهجة اللبنانية تعني الراتب أو مقابل العمل.

وكذلك انحدار مستوى اللغة العربية التي وصلت إلى درجة «السوقية» وليس حتى العامية، وأيضاً لا يوجد اتجاه لنقد الترجمة مما قد يؤدي أحياناً إلى النقل الخاطئ لبعض المعلومات وأيضاً ترك المترجم لأهوائه مما قد يؤثر على أمانة النقل، والمترجم الجيد هو من يعلق ويضيف لما يترجمه كما فعل (ابن رشد) عند ترجمته (لأرسطو) فقد قام بالتعليق عليه حتى إن هناك مقولة بأنَّ أرسطو المعلم الأول وابن رشد المعلم الثاني.

وحث شباب المترجمين على تعلم أكثر من لغة وخصوصاً الإنجليزية التي سيدها أصحابها على باقي اللغات بمساهمتهم في كل المجالات سواء العلوم أو الفنون والثقافة، وأضاف إنَّ اللغة تكتسب قوة بقوة ناطقيها فاللغة العربية أصبحت لغة ضمن اللغات الست المعتمدة في الأمم المتحدة بعد انتصار العرب في حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣م.

كما وحث الشعوب العربية على وضع تعريف جامع مانع لكلمة المترجم حتى

يكون هناك سياق وإطار يعمل المترجمون من خلاله. وقال إنَّ هناك مبادرات جيدة في العالم العربي لإنعاش حركة الترجمة منها مبادرة ترجمة في دبي، ولجنة التأليف والترجمة في مصر وغيرها.

يشار إلى أنَّ رفاعة رافع الطهطاوي ولد في طهطا في محافظة سوهاج عام ١٨٠١م وتوفي عام ١٨٧٣م وكان من بين أعضاء البعثة التعليمية التي أوفدها محمد علي باشا إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م، وعين بعد عودته مديراً لقلم الترجمة، ثم ناظراً لمدرسة الألسن، وترجم العديد من الكتب الجغرافية والتاريخية والعلمية، ولعب دوراً كبيراً في إصدار صحيفة «الوقائع المصرية»، و«روضة المدارس» من أهم مؤلفاته «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» و«مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية».(٢)

اكتشاف مقبرة أميرة فرعونية:

أعلن وزير الدولة لشؤون الآثار المصرية محمد إبراهيم الجمعة أنَّ بعثة تشيكية عثرت على مقبرة لأميرة فرعونية من الأسرة الخامسة تعود إلى (٢٥٠٠ عام قبل الميلاد) في منطقة أبو صير (٢٥ كيلومتراً جنوب المنطقة) فتحت المجال للكشف عن مقابر أخرى.

وقال إبراهيم: إن «المقبرة التي تمَّ العثور عليها عبارة عن فناء مقبرة الأميرة الفرعونية وشرت نبتي ويتوسطه أربعة أعمدة من الحجر الجيري»، وأضاف إن الأعمدة «تحمل على وجهها الجنوبي نقوشاً هيروغليفية لألقاب واسم الأميرة ومن بينها ابنة الملك من صلبه وحبيبته المبجلة أمام الإله العظيم شرت نبتي».

وأوضح إبراهيم أن «بعثة المعهد التشيكي للآثار المصرية التابع لكلية الآداب في جامعة تشارلز في براغ برئاسة ميروسلاف بارتا هي التي كشفت عن المقبرة».

وأفاد أن «اكتشاف هذه المقبرة فتح فصلاً جديداً من تاريخ جبانات أبو صير وسقارة بعد أن تمَّ الكشف عن الجزء الجنوبي من المقبرة»، موضحاً انه «عثر على مقابر لموظفين لا ينتمون إلى العائلة الملكية على بعد كيلومترين شمال جبانات الأفراد التي تخص الأسرة الخامسة الملكية».

وأكد مدير البعثة التشيكية ميروسلاف بارتا أن إحدى المقبرتين هي لموظف يدعى «نفر» ويحمل لقب «المشرف على كتبة الفرقة»، وقد عثر بداخلها على بابه الوهمي وثلاثة تماثيل له من الحجر الجيري تمثله

في هيئة الكاتب، كما قال بارتا، «كما عثر على تمثال رابع مزدوج له ولزوجته «حتحور» نفرت أمًا المقبرة الأخرى بالمر فمازالت أعمال الكشف عنها مستمرة».

وكان قد عثر في الممر بين مداخل المقابر على أربعة نواويس كبيرة من الحجر الجيري تحمل بقايا ألوان بسيطة وتتضمن هذه النواويس الأربعة على تمثال لرجل وتماثيل لرجل بمصاحبة ابنه وتماثيل لرجلين مع سيدة، وتعود المقبرتان لعصر الملك «جد كارع أسيسي» من الأسرة الخامسة الفرعونية.[٣]

ندوة عن الإسلام ومؤتمر للمستشرقين في قازان:

افتتحت في «قازان» عاصمة جمهورية تتارستان، الندوة العلمية الدولية تحت عنوان «الإسلام في العالم المتعدد الثقافات». التي بادر إلى تنظيمها قسم الدراسات الإسلامية والإقليمية بمعهد الاستشراق والعلاقات الدولية، في جامعة قازان الفيدرالية الروسية.

تحدث المشاركون في الندوة عن أهمية التقارب بين الثقافات في إحلال الوفاق والسلام الاجتماعي، وقال لينار لطيفوف، نائب مدير الجامعة: «إن دراسة أسلوب تفكير واتجاهات تفكير شعوب بلدان الشرق تتسم بأهمية حيوية وتعتبر الشرط الرئيسي لإحلال التفاهم المتبادل بين الشعوب».

وناقشت الندوة موضوعات عدة منها: «الصوفية في النظرية والتطبيق»، و«الإسلام وقضايا العصر»، و«الجاليات الإسلامية في البلدان غير الإسلامية»، و«فنون العالم الإسلامي»، وغيرها.

على صعيد آخر نظمت أكاديمية العلوم الروسية وجامعة قازان الفيدرالية التي يعمل في إطارها معهد الاستشراق المؤتمر الثامن للمستشرقين الروس، وذلك في إطار احتفال المعهد المذكور بيوبيله الـ ٢٠٥ باعتباره من أقدم المعاهد من هذا النوع في البلاد.

وشارك في أعمال هذا المؤتمر عدد كبير من الباحثين الذين قدموا قرابة ٢٥٠ تقريراً وخطاباً علمياً في شتى مجالات علم الاستشراق.

وكان سيرغي لافروف، وزير الخارجية الروسي قد بعث برسالة إلى المشاركين والضيوف في هذا المؤتمر أشار فيها إلى أن مدرسة الاستشراق الوطنية تعتبر من أهم المدارس الاستشراقية في العالم. وقال: «ساعدت البحوث العلمية لأجيال كثيرة

من العلماء الروس في تطوير إدراكنا حول البلدان الشرقية. وإنها استحقت اعترافاً جديراً بين العلماء والخبراء في العالم. وإنكم تواصلون اليوم بجدارة تقاليد علمية مجيدة لمن سبقكم من العلماء الروس».

وقال: «يجب أن تهدف الاتصالات بين الدوائر الأكاديمية التي أقيمت على الساحة السوفيتية السابقة إلى الإسراع في عقد منتدى علمي لمستشرقي أوراسيا».(٤)

فارغاس يوسا يفوز بجائزة فوينتس الدولية:

نال الكاتب البيروفي ماريو فارغاس يوسا «جائزة كارلوس فوينتس الدولية» للإبداع الأدبي، في نسختها الأولى تقديراً لدوره الكبير في المساهمة، في إثراء التراث الإنساني، من خلال اللغة الإسبانية، وفق ما تضمنه قرار لجنة التحكيم، الذي أعلنه مدير أكاديمية اللغة الإسبانية خوسيه مانويل بليكوا.

وقال فارغاس يوسا، بعد فوزه بالجائزة: «أنا ممتن جداً، وهذا الاختيار صدمني كثيراً»، وبعث بتحياته وشكره إلى سيلفيا ليموس، أرملة الكاتب الراحل كارلوس فوينتس التي كانت حاضرة برفقة اللجنة المانحة للجائزة.

وحول علاقته بكارلوس فوينتس قال يوسا: إنه تعرّف عليه منذ كان شاباً وكان مبهوراً بقراءة أعماله، مثل (المنطقة الأكثر شفافية ١٩٥٨).

وأضاف أن ذلك الكتاب كان بمثابة نقطة انطلاق لعملية السرد التي انتشرت بشكل واسع في السنوات اللاحقة، سواء من ناحية بعده الأدبي أو البحثي».

وأكد فارغاس يوسا على التقاء وجهة نظره وفوينتس حول الجيل الذي أطلق عليه في أمريكا اللاتينية بـ«البووم»، إذ كان الكاتب المكسيكي قد لعب، خلال تلك المرحلة، دوراً مهماً للغاية في المسيرة الأدبية، سواء عبر أعماله الإبداعية أو في ترويجه لمؤلفين آخرين من أمريكا اللاتينية. حيث قال: «أعتقد أن الفضل الأكبر في انتشار أدب أمريكا اللاتينية يعود إلى كارلوس فوينتس»، وأشاد باللغة الإسبانية في مرحلتها الراهنة قائلاً «إنها من أكثر اللغات انتشاراً في العالم، وعلى الأرجح تلي الإنكليزية في انتشارها. وأن الأدب الإسباني إبداعي ومتجدد، ويترجم إلى لغات عالمية عدة. وفي كل مرة يزداد الإقبال على قراءته».

وكان المجلس القومي للثقافة والفنون (كوناكولتا) في المكسيك، قد أعلن في شهر

يوليو/ تموز الماضي عن تخصيص جائزة باسم مؤلف «أورا»، و«موت أرتيميو كروز»، بعد رحيله المفاجئ في مايو/ أيار من العام الحالي.(٥)

هيلاري مانتل تفوز بجائزة بوكر ٢٠١٢م:

فازت الروائية البريطانية هيلاري مانتل بجائزة بوكر للأدب للعام المنصرم وذلك عن روايتها (BRING UP THE BODIES - أخرجوا الجثث)، وهي الجزء الثاني لرواية (WOLF HALL) التي كانت قد فازت بالجائزة ذاتها عام ٢٠٠٩م.

وقال رئيس لجنة التحكيم السير بيتر ستوتارديم: إن أعضاء اللجنة توصلوا إلى اختيارهم رواية مانتل «بعد فحوص مطولة ومفصلة». وأضاف «إن الرواية الفائزة تعتبر أنموذجاً فريداً للنثر الإنجليزي يتجاوز عمل الروائية السابق. مؤكداً أن مانتل تستحق هذا التقدير المزدوج استحقاقاً فريداً، وهي أول امرأة وأول بريطانية تفوز بالبوكر لمرتين».

وتتناول رواية مانتل حياة توماس كرومويل أحد مستشاري الملك الإنجليزي هنري الثامن، وتتتبع المصير الدموي الذي انتهت إليه إحدى زوجات هنري، آن بولين، وهي تعد الجزء الثاني من ثلاثية، حيث سيواصل الجزء الثالث الذي سيحمل عنوان (THE MIRROR AND THE LIGHT- المرآة والضوء) سرد قصة حياة كرومويل حتى إعدامه عام ١٥٤٠م.(٦)

مادلين ميلر تفوز بجائزة أورانج للرواية:

فازت الكاتبة الأمريكية مادلين ميلر بجائزة «أورانج» للرواية لعام ٢٠١٢م عن روايتها «أغنية أخيل».

وقالت جوانا ترولوب، رئيسة المحكمين: «هذه فائزة جديرة بالجائزة، للأصالة، والإبداع، والإثارة والحميمية في كتابتها»، وأضافت واصفة الكاتبة التي تعمل مدرسة للدراسات اليونانية القديمة بأن هوميروس -مؤلف ملحمة الإلياذة- لا بد أن يكون فخوراً بها.

وتمنح الجائزة التي تبلغ قيمتها ٣٠ ألف جنيه إسترليني لأفضل رواية كتبت بالإنجليزية بقلم امرأة، وجائزة هذا العام هي آخر جائزة تحمل اسم «أورانج»، عقب إعلان الشركة -وهي شركة مشهورة في مجال الهواتف المحمولة- في الأسبوع الماضي عن

وقف رعاياتها للجائزة بعد (١٧) سبعة عشر عاماً.

وميللر هي المؤلفة الأمريكية الرابعة على التوالي التي تفوز بتلك الجائزة السنوية، بعد أوّل مشاركة لها فيها، وهي متخرجة في جامعة براون وحاصلة على درجتيّ الليسانس والماجستير في الدراسات القديمة، ودرست ميلر أيضاً الدراما في معهد ييل وتخصصت في اقتباس الأعمال الروائية القديمة وتقديمها إلى القرّاء المعاصرين، وقد استغرقت كتابة الرواية منها عشر سنوات، وهي تعيش الآن في نيوإنغيلاند، حيث تدرّس اللاتينية، وتمارس الكتابة، وضمت قائمة المؤلفات اللائي اجتازت مؤلفاتهن مرحلة الاختيار، آن باتشيت الفائزة مسبقاً بالجائزة والتي اشتركت بروايتها «STATE OF WOMDER»، وإيسي إيدغويان بروايتها «HALF BLOOD BLUES»، وآن إنرايت بروايتها «THE FORGOTTEN»، وجورجينا هاردنغ بروايتها «PAINTER OF SILENCE»، وسينثيا أوزيك بروايتها «FOREGIN BODIES».

وكانت رواية «أغنية أخيل» قد نشرتها دار بلومسبيري للنشر في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١م، وقد جذب النقاد في الرواية خط عقدتها الزاخر بالحياة اليونانية القديمة بأبطالها بسيوفهم وصنادلهم.(٧)

الموناليزا أكثر شباباً في سويسرا:

أجرت مؤسسة (موناليزا) فحصاً دقيقاً على لوحة للجيوكندا عرضت مؤخراً في سويسرا امتد لثلاثة عقود تبين من خلاله أن دافنشي رسم لوحته هذه، قبل أن يرسم لوحة الجيوكوندا المعروفة حالياً والمعروضة في متحف اللوفر.

وقال ستانلي فيلدمان، العضو بالمؤسسة والمؤرخ الفني لرويترز وأخوه ديفيد اللذان عملا لفترة طويلة في مجال فن اللوحات: إن أدلة تاريخية ومقارنة حاسمة وفحصاً علمياً باستخدام أحدث التقنيات يدعمون رأيهما بأن اللوحة أصلية.

وتظهر اللوحة التي ستعرض على الخبراء ووسائل الإعلام في جنيف امرأة تبدو في مطلع العشرينيات من العمر، وليس الثلاثينيات كما في اللوحة المعروضة باللوفر وتأخذ الوضعية ونظرة العينين نفسها كما في لوحة اللوفر.

وما يميز الموناليزا هي نظرة عينيها

وابتسامتها الغامضة، وأن دافنشي استأجر مهرجاً كـي يجعل الموناليـزا تحافظ على ابتسامتها تلك طوال الفترة التي كان يرسمها فيها. وقد اختلف النقاد والمحللون في تفسير أسرار تلـك الابتسامة، كمـا تتميز اللوحة الأشهر بالتقنيات المبتكرة التي اعتمد عليها دافنشي.

وتعرف لوحة الموناليزا في إيطاليا وفرنسا باسم «لاجياكوندا» أو «لاجوكوند» نسبة إلى ليزا جيراردينى زوجة أحد نبلاء إيطاليا في القرن السادس عشـر وهو فرانسيسكو ديل جياكوندو الذي كلف دافنشي برسم اللوحة لكنه لم يسلمها له.

ويعتبـر البعض أن لوحة الموناليزا هي العمل الفني الأشهـر في تاريخ الرسم، وقد بدأ الرسـام والنحات والمهندسـ المعماري الإيطالي ليوناردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩م) رسمها سنة ١٥٠٣م، وانتهى منها جزئياً بعد ثلاثـة أو أربعة أعوام، وأكملها نهائياً عام ١٥١٠م. ويعـد دافنشي أشهر رسامي عصر النهضـة الإيطاليين، وهو أيضاً عالم وباحث في مجالات الهندسة والفلك والطيران.

وقـد أخضعـت اللوحة التـي ما زالت تحتفـظ بغموضها منـذ ٥٠٠ سنة لبرنامج معلوماتـي لكشـف المشاعـر في جامعـة أمسـتردام. وخلص علماء درسـوا ابتسامة الموناليـزا الشهيرة إلى أنهـا تعكس مشاعر السعادة بنسبة ٨٣٪ والازدراء بـ٦٪ والخوف بـ٦٪ والغضب بـ٢٪.[٨]

قصر الفن في غراتس:

يعـد قصـر الفـن في مدينـة غراتس النمساويـة أحـد معالم المدينـة الحضارية التاريخية والتي انصهر جزء منها في بوتقة الحداثة وقـد كان القصر تتويجاً لاستقبال المدينة للثقافة الأوروبية حين غدت غراتس عاصمة للثقافة الأوروبية عام ٢٠٠٣م.

فتـح القصـر أبوابه للـزوّار بداية عام ٢٠٠٣ واحتضن خلال العام عدداً كبيراً من المعارضـ الفوتوغرافية التـي شكل بعضها جسراً حضارياً ثقافياً يربط الغرب بالشرق، وكذلك العديد مـن الأعمال الأخرى والتي كانت مركز الثقل في إبداعات المدينة وقصر الفن لزوار العاصمة الثقافية.

يعدّ قصر الفن تحفة فريدة من الانصهار في بوتقـة الهندسة المعماريـة والتكنولوجيا ومركز الثقل للتواصـل مع العالم عبر إقامة المعارضـ الفوتوغرافية مـن خلال «عدسة النمسا» وقد عرضت خلال الأعوام المنصرمة

أعمال كبار المصورين الفوتوغرافيين من أفريقيا وآسيا وأوروبة وبقية أنحاء العالم.

ويقع قصر الفن على طوابق عدة وأمّا الطابق الأخير فهو قمة جاذبية القصر لرومانسية مكانه ولكونه يسيطر على المدينة كلها ويطل على نهر مور، وفيه تقام الندوات الثقافية والمؤتمرات الصحفية قبل إقامة المعارض الفوتوغرافية.

وقد شيِّد القصر وفق أرقى مستويات المتاحف العالمية وربما أكثر من ناحية التقنية والحداثة، وتستخدم مساحة أكثر من ١١ ألف متر مربع لإقامة المعارض ومن أجل المشاركة على أعلى المستويات في المعارض العالمية، وكذلك ثمة تقنية خاصة لأجهزة التبريد من أجل الحفاظ على الأعمال الفنية الكبيرة ومن أجل الإنماء والتطور الاحترافي للمشاريع الفنية الكبيرة. في الواجهة تتوزع الأضواء بسخاء كبير لتنير المدينة وتبدو على شكل زخارف ولوحات فنية ذات تقنية كبيرة، وكذلك توجد في القصر أنظمة أمن دقيقة إضافة إلى ساحة لوقوف المركبات تحت بناية القصر تتسع لأكثر من ١٥٠ مركبة.

ويعدّ قصر الفن في غراتس ذو الأروقة الداخلية الساحرة والتي تشبه أماكن تصوير أفلام «جيمس بوند» نقطة التواصل ما بين الفن المعاصر ووسائل الإعلام الحديثة والتصوير الفوتوغرافي والمعارض المتعددة.

ويقول المصمم المعماري «كولين فورنير» بأن الأروقة الداخلية للقصر هي بمثابة الصندوق الأسود له، وأمّا الواجهة الأمامية والأضواء التي تضيء ليالي غراتس وبالأخص للجالسين فوق قمة جبل القصر، فلها سحر للإعلام والزوار والأدباء والفنانين.

ويعدّ مشروع القصر في تصميمه العمراني مزيجاً بين الحضارة القديمة والمتمثلة ببقاء الواجهة الأمامية على الشارع الرئيسي وبين التحفة الحديثة في عالم الهندسة المعمارية في مدينة قديمة ضمتها اليونسكو إلى سجلاتها الإنسانية، واليوم يعد القصر إحدى تحف دولة النمسا.[٩]

وفاة صاحبة الحب مجموعة من الأشياء الرائعة:

توفيت الكاتبة والروائية من أصل صيني هان سوين بمنزلها في لوزان بسويسرا عن عمر ٩٥ ناهز عاماً.

ولدت هان سوين صاحبة العديد من الروايات والكتب السياسية والتاريخية عام ١٩١٧م، شمال الصين، من أب صيني

يعمل مهندساً، وأم بلجيكية، وتلقت تعليمها في أوروبة، ولم تكن قد تعلمت لغة المندرين الصينية حتى سن ١٥ عاماً.

وكانت مؤلفة رواية «الحب مجموعة من الأشياء الرائعة» التي تحولت في عام ١٩٥٥م إلى فيلم سينمائي، التقت خلال مسيرتها العديد من القادة الكبار من جميع أنحاء العالم، مثل أنديرا غاندي، وماوتسي تونغ، وزو إنلاغ، ونالت شهرة واسعة من خلال كتاباتها القيمة.

درست سوين الطب في الصين، وبلجيكا، وبريطانيا، وعملت بصفة «قابلة» وطبيبة أطفال، وقامت بإدارة عيادة في سنغافورة، ثم هجرت هان سوين الطب، وشرعت تكتب باللغة الصينية والإنكليزية والفرنسية، ومن ثمّ قررت الاستقرار في هونغ كونغ، وأصدرت روايتها الأولى «الحب مجموعة من الأشياء الرائعة»، التي حوّلها المخرج السينمائي إلى فيلم في عام ١٩٥٥، ليحقق نجاحاً منقطع النظير.

ومن بين أشهر الأعمال الأدبية التي أصدرتها الروائية هان سوين، سيرة ذاتية في خمسة أجزاء:

الجزء الأول «الشجرة المقطوعة» ١٩٦٥م- ويتناول العلاقة بينها وبين الصين، وحياة أسرتها من ١٨٨٥م وحتى ١٩٢٨م.

الجزء الثاني «الوردة القاتلة» ١٩٦٦م- ويغطي الأعوام ١٩٢٨ - ١٩٣٨م.

الجزء الثالث «صيف من دون طيور» ١٩٦٨م- ويغطي الأعوام ١٩٣٨- ١٩٤٨م.

الجزء الرابع «منزلي له بابان»، والجزء الخامس «حصاد فينيكس» ١٩٨٠م- حيث يغطيان الأعوام ١٩٤٩ - ١٩٧٩م، وكانت قد أنجزتهما بين الأعوام ١٩٦٤ - ١٩٧٩م.

وإضافة إلى ذلك، كتبت هان سوين السيرة الذاتية الخاصة بماو تسي تونغ، ورئيس وزرائه زو إنلاغ، ودراسة أخرى عن التيبت.

عاشت سوين مغامرة عاطفية مع مراسل بريطاني حربي في سنغافورة، إبّان موريسون، والذي توفي في كوريا عام ١٩٥٠م.

وكانت هذه التجربة قد ألهمت سوين لتكون محور روايتها «الحب مجموعة من الأشياء الرائعة»، التي اقتبستها السينما في عام ١٩٥٥م لتتحول على يد المخرج هنري كنغ إلى أروع فيلم رومانسي، قام ببطولته ويليام هولدن، وجينيفر جونز، وحقق نجاحاً ساحقاً. ويتحدث الفيلم عن قصة مراسل أمريكي يقع في حب طبيبة من أصل

أوروبي- آسيوي، وعن وقوفه بوجه أسرته وأسرة حبيبته وأحكامهما المسبقة.

وكان الفيلم قد ترشّح لثمان جوائز أوسكار، نال ثلاث جوائز منها: أفضل موسيقى أصلية لفيلم، وأفضل أغنية، وأفضل أزياء ملونة. (١٠)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

٢- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٣- موقع ميدل إيست أون لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

٤- موقع روسيا اليوم WWW.ARABIC.RT.COM

٥- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM

٦- موقع ألف ياء WWW.ALEFYAA.COM.

٧- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

٨- أنباء موسكو AR.RIAN.RU

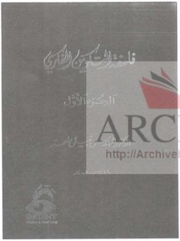
٩- موقع عرب أونلاين WW.ARABONLINE.CO

١٠- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

مع التكوين ومكوّنه

وماذا بعد الغوص في فلسفة التكوين الفكري بمكوناته العشرة؟!

د. اسماعيل مروة ✽



ماذا بعد التكوين؟

سؤال استودعناه سفر التكوين وكتبنا المقدسة، وأرحنا أنفسنا من متابعة مُتَعنا بالحكايات والأساطير منطقية وخارجة عن المنطق، وسعينا وراءها مفسرين ومحللين ومتحاورين ومتخاصمين، ولم نشأ أن نطرح أسئلة عن التكوين وماهيته وأسبابه! ومع أن التكوين في دواخلنا، وخارج ذواتنا ليس إلا لخدمة القيمة الأعلى، وهي الإنسان، الذي هو نحن، إن كنّا على قناعة بانتمائنا إلى الإنسانية.

إلّا أننا لم نبحث عن جذر التكوين فينا! ولم نسعَ لفك شيفرة التكوين وفلسفته! عَمِل الآخرُ لحل مشكلاته، طرح أسئلته الوجودية، بعمق متناهٍ، وصل إلى حلول كثيرة، وقراءات عميقة من هذا الفيلسوف أو ذاك، وكان النقيض مع نقيضه، فكان ماركس وإنجلز، وكان كانط وسارتر، وكان كامو وغيرهم كثير، طوّعوا الكينونة، أو

✽ كاتب وأديب وشاعر وأستاذ جامعي.

طوعوا أنفسهم لهـا، لكنهم طرحوا الأسئلة بعمق، وبحثوا عن إجابات، فكانت الإجابات متلائمـة مـع توجهاتهم، لكنهـم لم يؤشّروا بأنفسهـم إلى اليقين، واحتفظـوا بالأسئلة تركوها بين أيدينا وغادروا والأسئلة تلفهم، تاركين لمن بعدهم متابعة البحث في التكوين والكينونة..

هل يقتصر أمر التكوين وبحثه على رؤية من الأسطرة؟

هل يكـون التكوين مقصـوراً في الفهم على طبقة الكهنوت؟

هل تقتصر مهمتنا على تطبيق التعاليم التي وصلت إلينا؟

ما دورنا في القراءة والتفسير للظواهر؟

إن التدبر الذي فطر الله الإنسان عليه، هو دعـوة صريحة غير مبطنـة إلى القراءة الحقـة فيما يـدور حولنـا، وفي العلاقات التي تجمعنـا، وفي الهواجس التي تمور في دواخلنا، ولن نصل إلى الحقيقة يوماً، وهي أقـرب ما تكون منا، وإن زعمنا الوصول إلى الحقيقة، فإننا على تخوم الجهل نحيا..!

مـا حالنـا إن ركضنا خلـف القارئين والمفسريـن والمحللـين، وزعمنـا أننا فهمنا الله؟! ولكننا لا نفهم أنفسنا، ولا نعرف منها شيئاً، بل نحن أكثر الجاهلين بأنفسنا! وغير قادريـن على معرفة الجرم الأصغر والجرم الأكبر، ونعوذ بالغيب هرباً من تحديد مفهوم الألوهـة زمانـاً ومكاناً، نتحـدث الإنشاء، ونهرب إليه لأنه لا يمثـل رأياً يسجل علينا في مختلف الأوقات والدهور.

المكان وقيمته بالنسبة لنا:

نتحـدث عـن الأوطـان، ولا نبحث في فلسفة الوطن! ولم كان هذا الوطن وطناً من دون غـيره؟! هل هذا الوطن لي وحدي؟ هل كان لي من قبـل؟! هل سيكون لي من بعد؟! كيف تحولت المـدن إلى أوطـان؟! هل هي حالة إيجابية أم سلبيـة أن نتعلق بالأوطان أو نهجرها؟! ما الفـرق بين وطني وأوطان الآخرين؟!

أسئلة كثيرة لم نجب عنها

ربما أجاب عنها الشعراء والأدباء

ربما أطلت برأسها واختفت.

بقيت فكـرة المـكان الوطـن وفلسفته خاصـة بالنخبة، وترك لنـا نحن الجمهور مهمة التعلـق بالوطن أو التعلـق بالسراب، بينما يتدبر الآخـرون أمورهم للوصول إلى ما عجزنا عنه، أو عجزنا عن الاقتراب منه، فكان الوطن عندنا مكانـاً ومبيتاً وعشيرة!

فهل المكان كذلك؟! وما هي متطلبات المكان منا؟ هل للمكان من متطلبات؟ هل يكون المكان فاعلاً أو مفعولاً؟ هل يستوعبنا بكبره أم نرسمه بأحلامنا؟!

أسئلة غاية في الأهمية لم نطرحها، وإذا طرحناها توقفنا عن الإجابة، وإن أجاب أحدنا رجمناه أو كفرناه أو استسخفنا قراءته، لشيء! إلا لأن هذا التدبر يحتاج وقتاً وجهداً وأعماراً قد لا نمتلكها..!

الفكر في التكوين: عندما يعنون الباحث الدكتور نبيل طعمة عصارة فكره وتجربته بـ(فلسفة التكوين الفكري) فإنه يفعل ذلك عن وعي، هو الغائص في الإنسان وروحه وصوفيته، المأسور بالعلاقة الإنسانية عالية المستوى يجنح إلى أن تكون صفة التكوين فكرية، وذلك لأسباب عديدة منها أن الوشائج الفكرية التي تربط بين بني الإنسان، وإخوة الإنسانية أقوى من أن ينالها شيء مهما بلغ هذا الشيء.

فالفكر أساس وليس أي أمر آخر، وماذا لو اختار العقل عوضاً عنه؟ من المؤكد أن الفكر الإنساني أوسع وأرحب، وأبعد مايكون عن التمسك والتعصب، فالفكر حر ومتطور، ومنها أن الفكر قابل للجدل والتغير بين أمة وأخرى، بين جيل وآخر، بين شخص وآخر.

فما عسى الفكر إلا أن يكون جامعاً في بؤرة واحدة هي التكوين والبحث في فلسفتها؟ ومن تلك الأسباب، التي أراها وأنا قارئ وحسب أن اعتماد الفكر يبعدنا عن الكسل، ويسمح لنا بالمزيد من المماحكات الفكرية الإيجابية التي ترقى في النهاية بالإنسان لتجعله منجماً قادراً على العطاء والإفادة من الآخر لخلق مساحات اللقاء والابتعاد عن الخلاف والفراق.

والباحث هو القائل للآخر، التقينا لئلا نفترق، ففلسفة اللقاء عنده مختلفة. ويجب ألا يتبعها فراق مع الآخر، طالما أن الفكر هو الحاكم في فلسفة وجودنا، وكأني به يقول للآخر: تعال لما يجمعنا من فكر ولقاء، ونحِّ جانباً ما نختلف فيه، فهو من مكتسبات الحياة والبيئة وحسب، ويمكن أن نتطهر من هذا الخلاف -نعم أقصد التطهر- لأن الخلاف إن تلوث بالبيئة أصبح كارثياً، وحمل مواصفاتها الضيقة، وابتعد عن مفهوم التكوين الجمعي لمجمل البشر والخلق، وكذلك لم يسمُ إلى مرتبة الفلسفة، وبالتالي لم يصل إلى المدى الفكري الرحب. ولعلّ أهم أسباب اختيار هذه التسمية

ونجاحها، هو ذلك الربط بين ثلاثة مفاهيم غير مقيدة، فالفلسفة رؤية والرؤية انطلاق غير مقيد، وفضاء دراسة وتمحيص وقراءة، يزداد سعة كل يوم، لذا يضيف إليه الناس والباحثون، البسطاء والفلاسفة على السواء، ولكل فلسفته التي تجعلها مقبولة أو لعلّ الفرق بين البسيط والفيلسوف هو القدرة على التعبير ونمذجة الفلسفة لتكون نظرية ومدرسة.

وكذلك كان التكوين والبحث عن الكينونة، سواء أردنا من خلاله معرفة ذواتنا، أو التكوين الذي انطلقنا منه، أو التكوين الذي نحياه، أو التكوين الذي سنصل إليه ذات يوم قادم قريب أو بعيد، ترى لو أدركنا التكوين والكينونة ألن تكون حياتنا أكثر سعادة؟

حين يدرك الإنسان تكوينه وما جبل عليه، يمكن ببساطة أن يحدد خط سير خيّر، وهنا لا يتوقف الباحث عند المسلمات من تكوين الطين والماء واللحم والعودة إلى الطين والتراب مجدداً، ولا يقف عند إمكانية المغادرة أو البقاء للروح والجسد، فمثل هذه الرؤى أُغْنِيَت ووصلت إلى حد المسلّمات التي لاتناقش لكن الكينونة عنده والتكوين مسألة محضة لا تقف عند قول، وإن وقفت فإنها تعود إلى قراءته من زاوية فلسفية ومعرفية.

وثالث المفاهيم هو الحديث عن الإطار الفكري العميق لفلسفة ورؤية وتكوين تُهْنا في دراسته.

هذا التكوين الثالوثي أو الثلاثي هو ما عنى الباحث الدكتور المهندس نبيل طعمة، فهو حرّ طليق، خارج إطار التحديد العقلي والمعروف لدى الجميع، وهذا ما يفسّر انحياز الباحث إلى الفلسفة والفكر والثقافة والسياسة، ولو وقف أحدهم عند هذا الكتاب، عند العنوان فقط، ماطرح تساؤلاته عن أسباب عناية المهندس المعماري البارع بقضايا الأدب والفكر، فالبناء عمارة، والعمارة انطلاق، والمدينة فضاء، ومن أجدر من صاحب الخيال المجنّح في قراءة ماضٍ مفرق، وتصميم واقع شاهق، وتخيل مستقبل منطلق من أن يكون مهندس فكر ورؤية؟!

الخروج عن إطار المسلمات: لا أريد أن أكون في إطار العموميات، لذلك أختار من حديث الدكتور طعمة ما يؤكد خروجه عن المفهومات المسلم بها، إن كانت إنسانية مفروضة، أو كانت من المسلمات الإيمانية،

ولابدَّ عنده من العودة إلى الفكر والمناقشة.

وها هو في حديث ما كتب «النهار وليلى» يقول: (ومنتوجهم المادي المتحول إلى أدوات، نسأل: ببَدِء من وكيفية استخدامها؟ فالمطرقة أداة تنبيه وجمع وتفتيت، وكذلك جميع أنواع المفاتيح وأقفالها وأيضاً مختلف صنوف الأسلحة، ونتائج التصرف بها، وهناك بعض من البشر يرتضون التحول إلى عبيد وأدوات، وكلما ازدادت طبقة العبيد تكاثر الاستبداد خوفاً من انقلابهم..

إن الإنسان كائن بشري، وكلمة (بشر) مؤلفة من (الباء) بدء وشراهة شرّ وخطيئة لحظة أن قتل قابيل هابيل في الأسطورة من أجل زوجة أخيه. وما يملك.. وعليه تكون الخطيئة الأولى أداة من أجل استمرار إنسانية الإنسان..)!

نلاحظ الخطاب عن الغائب غير المحدد. قد يحتمل أكثر من احتمال، وإن كان المقصود هنا القوة التي تعمل على تبديل مفهومات ووظائف الأشياء والأدوات في حياة الإنسان، وهل هناك أقوى وأجمع من المطرقة التي تجمع أشياءنا أو تفتت أشياءنا أو تفرقنا نحن؟! بحث مطلق ورؤية في فلسفة العبودية ومحاولات تسويغ القوة واستبدادها، أو بصورة أدق، قراءة في آليات صناعة القوة ليخلص إلى عنف الإنسان وشرهه وطمعه للاستمرار الذي يظن أنه لن يكون إلا على حساب أخيه وما يملك من ناس ومال.. إنها استمرارية الإنسان..

والباحث هنا يترك النص مفتوحاً، ولا يستعين لبيان رأيه بعلامات الترقيم، وبالأصح لم يشأ أن يقول رأيه، بل قرأ وترك للقارئ معرفة رؤية العنف لآلية الاستمرار، وعلى الإنسان أن يختار ما يناسبه، وهو بهذا لا يمارس دوراً وعظياً أو إصلاحياً، ولا يظهر لنا السبل، بقدر ما يقدم قراءته العميقة للأشياء وكنهها، ومن ثم يخرج من النص ليترك لنا حرية اختيار المنهج الذي نريد من أجل البقاء.

أهو جمع المطرقة؟

أهو تفتيتها؟

أهو تنبيهها؟

والتنبيه أولى لأنه لحظة المفاجأة، وبعدها إمَّا أن يلجأ الإنسان القوي الشرير الذي قتل هابيل من أجل زوجته وما يملك إلى استخدام المطرقة للعنف والتفتيت، أو يلجأ هابيل الخارج لتوه من قبره الذي غطّاه

الغراب وأهال عليه التراب. ليقول لنا بملء الفم: المطرقة أداة جمع..

لا نتيجة تامة

النتيجة خيار، والخيار مسؤولية، والمسؤولية ترجمة للفكر والفلسفة والتكوين.

من هذا المنطلق، من دون غيره، هناك إمكانيات عدة للدخول في جوانيات الباحث الدكتور نبيل طعمة، وهو المفتوح على آفاق بعيدة المدى، بعد أن اختار الإنسان.

من هذا المنطلق أدخل إلى البحث المؤرق موضوعنا، لتتشكل الخطوط العامة للتكوين وفلسفته، والمفكر وفضاءاته، فهو هنا كما في سعيه الدائم يخرج من الأطر المعهودة والمسلّم بها ليدخل في بواطن الأمور وعمقها، مشكلاً الإطار الملائم لطروحات أرادها، ولم يدخل بسببها في أطر جاهزة من الطبري إلى اليوم، وقد يكون الباحث منطلقاً من إرادتين:

الأولى: البحث في تكوين الإنسان عموماً، وليس في تكوين الإنسان العربي، لذلك كان حراً في خياراته ومتعدد الزوايا والرؤى، فليس الطبري وابن خلدون وديورانت إلا أشخاص اجتهدوا في تقديم نظراتهم قبل أن تتحول عند الكسل إلى نظريات ومسلمات، وبهذا أصبح هؤلاء وغيرهم جزءاً من مفردات التكوين، وليس نقطة فاصلة محددة لا تقبل أي نقاش!

ولو اختارهم منهجاً وإطاراً ومنطلقاً لضيقّ على نفسه ولم يقدم جديداً، لأنه مهما بلغ، سيكون دائراً في فلكهم، ومنحازاً إلى أحدهم، أو إلى جميعهم، وفي كل الأحوال يصبح مجرد ناقل ومؤرخ، وهذا يخرج عن غايات الكتاب التي من أجلها بدأ مرحلة شاقة في عمره وتصنيفه.

الثانية: الحث على البحث، وللتدليل على ذلك وتقريبه أذكر أن عدداً من أساتذتنا الأجلاء لم يقتنعوا بكتاب مقرر في يوم، فكان واحدهم يأتي إلى القاعة برزمة من الكتب، قد يقف عند كتاب وقد لا يفعل، قد يستشهد بكتاب، وفي الغالب لا يفعل، وعندما سألت أحد الأساتذة مرة عن الغاية من هذه الكتب التي لا تفتح، أجابني بأن هذه المصادر هي التي شكلت أفكاره وآراءه، لذلك هي معه دوماً ولا يستغني عنها، وبأنه يأتي بها إلى القاعة ليعلمنا منهجية البحث والدراسة المعمقة في حياتنا العلمية، وسألته

يومهـا: أليسـت في الكتاب الـذي هو من تأليفك؟ قال:

كتابـي كُتب بهديها، ولكنـه لا يحتويها، وأنـا أريدكم أحراراً من الكتاب المقرر الذي فرضته التقاليد الجامعية.. وقال: بإمكانكم ألا تعـودوا إلى كتابي الجامعـي إن عرفتم آليـات البحث العلمي في المصادر والمراجع، أنا أصنع من بعضكم باحثاً، والباحث لا تحده دفتا كتاب! وساق لي هـذا الأستاذ الفاضل قصة عاشها فقال: كان عميد الأدب العربي طه حسين يدرسنـا في الجامعة، وغالباً ما يصطحـب معـه رزمة من الكتـب، بعضها مصادر ومراجـع، وبعضها من الإصدارات الحديثـة التي وصلته، وأنت تعلم أنه غير قـادر على القـراءة، لكنـه كان يصطحبها للسبب ذاته، حتى نكون أحراراً في الدراسة والبحث، وفي هذا دلالة على المنابع، وابتعاد عن الغرور والإحاطة والأنا..

وفي فلسفة التكوين الفكري جنح الدكتور الباحـث نبيل طعمة نحو الأمـر ذاته، فهو يقدم ابن خلدون وفلسفتـه، ويقدم المدائن وشروطها، ويفعل كل ذلك من دون أن يحدد مرجعاً أو مصدراً أو صفحة، وحين ناقشته في الأمر كانت إجابته شبيهة، فالغاية البحث والتنقيب في الكتب والدراسات، فما الفائدة في نظره إن أخذ عبارة لابن خلدون عن كتبه وأشـار إلى موضعها؟! وأخذ عبـارة أو رأياً عنـه من أحد الكتب وأشـار إليها؟! القارئ سيثق ويكتفي بالإشـارة، لكن شرط البحث والحريـة لن يتحقق لذا هو يريد للقارئ أن يغوص في ابن خلدون ليدرك ما قام به هو، مخالفاً أو موافقاً..

إضافـة إلى ذلـك أرى أن منهجـه الاستخلاصـي هـذا! يخرجه مـن الشرط الإنساني الذي وضـع للأبحاث الأكاديمية، ويجعله باحثاً عن الحرية في القراءة والفهم والاستيعاب!

الاستيعـاب: عـن سابق رؤيـة مدروسة ومحـددة يختار الباحـث الدكتـور منهجاً يقـوم على الاستيعاب، فالمنهج العلمي الحرّ الـذي اختـاره، وأراد لنفسـه التحليق فيه جعله قادراً على الدخول في مساحات كثيرة وحميمة، فنجده يقف عند قضايا مؤثرة في حياتنـا، ولكن لا يلتفت إليهـا الناس عادة، فأنـت أمام اللغة البصرية، وهذه اللغة، وإن كانت مـن مستويات حداثية عالمية، إلا أنها مؤثرة للغاية في بنية العقل والفكر في حياتنا المعاصرة، وهي في الوقت نفسه تؤسس لفهم

جديد وانطلاقة مختلفة، وبعيداً عن التنظير يتناول دور المثقف في الحياة الفكرية، وعن الإنسان وكونه جدلية فكرة.

ويتحدث في الغزو الثقافي والحب والكراهية والغدر وأخلاق المهنة، ويدخل في أغوار النفس ليتحدث عن المال والفكر والمزاج والصراع والقبلة والنشوة والانسجام، ويقف على التتابع مع رحلة الإنسان من مرحلة الجنين، إلى الطفولة والبلوغ والمراهقة والشباب والرجولة والأنوثة والكهولة والشيخوخة، وها هو يفصل بوضوح تام بين عالمي الرجل والمرأة، الرجل والأنثى يتتبع الفروق الناجمة عن الفروق الفيزيولوجية، والتي تؤسس بدورها لفروق على المستوى الحياتي، ويخص الإنسان وحالات قوته ومتعته بدراسة عدد من الظواهر مثل: الرثاء، الدعاء، المديح، الألقاب، النسيان، التذكر، التكبر، المضحك، المبكي، ويخص كذلك طائفة من الأخلاق الإيجابية والسلبية مثل: التواضع والوفاء والاستهتار والخيانة والخشية..

وفي إشكالية التكوين والحياة، وتشكيل لوحة حياة الإنسان يقف عند فكرة الخلود التي تشغل الإنسان، ليعالجها من منطق خلود الإنسان كمفهوم، وانتهاء الإنسان كشخص لينتقل إلى مسألة الوحي والدورة المباينة من الإنسان القديم إلى اليوم، ولايفوته في إطار حديثه عن الوحي والإنسان أن يقف عند علامات محددة تحكم حياة المرء منّا تحت إطار العقل والكون، فيشرح: الحيرة، الغيرة، الشك، الظن، الفناء، العري الفكري، الخوف، التملق، الأرق، النوم، الشهوة، الجوع، الشبع، الكرامة..

لسنا هنا في معرض تعداد مواد الكتاب، فلكل تكوين من تكويناته العشرة وقفة خاصة تقف عند هذه القضايا بالتفصيل، لكنني أردت في هذا الموقف أن أشير إلى استيعابه لقضايا كثيرة، قد تكون نافرة لو كانت سمة الكتاب التاريخانية وغيرها، لكن المؤلف الباحث المتأمل أطال تأمله في الصادر من الكتب، والتي تكاد تكون كتاباً واحداً يأخذه اللاحق عن السابق، ويضيف إليه أحداثاً جديدة، أو شروطاً عنت له بواقع سياسي أو اجتماعي معين! أطال الباحث التأمل، فاختار الاستيعاب لشذرات من الفكر والفلسفة والتكوين المجتمعي والإنساني، أشبعها بحثاً ودراسة وتفصيلاً، ليكون جمع

هذا الشتات كتاباً شاملاً بعيداً عن جدلية البدء، إن كان ثمة من بدء محدد ومعروف.

الوجدان: المفارقة المؤلمة تواجهنا عند قراءتنا لكثير من الكتب والمؤلفات والأفكار تكمن في تلك الهوة العميقة والبعيدة بين الكاتب وكتابته، وكلما ازدادت هذه الهوة حدث الشرخ بين الفكر وصاحبه، وانتقل إلى المتلقي الذي يمثل المرحلة العليا لصناعة النص.

والقارئ هو الشريحة المستهدفة التي لأجلها صيغت الأفكار.. ومتوالية الشرخ تنتقل عبر عدوى الكلمات من الكاتب إلى النص إلى القارئ. لنصل في الختام إلى مجتمع مشروخ يفكر بطريقة، ويكتب بمنحى مخالف، ونتائجه تتطابق تماماً مع الدافع الحقيقي للكتابة!.

وما يعيشه المجتمع العربي اليوم يقدم هذا الشرخ بوضوح، إذ يعاني هذا المجتمع من عدم جدوى التلقي، ومن عدم تصديقه لما يصدر عن هذا الكاتب أو ذاك، خاصة إن كان ما أخذه الكاتب هو مجرد تأثر بسابق صاغه ولفقه بما يلائم ميوله وأهواءه.

فعندما يبحث أحدهم في تكوين الإنسان ومجتمعه قد ينطلق من مسلّمات لديه تؤدي في الخاتمة إلى عزل الآخر، لتصب المحاسن إلى جانب المؤلف وتوجهه، وهذا قمة الخطر الذي لا نتنبه له حتى بعد فوات الأوان!

عندها وعندها فقط نكون أمام معضلة خلق سدّ أمام المتلقي، وأمام ترسيخ قناعات باطلة لأنها تمثل وجهة نظر واحدة استعد المؤلف للقيام بالإقناع بها، وتعميمها، وإكراه القارئ على تقبلها، وحسب تعدد الشرائح المستهدفة تكون الخندقة الفكرية مع أو ضد، ومع التراكم في التصنيف الأحادي أو الموسوعي تخلق لدينا طبقات من المنحازين إلى أمر دون آخر..! أجدني مدفوعاً إلى هذا الحديث عند قضية.

الوجدان لما رأيته من بون شاسع بين المؤلفين، ولميزة اختص بها الباحث الدكتور مؤلف الكتاب، الموسوعي هذا..

نبيل طعمة يكتب كما يفكر، كما يتنفس، كما يعيش، فهو ليس أسيراً لإرث حضاري وتأليفي وصل إلينا، ينهل من معايشته ووجدانه، وهذا ما يسوّغ خلو مؤلفه ومؤلفاته من المصادر والمراجع..

فالرجل قرأ وهضم واستوعب، وفي مرحلة متقدمة عمل على الغربلة الدقيقة للأشياء التي وصلت إليه من مصادر المعرفة

الورقية والإلكترونية، وباللغات المتعددة التي يتقنها. وبعد عملية أظنها مريرة عاد إلى ذاته ووجدانه، ليضع نفسه في المرتبة التي يستحقها، المرتبة الإنسانية التي تعقل ما تقرأ، وتعقل ما يجب أن يقرأ، وتعقل ما عليها فعله تجاه أخيه الإنسان المتلهف إلى معرفته، وليس إلى معرفة آخر قرأه وعرفه منذ زمن بعيد.

ليست عملية الكتابة لديه إعادة صياغة، مع ما في إعادة الصياغة من قيمة، وإنما إعادة تكوين، وإعادة خلق للمفهومات والقضايا، سواء كانت هذه القضايا كبرى وحارة، أو كانت عادية قد لا نلتفت إليها عادة.

وكم من أمر عادي للغاية يؤثر في حياتنا، ويغير من مسارها أكثر من القضايا الكبرى؟ لذا رأينا الدكتور طعمة يقف عند الحب والكره وما يحكم حياة الناس قبل ولوج القضايا الكبرى التي غالباً ما يستأثر بها طبقة من الناس تدّعي أنها الصفوة، وأنها القادرة على العمل والتفكير نيابة عن العامة التي تلتفي بالهواجس!

نبيل طعمة يتحدث بوجدانه، يفكر بهذا الوجدان، يصنع عالماً يشارك به الآخرين الذين يشاركهم الحياة والقهوة وما يتبع ذلك من حيثيات عادية جداً، تصبح عالماً متكاملاً بعيداً عن النخبوية، وهو يفعل ذلك بوعي تام تكتفي صفة النخبوية الفكرية.

اللغة والبساطة: معلوم أن الكتب الفكرية والفلسفية تعجّ غالباً بالتقعر والمصطلحات، فما من كتاب أو معجم فلسفي لا يحوي قائمة تحتاج إلى شروح لغوية واصطلاحية، لكن هذا الكتاب الموسوعي للأستاذ الدكتور نبيل طعمة، وعطفاً على حديثه الوجداني الذي أشرت إليه تخلّص من هذه الخصيصة التي تتسب إلى المعرفة والعلمية، فكان عارفاً بحق، وعالماً، ومتعلماً، فأغنى بحثه بدل أن يدفعه بعيداً في رفوف لا تطالها أيدي القرّاء والدارسين، فها هو يتناول مفهومات فلسفية عميقة مثل: القلق، التملّق، النرجسية، الوحي والخلود، وما إن تفتح صفحات الكتاب حتى تجد الباحث يحدثك حديث الجليس بلغة سهلة بعيدة عن التقعرين الاصطلاحي واللغوي، فيسرد المصطلح العويص ببساطة متناهية، بل وأزعم أن كثيراً من الفقرات التي تناولها لتشكل بمجملها التكوين وتبين أن فلسفته

كانت أقرب إلى روح القصص والحكاية والبساطة منها إلى التنظير والبيان.

ولكن ما إن تنتهي الفقرة التي تسلمك للأخرى حتى تخرج بذخيرة اصطلاحية وفلسفة عميقة، فيتسلل الكلي والنسبي والتكويني والإدراكي والسرمدي والبناء الداخلي والبناء العقلي العلمي إلى الحصيلة اللغوية والمعرفية والفلسفية عندك، ولاتحتاج إلى شرحها مجدداً، ولا إلى هامش إيضاحي لأنها سبكت في سياق دال عليها يظهرها من دون أن تكون قادراً على فتح معجم لغوي أو معجم مصطلحات!!

والحديث عن اللغة والبساطة هنا له ما يسوّغه، فنحن أمام موضوع شائك وشائق، ويحتاج منا إلى الكثير من الحرفية والمعرفة، وهما أمران يملكهما الباحث الذي أطال -كما أظن- الوقوف أمام موضوعاته، وبلغ مرحلة كبيرة من الخبرة في مواجهتها، وبذل جهداً كبيراً في الركون إلى منهج محدد يقدم من خلاله معارفه وقراءاته وفلسفته بعيداً عن السائد، ولو اختار السائد لاستراح، وربما كسب من المتحذلقين مكانة عالية، فالمجلدات العشرة حتى الآن كان يمكن أن تتضاعف على أقل قدر، فيما لو قام بالاقتباس والشرح، والتعريف بالعلماء والشخصيات والفلاسفة والمذاهب والمصطلحات، وما شابه ذلك مما تغصّ به الكتب الأخرى السائدة، ولو فعل لتضاعف الكتاب حجماً، ولوسم الباحث بالعلمية، وصرنا نجد الأساطين الذين يدّعون العلمية ويدعون إلى اتباعها أمام البحث.

لكن الباحث -وبجرأة يحسد عليها- ضرب كل ذلك عرض الحائط، وقام باختيار الوضوح والبساطة، واتبع رأياً تناقشنا فيه طويلاً، يتمثل في أنه يريد أن يقدم نفسه والإنسان المعاصر الذي مثله، ولايريد أن يقدم ابن خلدون أو الغزالي أو سواهما، فهما لعصور أخرى، قد نتقاطع معهم في قضايا، وهذا التقاطع لا يسوّغ أن نقوم بإعادة إنتاجهما لنرتد معهم إلى الوراء قروناً..

وحين يقع التقاطع يتم الاكتفاء بالإشارة غير النصية والاقتباس والإشارة، فهو لا يدّعي ما ليس له، ففي حديثه عن اللامادية يعرج على الخلود بالقول والفعل، آخذاً من الحضارات جميعها التي لنا والتي ليست لنا، لكنها للإنسان الذي أهداه كتابه وجعله منطلقاً وغاية.. كأن نقول من أقوال يسوع

السيد المسيح، أو محمد عليه السلام/ أو ابن عربي وابن خلدون، والرازي، والطوسي، وابن الهيثم، ونيتشه، وبودلير وأرخميدس..

ولنا أن نتخيل كم الشواهد التي يحتاجها البحث وهي حاضرة لدى الباحث، لكن الإشارة كانت كافية زماناً ومكاناً..

هو يلجأ إلى هذا الأسلوب الذي ارتضاه ولايعبأ بالآراء الأخرى، وكلنا يعلم أنه ما من مشقة اليوم في الاقتباس، ولا تحتاج منا العملية إلى طول إقامة في الكتب الصفراء..!

إنها ببساطة مغامرة مدروسة ومعروفة العواقب، وكانت مأمونة من جوانبها كافة، ومثلت للباحث منهجاً خاصاً به، سيتحول به وبسبب منه في المستقبل إلى مرجع لزماننا تؤخذ أقواله حجة لما عشناه ولكننا فضلنا أن نعيش خارجه عندما عكفنا على سرقة جهود الأسبقين ظناً منا أننا أرحنا واسترحنا!!

السعة والتمحيص: ليس ثمة دلالة في العنوان على ضيق في التناول، فالكاتب لا يخصّ حضارة من دون أخرى، ولايتناول ديناً ويهمل الاخر، ولايخص مذهباً أو طائفة وأعلامها، بل لا يقتصر في بحثه على لغة من اللغات، وإذا ما استعرضنا الكتاب بمجلداته العشرة أدركنا ما فيه من سعة في التناول والاختيار والاستقصاء أيضاً، فنحن أمام ابن منتم للحضارة العربية الإسلامية، ولكنه في الوقت ذاته يضع في حسبانه الحضارات الأخرى، والديانات الأخرى، وإن تكن من الديانات التي ينكرها الكثيرون، فكما نقف عند الإنجيل نقف عند القرآن والعهد القديم، وكذلك بوذا وزرادشت، ويقف عند الفلسفات الإسلامية، أو على الأصح -القراءات الإسلامية في الفلسفة- ويغبّ من الفلسفة اليونانية القديمة، ليغطي الحضارة التالية، ويأخذ من الحديث وحضارته في سلسلة متصلة ومتواصلة ما بين قديم وحديث، وهذا ما أشرت إليه وهو الاستيعاب من قبل، لكن الكاتب يعمد إلى الاختيار والتمحيص بما يخدم الإنسان المعاصر وحضارته وحياته، وهذا المنهج أبعده عن أن يكون حاطب ليل يجمع ما يتيسر له من الحضارات والكتب. فهو غير مضطر لفعل ذلك، بل يقوم على تخير ما وصلنا ويحتاج إلى تعزيز، أو ما وصلنا ويحتاج إلى نقد وقراءة جديدة متمعنة.

وإن لم يضع الكاتب عنواناً أصيلاً أو فرعياً ليشير إلى الإنسانية وأبعادها في موسوعته، إلا أن الاستعراض يؤكد هذه الغاية، فمن منا أو من الآخرين لا يقف عند الحب والكراهية؟ ومن لايتحدث عن الوقت وقيمته؟ ومن لا يعنيه السكن والسكينة؟ إن المفهومات التي يقف عندها الكاتب ذات أبعاد واسعة للغاية، وتصلح لأن تكون أبعاداً للإنسان في كل مكان، ومن هنا أدهشني في خطابه الذي لم يكن موجهاً إلى أمة بعينها أو عنها، وإنما كان إنسانياً في طروحاته وأبعاده..!

منارات ومفهومات: غالباً ما نجد كتب الفكر والفلسفة ما تجنح إلى العموميات والمصطلحات لتصنع عالماً فيه الكثير من التأمل والوردية أو المأساوية، وبعد إنجاز القراءة نصل إلى معلومات نحتاج إلى كثير من الجهد لتحويلها بما يناسب الحياة التي نحياها، قد نقاربها وقد نبتعد عنها مسافة ما قد تطول وقد تقصر، وكذلك فإن فهمنا للأشياء يسهم في تأويل المراد من القول بما يناسب تطلعاتنا وما نحمله من ميول..!

وإذا كنا نفعل ذلك مع الكتب المقدسة، فنحن مع كتب الفكر والتاريخ أقدر على القراءة الخاصة التي تناسبنا وتلائم واقعنا.. وأذكر تمثيليات اليونان التي عمدت إلى جعل الآلهة بطلاً لها، فكان المتابع يقرأ ويشاهد التشخيص، وينسب كل أمر للآلهة وما تريد وما تفعل.. حتى جاء العصر الحديث وتحوّل الإنسان العادي إلى بطل يعيش بيننا، نراه، نقرؤه، ونأخذ شخصنا من خلاله ونعتبر فيما نشاهد على العكس تماماً مما فعلت التمثيلة اليونانية العظيمة..

كذلك الأمر مع (فلسفة التكوين الفكري) حيث استطاع الدكتور طعمة أن يحوّل الفكرة العادية البسيطة إلى منارة، ومن ثم جعلها مفهوماً، وفي هذا نجاح أيّما نجاح، فنحن نعيش مفهوم اليومي والعادي، ولا نعيش فلسفة البرج التي تحتاج إلى شرح طويل وتأويل بعيد بعيد..

نقف أمام: البنى الفوقية، حوار السكارى، غزو ثقافي، غيوم السماء، العصمة، البقاء والأثر، الخبز، الخبر، الحبر، حكي نسوان، حكي رجال، العرس، الكرامة، الأبيض والأسود، الصبر، مظاهر الحب، القبلة، الانسجام، التوعية حاجة، ساقية جارية، العيد، المعاق، العالم وكرة القدم، الثقافة العربية، القانون والمال، المديح، الألقاب،

النسيان، الحب واللون الأحمر، علم الأرقام، روما والشرق، مكة المحمدية، الغرب، التفكير والتكفير..

لن أعدد هـذه المفهومات التـي رأيتها منارات راقية تناسب حياتنا وطرائق تفكيرنا، ولو نظرنا إلى هذه المفهومات، ودققنا النظر، فإنـه لا تخلو فاصلة من حياتنا من دون أن تناقش واحداً منها هنا أو هناك، وغالباً ما نستجلب الفلسفة والاستشهاد والشعر والنص المقدس للتدليل على ما نقـوم بمناقشته بإرادة المديـح أو التسفيـه..! لكن الباحث هنا قدم لنا هذه المفهومات بقراءته هو كما يقرؤها ويمر بها ويعالجها.

فمن منا لايستخدم المثل (ساقية جارية ولا نهـر مقطـوع)؟ ماذا يريـد الكاتب من استخدام هذا المثـل أو شطره؟ وماذا يريد عندما يعنون بقسم من آية أو حديث أو بيت شعـر، ولو أردنا البحث في مفهومي التكفير والتفكـير وما فيهما، فـإن البحث سيطول كثـيراً، لكن الباحث استغـل هنا القرب من الحروف ليناقش أخطر فكرتين يرتكز إليهما الحـب والعلم، أو الكـره والعنف والجهل.. وكذلك فعل مع الخير والخبز والحبر، التي تختلف في التنقيط وتتماثل في حروفها.

البراعـة تكمن إذاً في هـذا الجانب في تحويل المفردات العادية المتداولة بين الناس إلى أفـكار تحمل معناها الحقيقي وحجمها الـذي تستحقه، وهـل بنيـت الفلسفة إلا لخدمـة الإنسان وحياتـه في المناحي كافة؟ استجلبهـا الباحث من عليائهـا الفلسفي، ورفع المفهومات العادية لتحل في المكان الذي تستحقه.. وصار بإمـكان القارئ أن يتأمل فلسفة تكوينه وأبعاده بغض النظر عن آراء الفلاسفة ماديين كانوا أو مثاليين..!

آخر الكلام

رئيس التحرير

أين المثقف العربي؟!

أيـن المثقـف العربي؟ مما يحدث في شتى أرجاء الوطن العربي. سؤال سمعته من مئـات الناس.. هل هناك أزمة علاقـة بين المثقف وبين نفسه، بحيـث لم يعد جديراً بـأن يحمـل اسمه.. لقد كان من المفروض أن يكون طليعة واعية تدرك الواقع وتقوم بتحليلـه، وتعمـل من أجـل بناء الثقة والحـراك، وتقدم نظـرة مستقبليـة، وتبلور الأفكار والطروحات والآراء..

لقـد نـأى المثقـف بنفسه عـن كل ما يجـري حولـه، وأصبحت ثقافتنـا من دون مثقفـين، وكأن الأمـر لا يعنيـه.. لقد فقـد مصداقيتـه، وأصبح أقل بـراءة وصفاءً وصدقـاً، وأبعد عـن السياسة ومذاهبهـا، وقام بتحويل نظره عـن موقعه الحقيقي، وآمـن بفكـرة الانطواء على الذات، في وقت يجـب أن يكون له الموقف والرأي والقول الحاسم.

يبدو لي في وقتنا الراهن أنَّ المثقف يشعر أنَّه في معركة يحس أنَّها تتخطاه، بمعنى أنَّـه في اللحظـة ذاتها معنيٌّ بأن يرتفع إلى مستـوى الأزمة، وهذا ما يعطي للثقافة

الحقيقية حالة من التطور والترقب الدائمين، خاصة وأنه لا يمكن أن يكون هناك ثقافة إذا لم تكن مرتبطة بالإصلاح والتغيير، فكل ثقافة تحافظ على ما هو قائم هي ثقافة مضادة، وعليه فإن ظاهرة الإمتلاء الثقافي، أو ظاهرة الحضور الكلي هي ظاهرة تتخطى ما اعتدنا تسميتهم بالمثقفين، بما معناه أن هناك لغة جديدة لابد وأن تنشأ في كل لحظة، وإذا لم تكن هذه اللغة الجديدة فلا ثقافة.. ومعنى ذلك أن المثقف يجب أن يكون حضوره حضوراً كلياً في وعي الجماهير.. لذلك في هذه الأزمة الكبيرة التي نمرّ بها يطرح السؤال وبقوة وإلحاح: أين المثقف العربي؟!

في أزمتنا الحالية، الناس تطمح لأن يكون للمثقفين دور فعال ونخبوي وحيوي وتنويري، وتدرك أن المثقف الحقيقي والعالم الحقيقي هو ذاك الذي يستطيع أن يقف وأن يتحدى وأن يكون له رأي في مثل هذه الظروف، وإلا سقطت عنه هذه الصفة، فهو يعرف ولكنه لا يستخدم معرفته، وهو يعي ولكنه لا يستخدم وعيه، وهو عالم ولكنه يخضع للجهل، وبالتالي فهو يُسقط دوره..

قد يقول قائل: عبر التاريخ، دور المثقف كان هامشياً، ولقد قَبل بهذا الدور، وفعلاً حاول بعض المثقفين في كثير من الحالات أن يكون لهم دور، ولكن هذه المحاولات كانت دائماً فردية ومعزولة، وفي تاريخنا العربي حوادث مشهورة ومعروفة، قَبِلَ المثقف فيها بالخضوع، وأصبح قليل الثقة بنفسه.. قليل الثقة برأيه وبمعرفته.. قليل الاستعداد للتحدي والعمل، فقبل بدور هامشي..

قد ينطبق هذا القول على كثير من المثقفين، ولكن هذا لا يعني أنّه لم يكن هناك مثقفون تحملوا وزر الدفاع عن حريّة الرأي، وناضلوا من أجل بناء الإنسان وتقدمّه وتحرره، وتحمّلوا المسؤولية ورفعوا الراية ضد الاستعمار والاحتلال، وحققوا ما أرادوه، طبعاً هذه المهمات النبيلة لم يحققها (المثقفون) وحدهم بل فعلوا ذلك ضمن الطبقات التي ينتمون إليها..

في وقتنا الراهن، نحتاج إلى زمن حتى نرى المثقف العربي بالصورة التي ننشدها، لأنّنا مازلنا نبحث عن دور له، ولا نستطيع أن نحدد دوره بعيداً عن المجتمع، وليس المهم من هو هذا المثقف، بل المهم (بماذا يلتزم المثقف؟) و(عن ماذا يدافع؟) و(ماهو دوره؟) والمثقف الحقيقي ليس بحاجة إلى تحديد، لأنه يعلن نفسه عبر ممارسته العلميّة والعمليّة..